

أحمد بن حنبل

والمحنة

تأليف
ولتر.م باتون

ترجمة :
عبد العزيز عبد الحق

مراجعة :
محمود محمود

دار الهلال


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

ولتر ملفيل باتون

أحمد بن حنبل

والمحنة

ترجمه وعلق عليه
وحقق نصوصه وأعلامه
عبد العزيز عبد الحق

راجع الترجمة
محمود محمود

دار الهلال

هذا ترجمة كتاب

AHMED IBN HANBAL & THE MIHNA

A biography of the Imâm Including
An Account of the Mohammedan
Inquisition of the Mihna
218 — 234 A.H.

By
Walter Melville Patton

E. J. Brill
Leide — 1897

مقدمة

ان كتاب « أحمد بن حنبل والمحنة » بقلم المستشرق الأمريكى ولتر ملفيل پاتون من المؤلفات القديمة للمستشرقين الفرنجة التى تنتمى للقرن الماضى ، مضى على ظهوره أكثر من ستين عاماً ، وهو عبارة عن أطروحة افتتاحية تقدم بها صاحبها لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) من كلية الفلسفة بجامعة هيدلبرج بألمانيا ، ونشرتها مطبعة ا . ج . بريل ، بليدن سنة ١٨٩٧ م ، وكان قد جذبنى لكتاب پاتون وحدته الموضوعية التى تتناول بالدراسة التفصيلية حقبة قصيرة شائقة من التاريخ الاسلامى تجمع بين تطور المذاهب الاعتقادية والوقائع التاريخية . فأقدمت على ترجمته الى اللغة العربية منذ زمن ، بغية تقديمه للطبع ، حتى يتيسر للمشتغلين بالدراسات الاسلامية أن ينتفعوا به . بيد أنى لم أوفق فى طبعه ، وظل حبيساً فى أوراقى مدة طويلة ، وأخيراً قُدّر له أن يرى النور ، بعد أن وافق قسم الترجمة بالادارة العامة للثقافة على أن يكون من بين المؤلفات التى يعنى بترجمتها ونشرها لتشجيع الحركة الفكرية والثقافية فى الشرق العربى

ولم يكن علمى بكتاب پاتون منذ زمن طويل يتجاوز عنوانه ، والسنة التى ظهر فيها ، والبلدة التى طُبع بها ، وكنت أستقى هذه البيانات من أثبات المراجع التى يذيل بها المستشرقون الفرنجة دراساتهم الخاصة بتاريخ علم الكلام والفرق الاسلامية . كما كان يشير اليه بعض المحدثين من أبناء العروبة فى مؤلفاتهم التى تتناول هذه الموضوعات ، مما كان يوحى الىّ بأن الكتاب لايزال محتفظاً بقيمته العلمية . وحدث أثناء قيامى بترجمة كتاب العقيدة والشريعة فى الاسلام للمستشرق المجرى جولدتسيهر أنى وجدت هذا المستشرق يُطرى كتاب « أحمد بن حنبل والمحنة »

ويثنى كثيراً على مؤلفه ، فشوقنى هذا الثناء والتقدير للاطلاع عليه

ونظراً لأن طبعة هذا الكتاب كانت قد نفدت منذ زمن طويل ، فقد أخذت فى البحث عنه فى دور الكتب العامة . بيد أنى لم أجد فى دار الكتب المصرية بالقاهرة سوى مقدمته . وأخيراً عثرت على نسخة كاملة له فى مكتبة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، تفضلت باعارتى اياها ، وبعد قراءتها واستيعاب فصولها ، وجدت من الاعتبارات ما حملنى على القيام بترجمتها الى اللغة العربية ، على الرغم من أنه كان قد مضىعليها ، عندما اعتزمت ترجمتها ، ما يقرب من نصف قرن ، جَدَّت فى خلاله أبحاث كثيرة تمس الحنبلية من قريب أو بعيد . كما نشرت مخطوطات عديدة تزيد تاريخ الامام أحمد ومذهبه وضوحاً وجلاء

لم أعد احياء كتاب پاتون فى ثوب عربى جهداً ضائعاً ، اذ لايزال حائزاً لكثير من المزايا ، ومحتفظاً بقدر كبير من قيمته العلمية ، فاسمه لم يُغْفَل بعد ، كما ذكرت ، فى أثبات مراجع المستشرقين أو الباحثين من أبناء البلاد العربية والاسلامية . فقد ذكره المستشرق البلجيكى الأب لامنس فى مراجع كتابه : « الاسلام عقائده ونظمه » (طبع بالفرنسية فى بيروت سنة ١٩٢٦ م وأعيد طبعه مزيداً ومنقحاً فى سنة ١٩٤١ م) ، وذكره المستشرق الهولندى فنسنك فى كتابه : « العقيدة الاسلامية » (لندن سنة ١٩٣٢ م) ، واعتمد عليه المستشرق الاسكتلندى مونتجومرى وات فى كتابه : « حرية الارادة والجبر فى الاسلام القديم » (لندن سنة ١٩٤٨ م) ، وأشار اليه المرحوم أحمد أمين فى الجزء الثالث من كتابه ضحى الاسلام (الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م فى ص ١٧١ ، ١٨٠) . وأخيراً كان من المراجع التى رجع اليها شاب عربى هو زهدى حسن جار الله فى رسالة له عن المعتزلة تقدم بها لنيل درجة علمية من الجامعة الأمريكية ببيروت ونشرت بالقاهرة سنة ١٩٤٧ م

وقد اطلعت على مقال للمستشرق جولدتسيهر نشره فى المجلد الثانى

والخمسين من مجلة المستشرقين الألمانية (ص ١٥٥ : ١٦٠) سنة ١٨٩٨ م وكان خاصاً بنقد كتاب پاتون . وقد قال فيه بأن هذا الكتاب ذو وحدة موضوعية مستفيضة حوت مراجعه من المخطوطات ما لم يتيسر لأحد من الباحثين أن ينتفع بها حتى ذلك الوقت . وقال فى موضع آخر بأن المؤلف أفلح بجهده ونفاذ بحثه العلمى فى أن يخرج لنا صورة رائعة مليئة بالحركة زاخرة بالقوة لحياة أحمد بن حنبل ومواقفه الكلامية تفوق فى روعتها ما كان فى متناول يدنا حتى الآن . ولكنه أخذ عليه بأن ما أورده من النصوص العربية التى انتخلها ليدل على أن هذا المؤرخ المدقق لم ير حرجاً فى أن يضمن كتابه قصصاً دينياً . ثم ذكر جولدتسيهر عدة ملاحظات وأخطاء تداركنا ما يتصل منها بالترجمة العربية

***

وقد اعتمد پاتون فى اعداد بحثه هذا على عدة مصادر عربية كانت لا تزال مخطوطة الى وقت ظهور رسالته . وأهمها حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكى ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وطبقات الحفاظ للذهبى ، وترجمة أحمد فى كتاب المقفى للمقريزى . كما رجع أيضاً لكتب أخرى مثل تهذيب الأسماء واللغات للنووى، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى . وقد بذل جهداً مشكوراً فى الانتفاع بهذه المصادر واعطائنا صورة دقيقة ، الى حد ما ، لسيرة الامام أحمد ، تتخللها الأدوار التى مرت بها سياسة المحنة التى سار عليها الخلفاء العباسيون الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق ، الى أن رفعها المتوكل بعد عامين من صدر خلافته

أقول جهداً مشكوراً ، لأن المؤلف غريب عن الثقافة العربية ، وذلك على الرغم من علمه باللغة العربية ، ومقدرته على فهم المصادر المخطوطة التى رجع اليها وتعمقه فى موضوعه ، فضلا عن أنه لم يكن لينقعه الاعجاب بسيرة الامام أحمد وثباته على مبدئه . ولكنى لا أعده من طبقة

شيوخ المستشرقين من أمثال نولدكه ودى خوى وجولدتسيهر وكايتانى وهيرجرونيه وهوتسما وغيرهم ، ولا أظن أن جامعات الغرب فى النصف الثانى من القرن العشرين تنجب أنداداً لهم . ومع ذلك فاننا اذا قسنا مجهود الأستاذ پاتون فى هذا البحث بمجهود مماثل يقوم به أحد الباحثين العرب الحائزين على درجة علمية فى الثقافة العربية فى دراسة موضوع غريب عن الثقافة العربية ، أصوله ومصادره مكتوبة بلغات أعجمية يقتضى حذقها جهداً ومشقة كالدراسات المسيحية والبوذية والكونفوشية ، لحكمنا بأن الأستاذ پاتون جدير بأن يهنأ على ما أصاب فى بحثه من نجاح وتوفيق

***

وقد حاولت أن أظفر بترجمة الأستاذ پاتون ، فلم يتيسر لى أن أعلم عنه الا أنه نال بعد درجة العالميـة (الدكتوراه) فى الفلسفة التى أحرزها ببحثه هذا ، فى سيرة الامام أحمد وتاريخ المحنة ، درجة العالمية فى الالهيات ودرجة أستاذ فى الآداب ، ثم انه اشتغل أستاذاً لآداب العهد القديم والعهد الجديد وتاريخ الأديان . واشتغل مديراً لمكتبة كلية كارلتون بمدينة نورثفيلد بولاية منيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية . وقد كتب عدة مواد فى دائرة معارف الدين والأخلاق التى أشرف عليها هيستنجز ، وصدرت فى ادنبره فى ١٣ مجلداً من سنة ١٩٠٨ م الى سنة ١٩٢٦ م . والمواد التى كتبها هى : مادة پير (أى عالم) فى المجلد العاشر من هذه الموسوعة المطبوع سنة ١٩١٨ م . كما كتب مادتى : الأولياء والشهداء فى الاسلام ، والشيعة فى المجلد الحادى عشر ، سنة ١٩٢٠ م ، ومادة السنة ، والانتحار فى الاسلام فى المجلد الثانى عشر سنة ١٩٢١ م . وقد اطلعت على هـذه المواد ، فلم ألاحظ أن المؤلف قد اتسعت خبرته بالدراسات الاسلامية بعد انقضاء مدة تزيد على العشرين عاما من ظهور رسالته عن الامام أحمد والمحنة . كما عنيت بمادة السنة التى كتبها فى المجلد الأخير فى الموسوعة السابقة الذكر ، فوجدت أنه لم يأت بجديد فى موضوع المحنة أو سيرة الامام أحمد

ولنبدأ بذكر ما نراه من المآخذ على رسالة الدكتور پاتون ، فنلاحظ أولا أنه لم يستفد فائدة كاملة من المصـــادر العربية التى رجع اليها . ففى طبقات الحفاظ فى أعلام الطبقة الثامنة ، وأعلام الطبقة السابقة لها ، والتالية لها ، ممن ترجم لهم الذهبى، أخبار وفيرة عن المحنة ،كان يستطيع المؤلف أن ينتفع بها فى بحثه . كما أنه اقتصر فى رجوعه الى كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى على ترجمة الخطيب لأحمد بن حنبل ، مع أن هذا الكتاب يزخر بتراجم معاصرى أحمـــد من خلفاء وقضاة وعمال وفقهـــاء ومتصـــوفة ومتكلمين ، واستخلاص ما يتعلق بالمحنة فى تراجم معاصرى أحمد ، كان مما يوسع دائرة بحثه ويزوده بتفصيلات كثيرة تجعله أقدر على دراسة موضوعه

***

ويصدق هذا القول أيضاً على كتاب طبقات الشافعية الـــكبرى للتاج السبكى ، وعلى كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى . ففى الكتاب الأخير ذكر المؤلف من الوقائع ما يبين أن رفع المحنة لم يتم دفعة واحدة فى سنة ٢٣٤ هـ ، بل أن بعض المحبوسين لم يطلق سراحهم الا بعد هذا التاريخ بثلاث سنوات ، كما أن جثة أحمد بن نصر الخزاعى المصلوبة منذ أيام الواثق ، لم تدفع لذويه لدفنها الا فى سنة ٢٣٧ هـ ، ولم يحقق پاتون هذه الوقائع فى بحثه

واذا انتقلنا بعد ذلك الى المصادر العربية الأخرى التى لم يعتن پاتون بالرجوع اليها ودراستها ، نجد فى مقدمتها ذلك المؤلَّف الضخم للامام أحمد وهو مسنده الذى توافر على اعداده طيلة حياته وعاونه فى ذلك ولده عبد الله . وقد اكتفى پاتون فى دراسته للمسند بالبحث القيم الذى قام به جولدتسيهر عن المســـند ونشره فى المجلد الخمسين من مجلة المستشرقين الألمانية ســـنة ١٨٩٦ م (ص ٤٦٥ الى ص ٥٠٦) فكان فى اشـــاراته للمسند يشير لبحث جولدتسيهر ولا يشير الى المسند نفسه ، مما يدل على أنه لم يكلف نفسه عناء الرجوع اليه

ولعله قد بهره هذا البحث فظن أنه ليس فى مقدوره أن يزيد عليه ، مع أن جولدتسيهر على كثرة اشتغاله بالحديث الاسلامى لم يوضح لنا توضيحاً كافياً فى مقاله هذا ، لماذا لم ينعقد الاجماع على توثيق المسند أسوة بالكتب الستة التى اعتمدها المسلمون من أهل السنة ، وهى صحيح البخارى ومسلم والترمذى وسنن أبى داود وابن ماجة والنسائى. وقد لاحظت أن المحدثين ممن يكتبون عن أحمد بن حنبل لايكلفون أنفسهم عناء دراسة مسنده ، ففى أسانيد الأحاديث التى اعتمدها أحمد مايبين منهجه فى الحديث، ويحدد منزلته بين المشتغلين بالحديث، اذا ماقورن مسنده بكتب الحديث الأخرى

***

وقد نوه پاتون بقيمة كتب الطبقات كمصدر من المصادر التاريخية ، نظرا لما تشتمل عليه من مادة تاريخية زاخرة ، قد لا نجد نظيرا لها فى الكتب الخاصة بالتاريخ الاسلامى العام . وقد اعتمد فى بحثه فعلا على هذه المؤلفات مثل تاريخ بغداد وطبقات الشافعية ، دون أن يحدد لنا مدى توثيقه لها . ويلاحظ أن كتب الطبقات تذكر أحياناً من الوقائع التاريخية ما لا نجد له أثراً فى كتب التاريخ العام ، كما أن مؤلفيها كثيراً ما يتحمسون للأعلام الذين يترجمون لهم فلا يتحرون الدقة فيما يكتبونه ، كما أن پاتون كان أولى به أن يرجع أولا الى الكتب المؤلفة فى طبقات الحنابلة ، كتلك التى كتبها أبو يَعْلَى الفراء وابن مفلح وابن رجب والعليمى

ولم يحقق پاتون الرسائل الصغيرة المنسوبة للامام أحمد والتى ذكر ابن النديم عدداً منها فى كتاب الفهرست . وقد نشر بعضها بعد ظهور كتاب پاتون ، وهى كتاب الصلاة ، وكتاب الرد على الجهمية والزنادقة ، وكتاب السنة ، وكتاب الورع (نشر بالقاهرة سنة ١٣٤٠ هـ) ، ولعلها لم تصل الى علمه أو لم تكن هناك مخطوطات من هذه الرسائل فى مكتبات أوربا عندما كان يقوم باعداد بحثه . وينقص هذه الرسائل

تحقيق نسبتها للامام أحمد بمراجعة أصولها الخطية ، وما عليها من سماعات والنظر فى مدى اتفاق أسلوبها مع أســاليب القرن الثالث الهجرى مما يقضى به النقــد الداخلى للمتن . فقــد ظهر من الكتب المنحولة التى نسبت لأعلام هذا القرن ، كتاب الحيدة لعبد العزيز بن يحيى الكنانى المتوفى سنة ٢٤٠ هـ (وقد طبع فى مكة سنة ١٣٣٩ هـ) وكذلك كتاب الدين والدولة لعلى بن ربن الطبرى الذى قيل بأن الخليفة المتوكل اشترك مع المؤلف فى تأليفه (وقد نشره المستشرق الانجليزى منغانة بمطبعــة المقتطف فى القاهرة سنة ١٩٢٣ م)

***

بيد أن هذه المراجع كلها تمثل وجهة النظر السنية ، ولم يفكر پاتون فى البحث عن مصــدر يمثل وجهة نظر المعتزلة . ولم يكن قد عثر بعد على كتاب الانتصار للخياط المعتزلى، الذى نشره نيبرج فى القاهرة سنة ١٩٢٥م. كما أن كتاب المنية والأمل لابن المرتضى المتوفى سنة ٨٤٠ هـ والمشتمل على تراجم أعلام الاعتزال ، نشر جانب منه فى حيدر أباد سنة ١٩٠٢ م . وكتاب العلم الشامخ للمقبلى المتوفى ســنة ١١٠٨ هـ نشر بالقاهرة ســنة ١٩١٢ م . وهناك آراء كثيرة للمعتزلة رد عليها الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره المسمى مفاتيح الغيب الذى طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٩ هـ . ولعل أهم مصدر اعتزالى يتعلق بالمحنة رسالة صغيرة للجاحظ يُظَن أنها بقية من كتاب له يسمى : فضيلة المعتزلة. وهذه الرسالة جزء من الفصول المختارة التى جمعها عبيــد الله بن حسان ونشرت على هامش طبعة قديمة لكتاب الكامل للمبرد ظهرت فى القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ . وهى تمثل وجهة نظر المعتزلة فى موضوع المحنة تمثيلا صــادقا . فهى تنسب للامام أحمــد ابن حنبل انقطاعه عندما ناقشه أحمد بن أبى دواد قاضى القضاة . وتدافع عن الخليــفة المعتصم فى امتحانه له ، وتؤيد مذهب المعتزلة فى القرآن . وهذه القطعة تعتبر وثيقة معاصرة نجت مما أتلفه أهل السنة من مؤلفات المعتزلة . ولم ينزلها الباحثون بعد منزلتها من الاعتبار مع أنها أوثق من

الرواية التى ذكرها اليعقوبى المتوفى سنة ٢٧٨ فى تاريخه عن المحنة والتى زعم فيها بأن الامام أحمد أجاب بأن القرآن مخلوق ، لأنها متأخرة نسبياً عن رسالة الجاحظ الذى كان معاصراً لحوادث المحنة

وقد جاء فى رسالة الجاحظ :

وبعد فنحن لم نكفّر الا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن الا أهل التهمة . وليس كشف المتهم من التجسس ولا امتحان الظنين من هتك الأستار . ولو كان كل كشف هتكاً وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضى أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفاً لعورة . والذين خالفوا فى العرش ، انما أرادوا نفى التشبيه ، فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان ، انما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً . فان كانوا قد أصابوا ، فلا سبيل عليهم ، وان كانوا قد أخطأوا ، فان خطأهم لايتجاوز بهم الى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق

وقد قال صاحبكم (أى الامام أحمد بن حنبل) للخليفة المعتصم ، يوم جمع الفقهاء والمتكلمين ، والقضاة والمخلصين اعذاراً وانذاراً : امتحنتنى ، وأنت تعرف ما فى المحنة ، وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتنى من بين جميع هذه الأمة . قال المعتصم : أخطأت بل كذبت ، وجدت الخليفة قبلى قد حبسك وقيدك . ولو لم يكن حبسك على تهمة ، لأمضى الحكم فيك ، ولو لم يَخَفْكَ على الاسلام ، ما عرض لك . فسؤالى اياك عن نفسك ، ليس من المحنة ، ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، اذ كانت حالك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل ، وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس : ألا تبعث الى أصحابه حتى يشهدوا اقراره ، ويعاينوا انقطاعه ، فينقض ذلك استبصارهم ، فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم؟ فأبى أن يقبل ذلك ، وأنكره عليهم ، وقال : لا أريد أن أوتى بقوم ، ان اتهمتهم ميّزت فيهم بسيرتى فيهم ، وان بان لى أمرهم ، أنفذت حكم الله فيهم ، وهم ، ما لم أوت بهم ، كسائر

الرعية ، وكغيرهم من عوام الأمة ، وما شيء أحب الىّ من الستر ، ولا شيء أولى بى من الأناة والرفق

***

وما زال به رفيقا وعليه رقيقا ، ويقول : لأن أستحييك بحق ، أحب الى من أن أقتلك بحق . حتى رآه يعاند الحجة ويكذب صراحة عند الجواب ، وكان آخر ما عاند فيه ، وأنكر الحق وهو يراه ، أن أحمد ابن أبى دواد ، قال له : أليس لاشيء الا قديم أو حديث ؟.قال : نعم ، قال : أو ليس القرآن شيئاً ؟. قال : نعم . قال : أو ليس لا قديم الا الله ؟ قال : نعم . قال : فالقرآن اذاً حديث ؟ قال : ليس أنا متكلم . وكذلك كان يصنع فى جميع مسائله ، حتى كان يجيبه فى كل ما سأل عنه ، حتى اذا بلغ المُنْخَنَق ، والموضع الذى ان قال فيه كلمة واحدة ، برىء منه أصحابه ، قال : ليس أنا متكلم . فلا هو قال فى أول الأمر : لا علم لى بالكلام ، ولا هو حين تكلم ، فبلغ موضع ظهور الحجة ، خضع للحق ، فمقته الخليفة ، وقال عند ذلك : أف لهذا الجاهل مرة ، والمعاند مرة

وأما الموضع الذى فيه واجه الخليفة بالكذب ، والجماعة بالقحة ، وقلة الاكتراث ، وشدة التصميم ، فهو حين قال له أحمد بن أبى دواد : أتزعم أن الله تعالى رب القرآن ؟. قال : لو سمعت أحداً يقول ذلك ، لتلت . قال : أفما سمعت ذلك قط من خالف ولا سائل ، ولا من قاص ، ولا فى شعر ، ولا فى حديث ؟... قال : فعرف الخليفة كذبه عند المسألة ، كما عرف عناده عند الحجة . وأحمد بن أبى دواد ، حفظك الله تعالى ، أعلم بهذا الكلام وبغيره من أجناس العلم ، من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة ، ويعتمد عليها فى مثل تلك الجماعة . ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته على الكذب ، كما كشف لهم جرأته فى المعاندة ، فعند ذلك ضربه الخليفة

« وأية حجة لكم فى امتحاننا اياكم ، وفى اكفارنا لكم ؟. وزعم (أى الامام أحمد بن حنبل) يومئذ أن حكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لايجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لايجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً . فقال (أى أحمد بن أبى دواد) له : أليس قد كان الله يقـدر أن يتَبَدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتى بغيره ، وكل ذلك فى الكتاب مسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا فى العلم ، وهـل كان جائزاً أن يتَبَدل الله علمه ويذهب به ويأتى بغيره ؟. قال : لا

وقال (أى أحمـد بن أبى دواد) له : روينـا فى تثبيت ما نقول الآثار ، وتلونا عليك الآية من الكتاب ، وأريناك الشـاهد من العقول التى بها لزم النـاس الفرائض ، وبها يفصـلون بين الحق والبـاطل ، فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث . فلم يكن ذلك عنده ، ولا استخزى من الكذب فى هذا المجلس ، لأن عدة من حضره ، أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه

« وقد كان صاحبكم هذا (أى الامام أحمد) يقول : لا تقية الا فى دار الشرك ، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن ، كان منه على وجه التقية ، فقد أعملها فى دار الاسلام . وقد أكذب نفسه ، وان كان ما أقر به على الصحة والحقيقة ، فلستم منه ، وليس منكم . على أنه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضُرب ضرباً كثيراً ، ولا ضُرب الا بثلاثين سوطاً ، مقطوعة الثمار ، مشعبة الأطراف ، حتى أفصح بالاقرار مراراً ، ولا كان فى مجلس ضيق ، ولا كانت حاله حال مؤيسة ، ولا كان مثقلا بالحديد ، ولا خُلع قلبه بشدة الوعيد . ولقد كان ينازع بألين الكلام ، ويجيب بأغلظ الجواب ، ويرزنون ويخف ، ويحلمون ويطيش » (هامش الكامل ج ٢ من ص ١٣١ الى ص ١٣٩)

هـذه الرواية الاعتزالية عن المحنة ، هى رواية معاصرة توضح وجهة نظر المعتزلة فى مسألة المحنة ، كتبها الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، الذى

كان رأساً من رءوس الاعتزال ، بل تفرد فيه بمذهب خاص ، أطلق عليه اسم الجاحظية ، وقد دافع فيها عن المعتصم ، وأبان فيها ما كان يتميز به أحمد بن أبى دواد من قوة العارضة ورسوخ القدم فيما يتصل بمسائل الفقه والكلام ، وذلك من وجهة النظر الاعتزالية التى كانت المذهب الرسمى للدولة آنذاك . غير أن رواية الجاحظ تشتمل على أمرين متناقضين ، فهو فى أكثر من موضع يؤكد استمساك الامام أحمد برأيه فى أن القرآن غير مخلوق ، وهو استمساك وصفه بالعناد وقلة الاكتراث وشدة التصميم ، ولكنه ناقض نفسه لما عرض لموضوع التقية ، فنسب للامام أحمد ، اقراره بخلق القرآن . ولم أجد لذلك تفسيراً ..

***

ولعل الجاحظ أخذ انقطاع أحمد فيما دار من نقاش وجدال ، على أنه اقرار منه بأن القرآن مخلوق . أو لعله قصد بزعمه هـذا ، أن يؤيد الحكومة فى سياستها ازاء المحنة ، ويستر ما أصابها من خذلان ، فى أخذ الناس قسراً على الايمان بعقائد الاعتزال . كما أن دعوى الجاحظ التى ذهب فيها الى أن أحمد أفصح بالاقرار مراراً ، منقوضة من أساسها ، اذ لو صح ما زعمه الجاحظ ، لكان الخليفة قد كف عن الامام أحمد ، منـذ المرة الأولى التى أقر فيها بما أريد به أن يقول . فقد كان أقصى ماتبتغيه الدولة ممن تمتحنهم أن يقروا بعقيـدتها ، فاذا ما أقروا بها ، أوقفت ما كانت تعده لمخالفيها من صنوف الأذى والاضطهاد

وان دعوى اقرار أحمد قد رددها فيما بعد المؤرخ الشيعى ، اليعقوبى ، وذلك فى الجزء الثـالث من تاريخه (ص ١٩٨ من طبعـة النجف سنة ١٣٥٨ هـ) . ولكن المصادر العربية الأخرى ، نراها كلها مجمعة على أن أحمد ، لم يجب فى المحنة . ويتفق هذا الاجماع مع ما استفاض من أخبار ورعه وتقواه ، وزهده وتقلله ، واستمساكه بالسنن والآثار ، يدل على ذلك مسنده الكبير ، الذى تجشم الأسفار فى جمعه ، وصرف حيـاته فى تدوينه وضبطه ، والذى قصد منه أن يكون للناس اماماً ، يهديهم سواء

السبيل ، اذا ما استغلق عليهم أمر من أمور دينهم ، ويبصرهم بأحكام السنة النبوية ويذلل لهم نهج الاقتداء بآدابها وتعاليمها

***

وبعد فان پاتون مع اعتماده على الرواية السنية للمحنة ، لم يقم باستقصائها فى مصادرها الكثيرة ، ولم يبذل جهداً فى تحقيق مدى ضبطها ووثوقها ، ويشتمل جانب منها على ما يمكن أن يسمى بالقصص الدينى الذى يخرج عن دائرة البحث التاريخى ، كما هو الحال فى كتاب المحنة لعبد الغنى الجماعيلى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ ، والذى توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٣٤٥ تاريخ ، والمصادر ذات النزعة التاريخية تتماثل فيما بينها ، اذ لا نجد فرقاً كبيراً بين ما كتبه ابن عساكر والذهبى وابن كثير فى ترجمتهم لأحمد ، ولكنا نلاحظ أن شخصية الامام أحمد تتقسمها نزعات مختلفة غلبت على كتّاب سيرته ، فالصوفيون أدرجوه فى طبقاتهم ، ومثلوه فى صورة تتلاءم مع ما كان يذهب اليه معاصروه من الزهاد مثل بشر الحافى ، أو تخفف من انكار أحمد لحركة التصوف التى بدأت تقوى منذ أوائل القرن الثالث الهجرى ، وكان يمثلها آنذاك الحارث بن أسد المحاسبى

والى جانب التصوير الصوفى للامام أحمد ، ممثلا فى متقدمى الصوفية كأبى طالب المكى فى قوت القلوب ، وأبى نعيم الأصبهانى فى الحلية ، وفى متأخريهم كالمناوى فى الكواكب الدرية والشعرانى فى لواقح الأنوار ، تصوير أشعرى ، ينزه فيه الأشاعرة أحمد عما زعموه من اغراق أتباعه فى التجسيم والتشبيه . هذا فضلا عن التصوير الحنبلى لسيرة الامام فى كتب طبقات الحنابلة التى يتحمس فيها الحنابلة لامامهم ، ولعل أبلغها ترجمة أحمد التى صدّر بها مجير الدين العليمى كتابه : « المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الامام أحمد » ، والذى توجد منه فى دار الكتب المصرية بالقاهرة نسخة مخطوطة مصورة فى مجلدين تحت رقم ٨١١ تاريخ . يضاف الى ذلك ، ما ذكرنا ، من أن بعض المعتزلة والشيعة نسبوا الى الامام

أحمد أنه أجاب فى المحنة الى القول بأن القرآن مخلوق

ولعل من الأسباب التى عاقت المؤرخين عن تحقيق ترجمة أحمد وحوادث المحنة ، هذه الحجب الكثيفة من تحامل الخصوم ومغالاة الأنصار وتعدد وجهات النظر ، فضلا عن اختلاط سيرته بمشكلة كلامية معقدة ، مرت فى مراحل مختلفة ، وتقتضى من المؤرخ دراسة خاصة لتاريخ علم الكلام والفرق الاسلامية ، حتى يدرك ادراكا صحيحا العوامل التى حملت المأمون ومن جاء بعده على اضرام فتنة المحنة

ومن الدلائل التى تثبت ما يجب على مؤرخ المحنة من المام بالمسائل الكلامية ، حقيقة أولية غابت عن مؤرخ محدث اشتهر بسعة اطلاعه على أمهات الكتب العربية ، ذهب فيها الى أن المأمون تمسك بمذهب الاعتزال ، وقرب اليه أشياخه ، وصرح بأقوال لم يقو هؤلاء على التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء ، وفى جملتها القول بخلق القرآن أى أنه غير مُنَزَّل (تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان ، ج ٣ ص ١٤١ ، الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٩٠٤ م) . والمعروف أن المعتزلة على اختلاف فرقهم ومتكلميهم لم يتشككوا قط فى أن القرآن تنزيل من عند الله ، وقد صدروا فى نظريتهم عن الصفات ومنها صفة الكلام التى ترتب عليها قولهم بأن القرآن مخلوق ، عن ايمان صادق ، حرصوا فيه على توكيد وحدانية الله تعالى ، وتنزيهه حتى سموا بأهل العدل والتوحيد ، ولا ينفى هذا اعتقادهم بأن القرآن كتاب منزل من عند الله

وقد باءت سياسة المعتزلة ابان المحنة بالخيبة والخذلان ، وانتصرت عليها عاطفة التدين الشعبى ، التى آثرت الاعتصام بالسنن والآثار والابتعاد عن تشقيقات المتكلمين ودعواهم فى تحكيم العقل دون النقل . وأغلب ظنى أن من عوامل انتصار أهل السنة ، ما كان لكلمة مخلوق من دلالة خاصة ابان القرنين الثانى والثالث الهجريين ، يوضحها خبر عابر أورده الراغب الأصبهانى فى محاضراته (ج ٢ ص ٢٤٦ ، طبعة القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ) ، روى فيه أن الخليل بن أحمد ، صاحب كتاب العين المتوفى

سنة ١٧٠ هـ ، كان يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق ، فيقول : ان الكلام متى وصف بالخلق ، فالقصد به الكذب ، ولهذا يقال : هذا كلام خلقه فلان ، أى تقوله. وفى تاريخ المحنة أن بعض الفقهاء لما سئل فى القرآن، قال : أصفه بأنه محدث ولا أقول أنه مخلوق ، لقوله تعالى : « مَا يأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٌ »

***

ومن القواعد المنهجية التى يقتضيها البحث فى تاريخ أئمة الفقه والمذاهب الكلامية فى الاسلام ، وجوب التفرقة بين الامام وأتباعه ، فقد ينحو الأتباع نحواً يخالفون فيه امامهم ، ولكن كثيراً ما لا يتجاوز الخلاف المسائل الفرعية ، وقد يمتد الى ما هو أبعد من ذلك ، وأياً كانت هذه الفروق ، فمن الواجب مراعاتها والاشارة اليها عند البحث فى تاريخ أولئك الأئمة . ولم يكن پاتون بحاجة الى اتباع هذا المنهج ، لأنه لم يعقد فى كتابه فصلا خاصاً يوضح فيه أثر الامام أحمد فى المدرسة الفقهية التى تنتسب اليه ، مع أن هذا الأثر وثيق الصلة ببحثه ، وقد اتخذ فى العصور التالية مظهراً اصلاحياً ، تجاوز به طابعه الفقهى ، وميزه على سائر المذاهب السنية الأخرى فى أنه كان أشدها حرباً على البدع الدخيلة فى الاسلام ، مما هيّأه لأن يكون الدعامة التى قامت عليها أول حركة اصلاحية فى العالم الاسلامى فى العصر الحديث

ومن المؤلفات العربية القريبة العهد من تاريخ المحنة التى توضح آراء امام الحنابلة ، ولم يوفق پاتون الى الاطلاع عليها ، كتاب مسائل الامام أحمد لأبى داود السجستانى صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، الذى نشره رشيد رضا بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ ، فأبوابه الأخيرة تتضمن مرويات عن أحمد تشرح مذهبه فى كثير من المسائل الكلامية : كالجهمية والقدرية والايمان والتفضيل الى غير ذلك (من ص ٢٦٢ الى ص ٢٧٧) ، كما تبين ما كان يتحلى به الامام أحمد من روح انسانية عالية ، بعيدة عن التعصب ، فقد سئل عن حبس أهل البدع ، فأنكر ذلك بحجة أن لهم

والدات وأخوات ، أى أنه كره أن يتعدى عقابهم الى الأبرياء من ذويهم ممن ليس لهم ذنب أو جريمة ، وهذا يدل على حسه المرهف بالعدالة

وقد أوردت المصادر العربية الأخرى أخباراً كثيرة فى هذا المعنى ، مثل كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلى ، ومناقب الامام أحمد لأبى الفرج ابن الجوزى ، لواطلع عليها پاتون لأفرد فىكتابه فصلا خاصاً بشخصية الامام أحمد ، وليست هذه المناقب من قبيل ما يغدقه كتاب التراجم عادة على أبطالهم ، بدافع الاغراق والمبالغة ، فقد كانت لها حقيقة تاريخية ، نظراً لأثرها الواضح فى أخلاقيات المذهب الحنبلى الذى لايجيز الحيل الفقهية التى تلجأ اليها بعض المذاهب الأخرى من باب التيسير ، ولكنها قد تتحول فى النهاية الى عامل يضعف من الحاسة الخلقية فى نفوس الأفراد ، ويجعل الأخلاق صورة شكلية لا علاقة لها بالضمائر والنيات

وهناك رسالة قصيرة فى تاريخ المحنة ، قريبة العهد من أحداثها ، مما يزيد فى قيمتها التاريخية ، ولو أنها تمثل وجهة النظر السنية فحسب ، تلك هى « ذكر محنة أبى عبد الله أحمد بن حنبل » ، كتبها ابن عمه : حنبل بن اسحق بن حنبل ، المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، الذى ترجم له الخطيب فى تاريخ بغداد ، وابن الجوزى فى المنتظم ، وابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب . ومنها نسختانخطيتان احداهما فىالمكتبة التيمورية تحت رقم ٢٠٠٠ تاريخ ، وتقع فى أربعين صفحة من القطع المتوسط ، والأخرى فى المكتبة الظاهرية فى دمشق ، وصفها يوسف العش فى فهرست مخطوطاتها الذى طبع فى دمشق فى سنة ١٩٤٧ م ص ٢٦٥ ، وروى فيه عن الأستاذ الميمنى أن هذه الرسالة مطبوعة ، وأن ما ورد فيها مطابق لما جاء فى ص ٣٩٤ من كتاب مناقب أحمد لأبى الفرج ابن الجوزى . غير أنى لم أعثر على النسخة المطبوعة من هذه الرسالة كما أنى وازنت بين النسخة الخطية لها فى المكتبة التيمورية ، وكتاب مناقب أحمد لابن الجوزى الذى نشره الخانجى فى القاهرة سنة ١٣٤٩هـ، فى الموضع الذى أشار اليه الأستاذ الميمنى ، فوجدت أن التشابه

مقصور على ما جاء فى ص ٢٥ من مخطـوطة حنبــل بن اسحق ، وهو ما حدث بين عفان بن مسلم ، واسحق بن ابراهيم عامل المــأمون على بغداد ، الذى هدد عفان بقطع رزقه ان لم يجب الى القول بخلق القرآن

***

غير أن رسالة حنبل بن اسحق، على ايجازها ، أتت بتفصيلات وأخبار عن المحنة ، لم ترد فى كتاب المناقب لابن الجوزى ، مع أن الأخير يقع فى نحو ٥٤٤ صفحة . مثال ذلك أنه جاء فى رسالة حنبل فى ص ٢٦ و ٢٧ : « أن نفراً من الفقهاء توجهوا الى أحمد بن حنبل وقالوا له : هذا أمر قد فشا وتفاقم ، وهذا الرجل يفعل ويفعل ، ونحن نخافه على أكثر من هذا . وذكروا له أن ابن أبى دواد ، يأمر المعلمين بتعليم الصبيان فى الكتّاب مع القرآن : القرآن كذا وكذا » . ثم اقترحوا عليه أن يعلنوا عدم رضاهم بامرته وسلطانه . غير أن أحمد نصحهم بألا يخلعوا يداً من طاعة ، وألا يعملوا على سفك دمائهم وسفك دماء المسلمين ..

وهذا الخبر على ايجازه ، يشتمل على حادثين على جانب كبير من الخطر والأهمية : أولهما أن الفقهاء فكروا فى الخروج على الخليفة ، وتناقشوا فى هذا الموضوع طويلا ، وقد عارضهم أحمد . ويلاحظ أن هذا الخبر نقله القاضىأبو يعلى محمد بن الحسين الفراء فىص ٥ منكتابه : « الأحكام السلطانية » (طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م) عن حنبل بن اسحق بنحنبل . وثانيهما أن أحمد بن أبى دواد ، كان يأمر المعلمين فى الكتاتيب أن يلقنوا الصبيان أن القرآن مخلوق . فكأن الحكومة لم تكتف بحمل القضــاة والشهود والمحدثين والفقهاء على أن يقولوا هذه المقالة ، بل حرصت على أن تجعلها عقيدة رسمية ، فيما يلقى من الدروس فى معاهــد التعليم ، فينشأ الجيل الجديد متشرباً بعقائد الاعتزال

والرواية السنية للمحنة كما وردت فى المصادر العربيــة المختلفة ومنها رسالة حنبل بن اسحق بن حنبل ، تخفف من مسئولية الخلفاء والعباسيين عن المحنة ، وذلك بأن تنسب الى المعتصم الرأفة بالامام أحمــد ، وأن

حاشيته هى التى كانت تحرض على قتله ، وأن الواثق كان يستثقل أمر المحنة ويرغب فى رفعها لولا معارضة ابن أبى دواد ، ونستشف من هذا رغبة هؤلاء المؤرخين فى ممالأة الدولة الحاكمة ، وقد كان البلاذرى يسمى الدولة العباسية بالدولة المباركة . كما نسبت الرواية السنية أحمد بن أبى دواد الى الجهل

***

جاء فى رسالة حنبل بن اسحق أن أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال : « وما كان فى القوم أرأف بى، ولا أرحم من أبى اسحق (أى المعتصم) ، فأما الباقون فأرادوا قتلى ، وشركوا فيه لو أطاعهم أو أجابهم الى ذلك. قلت لأبى عبد الله : فكان لابن أبى دواد علم ؟ فقال : كان من أجهل الناس بالعلم والكلام ، انما كان أهل البصرة ، المعتزلة ، الذين يقومون بأوده ، فاذا انقطع الرجل منهم ، عرض ابن أبى دواد فى الكلام ، يوهم الآخر أن عنده شىء ، ولم يكن عنده شىء من ذلك » . وسأله أبو بكر ابن عبيد الله قائلا : « يا أبا عبد الله ، كان ابن أبى دواد يناظر ويتكلم؟ قال : لا ، ما كان له معرفة بشىء ، انما كان يُعَوِّل على هؤلاء المعتزلة ، أهل البصرة ، برغوث وأصحابه ، فأما هو ، فلا صاحب علم ولا كلام ولا نظر » . (ص ١١ من المخطوطة التيمورية)

ومن المستبعد أن يقول الامام أحمد فى ابن أبى دواد أنه ليس بصاحب كلام ولا نظر ، لأن أحمد كان لايعد الكلام أو الآراء المبنية على النظر والقياس علماً ، فالعلم عنده هو السنن والآثار . وهذا هو ما رواه عنه أصحابه وكتّاب سيرته ، بل انه كان يتحرج من ابداء رأيه فى المسائل التى لم يرد عنها نص صريح من الكتاب أو السنة ، وكان يكتفى بأن يقول : يعجبنى أو لايعجبنى ، مبالغة منه فى الحذر والحيطة . مما أجهد مصنفى مذهبه فيما بعد عندما أرادوا أن يصوغوا من هذه الآراء مذهباً فقهياً متماسكاً

وان غلبة التحديث على الامام أحمد واحتياطه فى مسائل الفقه حملا

الطبرى على اغفال ذكر الامام أحمد فى كتابه : اختلاف الفقهاء ، فقد عده محدثاً ولم يعده فقيهاً . ولما سأله الحنابلة فى بغداد فى هذا ، قال : مارأيته روى عنه ، ولا رأيت له أصحاباً يعول عليهم ، وقد أدى ذلك الى أن وثب عليه الحنـابلة ورموه بمحابرهم ، ولمـا دخل داره ، عادوا ورموها بالحجارة الى أن تدخل الشرطة ومنعوا عنه العـامة . ثم اضطر الطبرى أخيراً للاعتذار لهم ، ولكن لم يحل هذا دون اضطهادهم اياه ، وعند وفاته فى سنة ٣١٠ هـ منعوا من الاحتفال بجنازته ، فدفن بداره ليلا

***

ومن العجيب أن ابن قتيبة المتوفى سـنة ٢٧٦ هـ ، لم يذكر فى كتابه المعارف الامام أحمد من بين المحدثين فى الفصل الذى عقده تحت عنوان : ومن أصحاب الحديث (من ص ٢١٩ الى ص ٢٣٠ من طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ م) كما لم يذكره فى عداد الفقهاء الذين سماهم أصحاب الرأى (من ص ٢١٦ الى ص ٢١٩) . ولكنه عده فى مقدمة كتابه : «تأويل مختلف الحديث » من بين « العلماء المبرزين والفقهاء المتقدمين والعبّاد المجتهدين الذين لايجارون ولا يبلغ شأوهم ، وأمثال هؤلاء ممن قرب من زماننا » . وذكر من بين الأخيرين أحمد بن حنبل (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ ص ١٩ ، ٢٠)

بيد أن الرواية السنية عن المحنة التى تميل الى تبرئة الخلفاء العباسيين من أوزار حوادثها ، وتنسبها الى من كان فى بطانتهم من علماء السوء مثل أحمد بن أبى دواد ، ومحمد بن سماعة ، قد تأثر بها أحد الكتّاب المحدثين فى أئمة الفقه الاسلامى ، فقد ذهب الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه القيم : « ابن حنبل : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه » (القاهرة سنة ١٩٤٧ م ص ٥٩ ، ٦٠) الى أن كتب المأمون الخاصة بالمحنة التى أرسلها وهو فى شمالى الشام فى غزوته للروم ، الى اسحق بن ابراهيم عامله على بغداد ، هى من انشاء أحمد بن أبى دواد ، وقد رجح ذلك لدى المؤلف أن المـأمون كان مريضاً ، وأنه يتسامى عما يحتويه كتاب

منها ، من الطعن فى الفقهاء والمحدثين وذكر معايبهم رجلا رجلا

ولو حققنا هذا الرأى تحقيقاً تاريخياً ، لوجدنا فى مصـادرنا العربية ما ينقضه ..

فأولا : من المستبعد أن يكون أحمد بن أبى دواد قد أعد كتب المأمون الخاصة بالمحنة ، ودفعها اليه قبل خروجه لغزو الروم فى سنة ٢١٨ هـ ، أو أنها كتبت فى بغداد فى غياب المأمون ، وزعم اسحق بن ابراهيم أنها وردت من الخليفة

ثانياً : لا نجد فى مصادرنا التاريخية ما يدل على أن المأمون أرسل كتب المحنة وهو مريض فى بلاد الشام ، بل كان عندما بعث بها الى عامله على بغداد ، سـليماً معافى ، لأن تواريخ ارسـالها تقع فى أشهر ربيع الأول والثانى وجمادى الأولى وعشرين يوماً من جمادى الثانيـة ، وقد بدأ مرضـه الذى توفى فيه فى الأيام العشرة الأخيرة من جمـادى الثانية ، وكانت كتب المحنة قد أرسلت كلها الى اسحق بن ابراهيم قبل ابتداء مرضه بالحمى على نهر البدندون ، التى ظل يعانى منها الى وفاته لاثنتى‌عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ (الطبرى ج ١٠ ص ٢٩٥)

ثالثاً : أن المأمون لم يكن بحاجة الى أن يكتب له أحمد بن أبى دواد كتب المحنة ، فقد كان لايقل عن قاضى قضاته بصرا بعقائد الاعتزال ، بل كان يفوقه فى ثقافته الواسعة واحاطته بعلوم الأوائل واشتغاله بالفلسفة والفلك ، وقد أطنبت كتب الأدب والتاريخ كثيراً فى سعة علم المأمون ، حسبنا منها ما ذكره القاضى صـاعد الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٢ هـ فى كتابه طبقات الأمم (ص ٧٥ ، ٧٦ من طبعة القاهرة دون تاريخ) اذ قال : « لما أفضت الخلافة الى المأمون تمم ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم فى مواضـعه ، واستخراجه من معادنه ، بفضل همتـه الشريفة ، وقوة نفسه الفاضلة ، فداخل ملوك الروم ، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة ، وسألهم صـلته بما لديهم من كتب الفلاسـفة . فبعثوا اليه بما حضرهم من هذه الكتب . فاستجاد لها مهرة التراجمـة ، وكلفهم احكام

ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حض الناس على قراءتها ، ورغبهم فى تعلمها ، فنفقت سوق العلم فى زمانه ، وقامت دولة الحكمة فى عصره ، وتنافس أولو النباهة فى العلوم ، لما كانوا يرونه من احظائه لمنتحليها ، واختصاصه لمقلديها . فكان يخلو بهم ، ويأنس بمناظرتهم ، ويلتذ بمذاكرتهم ، فينالون عنده المنازل الرفيعة ، والمراتب السنية. وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء ، والفقهاء ، والمحدثين ، والمتكلمين ، وأهل اللغة ، والأخبار ، والمعرفة بالشعر ، والنسب ، فأتقن جماعة من ذوى الفنون والتعلم فى أيامه ، كثيرا من أجزاء الفلسفة ، وسنوا لمن بعدهم منهاج الطب ، ومهدوا أصول الأدب ، حتى كادت الدولة العباسية ، تضاهى الدولة الرومية ، أيام اكتمالها ، وزمان اجتماع شملها »

***

وعند ابن النديم أنه أعلم الخلفاء بالفقه والكلام ، ولم يستقص ذكره مكتفيا بشهرة أخباره ، ولكنه ذكر من كتبه : مناقب الخلفاء ، وأعلام النبوة ، وجواب ملك البرغر (أى الروس الصقالبة فى حوض نهر الفولجا) فيما سأل عنه من أمور الاسلام والتوحيد (الفهرست ص ١٦٨ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ) . وذكر ابن النديم فى مواضع أخرى من كتابه، اشتغال المأمون بالفلسفة والرياضيات وعلوم الأوائل ، فقال فى ص ٣٣٩ انه رأى أرسطو فى المنام ، وأن هذا المنام كان من أوكد الأسباب فى اخراج الكتب القديمة وترجمتها ، وأنه راسل ملك الروم فى طلبها وأنفذ اليه رسلا فى استحضارها . وان كتاب اقليدس فى الهندسة نقله الحجاج ابن يوسف بن مطر ، نقلا ثانيا يعرف بالمأمونى ، الذى كان عليه المعول فى علم الهندسة ، وانه أفسح المجال لبنى موسى بن شاكر ، وهم محمد ، وأحمد ، والحسن فى دراسة العلوم الرياضية والحيل والفلك . وان الآلات الفلكية كالأسطرلاب ، اتسع للصناع عملها فى الدولة العباسية منذ أيام المأمون ، وان الحجاج بن مطر فسّر للمأمون ما نقله من كتاب المجسطى واقليدس

فلا يعقل أن خليفة بمثل هذه الثقافة الواسعة ، والمشـاركة فى علوم مختلفة ، كانت تعوزه الاستعانة ، بقاضى قضاته ، ليكتب له الكتب التى أرسلها ، يبرر فيها سياسة المحنة ، التى اعتزم أن يأخذ النـاس بها ، تصحيحا لعقائدهم ، وتقربا الى الله ، بما كان يشعر به فى قرارة نفسه ، من واجب نحو رعاياه ، يفرضه عليه منصبه كامام للمسلمين . وتكشف لنا كتبه التى تعد من الوثائق التـاريخية الهـامة ، عن نهج تفكيره ، ومستوى عقليته ، وتوضح لنا رأيه فيما يضطلع به الخليفـة من مهـام وواجبات . ولا نظن أنه قصر فيما رسم لنفسه أن يقوم به . فقد أنفذ ـــ وهو يتهيأ للغزو والجهـاد ، بعيدا عن عاصمة ملـكه ـــ ما شغل فكره طويلا ، وهو أن يصحح عقائد رعاياه ، طبقا لما كان يعتقـد أنه الايمان الصحيح ، ولم يصرفه قتاله العدو ، عن امضاء أمره فى امتحان الناس ، بتلك المحنة العجيبة التى لم يسبقه فى انتهاجها خليفة من خلفاء المسلمين

***

واذا كنا نرى ان سياسته فى امتحان النـاس وتكشيف سرائرهم ، وترويعهم بصنوف من الأذى والنكال ، لحملهم قسرا على معتقده ، سياسة خاطئة ، عاقبتها الفشل فى النهاية ، فلقـد كان مخلصـا فى الدعوة لها ، والايمان بها . ولم ينكر عليه المؤرخون هـذا الاخلاص والايمان ، مع ما وصموا به فعله من قبح وشناعة ، وزيغ وانحراف ، وقد لخص هذا المعنى مؤرخ متأخر من مؤرخى القرن الحادى عشر الهجرى ، هو ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب ، حيث قال : « ان المأمون قام فى هذه البدعة قيام متعبد بها » (ج ٢ ص ٣٩)

رابعا وأخيرا ، اننا اذا كنا نستهجن ما ورد فى كتاب المأمون الأخير من تنقص للفقهاء ، الذين امتنعوا عن الاجابة فى المحنة ، وذكر معايبهم رجلا رجلا ، واتهامهم باختلاس الودائع ، وأكل الربا ، وخساسة المتجر ، وادعاء العلم ، فان مصادرنا لا تتمشى مع رغبتنا فى تنزيهه ، ونسبة هذه البيانات الفاضحة الى أحمـد بن أبى دواد . لأن هـذه البيـانات كانت

تستقى من جهاز للأخبار خاص ، ابتدعه خلفاء بنى العباس فى صدر دولتهم ، وفاقوا فى تنظيمه واحكامه سلفهم من خلفاء بنى أمية ، وكان يشرف عليه موظف كبير يسمى صاحب الخبر ، يتحسس أخبار الناس ، ويستكشف دخائلهم ، مستعينا بمختلف الأعوان من الرجال والنساء ، حاذقا أريبا فيما يتخذ من الخطط والوسائل لاستقاء البيانات ، من أجل سلامة الدولة وأمنها

ولدينا نوادر كثيرة ذكرتها كتب الأدب والتاريخ ، توضح يقظة العباسيين ، والمامهم بكل صغيرة وكبيرة فى دولتهم ، نذكر منها تلك القصة التى رواها ابراهيم بن السندى بن شاهك عن المأمون وهى تدل على علمه بدخائل عسكره ، فقد أبان فيها السندى ما حفظه عن المأمون فى ثلب أصحابه ، وذكر ما يتظاهرون به ، فقال له رجل من عظماء عسكر المأمون ، حين خرجا من الدار : هل رأيت أو سمعت قط ملكا أعلم برعيته ، وأشد تنقيرا من هذا ؟ فقال : اللهم لا . وقد حدث السندى بهذا الحديث ، بعض أهل الخطر ، فقال : وما تصنع بهذا ؟ وقد كتب المأمون الى اسحق بن ابراهيم ، فى الفقهاء بمعايبهم رجلا رجلا ، حتى انه أعلم بما فى منازلهم منهم . (المحاسن والمساوىء للبيهقى ج ١ ص ١١٥، ١١٦ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٠٦ م)

***

ولقد كان من سياسة الدولة العباسية ، ابان قوتها ، أن تؤكد طابعها الدينى ، فقربت اليها العلماء ، والفقهاء والمشتغلين بالعلوم الاسلامية ، وكانت ترقب أيضا حركات فريق منهم ، ممن يؤدى اشتهارهم بالعلم والورع الى تعلق الجماهير بهم ، اذ قد يؤثر ذلك فى مركز الخلفاء ، وقد يزعزع ولاء المسلمين لهم . فكان الخلفاء يهتمون بما يجرى فى حلقات الفقهاء والمحدثين ، ويراقبون من يتعرض منهم بالنقد للنظام القائم . وقد يبطشون به أو يكتفون بتقصى معايبه أو وصمه بالنفاق والتماس السمعة . وقد جاء فى وصف المأمون لهم بأنهم من « متصنعة القبلة

وملتمسى الرياسة فيما ليسوا له بأهل » . بل ان عبارة الاتجار بالدين التى نظن انها من التعبيرات الحديثة ، كانت من المعانى المعروفة فى هـذا العصر . وقد جاءت بالنص فى كتاب يعقوب بن اسحق الـكندى الى المعتصم ، عن أولئك الذين يدعون العلم ، « ذبا عن كراسيهم المزورة التى نصبوها ، عن غير استحقاق ، بل للترؤس والتجارة بالدين ، وهم عدماء الدين » ، (كتاب الكندى الى المعتصم تحقيق الأهوانى ، ص ٨٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م)

***

وقد فات پاتون أن يستقصى أخبار المحنة ، فى الولايات الاسـلامية ، ولا سيما فى المغرب ، وكان ميسـورا له أن يطلـع على قطعة نشرها « هوداس » من كتاب معالم الايمان عن حل القيروان ، للدباغ المتوفى سنة ٦٩٦ هـ ، تهذيب ابن ناجى التنوخى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ ، وذلك فى كتابه : « مختارات مغربية » طبع باريس سنة ١٨٩١ م ، والذى قصد به تيسير تعلم اللغة العربية على الفرنسيين من طلاب مدرسة اللغات الشرقية الحية . فقد جاء فى ص ٧٧ ذكر محنة سحنون ، عندما ولى أحمد بن الأغلب الامارة ، وأخذ الناس بالمحنة بالقرآن . مع أن دولة الأغالبة فى المغرب كانت قد استقلت عن العباسيين ، ولم يمنعها استقلالها مع ذلك ، من مسايرة الدولة العباسية فى سياستها الخاصة بالمحنة

أما أخبار المحنة فى مصر ، التى أوضحها پاتون فى كتابه ، فقد أتيحت لنا مادة وفيرة عنها ، بعـد ظهور كتاب پاتون ، عندما نشر « روڤون جست » فى سنة ١٩٠٨ م ببيروت ، كتاب الولاة والقضـاة ، للمؤرخ يوسف بن عمر الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ . وتقع أخبار المحنة فى هذا الكتاب فى ص ١٩٣ ، وكذلك فى ص ٤٤٥ الى ص ٤٥٣ . وقد اعتمدت عليه فى تصحيح خطأ وقع فيه پاتون ، أشرت اليه عندما تكلم عن المحنة فى عهد المعتصم . فان كتاب المحنة الذى أرسله المعتصم لوالى مصر ، لم يرسله الى المظفر بن كيدر الذى تقلد الولاية بعد أبيه . ولـكنه أرسل

ابان ولاية أبيه كيدر نصر بن عبد الله . كما أن المعتصم لم يرسله حينما بويع بالخلافة بعد أخيه المأمون . بل أرسله حين كان أخوه لايزال على قيد الحياة ، وكان المعتصم آنذاك نائبا عنه فى بغداد . وقد أورد الكندى ، النص الكامل لهذا الكتاب الذى لم يورده الطبرى . وفى فاتحة الكتاب ما يوضح أن المعتصم لم يكن قد تولى الخلافة بعد . اذ يقول بعد البسملة (ص ٤٤٥) : « من أبى اسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد ، أخى أمير المؤمنين (أى المأمون) الى نصر بن عبد الله كيدر... »

***

ويؤخذ على پاتون انه لم يعن العناية الواجبة بالجانب الكلامى من مسألة المحنة ، فانه لم يغفل رواية المعتزلة عنها فحسب ، بل لم يرجع الى المصادر العربية ذاتها التى أوردت رواية أهل السنة ، فقد اقتصر على ترجمة هاربريكر الألمانية لكتاب الملل والنحل للشهرستانى ، واعتمد فى بحثه على دراسات المستشرقين مثل هوتسما فى كتابه «المنازعات الكلامية» ، (نشر بالهولندية فى ليدن سنة ١٨٧٥ م) ، ودوزى فى كتابه « بحث فى الاسلام » . وكتاب المعتزلة بقلم شتينر . بدليل كثرة اشاراته اليهما

وقد توالى بعد صدور كتابه ، نشر الكتب العربية الخاصة بالفرق الاسلامية ، ومنها كتابا البغدادى : الفرق بين الفرق ، وأصول الدين ، وكتابا الأشعرى : الابانة عن أصول الديانة ، ومقالات الاسلاميين ، وكتاب الاسفرايينى : التبصير فى الدين . ولكن يهمنا من هذه الكتب ، من ناحية التحقيق التاريخى ، ما كان منها قريبا من عصر المحنة ، مثل كتاب الاختلاف فى اللفظ لابن قتيبة ، وكتاب رد الدارمى على بشر المريسى ، وأهم من ذلك كله ، كتب الامام أحمد بن حنبل نفسه وهى : الرد على الجهمية ، وكتاب السنة ، وكتاب آخر بنفس العنوان الأخير لولده عبد الله ، وكل ذلك يوضح المشكلة الكلامية ويجلو غامضها كما ظهرت فى ذلك العصر ، قبل أن تطرأ عليها تطورات حدثت فى العصور التالية . وقد أوضحت هذا فى اثبات المراجع فى نهاية الكتاب

بيد أنى أعود الى القول بأن ما ذكرناه من المآخذ على رسالة پاتون لايغمط ما بذل من جهد فى اعدادها ، وليس من الانصاف أن ننتقد رسالة مضى على ظهورها أكثر من ستين عاما ظهرت خلالها بحوث ودراسات مختلفة ، ونشرت مخطوطات ومصادر كثيرة . ولكنها كانت عند ظهورها أجود ما وصل اليه البحث العلمى فى ذلك الموضوع آنذاك . ومع ذلك فانها لا تزال تعد الرسالة الوحيدة من نوعها فى سيرة الامام أحمد ابن حنبل وتاريخ المحنة

وقد توخيت الدقة فى ترجمتها ، وحافظت على عبارة المؤلف ، فلم أحاول صوغها فى قالب النصوص العربية التى أوردها ، حتى يتسنى للقارىء أن يوازن بين فكرة المؤلف وعباراته ، ونظائرها فى تلك النصوص . ولكنى اضطررت الى حذف عدة فقرات يسيرة فى الفصل الثانى والخامس ، تمس السنة الاسلامية ، رأيت فى اثباتها ما يجرح مشاعر المسلمين ، فليعذرنى القارىء عما لم أرد به اخلالا بواجب الأمانة فى النقل ، ولكنى وجدت أن المؤلف فى هذه الفقرة التى حذفتها ، لم يستطع أن يكون موضوعيا فى دراسته كما يقضى بذلك منهج البحث العلمى ، كما أنه لم يتثبت فى دراسته للسنة الاسلامية

***

هذا وقد أتيح لى فى النصوص العربية التى أوردها المؤلف ، نقلا عن مخطوطات ليدن الخاصة بتاريخ بغداد للخطيب ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وطبقات الشافعية لابن السبكى ، أن أعارضها بما طبع منها فى مصر نقلا عن مخطوطات أخرى ، وأشرت الى مواضع الاختلاف وأثبت ما رأيته صوابا . كما حققت كتب المأمون التى أوردها الطبرى ، وراجعتها أيضا على ترجمة پاتون لها . وآثرت اثبات النصوص العربية فى صلب كلام المؤلف ، بدلا من احالتها الى الهوامش ، كما هو الحال فى الأصل . وحين وجدت هذه النصوص تستغرق من الصفحات ، ما تفقد معه صلتها بما

يتلو من كلام المؤلف ، عمدت الى تقسيمها الى فقر ، أدرج منها مايتفق موضوعه مع بحث الكاتب ، دون أن أغفل منها شيئا . بل أثبت نصوصا عربية أخرى اكتفى المؤلف بالاشارة اليها دون ايرادها ، زيادة فى فائدة القارىء

وكنت أعتزم أن أذيل الكتاب بحواش كثيرة لتكملة بحث المؤلف ، وقد رجعت فيها الى مصادر عربية مطبوعة ومخطـوطة ، لم يتح له الاطـلاع عليها ، كما رجعت الى ما ظهر بعد كتابه من دراسات للمستشرقين فى هذا الموضوع . وقـد أردت أن ألحق به ثلاث مقـالات وثيقة الصلة بهذا الكتاب ، وهى للمستشرق المجرى جولدتسيهر ، الأولى مقالة مطولة عن المسند ، والثانية فى نقد كتاب پاتون ، والثالثة فى تاريخ الحركة الحنبلية ، وقد نشرت بمجلة المستشرقين الألمانية فى سنة ١٨٩٦ م ، ١٨٩٨ م ، ١٩٠٨ م على التوالى . ولكنى وجدت أن هذه اللواحق تزيد فى حجم الكتاب ، وتشتت ذهن القارىء ، فآثرت أن أفرد لهذه الحواشى والدراسات كتابا مستقلا ، واكتفيت بما ذيلت به صفحات الكتاب من تعليقات يسيرة ، راعيت فيها الايجاز ، واقتصرت فيها على ما يوضح فكرة المؤلف أو يكملها ، ووضعت لها علامات خاصة ليميز القارىء بينها وبين الأصل

***

ولا يسعنى فى الختام الا أن أتقدم بالشـكر الجزيل للـكثيرين ممن عاونونى ، وعلى الأخص أمين مكتبة كلية الآداب بجامعة القاهرة لتفضله باعارتى كتاب پاتون ، ورجال دارالكتب المصرية الذين يسّروا لى الاطلاع على كثير من المخطوطات التى تتصل بموضوع المحنة وسيرة الامام أحمد ، كما أشكر فضيلة الشيخ محمد حامد الفقى ، رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية الذى أتاح لى الانتفاع بذخائرمكتبته ، وأفادنى بملاحظاته القيمة

وعلىّ أن أنوه بالعناية التى بذلها الأستاذ محمود محمود فى مراجعة الترجمة العربية للكتاب . وأن أذكر ما تفضل به المستشرق چومييــه من

ترجمة فقرة باللغة الهولندية نقلها المؤلف عن كتاب المنازعات الكلامية بقلم هوتسما . كما أشكر للدكتور حامد عبد المجيد عنـايته بعبارة الكتاب واهتمامه بمراجعة تجارب الطبع . وأخيرا أخص بالثنـاء والتقدير رجال الادارة العامة للثقافة بالقاهرة ، لعنايتهم بنشر هذا الكتاب

عبد العزيز عبد الحق

القاهرة فى ٢١ رمضان سنة ١٣٧٧ هـ

الموافق للعاشر من ابريل سنة ١٩٥٨ م

ملاحظات تمهيدية

تشتمل الصفحات التالية على تاريخ الامام أحمد بن حنبل ، كما أنها تسجل قصة النضال الدينى المعروفة بالمحنة (١) ، التى ارتبطت أحداثها باسمه ، والتى أعقبت من النتائج ، البعيدة المدى ، العميقة الأثر ، ما يبرر دراسة هذه الحركة دراسة مُفَصَّلة ، وتَقَصِّى كافة الظروف التى اكتنفها ، والأدوار التى مرت بها . وقد قدم لنا الكتّاب الغربيون ، فيما دبّجوه من أبحاث ، فى تاريخ العقائد فى الاسلام ، فكرة عامة ، أو

---

(١) تدل كلمة « محنة » اطلاقا على الاختبار والابتلاء ، سواء أكان ابتلاء بصروف الدهر أم بأعمال البشر . وتستعمل غالبا كما يستعمل فعل « محن » ، بمعنى الاختبار الدينى الذى يقصد به الحصول على اقرار المتحن بعقيدة ما أو بطائفة من العقائد ، يعلن تسليمه بها واعتناقه اياها . وانا لنلمس هذه الدلالة الخاصة واضحة ، فيما دون من تاريخ المحاكمات التحقيقية التى نصبها المعتزلة لخصومهم . وسنبسط القول فى أخبارها فيما يلى . كما أن كلمة محنة استعملت بهذا المعنى فيما دون من أخبار الاضطهادات التى اصطنعها أهل السنة لخصومهم فى عهد الخليفة القادر بالله ، وذلك بعد محنة أحمد بن حنبل بمائتى سنة . ولكنها تطلق عادة على فترة الاضطهاد الدينى الذى بدأ فى سنة ٢١٨ هـ وانتهى فى سنة ٢٣٤ هـ

(*) دعوى المؤلف بأن الاستعمال الغالب للمحنة هو بمعنى الاختبار الدينى لا يؤيدها ما جاء فى معجمات اللغة العربية ومصادر التاريخ والأدب والتراجم ، فهى مجرد ابتلاء لا يتعلق غالبا بالمسائل الاعتقادية . فتغير قلوب الخلفاء على المقربين اليهم واستصفاء أموالهم محنة ، وايذاء السلطة الحاكمة للأفراد أيا كانت أسبابه محنة . واصطناع الأذى للمتهم حتى ينسب لنفسه ما لم يأته ، يعد محنة . والمعنى الأخير جاء فى حديث الشعبى : « المحنة بدعة ، هى أن يأخذ السلطان الرجل فيمتحنه ويقول فعلت كذا وفعلت ، فلا يزال به حتى يسقط ويقول ما لم يفعله أو مالا يجوز قوله ، يعنى أن هذا الفعل بدعة »

انظر النهاية فى غريب الحديث لمجد الدين بن الاثير حـ ٤٤ ص ٨٢ ، وتاج العروس حـ ٩ ص ٣٤١ .

وترجم المؤلف المحنة الى الانجليزية بالكلمة التى تطلق على محاكم التفتيش فى اوروبا فى العصور الوسطى والحديثة مع انه يرتبط بمعنى هذه المحاكم صنوف من التعذيب والتنكيل تتضاءل أمامها حوادث المحنة بخلق القرآن ، انظر مادة : اضطهاد فى الاسلام بقلم أرنولد فى موسوعة الدين والاخلاق ، مجلد ٩ ص ٧٦٥ ب . وفى الاصل فى عهد الخليفة القاهر بالله وصحته القادر بالله كما أثبتناه ، راجع الكامل لابن الاثير فى حوادث سنة ٤٠٨ هـ حـ ٧ ص ٢٩٩ طبعة منير بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .

صورة مجملة عن المسائل التى كانت مثار النزاع والجدال فى ذلك العصر، كما أن التاريخ السطحى للحوادث التى وقعت فى هذه الحقبة ، قد دون أخبارا ضئيلة ، وتنفا مقتضبة ، لا تنقع غلّة ، عن أهم الأحداث العامة التى تتضمنها قصتنا . غير أن الباحثين لم يعمدوا ، فيما أعلم ، الى الانتفاع بفرصة ثمينة مواتية ، تتيحهم اياها ، أخبار ترجمة الامام أحمد ابن حنبل ، لكى يشهدوا فى تضاعيفها المجادلات الكلامية فى الاسلام ، من حيث علاقتها بالتاريخ العام للدولة الاسلامية . ولا ريب أن هذا الضرب من الدراسة التاريخية شائق طريف ، اذ يعيننا على ادراك العلاقة التى كانت قائمة بين الدين والدولة فى ذلك العصر ، والوقوف على مدى ما كان يشغله الدين آنذاك من مكانة ، وما حظى به أئمته وفقهاؤه من رعاية فى الدولة الاسلامية

وقد أشرنا فيما سلف الى ما أعقبته حركة الاضطهاد الدينى التى بدأ بها المأمون ، والتى تعرف باسم المحنة ، من نتائج بعيدة المدى ، عميقة الأثر ، فنقول بأن وجه الخطر فى هذه النتائج ، وفى نفاذ أثرها ، يتضح فى أنها قررت الطابع السنى الذى اتخذه الاسلام فى كافة العصور التالية . وعندى أنه لا بقاء للاسلام الا ببقاء السنة ، ففى سلامتها سلامته ، وفى صونها صونه . ولو أنه أتيح للحركة العقلية التى نهض بها المعتزلة أن تحمل المسلمين قسراً على نبذ السنة ، فمن الراجح أن يكون لمبدأ حرية الفكر ـ الذى يدين بالعقل دون النقل، ولا ينزل على حكم سلطة ما ـ أثر انحلالى يوهن من قوة الاسلام وتماسكه ، كما أنه يجعل الاسلام أكثر قابلية للتأثر بما يطرأ عليه من خارجه من عوامل التعديل والاصلاح ، حتى أنه لو حدث هذا ، لكنا نرى بعد انقضاء فترة من الزمان ، ألواناً من العقائد وصوراً من الحياة الدينية تخالف عقولنا(*) . ولكنها تكون أكثر انطباقا على نواميس العقل وسننه ،

(*) المؤلف هنا يعبر عن وجهة نظره وهى تخالف بطبيعة الحال وجهة نظر المسلمين .

وأدنى الى مقتضيات أحكامنا الخلقية . وانا نعتقد بأن الابقاء على السنة وصيانتها ، قد أتى بخير النتائج وأعظمها فائدة . ويمكن أن نتجاوز ذلك الى القول بأن الاسلام ، اذا كان يبغى المحافظة على جوهره وطابعه ، ليظل اسلاماً ، فما من سبيل يبلغ به هذه الغاية أفضل من سبيل المحافظة على السنة والاستمساك بعُراها

غير أنه يجب أن نشهد بما كان للروح العقلى من فضل ، اذ أنه أقر مبدأً جليلاً ، وهو أن الفكر يجب أن يكون حرا طليقا ، اذا ما تصدى للبحث عن الحقيقة (*) . ومع ذلك فانه توجد لدينا عن هذا العصر ، شواهد كثيرة ، تدل على أن المفكرين الأحرار قد أساءوا استعمال حريتهم ، بسبب وَلَعِهم بالنظر العقلى من أجل النظر العقلى ، وبسبب تعشقهم للفوز والغَلَبَة فى ميدان المجادلات والمناظرات

وقد كان أحمد بن حنبل ، طوال الفترة الباقية من حياته ، التالية لوفاة الامام الشافعى فى سنة ٢٠٤ هـ ، أقوى الشخصيات فى معسكر أهل السنة وأنبهها ذكرا . ففى خلال الأدوار التى مرت بها المحنة ، قام بما لم يقم به فرد آخر ، فى تعزيز روح المقاومة فى حزبه ، ومناهضة جهود الخلفاء وعمالهم فى قمع أنصار السنة والقضاء عليهم . ولقد ابتليت السنة الاسلامية فى شخصه ، فكان فى صبره — لو صبر — فوزها ونهوضها ، وفى ضعفه لو فُتِن — سقوطها وخذلانها . واذا كان هناك قدر ضئيل من المبالغة فى العبارات التى رَدَّدَتها الأفواه بشأنه ابان المحنة ، والتى تدل على « أن الناس انما كانوا ينتظرونه لأن يقول فيقولوا » ، وأنه اليوم رأس ، والناس يقتدون به ، فوالله لئن أجاب الى خلق القرآن ليجيبُنّ باجابته

(*) لقد أسرف المؤلف فى حكمه ونسى أن الفكر الاسلامى فى جوهره قبل أن يحتك بثقافة الاغريق والفرس فى العصر العباسى كان ينطوى على تحكيم العقل وينزع الى الحرية والطلاقة . وفى القرآن والحديث من الشواهد ما يؤيد هذا ، فضلا عن أن الحجج التى أدلت بها طلائع الفرق الاسلامية من الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية لتأييد دعاويها وذلك فى القرن الاول للهجرة ، تدل على أن الفكر الاسلامى كان أوفر من غيره حرية وانطلاقا .

خَلْق من خَلْق الله ، وان هو لم يُجب ليمتنعَن خَلْق" من النـــاس كثير . وأنه « رجل يُقتدى به وأن الخلق قد مدوا أعناقهم اليه لمَا يكون منه » . فهذه العبارات كلها تعد فى جوهرها صحيحة صادقة

ولدينـا للتـدليـل على مكانة الامام أحمـد ، عند مسلمى عصره ، ومدى تأثيره فيهم ، دليـل غير مبـاشر ، يمكن أن نستخلصه من الأسلوب الذى جرى عليه خلفاء بنى العباس فى معاملته . فالمـأمون كان قد اعتزم أن يُشْخَصَ اليه ، وأن يُحْمَل مع السبعة الاول من الفقهاء وشيوخ الحديث الذين كان سـيجرى عليهم الامتحان ، غير أن قاضى القضـاة ، أحمد بن أبى دواد ــ على الرغم منشدته وتعصبه ــ نصح مولاه ألا يأمر باحضاره لاعتقاده ــ دون ريب ــ أن فى وجود أحمد بن حنبل فى زمرة هؤلاء الفقهاء ، ما يجعـل النجاح فى حملهم على القول بخلق القرآن ، شاقاً متعذراً ، ولاحساسـه بأن عاقبـة هـذه المحنة هى التى ستقرر فيما اذا كان من الحكمة وسـداد الرأى أن يمتَحن من الفقهاء ، مَن هو أعظم من هؤلاء شأناً

وان كتاب المأمون لعامله فى بغداد ، بعد اختبار هذا للفقهاء ، ليشير الى اصطنـاع اللين والأناة مع أحمد بن حنبل . ويتضح هـذا من قراءة ما كتبه المـأمون بصـدد غيره منالفقهاء . أما معاملة المعتصم له ، فينبغى ألا نغفل أن الخليفة لم يعمد الى تعذيب أحمد ، الا بعد أن استنفَد كافة الطرق والوسائل الى انقاذه ، سواء أكان ذلك باخافته وتوعده اياه ، أم بمناظرته واقناعه ، أو باسترضائه والتوسـل اليه ، لصرفه عن عناده . وقد قال له : « لولا انى وجدتك فى يد من كان قبلى ما عرضت لك »

هـذا فضـلاً عن أن ضرب الامام أحمد ، حدث فى فِناء من أفنيـة القصر ، يجهل مكانه العامة من أهـل بغداد ، الذين ظلـوا خارج القصر ينتظرون نتيجـة الامتحان . وما عتمـوا أن هَجَسـوا بامتحان امامهم وتعذيبـه ، حتى عراهم الاضطراب ، ولَـجَّ بهم القلق ، وظهر كأن قصر الخليفة سيغدو هدفاً لهجومهم ، فأخرج المعتصم لهم ، اسحق عم الامام

أحمـد ، ليـمـوّه عليهم بأن الخليفة لم يـلـحـق بأحمـد أذى ، ولم يـصبه بسوء . كما أبقى المعتصم ، أحمد ، داخل القصر حتى المساء ، ثم خلع عليه خلعاً ، ورده الى منزله فى غسق الليـل . كل ذلك ليستوثق من أمنه وطمأنينته ، وليدرأ عن نفسه ثورة العامة

ولمـا لم تبـذل الحـكومة ، ابان الخمسة عشر عاما الباقية من المحنة ، محاولات أخرى لحمله على الاجابة ، فانا نعد نكوصها دليـلاً على جليـل مكانتـه عنـد الشعب وعظيم قدره ، مع أن لدينـا ما يؤيد دأبه على بث أفـكاره وتعاليمه ، ومثـابرته على التحديث والتفقيـه ، حتى زاد الناس به تعلقاً ، وشغفوا به حباً ، بل كادوا أن يفتتنوا به افتتاناً

ولنـا فى معاملة الخليفة الواثق له ، ما يدل على ادراكه لعظيم خطره ، ونفـاذ أثره . وتنبؤنا مصادرنا بأنه لم يستدع أحمـد لامتحانه ، على الرغم من الحاح أحمـد بن أبى دؤاد عليه فى هـذا الصدد ، غير أن الواثق أمر أحمد بن حنبل بألا يقيم فى البلد الذى يقيم به الخليفة ، وألا يساكنه فى أرض . وفى هـذا برهان واضح على ما كان يحظى به الامام من نفوذ واسـع ، ومكانة مرموقة فى قلوب الشعب . وزاد أحد المترجمين لأحمـد ، بأنه لا يعلم فيما اذا كان الخليفة تحامى التشدد معه لأنه أعجب بثبـاته ، أو لأنه خشى العواقب الوخيمة التى قد تنجم عن اصـطنـاع الأذى لرجل ، كان يعده جمهور عصره من الأولياء الصالحين

***

ولسنـا بحاجة الى أن نكثر القول فى المتوكل ، فان رعايتـه لأحمد ، وما بعث به اليه من رسل ، لتؤيد بأجلى بيان نباهة ذكره وعظيم أثره .

هـذا وان العاطفة الدينيـة عند جمهور المسلمين ، لم تكن لتألف كثيراً تلك الآراء الطليقة والحياة المتحللة من كل قيد ، والتى كان يحياها المفكرون الأحرار ، ولذا فانهم قد شغفوا حبـاً برجل كأحمد بن حنبـل ، لمسوا فى اخلاصه الصحيح وورعه الصادق ، واستمساكه الوثيق بكل ما يقدسـه

المسلمون ، ويدينون به ، من ايمان بالله ورســوله ، وبالقرآن والحديث ، وسنة النبى عليه الســلام ، وشعور التكافل والتعاطف بين أبنــاء الأمة الاســلامية ، ما جعله موضع الاعزاز والتقدير عند الــكافة . كما أنه كان مثالاً للسعى الذى يحمده كل مسلم ، ويســتأثر باجلاله واعجابه ، وهو العمل الذى يتقرب به العبــد لربه ، ابتغاء ثوابه ومرضاته . وممن يدرك جيــداً معنى هــذه العبــارة ، بالنسبة لرجل كالامام أحمــد ، فى صدق ايمانه ورســوخ عقيــدته ، أولئك الذين ألِفوا العبارات المــأثورة والــكلمات السائرة فى محيط الورع الاسلامى . ولو أخــذنا بالعدد الجم من المنامات الصالحة المغالية ، التى رآها النــاس للامام أحمــد بعد وفاته ، والتى تمثله فى نعيم الخلد يرتع فى بحبوحته ، لا يشك المرء فى أن المسلمين الصالحين ، كانوا يعتقدون أنه نال من الأجر والمثوبة فوق ما كان يرجو

وليس من المستغرب أن أحمد بن حنبل ، قد اعتبر فيما بعد ، المؤسس للمذهب الحنبلى ، ولو أن ذلك لم يكن ، فيما أعلم ، عن قصــد منه ، أو اعداد من جانبه . غير أنه كان وليا عظيما ، منافحا عن السنة ، اجتمعت فيه خلال الورع والتَّسَنُّن والنضال . وهــذه الحقيقة وحدها ، هى التى حملت تلامذته والمعجبين به ، على أن يُفرِغوا تعاليم أســتاذهم ، بعــد موته ، فى قوالب محدودة ، هى قواعد ومبــادىء ، كما ضموا صفوفهم ، وتساندوا فيما بينهم ، كى يؤلفوا مدرسة فقهية . ولا أعتقد أن أحمد جال بذهنه أن شيئاً من هــذا سيحدث بعد موته . أما وقد نشأ هــذا المذهب الفقهى عفواً ودون تدبير ســابق ، فانا لنعده دليلاً على الأثر العميق الذى كان لشخصية هــذا الرجل على عصره ، والعصور التالية له . فمما حمده المسلمون له من المناقب التى ألهجت ألسنتهم بالثناء عليه ، سيرته الشخصية وتعاليمه التى لا تحيد عن الســنة قيــد أنملة ، واعتصــامه بالسنة ، على الرغم مما لا قاه فى سبيل الذب عنها ، والحفاظ عليها ، من أذى واضطهاد

ولقــد كان أحمــد بن حنبــل عالمــاً ، ألــمّ علمه بناحيــة واحدة فحسب ، ألا وهى القرآن والحديث ، وما انعقــد من اجمــاع المسلمين فى

العرف الذى جَرَوْا عليه والرأى الذى ارتضوه . فكان واسع الخبرة بهذه الموضوعات ، راسخ القدم فيها . أما العلوم الدنيوية ، فيبدو أنه لم يكن على حظ كبير منها . وكان هذا الضرب من العلوم الشرعية ، مضافا اليها شجاعة أدبية عالية ، وجأش رابط ، وقدر كبير من الحذق الفطرى والبراعة الفائقة ، سلاحَه الماضى فى الحرب الجدلية التى أوقد نارها . والمسند وهو أجل كتبه ، وأعظم أثر خلّفه ، يشهد بعلمه الواسع ، فيما برع فيه خاصةً من العلوم الدينية الاسلامية . وقد ساعد هذا الكتاب والكتب الأخرى التى اشتقت منه ، على احلال الحديث مكانة رفيعة ، كمصدر من مصادر الفقه الاسلامى . وقد أصاب مسنده من التأثير مبلغاً يحملنا على أن ندرس سيرة مؤلفه ، وأن نستوعب ترجمته ، وسوف نرى فى ثناياها حياة واقعية صميمة ، اضطرد أثرها فى الفكر الدينى الاسلامى ، وشاركها فى هذا الأثر النافذ ، السِفر القيم الذى أخرجه

وقد ذكر أصحاب التراجم والمؤرخون ، الرجل وما لاقاه من الاضطهاد من أجل عقيدته ، وقد أغرقوا فى اطرائه ، والاعتراف بفضله والتنويه بخدماته . ومضى آخرون ممن يعنون بالمسائل الدنيوية ، يسجلون فى الغالب الحوادث العامة للتاريخ المدنى غير الدينى ، مؤثرين أن يتجاوزوا الحركة الدينية فى عصر أحمد بن حنبل ، وأن يُغفلوها ، أو لايذكرونها الا لماماً . غير أنه كان لهذه الحركة من المعنى والخطر ، ما لم يَفُتْ أعاظم المؤرخين ، كالطبرى مثلاً ، أن يدركوه وأن يفطنوا اليه . وقد أنصفها أبو المحاسن يوسف بن تَغْرِى بَرْدِى ، الذى عُنِى بالمجرى العام للحوادث من حيث علاقتها بالمحنة وبسيرة أحمد بن حنبل ، مع أنه صَرح فى كتابه « النجوم الزاهرة » ، أنه انما يكتب حوليات مصر وتاريخها . غير أن عنايته بتدوين أخبار الفقهاء والأولياء ، تكاد تتجلى فى كل صفحة من صفحات كتابه . فقد وَفّى هذه الأخبار حقها من الشرح والبيان

وفى القصة التالية عُنِيتُ بأن أورد سيرة متصلة الحلقات ، لحياة

الشخصية التى اتخذتها موضوعاً لدراستى ، وذلك من مبدئها الى منتهاها . ومع ذلك فالقصة تتشعب حوادثها ، ويتسع نطاقها ، حينما تصبح حياة أحمد ، أحد العوامل الرئيسية فى التاريخ العام لهذا العصر ، وقد بسطتها كى يتهيأ لنا أن نعد فكرة صحيحة عن كافة الحوادث الدينية التى كانت تجرى فى ذلك الوقت ، كما يتاح لنا أن نرى أحمد بن حنبل فى صورة جلية واضحة ، فى المجال الذى أحرز فيه دون غيره ذكراً نابهاً وصيتاً ذائعاً ، جعله فى مصاف أبطال الاسلام وأعلام فقهائه وزاهديه

وليلاحظ أن الكتاب الأوربيين كتبوا ما كتبوه عن عقائد السنة الاسلامية ، وقد غلب عليهم شعور النفرة منها والاستثقال لها . كما أنهم خصوا المعتزلة بأكثر مما يستحقون من اطراء وتقدير . وفى الحق لقد كان المعتزلة أنصارا لحرية الفكر . ولكنهم كانوا فى كثير من الحالات لا يتحرجون عن التماس ملذاتهم والاسترسال فيها ، الى الحد الذى لا يؤتمنون فيه على رعاية المثل الخلقية أو الغيرة عليها (*) . ومن المشكوك فيه أن مناصرتهم للتفكير الحر ، كانت تصدر فى الغالب عن تقدير سليم أو فكرة عالية عما يدخل فى تكوين الحرية الصحيحة . ويبدو أن الباعث الذى حملهم على انتهاج الخطة التى سلكوها ، هو باعث النفع والمصلحة . فقد بشروا بانجيل الحرية لأنهم أحسوا أن أحكام الشريعة تقيدهم بالقيود التى تحول بينهم وبين ما يشتهون . فالواجب أن يكون الثناء مصروفاً الى الأفذاذ المخلصين الذين يتعشقون الحرية ، ويرونها حقاً لكل انسان ، ويسعون لاستخلاصها على هذا الاعتبار . غير أن الجزء الباقى من القصة ، سوف لا يبين لنا الا عدداً قليلاً من أمثال هؤلاء فى هذه الناحية من نواحى التاريخ التى يتناولها موضوعنا

(*) لا أدرى المصادر التى رجع اليها المؤلف والتى استند اليها فى اصدار حكمه هذا على المعتزلة . ولم تكن قد نشرت بعد فى سنة ١٨٩٧ م التى ظهر فيها كتاب المؤلف ، بعض الكتب الخاصة بالمعتزلة ، ولكن تراجم أعلام الاعتزال كانت فى كثير من كتب التراجم كتاريخ بغداد للخطيب ووفيات ابن خلكان ، وكذلك فى مؤلفات الجاحظ ، وكلها تدل على أن أقطاب الاعتزال كانوا أعلاما فى العلوم العربية والشرعية والكونية كما كانوا أمثلة للرجولة وسمو الخلق ، مثل العلاف والنظام واحمد بن أبى دواد ، ومن العجيب أن تخفى هذه الحقائق عن المؤلف .

وسيلقى هـذا البحث ضـوءاً جديداً على أخلاق الخلفـاء العباسـيين الأربعة : المـأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . وقد ينتهى بنـا هـذا ، الى تغيير حكمنا على المـأمون والمتوكل .. اذ يصبح الرأى فيهما مغايراً لمـا كان مألوفاً من قبل . فالمـأمون العالم ، نصير العلماء ، وأول خليفـة من المفكرين الأحرار ممن عنـوا عنـاية صـادقة بالمسـائل الدينيـة ، سيتكشف لنـا عن رجـل لا يتسـامح مع خصـومه فى الرأى ، الى الدرجة التى تجعل منه طاغية عسوفاً ، يصطنع لمخالفيه صـنوف الايذاء والاضطهاد

وليس من المحتمل أن نجد من الأسباب ، ما يحملنـا على تغيير حكمنـا عليه من حيث ميوله الحرة . فقـد كان ذا عقل فَطِن متوقد ، يكره أن يدعه مُصَفَّدا بالقيود والأغلال . كما اعتقـد أن من حقه أن يفكر الى أقصى مدى يُتَاح له من التفكير ، وأن يخلق المجال للترتيب العقلى ، فيما لا يجد فيه ارتباطاً أو اتساقاً . ولو أنه وقف عند هـذا الحد ، لسجل لنـا خدمة جليـلة من الخـدمات التى أسـداها لمواطنيـه ، والتى حققها لهم بوسـائط معنوية . غير أنه لمـا أبى أن يتقيـد بما اعتقده طغياناً روحياً ، لكى يغدو بدوره طاغية روحيا ، ومُضْطَهِدا يُروع النـاس بالعذاب والنكال ، فقد تلوثت ، فى نظرنا ، الصورة النقية الخـالصة التى كانت لمطامحه وأمانيـه الأولى ، وتلطخت تلطخاً نستشعر معه الأسى والرثاء

أما المتوكل فهو أحد الخلفـاء الذين تبـاين أخلاقهم الوصـف الذى وصفه به المؤرخون الأوربيون ، فأخلاقه هى أشـد سـواداً من الليـل البهيم . لقد كان سنياً ، غير أن معاملته للأحرار شابهت معاملة أسـلافه لفقهاء السنة . بينا الموقف الذى اتخذه حيال أحمد بن حنبل ، يكشف لنا عن رجل له من المناقب والمآثر ، ما يخفف من أوزاره ومساوئه . ولكن لا يؤخذ من هذا ، أنا نتجاوز عما اقترفه من فظائع مروعة نحو ضحاياه ، أو نغضى عينا على ما كان يغلب عليه أحيانا من شعور التشفى والارتياح ، حين يحكى جرائمه ، وكأنه كان يترنم بذكرها . بل لا نخفف من حكمنا عليه

بسبب غلظته وتضييقه على اليهود والنصارى . غير أن الرجل كان متعصباً لدينه ، فعلينا أن تتقيد بهذا الاعتبار فى حكمنا على الكثير من أعماله ، وأن نكون فى تقديرنا أكثر رعاية لوجهة النظر الدينى عما كان عليه الباحثون من قبل

وسوف يرى القارىء أننا فى بعض النقاط الأخرى من البحث ، قد أشرنا فى الحواشى ، فى مواضع متفرقة من كتابنا الى وجوه الخلاف فى الرأى ، بينى وبين المؤلفين المحدثين من المستشرقين ، الذين رجعت الى مؤلفاتهم وأبحاثهم ، غير أنى مع ذلك أتنهز هذه الفرصة لأقرر بأن مؤلفات شتينر Steiner ؛ وفون كريمر، Von Kremer ، وهوتسما Houtsma وجولدتسيهر Goldziher وأضرابهم من العلماء ، قد أمدتنى بجزيل الفوائد . كما وانى أقدر خالص التقدير ما أسدته أبحاثهم ودراساتهم من جليل الخدمات ، فى جلاء معلوماتنا عن هذا العصر من التاريخ الاسلامى الذى تتناوله أيضاً عجالتى هذه

وانى فى كتابى هذا ، قد استعنت بثلاث مخطوطات عربية فى مكتبة جامعة ليدن ، استقيت منها القسط الأوفر من مادة بحثى وهى :

١ ــ المخطوط رقم ٣١١ ا ، وزميله رقم ٣١١ ب ، وهما الجزءان الرابع والخامس من كتاب حلية الأولياء أو حلية الأبرار ، لأبى نُعَيْم أحمد بن عبد الله الأصبهانى ، المتوفى سنة ٤٣٠ هـ (*) ، وهذا الكتاب يقع فى خمسة مجلدات مخطوطة

(*) فى الاصل ٤٥٠ هـ والصحيح أنه توفى سنة ٤٣٠ هـ وقد أورد له الذهبى ترجمة مطولة فى كتابه تذكرة الحفاظ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٣٤ هـ حـ ٣ ص ٢٧٥ فى الطبقة ١٣ ترجمة رقم ١٨ ، وذكر أنه ولد سنة ٣٣٦ هـ ومن مؤلفاته الحلية التى ذكرها المؤلف وقد طبعت بالقاهرة فى عشرة أجزاء من سنة ١٣٥١ هـ الى سنة ١٣٥٧ . وكان أبو نعيم من شيوخ الحديث كما كان مؤرخا فقد كتب علاوة على كتابه فى تراجم الأولياء الآنف الذكر ، كتابا فى تاريخ أصبهان طبع فى ليدن سنة ١٩٣١ م فى مجلدين . ومن مؤلفاته كتاب دلائل النبوة طبع فى حيدر اباد اعتمد عليه المستشرق الانجليزى مرجليوث فى كتابه : المراحل الاولى للتطور الاسلامى (بالانجليزية) المحاضرة السابعة ، لندن سنة ١٩١٤ م

٢ ــ المخطوط رقم ٧٣ ا ، ولم يكن موجوداً بين مخطوطات جامعة ليدن ، حين صنف دوزى Dozy فهرسته لمخطوطات مكتبة هذه الجامعة ، ولذا لم يرد ذكره ووصفه فى هذا الفهرست . غير أن دوزى ذكر المجلد المكمل لهذا المخطوط ، وهو تحت رقم٧٣ ب ، وتناوله بالوصف والبيان. والكتابان جزءان من كتاب طبقات الشافعية لتاج الدين عبد الوهاب ابن السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ

٣ ــ المخطوط رقم ١٩١٧ ، وهو كالمخطوط السابق لم يرد ذكره فى قائمة المخطوطات بمكتبة جامعة ليدن ، ولكنه ورد فى فهرست لاندبرج Landberg ، وهو قائمة بمخطوطات عربية أمكن الحصول عليها من احدى المكتبات الخاصة ، فى المدينة المنورة ، وهى فى حيازة ا.ج. بريل E. J. Brill ، أحد البيوت التجارية بمدينة ليدن بهولندة . وعنوان المخطوط : مناقب أحمد بن حنبل وهو بخط مؤلفه نفسه ، وهو المؤرخ الكبير أحمد المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ

وتوجد ترجمة أحمد بن حنبل فى الصحفات التى تبدأ من ص ١٣٨ وتنتهى فى ص ١٦١ من كتاب « حلية الأولياء » لأبى نعيم ، وفى الصفحات التى تبدأ من ص ١٣٢ وتنتهى فى ص ١٤٣ من كتاب « طبقات الشافعية الكبرى » لابن السبكى (*) . وقد استقيت الكثير من مادة بحثى من الكتاب الأول وهو « الحلية » لأنه أوسعهما مادة ، وأكثرهما تفصيلا، وأجلاهما بياناً للحقائق المتعلقة بسيرة الامام أحمد بن حنبل ، كما أنه أقدم المصادر الثلاثة السابقة ، ودليل قِدَمه ، الروايات الكثيرة والمحادثات المستفيضة والتفصيلات الشخصية التى سجّلها ، وهو مما أغفلته المصادر المتأخرة عن أبى نُعَيم . وتزودنا ترجمة ابن السبكى لأحمد ، بمادة غزيرة

(*) لقد طبعت المخطوطات التى رجع اليها المؤلف ، وهى : حلية الاولياء لابى نعيم فى عشرة أجزاء ، وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ، طبعت بالقاهرة فى سنة ١٩٠٦ م فى ستة أجزاء ، والنجوم الزاهرة تطبعه دار الكتب المصرية منذ سنة ١٩٢٩ م وقد ظهر منه احد عشر جزءا ، وتوجد مراجع أخرى هامة عن المحنة لم يرجع اليها المؤلف ، طبع بعضها ولا يزال البعض الآخر مخطوطا مما فصلنا ، فى غير هذا الموضع

تتعلق بالدور الذى قام به أحمد فى المحنة ، ولـكنها لم تبسط القول فى ترجمة الامام فى الأعوام السابقة للمحنة أو التالية لها . أما بحث المقريزى ، فانى أكاد أتيقن أنه جزء من كتابه الـكبير « المُقَفَّى » ، وهو قطعة جيدة من أدب التراجم والسِيَر ، تتسم بحسن الترتيب ، وايجاز العبارة ودقة الاستيعاب لسيرة الامام وذويه . وترجمة المقريزى لأحمد ، تفوق ترجمة أبى نُعَيْم ، اذا راعينا احكام التأليف ، وجودة الانتاج الأدبى ، فهى تمتاز باكتناز الأسلوب ولطف السبك وحسن الرصف ، ولكنها لا تجدى كثيراً الباحث الذى يسعى لجمع المادة التاريخية ليؤلف منها ترجمة موجزة كترجمة المقريزى ، غير أن الحلية لسعة مادتها وكثرة رواياتها المتعلقة بنواح فرعية صغيرة فى سيرة أحمد ، تزوده بمادة أغزر وبيان أوفى ، وتفصيل أدق عما جاء فى كتابة المقريزى

وقد أشرت فى احدى الحواشى أنى تابعت الطبرى فى تاريخه فى مراجعة كتب الخليفة المأمون والاستشهاد بها ، كما أمدنا هذا المصدر بطائفة من المعلومات القيمة ، الخاصة بمسائل ذات صبغة عامة ، وقعت ابان المحنة ووقت اضطراد حوادثها

وقد اتجهت محاولتى الى الانتفاع بهذه المواد التاريخية التى جمعتها من هذه المصادر والمصادر الأخرى ، بحيث جعلت كل رواية من الروايات مكملة لغيرها ، معززة لها . ومع ذلك فقد ألفت بين هذه النتف المتناثرة ، ودأبت على أن يوحى مجموعها بقصة متسقة متماسكة ، قد اضطردت وقائعها وتكاملت أجزاؤها

وكم أدين بالفضل الكثير لأستاذى المبجل ، الدكتور م.ج.دى خوى(*)

(*) هو المستشرق العلامة الهولندى الكبير ولد سنة ١٨٣٦ م وتوفى سنة ١٩٠٩ م صاحب الفضل فى نشر تاريخ الطبرى ووضع فهارسه كما نشر المكتبة الجغرافية العربية فى ٨ مجلدات المشتملة على مؤلفات جغرافيى العرب فى القرن الرابع الهجرى وفتوح البلدان للبلاذرى وقسما من جغرافية الادريسى : نزهة المشتاق الى غير ذلك . راجع الآداب العربية فى الربع الاول من القرن العشرين بقلم شيخو ، بيروت سنة ١٩٢٦ م ص ٨٤

الذى أكن له كل تقــدير واحترام ، لمـا خصنى به من حسن التوجيــه وخالص النصيحة وصادق التشجيع ، والذى لولا عنايته ، ما كنت بالغا هــذه النتيجة ممثلة فى كتابى هــذا . وانى أزجى له أصــدق عبــارات الشكر لعطفه ، ولما أظهره نحوى من رقة وما غمرنى به من فضل ، اذ وضع تحت تصرفى المخطوطات الثلاثة التى استعنت بها فى اعداد هــذا البحث

ولتر ملفيل باتون
Walter Melville Patton

ليدن فى الرابع من شهر فبراير سنة ١٨٩٧ م

الفصل الاول

أحمد بن حنبل والمحنة

نشأة أحمد بن حنبل وطلبه للعلم (*)

١ ـ مولد أحمد ونسبه ٢ ـ سنو دراسته وشيوخه ٣ ـ تصدره للتحديث ٤ ـ مؤلفاته وتصانيفه . ٥ ـ المسند ٦ ـ تلامذة أحمد ٧ ـ علاقة أحمد بالشافعى ٨ ـ معاصروه ٩ ـ يزيد بن هرون ١٠ ـ على بن المدينى ١١ ـ يحيى بن معين ١٢ ـ الحسين ابن على الكرابيسى ١٣ ـ البخارى ١٤ ـ محمد بن أسلم ١٥ ـ الزهاد والمتصوفة (أ) الحارث المحاسبى (ب) بشر الحافى ١٦ ـ داود بن على ١٧ ـ ابراهيم ابن اسماعيل المعتزلى **

١ ـ مولد احمد ونسبه

ولد أحمد بن حنبل فى شهر ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ (١) . وكانت خراسان موطن أبويه (٢) . وكان والده محمد بن حنبل من أبناء أحد قواد خراسان فى الجيش العباسى الذى قوض عرش الأمويين (٣) . غير أن أسرته كانت قد تركت خراسان لتقيم ببغداد ، ووُلد لها أحمد ، بُعَيْد بلوغها هذه المدينة بأيام ، أو بأشهر قلائل على خلاف (٤) . ولم نقف على

(*) لا يوجد هذا العنوان فى الاصل ، فالفصول مرقمة ترقيما عدديا . وقد اضطررنا لوضع عناوين لها للارشاد الى ماتشتمل عليه

(**) هذه هى عناوين الفقرات التى أثبتها المؤلف بجوار كل فقرة وقد رقمناها ، ووضعنا قبل كل رقم هذه العلامة ، التى تفيد معنى فقرة ، وأدرجنا عناوين الفقرات كلها تحت عنوان الفصل .

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان رقم ١٩ ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ، الطبقة ٨ رقم ١٨ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى حـ ١ ص ٧٣٥ وما بعدها

ويشير المؤلف للطبعة الاوربية لهذا الكتاب وهو فى طبعة القاهرة سنة ١٩٣٠ م فى حـ ٢ ص

(٢) ياقوت حـ ٢ ص ٧٧٧

(١) ياقوت حـ ٢ ص ٧٧٧

(٣) حلية الاولياء لابى نعيم مخطوط ليدن ورقة ٢١١ أ ، ١٥٠ ب

(٤) ابن خلكان رقم ١٩ ، والذهبى الطبقة ٨ رقم ١٨ ، وتهذيب الاسماء واللغات للنووى ص ١٤٦ (هذه هى الطبعة الاوربية ، وفى طبعة منير بالقاهرة فى حـ ١ ص ١١٠)

أسماء أفراد أسرته ، كما لم نعرف لأبويه أبناء سواه . وليس فيما رجعنا اليه من المصادر ، ذكر لأحد من ذويه أو أقرباء أبيه ، اللهم الا عمه اسحق ابن حنبل (١) ، وولد لهذا الأخير ، يدعى حنبل بن اسحق بن حنبل (٢) .

وأصل أحمد من سلالة عربية خالصة (٣) ، من شيبان ، احدى بطون القبيلة العربية الكبيرة : بكر بن وائل . وقلما يُنسَب أحمد الى أبيه محمد . بل ينسب لجده لأبيه حنبل . وقد يرجع هذا الى أن أباه توفى فى الثلاثين من عمره (٤) ، حين كان أحمد لايزال طفلا . ومن ثم انتقل عبء تربيته الى أمه التى لا نعرف عن اسمها أو ترجمتها شيئا (*)

٢ ـ سنو دراسته وشيوخه

ولم نقف على شيء من أخبـاره فى السنين الأولى من حياته . ولا نعلم سوى أنه ظل مقيماً ببغداد الى سنة ١٧٩ هـ ، ففى هذه السنة ، حين بلغ الخامسة عشرة من عمره ، أخذ فى طلب الحديث (٥) . فبدأ بمجلس عبد الله ابن المبارك ، الذى قدم بغداد لآخر مرة فى سنة ١٧٩ هـ ، غير أن أحمـد جاء متأخرا ، اذ وجد أن ابن المبارك قد غادرها الى طرسوس (٦) (فى غزوة جُردت عليها لقتال الروم) وقد تأسَّف أحمد على عدم اجتماعه بالامام

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧٧١ . (*القاهرة حـ ٢ ص ٣٣٦)

(٢) النجوم الزاهرة حـ ٢ ص ٧٦ ، وانظر ايضا ص٢٦ (* القاهرة حـ ٣)

(٣) المقريزى مخطوط ليدن رقم ١٩١٧ ورقة ١ : واصلة من العرب . قال يحيى بن معين : ما رأيت خيرا من أحمد ، ما افتخر علينا قط بالعربية ، ولا ذكرها

(٤) يتضح لنا أن والد أحمد لم يمت قبل مولد ولده من العبارة التالية فى الحلية ورقة ١٣٨ ب (* القاهرة حـ ٩ ص ١٦٣) : وتوفى ابوه محمد ابن حنبل وله ثلاثون سنة ، فوليته أمه . قال : أبى كان قد ثقب أذنى .. الخ

(٥) تذكرة الذهبى الطبقة ٨ رقم ١٨

(٦) الحلية ورقة ١٣٨ ا (القاهرة حـ ٩ ص ١٦٣) : وكان ابن المبارك قدم فى هذه السنة وهى آخر قدمة قدمها . وذهب الى مجلسه فقالوا : خرج الى طرسوس فتوفى سنة احدى وثمانين . وفى تهذيب النووى ص ٣٦٥ (منير حـ ١ ص ٢٨٦) أن ابن المبارك توفى سنة ١٨١ هـ

(*) ورد اسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيبانى فى كتاب المصعد الاحمد الذى نشره الشيخ احمد شاكر فى صدر المسند (حـ ١ ص ٣٦ ط . القاهرة سنة ١٩٤٦)

مالك . لأن مالك بن أنس توفى فى سنة تسع وسبعين ومائة وهى السنة التى طلب الامام أحمد فيها الحديث ، فكان يقول :

« فاتنى مالك ، فأخلف الله علىّ ، سُفيان ابن عُيَيْنَة . وفاتنى حماد ابن زيد ، فأخلف الله علىّ سفيان بن عُيَيْنَة . وفاتنى حمّاد بن زيد ، فأخلف الله علىّ اسماعيل بن عُلَيَّة » (١)

وأول شيخ تلقى عليه العلم ، هو هُشَيْم بن بشير السُّلَمِى الذى توجه اليه فى سنة ١٧٩ هـ (٢) .

فقد أخذ عن هُشَيْم فى هذه السنة . ثم انه واصل دراسة الحديث معه لكى يتلقى بيانات أوفى عن الأحاديث المُشْكلة . واستغرقت هذه الدراسة ثلاث سنوات وجانبا من السنة الرابعة ، الى وفاة هشيم التى وقعت فى سنة ١٨٣ هـ . وقد كتب من املاء هُشَيْم كتاب الحج الذى يتضمن نحو ألف حديث ، وجانبا من التفسير والقضاء ، وكتبا صغارا

قال أبو الفضل صالح عن أبيه أحمد :

« وكتبت عن هُشَيْم سنة تسع وسبعين ، الا أنى لم أعتقد بعض سماعى . ولزمناه سنة ثمانين واحدى وثنتين وثلاثة . ومات سنة ثلاث وثمانين . كتبنا عنه كتاب الحج ، نحواً من ألف حديث ، وبعض التفسير والقضاء ، وكتبا صغارا . قال : قلت : تكون ثلاثة آلاف حديث ؟ قال : أكثر (١) »

وقد رحل أحمد فى طلب الحديث ، الى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والعراق (٣) . وممن تلقى عليهم : سفيان بن عُيَيْنَة المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، وابراهيم بن سعيد المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، ويحيى ابن سعيد القطان المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، ووكيع المتوفى سنة ١٩٦ هـ ، وابن

---

(١) المقريزى ورقة ٣

(٢) حلية الاولياء ورقة ١٣٩ ا (* طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٦٤)

(٣) أنظر فى موضوع الرحلة فى طلب الحديث كتاب جولد تسيهر : دراسات اسلامية (بالالمانية) حـ ٢ ص ١٧٦

عُلَيَّة المتـوفى سـنة ١٩٣ هـ ، وابن مهـدى المتوفى سـنة ١٩٨ هـ ، وعبد الرزاق بن همّام الصنعانى المتوفىسنة ٢١١هـ ، وجرير بنعبدالحميد، المتوفى سنة ١٨٨ هـ ، والوليد بن مسلم المتوفى سـنة ١٩٤ هـ ، وعلى ابن هشام بن البَريد ، ومُعْتَمِر بن سـليمان المتوفى سـنة ١٨٧ هـ ، وغُنْدَر المتوفى سنة ١٩٣ هـ ، وبشر بن المُفَضَّل المتوفى سنة ١٨٦ هـ ، وزياد البَكّائى ، ويحيى بن أبى زائدة ، المتوفى سنة ١٨٢ هـ ، وأبويوسف القاضى المتوفى سنة ١٨٢ هـ ، وابن نُمَيْر المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ، ويزيد ابن هرون المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، والحسن بن موسى الأشْيَب المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، واسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، وعلى بن المدينى المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ، ويحيى بن مَعِين المتوفى سنة ٢٣٣ هـ (١)

« واجتمع أحمد بالامام الشافعى وأخذ عنه الفقه وأصوله (٢) » . ولا نعرف كثيرا عن تاريخ أحمد الى سنة ٢١٨ هـ ، التى بدأ فيها الخليفة المأمون فى امتحان الناس بالقول بخلق القرآن . ففى هذه السنة يطفر اسم أحمـد بغتة ، ويصبح عَلَماً واسع الشهرة . ولا بد أنه درس على أبى يوسف ، قبل سنة ١٨٢ هـ ، وهى تاريخ وفاة ذلك القاضى الـكبير . وبدأت علاقته بالشافعى فى سنة ١٩٥ هـ ، حين قدم الشافعى بغداد ، ودام هذا الاتصال الى سنة ١٩٧ هـ ، وهى السنة التى توجه فيها الشافعى الى مكة

---

(١) انظر ايضا : تهذيب النووى ص ١٤٢ وما بعدها (*طبعة منير بالقاهرة حـ٢ص١٥٦) ، وطبقات الشافعية لابن السبكى ورقة ١٣٣ ا (* طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٠١) ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ، الطبقة ٨ رقم ١٨ ، وقد أضاف الذهبى لشيوخ أحمد بن حنبل ، تجير بن أسد ، كما ذكر أبو المحاسن (بن تغرى بردى) من شيوخ أحمد : قبيصة بن عقبة ، النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٣٨ (* طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢١) ، وخلف ابن هشام البزار، النجوم حـ ١ ص ٦٨١ (طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٥٦) ، واسماعيل بن ابراهيم بن بسطام ، النجوم حـ ١ ص ٧١٥ (*) وصحته اسماعيل بن ابراهيم بن بسام ، انظر طبعة القاهرة للنجوم فى حـ ٢ ص ٢٨٦ حـ ٢ ص ٣٠٢) . وقتيبة بن سعيد بن جميل ، النجوم الزاهرة ١ : ٧٢٤(*القاهرة حـ ٢ ص ٣٠٣ وقد عد الشهر ستانى ، وكيعا ، ويزيد بن هرون من الشيعة ، انظر الملل والنحل، ترجمة هاربريكر حـ ١ ص ٢١٨

(٢) المقريزى ورقة ٢

وبعد أن انقطع أحمد عنه فترة ، اتصل به مرة أخرى فى مكة ، كما اتصل به بعد ذلك فى بغداد مدة وجيزة ، عند عودة الشافعى اليها ، ليقيم بها شهرا فى سنة ١٩٨ هـ ، وذلك قبل رحيله نهائيا عن العراق (١) . وانا نعلم أن أحمد كان ببغداد فى هذا العام . وكان قبل ذاك قد جالس وكيع ابن الجراح ، ولازمه ، وذلك قبل وفاة وكيع فى سنة ١٩٧ هـ . وكان أحمد جيد الحفظ للأحاديث التى تلقاها عن شيخه ، حتى انه أباح لابنه أن يأخذ أى كتاب شاء من كتب وكيع ، فيذكر له حديثاً ، فيأتى أبوه باسناده ، أو يذكر اسنادا فيأتى أبوه بالحديث . وقد روى وكيع حديثه عن سفيان عن سلَمَة . ولكن أحمد استطاع أن يزيد فى رواة شيخه عن سلَمَة

جاء فى طبقات الشافعية لابن السبكى (٢) : « وقال قتيبة بن سعيد : كان وكيع ، اذا كانت العتمة ، ينصرف معه أحمد بن حنبل ، فيقف على الباب ، فيذاكره ، فأخذ ليلة بعضادتى الباب ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، أريد أن ألقى عليك حديث سفيان . قال : هات . قال : تحفظ عن سفيان ، عن سلَمَة بن كهَيل كذا ؟ قال : نعم ، حدثنا يحيى . فيقول : سلَمَة كذا وكذا . فيقول : حدثنا عبد الرحمن . فيقول : وعن سلَمَة كذا وكذا . فيقول : أنت حدّثنا ، حتى تفرغ من سلمة . ثم يقول أحمد : فتحفظ (عن) سلمة كذا وكذا ؟ فيقول وكيع : لا . فيأخذ فى حديث شيخ شيخ . قال : فلم يزل قائما حتى جاءت الجارية ، فقالت : قد طلع الكوكب ، أو قالت : الزهرة . وقال عبد الله (بن أحمد بن حنبل) : قال لى أبى : خذ أى كتاب شئت من كتب وكيع ، فان شئت أن تسألنى عن شىء من الكلام ، حتى أخبرك بالاسناد ، وان شئت بالاسناد حتى أخبرك عن الكلام »

ودرس أحمد مع سفيان بن عيينة فى مكة قبل سنة ١٩٨ هـ . وهى السنة

---

(١) مقال لدى خوى ، فى مجلة المستشرقين الالمانية ، المجلد ٤٧ ص ١١٥ ، وابن خلكان رقم ٥٩٦

(٢) ورقة ١٣٢ (* طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٠٠)

التى مات فيها سفيان . وليس لدينا ما يعيننـا على تحديد التاريخ الذى درس فيه معه ، ولا شك أن هذه الدراسة كانت فى مواسم الحج . فقـد حج أحمـد خمس حجج ، ثلاثا منهن راجلا (١) . ومن الراجح أن طلبه للحديث كان ابان اقامة الشافعى بمكة . فقد ذكر السبكى أنه حـدث فى مناسبتين ، أن قامت مناظرتان بين الشافعى واسـحق بن راهويه ، وكان أحمد بن حنبل من شهودهما (٢)

والحادث التالى قوى فى دلالته على أخلاق الرجل ، فحين كان أحمد بمكة ، سُرقت ثيابه ومتاعه ، ابان غيبته عن مسكنه فى الساعات التى كان يشتغل فيها بدراسة الحديث عن شيخه سفيان بن عُيَيْنَة . وعند عودته أخبرته امرأة البيت بالسرقة . ولكنه لم يستفسر عن شىء سوى أوراقه وألواحه . ولما أنتبِىء بوجودها لم يسأل عن شىء سواها . كما أنه قد اضطر ، بسبب تمزق ثيابه وتهلهلها الى التخلف لعدة أيام عن قاعة الدرس ، الى أن دفع القلق عليه بزملائه من طلاب الحديث الى افتقاده . وأن يعرضوا عليه تكسب قدر قليل من المال لتغيير ثيابه . ولكنه لم يقبل بأى حال ما عرضـوه عليـه من صِـلات أو قروض . فقـد أورد أبو نعيم فى الحِلْية : حدثنى أبى : حدثنا أحمد ، قال : أملى علىّ ، عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، من حفظه ، قال : نزلنا بمكة دارا ، وكان فيها شـيخ يكنى بأبى بكر بن سماعة ، وكان من أهل مكة . قال : نزل علينا أبو عبد الله فى هذه الدار ، وأنا غلام ، قال : فقالت أمى : الزم هذا الرجل فاخدمه ، فانه رجل صالح . فكنت أخدمه . وكان يخرج لطلب الحديث . فسُرِق متاعه وقماشه . فجاء ، فقالت له أمى : دخل عليـك السُّراق ، فسرقوا قماشك . فقال : ما فعلت الألواح ؟ قالت له أمى : فى الطاق . قال : وما سأل عن شىء غيرها (٣) »

---

(١) تهذيب الاسماء للنووى ص ١٤٤ (* طبعة منير بالقاهرة حـ ١ ص ١١٢)

(٢) طبقات الشافعية لابن السبكى ورقة ١٥٧ ، ١٥٨ (* طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٣٦)

(٣) ورقة ١٤٣ ا (* الحلية طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٨٠)

قال أبو نُعَيْم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا على بن الجهم بن بدر . قال : كان لنا جار ، فأخرج الينا كتابا ، فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا : نعم ، هذا خط أحمد بن حنبل . فقلنا له : كيف كتب ذلك ؟ قال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، ففقدنا أحمد بن حنبل أياما لم نره . ثم جئنا اليه نسأل عنه . فقال لنا أهل الدار التى هو فيها : هو فى ذلك البيت . فجئنا اليه ، والباب مردود عليه . واذا عليه خُلْقَان . فقلنا : يا أبا عبد الله ، ما خبرك ؟ لم نرك منذ أيام ، قال : سُرِقَت ثيابى . فقلت له : معى دنانير ، فان شئت خذ قرضا ، وان شئت صلة . فأبى أن يفعل . فقلت : تكتب لى بأجرة ؟ قال : نعم . فأخرجت دينارا وأبى أن يأخذه . وقال : اشْتَرِ لى ثوبا واقطعه نصفين . فأومأ أنه يأتزر بنصف ، ويرتدى بالنصف الآخر . وقال : جئنى ببقيته . ففعلت فجئت بورق . فكتب لى ، فهذا خطه (١)

***

أما عبد الرزاق مُحَدِّث اليمن ، فقد لقيه أحمد ، لأول مرة بمكة ، حيث كان الامام يؤدى فريضة الحج برفقة يحيى بن مَعِين (٢) وقد اعتزما بعد اتمام الحج أن يسافرا الى صنعاء فى اليمن وأن يأخذا الحديث عن عبد الرزاق . ولكنهما لما وصلا مكة لقيا شيخهما عبد الرزاق الذى جاء مثلهما لأداء فريضة الحج . وقد قدم يحيى بن معين أحمد بن حنبل لعبد الرزاق وأعلمه برغبتهما فى أخذ الحديث عنه . وحَدد ابن معين موعدا مع عبد الرزاق لتلقى الحديث فى مكة بدلا من السفر الى صنعاء . وقد أنبأ ابن معين أحمد بهذا ، غير أن أحمد سأله لِم قام بعمل كهذا ؟ فأجاب ابن معين بأن هذا يوفر مشاق الرحلة شهرا فى الذهاب ومثله فى العودة ، فضلا عن اقتصاد كافة النفقات فى الطريق . غير أن أحمد أعلن أن مثل هذه الاعتبارات

---

(١) الحلية ورقة ١٤٢ ا (* طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٧٧)

(٢) أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر ، طبعة ريسكة حـ ٢ ص ١٨٦

لا تغير ما اعتزمه من نية صالحة . وفى النهاية سافرا الى صنعاء . وتلقيا الأحاديث هنالك عن عبد الرزاق . ووصف المقريزى (١) هذا اللقاء فقال :

« حَج أحمد حجات ، رافق فى بعضها يحيى بن معين ، واتفقا على أنهما بعد انقضاء الحج ، يمضيان الى صنعاء اليمن ، يأخذان الحديث عن عبد الرزاق ، فوجداه فى الطواف . فلما فرغ اجتمعا عليه . وكان أحمد لا يعرف شخصه ، وانما يعرفه باسمه . فقال له يحيى بن معين : هذا أخوك أحمد بن حنبل . فقال : حَيَّاه الله ، انه ليبلغنى عنه كل ما أسَر به ، ثَبَّته الله تعالى ، على ذلك . ثم واعد يحيى ، الشيخ على قراءة . فلما انصرفا عنه ، قال أحمد لابن مَعِين : لِم أخذت على الشيخ الموعد ؟ فقال له يحيى : قد أراحك الله مسيرة شهر ورجوع شهر والنفقة . فقال الامام أحمد : ما كان الله ليرانى ، وقد نويت نِيَّة أفسِدُها بما تقول . ثم سافرا الى صنعاء اليمن وأخذا عنه بها »

وقد احتمل أحمد كثيرا من المشاق فى طريقه الى صنعاء . وعرض رفقاؤه أن يقرِضوه ما يكفى من المال ، ليُجَنِّب نفسه متاعب السفر ، ولكنه أبى وعمل مع الجمَّالين فى القافلة ليتكسَّب نفقات رحلته . ولما بلغ صنعاء ، أقام بها فى ضنك وحرمان . وكان يقدر أن يدفع عن نفسه ما يعانيه ، لو أنه قَبِل مواساة أصحابه . وذكر عبد الرزاق نفسه أن أحمد لازمه قرابة عامين . وانه عندما قَدِم ، بذل له مالا يستعين به . لأن البلد لا تنفق فيها تجارة . ولكن أحمد أصَر على ابائه ، لأن عنده ما يكفيه »

وقد وصف ذلك أبو نُعَيم (٢) ، فقال : « لما خرج أحمد بن حنبل الى عبد الرزاق ، انقطعت به النفقة ، فأكرى نفسه من بعض الجمَّالين الى أن وافى صنعاء . وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة ، فلم يقبل من أحد شيئا ... يقول (عبد بن حُمَيد) : سمعت عبد الرزاق يقول :

---

(١) المقريزى ورقة ٧

(٢) الحلية ورقة ١٤١ ب (* طبعة القاهرة ح ٩ ١٧٤)

قَدِم علينا أحمد بن حنبل هاهنا . فأقام سنتين الا شيئا . فقلت له : يا أبا عبد الله ، خذ هذا ، لشيء دفعه اليه ، فانتفع به ، فان أرضنا ، ليست بأرض متجر ولا مكسب ، وأرانا عبد الرزاق كَفّه ، مدها فيها دنانير . فقال أحمد : أنا بخير . ولم يقبل منى »

والأحاديث التى أخذها عن شيخه عبد الرزاق ، هى رواية الزهرى عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه . وأحاديث الزهرى عن سعيد بن المُسَيَّب عن أبى هُرَيرة . وكان أحمد مَجدودا موفقا فى أخذه الحديث عن عبدالرزاق قبل سنة ٢٠٠ هـ ، لأن مُحَدِّث اليمن ، اضطرب حِفظه ، واختلّت روايته بعد هذا التاريخ

روى أبو نعيم (١) : « لما قدم أحمد بن حنبل مكة من عند عبد الرزاق، رأيت به شحوبا ، وقد تبين عليه أثر النَّصَب والتعب ، فقلت (أى أحمد ابن ابراهيم الدورقى) : يا أبا عبد الله ، لقد شَقَقت على نفسك فى خروجك الى عبد الرزاق . فقال : ما أهون الشقّة فيما استفدنا من عبد الرزاق ، كتبنا عنه حديث الزهرى عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، وحديث الزهرى عن سعيد بن المُسَيَّب عن أبى هريرة رضى الله عنه ... قال أبى (أى أبو عبد الله) : ما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئا الا المجلس الأول ، وذلك أنا دخلنا بالليل، فوجدناه فى موضع جالسا ، فأملى علينا سبعين حديثا ، ثم التفت الى القوم ، فقال : لولا هذا ماحدّثتكم ، يعنى أبى (أى أبو عبد الله) . قال أبى (أبو عبد الله) : وجالس عبد الرزاق مَعمَرا (الذى توفى سنة ١٥٣ هـ) تسع سنين ، فكان يكتب عنه كل شيء . يقول : قال عبد الله : وكل من سمع من عبد الرزاق بعد المائتين فسماعه ضعيف ، وسمع منه أبى قديما »

ومما يتفق وحرص أحمد على اتباع سنة النبى (عليه السلام) انه عمل بكل ما جاء فى الاحاديث التى تلقاها عن شيخه عبد الرزاق ، حتى انه

---

(١) الحلية ورقة ١٤٤ ا (* طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٨٤)

احتجم كما احتجم النبى . قال المقريزى (١) : وصح عن الامام أحمد أنه قال : ما كتبت حديثا الا وقد عملت به ، حتى مَّر بى أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، احتجم وأعطى أبا طَيْبَة الحجّام دينارا ، فاحتجمت وأعطيت الحجّام دينارا »

وقد راسل الامام أحمد ، لمدة من الزمن ، اسحق بن راهويه ، الذى ذكره ابن النديم فى كتابه الفهرست (٢) بأنه من جلة أصحاب أحمد بن حنبل ، الى أن أخذ اسحق رقعة توصية للأمير عبد الله بن طاهر ، كتبها له يحيى ابن يحيى ، فأكرمه الأمير ، وقضى دَيْنَه ورفع منزلته

كتب السبكى (٣) : « ركب اسحق بن راهويه دَيْن ، فخرج من مرو ، وجاء نيسابور ، فكلم أصحاب الحديث يحيى بن يحيى فى أمر اسحق ، فقال : ما تريدون ؟ قالوا : تكتب الى عبد الله بن طاهر ، رقعة ، وكان عبد الله أمير خراسان ، وكان بنيسابور . فقال يحيى : ما كتبت اليه قط . فألحّوا عليه . فكتب فى رقعة : الى عبد الله بن طاهر ، أبو يعقوب اسحق ابن ابراهيم ، رجل من أهل العلم والصلاح . فحمل اسحق الرقعة الى عبد الله بن طاهر . فلما جاء الى الباب ، قال للحاجب : معى رقعة يحيى ابن يحيى ، الى الأمير . فدخل الحاجب ، فقال له : رجل بالباب ، زعم أن معه رقعة يحيى بن يحيى الى الأمير . فقال : يحيى بن يحيى ؟ قال : نعم . قال : أدخِله . فدخل اسحق وناوله الرقعة . فأخذها عبد الله وقبّلها ، وأقعد اسحق بجنبه ، وقضى دينه : ثلاثين ألف درهم ، وصيّره من ندمائه »

وكفى بهذا الحادث ، فى نظر أحمد ، أن يكون سببا يحمله على الكف عن مراسلة اسحق بن راهويه (*)

---

(١) المقريزى ورقة ٧

(٢) الفهرست لابن النديم طبعة فلوجل حـ ١ ص ٢٣٠ (*) طبعة التجارية بالقاهرة ص ٣٢١

(٣) طبقات الشافعية ورقة ١٥٦ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤

(*) زيادة عن الاصل لتوضيح اقتباس المؤلف

جاء فى تهذيب النووى (*) عن صالح بن أحمد بن حنبل : « قال : وأمسك أبى عن مكاتبة اسحق بن راهويه ، لما أدخل كتابه الى عبد الله بن طاهر وقرأه »

٣ ـ تصدر احمد للحديث

كان أحمد بن حنبل معدودا من الثقات الاثبات ، وهو ما يزال شـابا ، معروفا بصدقه وتثبته ، على الرغم من صغر سنه . كما كان فى مجالس العلم بين الشيوخ مهيبا موقرا

« قال أبو نصر : سمعت عَبْد بن حُمَيْد يقول : كان فى مسجد أظنه ببغداد ، وأصحاب الحديث يتذاكرون ، وأحمد يومئذ شاب ، الا أنه المنظور اليه من بينهم (١) »

ولا ندرى فى أية فترة فى تاريخ حيـاته كان أكثر نشـاطا واشـتغالا بالتحديث والتصنيف ، ولكنا نعلم أن الرياسة فى الحديث وروايته ، كانت قد انتهت اليه ، لما بدأ المـأمون فى امتحان النـاس بخلق القرآن ، وظل يروى الاحاديث ويلقنها الى ما بعد خلافة الواثق بقليل ، حين أمره هـذا الخليفة بالكف عن القـاء الدروس . ويحتمل أن يكون قد عاود تحديثه لعام أو أكثر ، بعد مبايعة المتوكل بالخلافة . ولـكنه لما ذهب الى العسكر فى سنة ٢٣٧ هـ ، أقسم ألا يَرْوى حديثا بتمامه ما دام حيا ، ويظهر أنه بَرّ بقسمه (٢)

(*) تهذيب النووى ص ١٤٤ وما بعدها (طبعة منير بالقاهرة حـ ١ ص ١١٢ ، ويلاحظ ان التاج السبكى علق على العبارة السابقة قائلا : « انظر ما كان أعظم أهل العلم عند الامراء ، وانظر ما أدنى هذه الكلمة واقصر هذه الرقعة ، وما ترتب عليها من الخير . وما ذلك الا لحسن اعتقاد الامير ، وصيانة أهل العلم أيضا ، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » ومع ما تدل عليه هذه العبارة من تشاؤم السبكى وتحسره على هذا العصر ، فان تقاليد المحدثين فى القرن الثالث الهجرى كانت تقضى بمقاطعة كل محدث يتصل بالامراء أو يتقلد من السلطان عملا ، اذ ان هذا يجعله متهما فى روايته

(١) الحلية لابى نعيم ورقة ١٤٤ ب (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٨٦

(٢) أنظر نهاية الفصل الثانى واوائل الفصل الثالث من هذا الكتاب

٤ ــ مؤلفات احمد بن حنبل وتصانيفه

ولا نعلم عن كتب أحمد بن حنبل وتصانيفه الا القليل . وقد « حُزِرت كتبه اثنى عشر حملا وعدلا ، كل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلبه (١) » . وقد بلغنا من أسماء كتبه : كتاب العلل، كتاب الفرائض ، كتاب التفسير، كتا بالناسخ والمنسوخ ، كتاب الزهد ، كتاب الايمان ، كتاب الأشربة ، كتاب المسائل ، كتاب الفضائل ، كتاب المسند ، كتاب طاعة الرسول ، كتاب الرد على الجهمية ، كتاب المناسك (٢)

٥ ــ المسند

وأعظم هذه الــكتب المسند ، مؤلّفه العظيم الذى نعرف عنه دون سائر مؤلفاته ، بيانات أوفى ، وتفصيلات أكثر ضبطا وتحديدا . ويشتمل على أحاديث مُسْنَدة لأكثر من سبعمائة صحابى ، وقد انتقاه جامِعُه وانتخله من سبعمائة ألف حديث (وفى تقدير آخر من سبعمائة ألف وخمسين ألف

---

(١) تهذيب النووى ص ١٤٣ (*) منير بالقاهرة حـ ١ ص ١١١)

(٢) الفهرست لابن النديم حـ ١ ص ٢٢٩ (*) طبعة التجارية بالقاهرة ص٣٢٠ . ويلاحظ ان ياتون لم يخصص حيزا فى رسالته لتحقيق أسماء المؤلفات التى كتبها الامام أحمد أو التى تنسب اليه ، كما لم يبحث فيما لا يزال باقيا . وأعتقد أن أى بحث فى سيرة الامام لا يعنى فيه بمؤلفاته يمد بحثا ناقصا . ولم يصلنا من كتب أحمد التى ذكرها ابن النديم سوى مؤلفــه الضخم المسند ، وكتاب الرد على الجهمية وهو رسالة صغيرة نشرها عيسى الحلبى بالقاهرة دون تاريخ للطبع . وتوجد كتب اخرى للامام احمد لم يذكرها ابن النديم وهى : ١ ــ كتاب الصلاة وما يلزم فيها وهو رسالة قصيرة ظهرت فى عدة طبعات بالقاهرة ٢ ــ كتاب السنة وهو رسالة قصيرة نشرت مع كتاب الرد على الجهمية ، وهو أيضا غير كتاب كبير نوعا ، بهذا العنوان، لابن الامام أحمد ، واسمه عبدالله . وقد نشر بمكة فى سنة ١٣٤٩ هـ ٣ ــ كتاب الورع ، ولعله كتاب الايمان الذى ذكره ابن النديم ، وقد نشره الكردى بالقاهرة فى سنة ١٣٤٠ هـ فى ١٢٦ صحيفة من القطع الصغير ٤ ــ كتاب مسائل الامام أحمد ، ولعله كتاب المسائل الذى ذكره ابن النديم ، وقد جمعه أبوداود السجتانى صاحب السنن ونشره رشيد رضا بمطبعة المنــار بالقاهرة فى سنة ١٣٥٣ هـ فى ٣٢٨ من القطع المتوسط . ولا بد أن توجد مقتبسات من مؤلفات احمد فى كتابابى بكر احمد بن محمد بن هارون الخلال البغدادى واسمه : الكتاب الجامع لعلوم أحمد بن حنبل » وهو مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ١٦٨ باللحق ، راجع كتاب هنرى لاوست ، بحث فى المبادىء الاجتماعية والسياسية لتقى الدين أحمد بن تيمية (بالفرنسية) ــ المعهد الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م ص ٦٢٣

حديث) ، ويشتمل المسند على ثلاثين ألف حديث (وفى روايات أخرى على أربعين ألف حديث (*)

وقد باهى أحمد بأن ما يحتويه مسنده وما يمكن أن يشتمل عليه ، يعد أصلا صحيحا يُحتَـَج به ، وان ما لم يأت به من حديث ، لا يُلتَـَفت اليه. فمسنده « أصل من أصول هذه الأمة »

وقد قال أحمد : « ان هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفا ، فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجعوا اليه ، فان كان فيه ، والا ليس بحجة » . وقال : « عملت هذا الكتاب اماما اذا اختلف الناس فى سُنَّة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رُجع اليه » . وقال عبد الله : خَرَّج أبى المسند من سبعمائة ألف حديث». وقال أبو موسى المدينى (**) : « ولم يُخَرِّج (أحمد) الا عمَّن ثبَت عنده صدقه وديانته ، دون من طَعن فى أمانته » . ثم ذكر باسناده الى عبد الله بن الامام أحمد ، رحمَة الله عليهما ، قال : « سألت أبى عن عبد العزيز بن أبان، فقال : لم أخَرِّج عنه فى المسند شيئا ، لمَّا حـَدث بحديث المواقيت تركته. وقال أبوموسى : « فأما عدد أحاديث المسند ، فلم أزل أسمع من أفواه النـاس أنها أربعون ألفا ، الى أن قرأت على أبى منصور بن زريق ببغداد ، قال : أنبأنا أبو بكر الخطيب قال : قال ابن المنادى : لم يكن فى الدنيا أروى عن أبيه منه ، يعنى عبد الله

(*) قدر ابن خلدون احاديث المسند بخمسين ألف حديث ، راجع المقدمة طبعة المهدى بالقاهرة سنة ١٩٣٠ م ص ٣٧٢ . وقدرها جولد يستهر بما يتراوح بين ٢٨ ، ٢٩ ألف حديث، انظر مادة أحمد بن حنبل فى دائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ص ١٩٩ : ٢٠١ ، فى النسخة الفرنسية ، وتابعه فى هذا التقدير « ناللينو » المستشرق الايطالى انظر دائرة المعارف الايطالية فى مادة أحمد حـ ٢ ص ٢٩ . ويقوم الشيخ أحمد محمد شاكر بترقيم أحاديث المسند واحصائها فى الطبعة المحققة للمسند التى يخرجها والتى نشرت دار المعارف اول اجزائها فى سنة ١٩٤٦ م بالقاهرة

(**) هو الحافظ ابو موسى المدينى المتوفى سنة ٥٨١ هـ ، له رسالة صغيرة اسمها :خصائص المسند ، تبحث فى مسند الامام أحمد ، وقد نشرها الشيخ أحمد محمد شاكر مصدرا بها الجزء الاول من المسند ، القاهرة سنة ١٩٤٦ م

ابن الامام أحمد ، لأنه سمع المسند وهو ثلاثون ألفا ، والتفسير وهو مائة ألف وعشرون ألفا (١) ، وذكر ابن النديم فى الفهرست أن عدد أحاديث المسند أربعون ألفا (٢)

والمسند مرجع طائر الصيت فى بيئات الفقه والحديث وسائر العلوم الدينية فى العالم الاسلامى . وكان ولا يزال مصدرا ، يستقى منه كثير من المؤلفين ، ويجعلونه عـُمدة لهم ، فى وضع مؤلفات أصغر من المسند حجما . غير أن ضخامته وسعة مادته ، ومَنحاه فى ترتيب الأحاديث ترتيبا يُكِد الباحث ويُضجِره ، كان من العوائق التى حالت دون كثرة تداوله والانتفاع به . وفى الحق أنه ما من فرد استطاع أن يستوعبه أو يحيط به ، وربما نَدَر من قدر على نسخه بمفرده . ولذا بينا نرى أجزاء من الكتاب مخطوطة بأقلام مختلفة ، لا نجد اليوم من نُسَخِه المخطوطة الكاملة سوى نسخة واحدة (٣)

ولا أثر اليوم للمسند كما دونه أحمد (٤) . ويظهر أن هذا المسند لم يتجاوز العصر الذى كُتِب فيه ، لأن أبا عبد الرحمن عبد الله بن أحمد ابن حنبل الذى حرر مسند أبيه بعد وفاته (٥) ، وأضاف اليه زيادات من عنده ، يتكلم فى هذا المسند ، عما سمعه من أبيه ، وما قرأه له من نسخته (أى من نسخة عبد الله) التى نقلها عن الأصل ، وما جمعه من كتب أبيه وأوراقه ، ثم أدرج فى النسخة التى قام بتحريرها ، هذه المادة كلها (٦)

---

(١) طبقات الشافعية للتاج السبكى ورقة ١٣٣ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٠٢

(٢) حـ ١ ص ٢٢٩ (*) نص عبارة ابن النديم كما وردت فى ص ٣٢٠ من طبعة التجارية بالقاهرة هو : كتاب المسند يحتوى على نيف وأربعين ألف حديث

(٣) جولد تسيهر فى مجلة المستشرقين الالمانية مجلد ٥٠ ص ٤٦٦ وما بعدها

(*) وقد اعتمد باتون فى بيانه عن المسند على هذا البحث القيم للمستشرق جولد تسيهر وعنوانه : « مواد جديدة فى مؤلفات الحديث عن المسلمين » ، ويستغرق من ص ٤٦٥ الى ص ٥٠٦ من المجلة المذكورة . وقد كتبه جولد تسيهر فى سنة ١٨٩٦ م لمناسبة طبعة المسند التى نشرت بالقاهرة فى تلك السنة . ونظرا لاهميته نرجو أن نذيل به رسالة باتون

(٤) جولد تسيهر فى مجلة المستشرقين م ٥٠ ص ٤٧٣

(٥) المصدر السابق ص ٤٧٢ ، ص ٥٠٤

(٦) المصدر السابق ص ٤٩٧

وفى بعض الحالات يقول فى بعض مروياته انه « يعتقد » أنه تلقى حديث كذا ، عن أبيه فى رواية الراوى الفلانى التى تلقاها عن فلان ، وأنه أدرجها فى مسـند أحد الصحابة ، (ويذكر اسم واحد منهم ، الى غير ذلك) وتشير هـذه الأدلة كلها الى أن عبد الله بن أحمـد ، لم يرجع الى كتاب يستعين به للاستيثاق من الأحاديث التى كان يرويها من حفظه

فالمسند كما وصلنا اليوم هو فى الصورة المُنَقَّحة المُعَـدَّلة التى قام بتحريرها عبد الله بن أحمد بن حنبل ، كما روت لنا مصـادرنا أن أبا عمر محمد بن عبد الواحد ، المتوفى سنة ٣٤٥ هـ ، كتب نسخة للمسند ، أضاف اليها الأحاديث التى زادها مُحَرِّرة عبد الله بن أحمـد . وفى عصر متأخر ، وضع أبو الحسن بن عبد الهادى السندى ، المتوفى سنة ١١٣٩ هـ ، شرحا كبيرا للمسند فى ثمانين قسما ، جاء فى عشرة مجلدات . وقد صنَّف زين الدين عمر بن أحمد الشَّمَّا الحلبى (١) ، مختصرا للمسند أسماه : « الدر المنتقد من مسند أحمد » وأخيرا عمد أحد علماء بيت المقدس ، وهو أبو بكر محمد ابن عبد الله المقدسى ، الى ترتيب المسند ترتيبا أبجديا ، وفق أسماء الصحابة الذين رُويت عنهم الأحاديث ، وسمَّاه : « ترتيب مسند أحمد على حروف المعجم (٢) » . وظهرت للمسند طبعة بالقاهرة فى سنة ١٨٩٦ م (٣) ، اعتمد فيها فى الغالب على نسخة خطية فى مكتبة السادات الوفائية

وقد فخر أحمد بمؤلفه الضخم (*) ، الذى رمى فيه الى غاية موسوعية ، طالما أن هذه الأحاديث تتعلق بالسنة النبوية . ويبدو أنه حاول أن يحيط بكل شيء ، يمكن فى نظره ، أن يعطى صورة كاملة غير منقوصة ، عما كانت

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة حـ ٥ ص ٥٣٤ وما بعدها

(٢) جولد تسيهر فى مجلة المستشرقين م ٥٠ ص ٤٧٠

(٣) المصدر السابق ص ٤٦٨

(*) لقد فهم المؤلف من عبارة أحمد فى وصف مسنده بأنه أصل للسنة يرجع اليه بأن أحمد كان يفخر به ، والمتصفح لسيرة أحمد يجد أنه كان أبعد الناس عن الفخر والمباهاة ، بل كان يمقت الشهرة ويجد السلامة فى خمول الذكر

عليه سُنَّة النبى (عليه السلام) ، لذا عمل على أن يدرج فى كتابه كل الروايات ، الموثوق بصحتها ، المروية عن الصحابة . وقد ترتب على ذلك ، أنه فى انتقاء الأحاديث ، لم يلتزم من الشروط الا أيسرها ، ومن الموازين الا أرحبها وأسهلها . وكان مُعَوَّله فى اختبارها وتمييز صحيحها من زائفها هو صحة الاسناد . فمَن اتُّهِم من رجال السَّند فى صدقه ، أو كان مدخولا فى دينه ، جرحه ، ولم يأخذ بروايته (١) . كما استَعان أحمد بمقياس آخر ، وهو اسقاط الأحاديث التى تتعارض تعارضا واضحا مع ما جاء بالقرآن ، أو ثبَت فى السُّنَّة ثبوتا قاطعا . ولكن لم ترُاع المطابقة بينهما مراعاة دقيقة (٢) . وأخيرا أقصى أحمد عن مسنده الأحاديث المتماثلة ، ولو أنه لم يلتزم هذا فى كافة الحالات (٣) . هذا وانا لنتوقع أن نصادف فى كتاب موسوعى كالمسند ، جميع أنواع الأحاديث ، كأحاديث العبادات والأحكام ، والآداب والرقائق ، والقصص والأساطير ، وأحداث التاريخ ، ونوادر التراجم (٤) . غير أننا لا نجد ترتيبا موضوعيا ، كالذى نراه فى صحيح البخارى ومسلم . فالأحاديث التى أخرجها هذان المحدثان هى أقل مما أخرجه أحمد ، وأقصر مدى من حيث الموضوعات أو الأبواب التى تناولها . وذلك لأن البخارى ومسلم وضعا نصب أعينهما غاية خاصة ، أتاحت لهما منهجا ، سارا على مقتضاه . أما غاية أحمد ، فكانت لا تتعدى جمع الأحاديث الصحيحة وتكديسها ، ولم يبغ شيئا سوى هذا

ومن الراجح أيضا أن مواد المسند جُمِعت خلال سنين طويلة . وان الجهود التى بذلها واضعه فى تأليفه لم تكن جهودا متصلة مضطردة . كما أنه من المحتمل أيضا ، أن الكتاب بعد الفراغ من تدوينه ، لم يراع عند

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٨

(٢) جولد تسيهر فى مجلة المستشرقين م ٥٠ ص ٤٨٠

(٣) المصدر السابق ص ٤٨١

(٤) المصدر السابق ص ٤٧٤

استعماله الربط بين مسانيده واحكام تسلسلها (*). فقد يقرأ قسما فى وقت ما ، ثم قسما آخر . كما يروى جزءاً لأحد المستمعين وجزءاً آخر لمستمع آخر . (ولم يسمع أحد" المسند بتمامه من الامام أحمد ، سوى ثلاثة) . وهـذه الحقائق أعاقت أحمد عن القاء نظرة شاملة لـكافة أجزاء الـكتاب فى وقت واحد ، أو تَخيُّل صورة كاملة تجمع أشتاته ، يمكنه أن يجيل فكره فيها ، فقد كان مقصورا على جمع أشتات الأحاديث الصحيحة ، دون أن يشايع فكرة من الأفكار ، أو يؤيد حركة من الحركات ، قد تفيدها معانى هذه الأحاديث . اذ لم يكن من قصده أن ينصب نفسـه حَكما أو عاملا للتأويل والتوفيق

وما من نص لدينا يدل على أن أحمد ، اتُّهِم فى حياته بوضع الأحاديث وانتحالها (١) ، وانما يبدو ميله الى جانب التساهل واللين فى أسانيده ، مع أن المعروف عنه والمفروض فيه أنه حجة نقَّادة فى الاسناد . فمن عدم ضبطه ، أن بالمسند عنعنات طويلة ، تشتمل على مجاهيل ، حتى فى الأسانيد الأولى للأحاديث التى أخرجها . ومع ذلك فان أحمد يشير اشارة خاصة الى أنه لايرى مانعا من قبول الأحاديث التى رواها هؤلاء الضعفاء . وأخيرا كان

(*) ان مادة المسند متنوعة ، كما ان امانة المؤلف فى جمعها هى فوق كل شك . ومع ذلك فقد تسربت الى مسند احمد أحاديث يقول المشتغلون بالحديث بأنها أحاديث ضعيفة . وينسب ابن تيمية ما يتبين انه موضوع من أحاديث المسند الى زيادات القطيعى التى أضافها لما روى عن عبدالله بن احمد . وقد لقى واعظ بغداد الشهير أبو الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ عنتا كبيرا من الحنابلة ، لما قرر أن بالمسند أحاديث ضعيفة . وقد صنف ابن حجر العسقلانى مؤلف الاصابة وشارح البخارى ، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ كتـابا فى الدفاع عن مسـند أحمـد ، اسمه : القول المسدد فى الذب عن المسند ،للامام احمد ، طبع فى حيدر اباد الدكن سنة ١٣١٩ هـ فى ١٠٤ صحيفة

(١) لم يعترض على صحة الاحاديث التى احتج بها أحمد ، ابان امتحانه فى حضرة المعتصم . وحين اتهم بأنه ينتحل الحديث غضب، وعمد الى افحام خصومه . راجع الفقرة العربية بطولها التى استشهدنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب

أحمد يميل الى الرواية عن القصّاص (١) الذين لم يحظوا بتقدير العلماء ، ولو أن المحدثين لم يتحاموا الرواية عنهم اطلاقا

***

وقد قام عبد الله بن أحمد بمهمته فى تحرير المسند فى أمانة ودقة ، وكان يعنى بالاشارة الى ما أضافه للأحاديث التى أخرجها أبوه ، مُدرِجا تصويباته وشروحه ، مع النص فى عبارة واضحة الى أنها من عمله وتأليفه . ويظهر أنه أفرد للأحاديث التى أضافها للمسند كتابا خاصا ، حمل هذا العنوان وهو: « زوائد مسند الامام أحمد بن حنبل لولده عبد الله الزاهد » . وكان عبد الله اذا ما سمع من أحد الرواة حديثا ، سبق لأبيه أن أخرجه فى مسنده ، نص عبد الله على ذلك عند تدوينه لهذا الحديث (٢)

وقد قرأ أحمد المسند على ولديه : صالح وعبد الله ، كما قرأه على عمه أسحق بن حنبل . وتألف من هؤلاء الثلاثة ، الجماعة التى حَظِيَت بسماع السند بتمامه ، وتلقيه عن مؤلفه

ولعله قد تبين لنا مما كتبناه آنفا ، أن ما يحتويه هذا السفر العظيم من أحاديث ، رواها أحمد وأخرجها ليست مرتبة وفق الموضوعات التى تتناولها. فان هذا الترتيب الموضوع لا نراه الا فى ضرب آخر من مجموعات الأحاديث التى تسمى بالمُصنَّفات . وهى نوع من التأليف يرتبط بمرحلة أخرى من مراحل التطور فى مؤلفات الحديث ، يختلف عن كتب المسانيد ، فالمسانيد

---

(١) جولد تسيهر فى مجلة المستشرقين الالمانية م ٥٠ ص ٤٧١ وما بعدها ، و ص ٤٧٨ وما بعدها .وانظر أيضا تعليقات دى خوى على كتاب فتوح البلدان للبلاذرى ، والشذور العربية التاريخية فى مادة : قص . ومن الطبيعى أن القصاص كانوا موضع الريبة عند المتحدثين المتشددين فى ضبط الحديث ، لانهم كقوم يحكون القصص ، لم يكن لهم من هدف جدى يجاوز التأثير فى سامعيهم . ولكن من الجائز انهم كانوا يأتون ببعض الاحاديث الصحيحة . واذا ما راعينا المنهج الانتقادى الذى كان شائعا فى ذلك العصر ، فان أمثال هذه الاحاديث كانت تتوقف صحتها الى حد ما على ضبط متنها . غير أنها فى الاغلب كانت تتوقف على صحة اسنادها

(٢) جولد تسيهر فى مجلة المستشرقين م ٥٠ ص ٥٠١ وما بعدها . وقد قيل أيضا ان عبد الله اضاف زوائد لكتاب الزهد فى مسند أبيه

التى يمثلها مسند أحمد ، مرتبة تبعا لأسماء رواتها ، من الصحابة ، أو المصادر الأولى للحديث ، أو وفق البلاد التى التقى فيها صاحب المسند بالرواة وأخذ عنهم . وانا لنتوقع أن نجد فى كتب الحديث المنسقة على هذا الوضع ، أن كل مسند من مسانيدها يحمل طابعا خاصا ويتسم بسمات معينة ، كما يكشف عن نزعة أو نزعات تشاكل هذه السمات ، وذلك تبعا لميول رجال السند الأولين ، أو رغبات سكان البلاد التى روى أهلها هذه الأحاديث

وهذه الظاهرة التى لا مندوحة عنها عند انتهاج طريقة المسانيد ، ما هى الا مصادفة طارئة فى ترتيب الأحاديث ، ولم تكن مما يقصده مؤلفو كتب الحديث . وقد صارت هذه المسانيد قليلة الجدوى ، بسبب طريقة ترتيبها الحاشدة لشتى الأبواب ، والجامعة لأكداس متراكمة من المادة الحديثية التى حشرت بين دفتيها ، وتعذر الانتفاع بها كمصادر يمكن الرجوع اليها لثقلها واستغلاقها ، مما حمل (أبا بكر محمد بن عبد الله) المقدسى ، على أن يقوم بترتيب مسند أحمد ، وتصنيف أحاديثه وفق موضوعاتها (*) تيسيرا لمراجعتها

ولم يقلل من ثقل مسند أحمد وعسره أن الأحاديث التى يشتمل عليها ، مرتب بعضها طبقا لأسماء رواتها من الصحابة ، وبعضها الآخر قد رتب تبعا للبلاد التى رويت فيها هذه الأحاديث وجمعت منها (١)

وترتيب الأحاديث فى هذا المسند ، كما ظهر فى طبعة القاهرة التى نشرت حديثا (فى سنة ١٣١٣ هـ — ١٨٩٦ م) هو كما يلى :

المجلد الأول ، من الصحيفة الثانية الى ص ١٩٥ ، مسانيد الصحابة العشرة بما فيهم الخلفاء الأربعة الأول

(*) يقصد بكلمة موضوعات هنا الأبواب الخاصة بالحديث ، وليس المعنى الاصطلاحى لكلمة موضوعات فى علم الحديث ويقصد بها الاحاديث الموضوعة التى تقابل الأحاديث الصحيحة .

(١) جولدتسيهر فى مجلة المستشرقين الالمانية ٥٠ ص ٤٦٩ وما بعدها

المجلد الأول ، من ص ١٩٥ الى ص ١٩٩ ، مسانيد أربعة آخرين من الصحابة ، ولم يُبيِّن سبب افرادهم

المجلد الأول ، من ص ١٩٩ الى ص ٢٠٦ ، مسند أهل البيت

المجلد الأول ، من ص ٢٠٦ الى نهاية المجلد

والمجلد الثانى والمجلد الثالث من الصحيفة الثانية الى ص ٤٠٠ ، مسانيد المشهورين من الصحابة

المجلد الثالث ، من ص ٤٠٠ الى ص ٥٠٣ ، مسند المكيين

المجلد الرابع ، من الصحيفة الثانية الى ص ٨٨ ، مسند المدنيين

المجلد الرابع ، من ص ٨٨ الى ص ٢٣٩ ، مسند الشاميين

المجلد الرابع ، من ص ٢٣٩ الى ص ٤١٩ ، مسند الكوفيين

المجلد الرابع ، من ص ٤١٩ ، الى نهايته ، والمجلد الخامس من الصحيفة الثانية الى ص ١١٣ ، مسند البَصْريين

المجلد الخامس ، من ص ١١٣ ، الى نهايته ، والمجلد السادس من الصحيفة الثانية الى ص ٢٩ ، مسند الأنصار

المجلد السادس ، من ص ٢٩ ، الى ص ٤٦٧ ، مسند النساء — وقد أدرج فيما بين الصفحات ٣٨٣ الى ص ٤٠٣ ، أحاديث تحت عنوان : « من مسند القبائل (١) »

ويتضح لنا أن كل قسم من الأقسام التى عددناها يسمى بالمُسْنَد ، مثل مُسْنَد المكيين ومسند الأنصار ، كما أن المُسْنَد هو عنوان الكتاب بكامل أجزائه (٢)

هذا وصف عام للمسند الضخم الشهير الذى ألفه الامام أحمد بن حنبل

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٢ ، وعن المسند أيضا أنظر كتاب جولدتسيهر : دراسات اسلامية (بالالمانية) جـ ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ .

٦ ـ تلامذة أحمد

ولدينا أسماء جماعة ممن سمع الحديث من أحمد . فمنهم شيوخه : عبد الرزاق ، وابن مهدى ، ويزيد بن هرون . ومن تلامذته : أبو الوليد ، وعلى بن المدينى ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والذهلى ، وأبو زرعة الرازى ، وأبو زرعة الدمشقى ، وابراهيم الحربى ، وأبو بكر أحمد ابن محمد بن هانىء الطائى الأثرم ، والبغوى عبيد الله بن محمد أبو القاسم ، وهو آخر تلامذته [1] ، وابن أبى الدنيا ، ومحمد بن اسحق الصاغانى ، وأبو حاتم الرازى ، وأحمد بن أبى الحوارى ، وموسى بن هرون ، وحنبل ابن اسحق ، وعثمان بن سعيد الدارمى ، وحجاج بن الشاعر ، وعبد الملك ابن عبد الحميد الميمونى (*) ، وبقى بن مخلد الأندلسى [2] ، ويعقوب ابن شيبة ، ودحيم الشامى ، وولدا أحمد : عبد الله ، وصالح

وكان أحمد بن حنبل فى طريقة تعليمه ، يقرأ الحديث من الكتب ، ولا يرويه من حفظه [3] ، ولم يرو من حفظه الا عددا يقرب من نحو مائة من الأحاديث . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : « ما رأيت أبى فى حفظه ، حدث من غير كتاب ، الا بأقل من مائة حديث [4] »

وقد اتبع هذه الطريقة وسار عليها على الرغم من أنه كان يعى كل ما يصل الى علمه ، ويحفظه عن ظهر قلب ، وقد جعله هذا امام الحفاظ فى

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى الطبقة ١٠ رقم ٧٤ (*) فى الاصل الطبقة ٨ رقم ١٨ وهو خطأ

(*) فى الاصل : الميمون وصححته ما أثبتناه

(٢) تهذيب النووى ص ١٤٣ (*) منير بالقاهرة حـ ١ ص ١١٠ وضبط مخلد (وهو بتشديد اللام فى الطبعة الاوروبية لتهذيب النووى) خطأ ، وصححته مخلد ،أنظر دى يونغ de Yong فى طبعته لكتاب المتشبة فى أسماء الرحال للذهبى ، وانظر القاموس المحيط ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن حـ ٢ ص ٣٢٨ . وقد أضفت دحيم الشامى لتلاميذ احمد ، وذلك نقلا عن طبقات الشافعية للسبكى ورقة ١٣٢ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٠١ ، وانظر أيضا تذكرة الحفاظ للذهبى الطبقة ٨ رقم ٧٦ (*) فى الاصل رقم ٦٩ وهو خطأ

(٣) تهذيب النووى ص ١٤٣ (*) منير بالقاهرة حـ ١ ص ١١ : وروينا عن على بن المدينى ، قال : قال لى سيدى احمد بن حنبل : لا تحدث الا من كتاب .

(٤) الحلية لأبى نعيم ورقة ١٣٩ أ (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٦٥

عصره . وحدث ذات مرة ، انه كان يلقى دروسه فى الحديث على تلامذته ، فبعد أن حفظوها عن ظهر قلب ، وتهيأوا لـكتابتها ، صاح أحمد وقال : « الكتاب أحفظ شيء » ، فيثب ويجيء بالكتاب (١) . وربما قصد بهذا ، مراجعة حفظه . ويبدو أن أحمد لم يتقاض من تلامذته أجرا على تعليمه ، سواء أكان الأجر لقاء قيامه بالتحديث أم مقابل تزويده تلامذته بأدوات الكتابة (٢)

٧ ـ علاقة احمد بالشافعى

كان أحمد يخص الشافعى بخالص مودته ، وعظيم تقديره . وقد شهد بفضله بقوله : انه ما من أحد مسّ بيده محبرة وقلما الا وللشافعى فى عنقه منّة (٣) . وقد أعلن أنه لم يبت مدة ثلاثين سنة الا ويدعو الله للشافعى صديقه ويستغفر له (٤) . ولما سأل عبد الله أباه أحمد ، أى رجل كان الشافعى حتى يدعو له كل هذا الدعاء ، أجاب بأن الشافعى كان كالشمس للدنيا وكالعافية للناس (٥)

ويبدو لنا أن أحمد كان أيضا موضع تقدير الشافعى ومحبته ، فقد رُوِى أن الشافعى قال له : « يا أبا عبد الله ، اذا صحّ عندكم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرونا به حتى نرجع اليه » . كما قيل ان أحمد قال : « قال لى محمد بن ادريس الشافعى : أنت أعلم

---

(١) تهذيب النووى ص ١٤٤ (*) منير بالقاهرة حـ ١ ص ١١١ . وانظر ايضا دراسات اسلامية لجولد تسيهر جـ ٢ ص ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) تهذيب النووى ص ١٤٥ (*) فى طبعة منير بالقاهرة حـ ١ ص ١١٢ ، عبارة لا تفيد المعنى الذى ذهب اليه المؤلف : عن الحسن بن الحسين الرازى ، قال : حضرت بمصر عند بقال ، فسألنى عن أحمد بن حنبل ، فقلت : كتبت عنه ، فلم يأخذ ثمن المتاع منى ،وقال : لا آخذ ثمنا ممن يعرف أحمد بن حنبل ، وربما التبست هذه العبارة على المؤلف ، ففهم منها ، أن احمد كان لايأخذ ثمن أدوات الكتابة من تلامذته

(٣) تهذيب النووى ص ٦٣٠ (*) منير بالقاهرة حـ ١ ص ٦٠

(٤) تهذيب النووى ص ٧٩٠ (*) منير بالقاهرة حـ ١ص ٥٠

(٥) المقريزى ورقة ٣

(*) وانظر دراسات اسلامية (بالالمانية) لجولد تسيهر جـ٢ص ١٨١ (*)ظهرت ترجمة فرنسية =

بالأخبار الصحاح منا ، فاذا كان خبر صحيح ، فأعلمنى ، حتى أذهب اليه ، كوفيا كان أو بصريا أو شاميا » . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : « جميع ما حدّث به الشافعى فى كتابه ، فقال : حدثنى الثقة ، أو أخبرنى الثقة ، فهو أبى رحمه الله » . وزاد قائلا : « وكتابه (أى كتاب الشافعى) الذى صنّفه ببغداد هو أعدل من الكتاب الذى صنّفه بمصر ، وذلك انه حيث كان هاهنا (ببغداد) ، يسأل الشيخ (أى الامام أحمد) ، فيُغيِّر عليه ، ولم يكن بمصر من يُغيِّر عليه ، اذا ذهب الى خبر ضعيف »

ثم قال : « وسمعت أبى يقول : استفاد منا الشافعى ما لم نستفد منه [1] »

***

سافر الشافعى الى مصر فى سنة ١٩٨ هـ ، وأقام هنالك مدة تتراوح من شهرين الى ثلاثة ثم عاد الى مكة ، حيث بدأ منها رحلته الأخيرة الى مصر فى نهاية سنة ١٩٩ هـ ، أو بداية سنة ٢٠٠ هـ . وقد ألّف بالعراق كتاب الحج . أما زيارته الأولى لبغداد ، فكانت فى سنة ١٩٥ هـ . ثم رحل منها الى مكة فى سنة ١٩٧ هـ ، وعاد ليقيم ببغداد شهرا فى سنة ١٩٨ هـ [2] . وقد قال الشافعى (فى أحمد ، فيما رواه حرملة) : « خرجت من بغداد ، وما خلّفت بها أفقه ولا أروع ولا أزهد ولا أعلم من أحمد [3] »

٨ ـ معاصرو احمد

ومن شيوخ أحمد ببغداد : الهيثم بن جميل ، الذى كان عظيم الثقة بعدالة

لبعض فصول الجزء الثانى بعنوان : دراسات فى الحديث الاسلامى ، ترجمها ليون برشيه Leon Bercher ـ باريس سنة ١٩٥٢ م فى ٣٦٠ صحيفة ، والاصل الالمانى طبع فى مجلدين فى هاله Halle فى سنتى ١٨٨٩ م ، ١٨٩٠ م . ولم يكتب مثله فى تاريخ الحديث الاسلامى ولايزال الى اليوم حافظا لقيمته العلمية

(١) الحلية لابى نعيم ورقة ١٤٠ ب (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٧٠

(٢) دى خوى فى مجلة المستشرقين الالمانية مجلد ٤٧ ص ١١٥ ، وابن خلكان رقم ٥٦٩.

(٣) طبقات الشافعية للسبكى ورقة ١٣٢ (*) الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ١٩٩ ، ص ٢٠٠ وانظر ايضا ابن خلكان رقم ١٩

تلميذه وضبطه وديانته . وقد حدث مرة أن قيل له بأن أحمد بن حنبل خالفك فى حديث معين ، فقال : « وددت أنه نقص من عمرى وزاد فى عمر أحمد بن حنبل (١) »

٩ – يزيد بن هرون

ومما هو جدير بالملاحظة أن أحمد بن حنبل اعتبر يزيد بن هرون من الحفاظ المتقنين الذين تؤمن روايتهم للحديث . ويروى أن موسى ابن حزام الترمذى ، كان فى طريقه الى أبى سليمان الجوزجانى ، ليستفسر منه عن بعض مسائل ، فى كتب محمد بن الحسن . فقابله أحمد بن حنبل (عند الجسر) ، فاستفسر منه عن مقصده . فلما علم به قال له أحمد : « العجب منكم ، تركتم الى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة ، وأقبلتم على ثلاثة الى أبى حنيفة . فلم يفهم ابن جزام ما يعنيه أحمد ، فقال له أحمد : يزيد بن هرون بواسط يقول : حدثنا حميد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يقول : حدثنا محمد بن الحسن عن يعقوب عن أبى حنيفة. فأضاف موسى بن حزام قائلا : فوقع قوله فى قلبى ، فاكتريت زورقا من ساعتى ، فانحدرت الى أواسط ، فسمعت من يزيد بن هرون (٢) »

ومن جهة أخرى حين ذهب أحمد بنفسه ليأخذ عن يزيد بن هرون ، سأل عنه يحيى بن سعيد القطان . فلما علم الأخير بالمكان الذى ذهب اليه أحمد قال : وأى شىء يصنع عند يزيد بن هرون ؟ » (٣) وقد فسر ذلك بأن أحمد أكثر صلاحية لأن يكون شيخا ليزيد بن هرون ، لا لأن يكون تلميذا له

---

(١) الحلية لأبى نعيم ورقة ١٤١ (*) طبعة القاهرة حـ ٨ ص ١٧٣

(٢) الحلية لأبى نعيم ورقة ١٤٤ ب (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٨٥

(٣) الحلية ورقة ١٤٠ (*) طبعة القاهرة حـ ١٦٩ ، ويلاحظ ان سؤال يحيى بن سعيد سؤال استنكارى

١٠ ـ على بن المدين

كان على بن المدينى يُجِل أحمد بن حنبل اجلالا عظيما ، كما كان أحمد يقدره حق قدره . وقد قيل ان على بن المدينى ، لما قدم بغداد تَصَدّر حلقة الحديث ، ومن شهودها أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وخلف ، والمُعَيْطِى . فاذا تناظروا واختلفوا فى مسألة ما ، انتهوا الى رأى على بن المدينى ، اذا ما علا صوته بالكلام فيها . « وكان أحمد لايُسمّيه بل يُكنّيه أبا الحسن ، تبجيلا (١) » . واذا كان أحمد قد انتهت اليه الرياسة فى الفقه فى عصره ، فان على بن المدينى كان أعظم معاصريه بصرا باختلاف الحديث (٢) ، ويحيى بن معين أكتبهم له ، وأبو بكر بن أبى شيبة أحفظهم له (٣)

١١ ـ يحيى بن معين

وقال أحمد بن حنبل : « السماع من يحيى بن مَعِين شِفاء لما فى الصدور » . كما قال : « بأنه رجل خلقه الله لهذا الشأن ، يُظهر كذب الكذابين » ، وأن « كل حديث لا يعرفه يحيى ليس بحديث » . ولما مات خلف من الكتب مائة قمطر وأربعة عشر قمطرا ، وأربعة حباب مملوءة كتبا . وهذا يؤيد ما قيل عنه بأنه أكثر المحدثين فى عصره كتابة للحديث (٤)

---

(١) تهذيب النووى ص ٤٤٣ (*) طبعة منير بالقاهرة حـ ١ ص ٣٥١ وانظر أيضادراسات اسلامية لجولد تسيهر حـ ١ ص ٢٦٧

(٢) السبكى ورقة ١٨٥ (*) الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٦٦

(٣) تهذيب النووى ص ١٤٤ (*) منير بالقاهرة ص ١١١

(٤) تهذيب النووى ص ٦٢٨ (*) منير بالقاهرة حـ ٢ ص ١٥٧ وان كلمة « جبات » يجب ان تقرأ فيما يرجح ، حباب ومفردها حب ، انظر شرح دى خوى على المكتبة الجغرافية العربية (الحب بالضم الخابية فارسى معرب وجمعه حباب ، وفى الطبعة العربية بالقاهرة لتهذيب النووى جباب بالجيم

١٢ ـ الحسين بن على الكرابيسى

وكان الحسين بن على بن يزيد أبو على الكرابيسى ، المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، من معاصرى أحمد بن حنبل . وكان اماما جليلا ، جمع بين علمَى الفقه والحديث . وقد تفقّه أولا على مذهب أهل الرأى ، ثم تفقّه على الشافعى وأخذ عنه ، حتى أجيز (١) بالتصدر للافتاء والتحديث . وقال الخطيب البغدادى : « حديث الكرابيسى يعز جدا ، وذلك أن أحمد بن حنبل كان يتكلم فيه لما نال من ذكر سىء فى نظره » ويرجع ذلك الى ولعه بعلم الكلام (٢) وبمذاهب المتكلمين عموما ، ثم الى ميله بصفة خاصة الى تطبيق النظريات الكلامية ، للوصول الى آرائه فيما يتعلق بالقرآن . وقد كان الكرابيسى راسخ الايمان بأزلية القرآن ، ولكنه لما أفصح عن عقيدته هذه ، لم يُرض أحمد بن حنبل ، فقد أخذ عليه أحمد قوله فى مسألة اللفظ بالقرآن (٣) . ويبدو أنه استخف الى حد ما بمسائل وموضوعات ، كانت تعد فى نظر أقطاب السنة على جانب كبير من القداسة والخطورة ، فانه مثلا لما أجاب سائله بأن لفظه بالقرآن مخلوق ، وهو رأى يتفق وعقيدة الامام أحمد ، بدّعه أحمد ، لأنه انتهى الى هذا الرأى بالنظر العقلى والاستنتاج ، وليس باتباع السُّنن . ولما بلغ الكرابيسى قول أحمد فيه ، جَحَد رأيَه الأول ، وذهب الى أن اللفظ بالقرآن غير مخلوق كالقرآن تماما ولم يكن فى هذا بطبيعة الحال بأوفر حظا فى نيل موافقة الامام ، اذ عدّ قوله الجديد بدعة ثانية . ويبدو أن مدار النزاع ، كما يتضح ذلك لأول وهلة ، يدور على منهج الكرابيسى فى البحث ، أكثر مما يدور على صحة النتائج التى انتهى اليها فى آرائه الاعتقادية

---

(١) انظر معنى الاجازة فى دراسات اسلامية لجولد تسيهر حـ ٢ ص ١٨٩

(٢) انظر كتاب هوتسما Hautsma : المنازعات الاعتقادية (*) باللغة الهولندية ونشر بليدن سنة ١٨٧٥ م) ص ٨٧ وما بعدها للوقوف على أصل هذا المصطلح : « كلام » وتاريخ استعماله ، وانظر أيضا : الملل والنحل للشهرستانى ترجمة هاربريكر حـ ٢ ص ٣٨٨ وما بعدها

(٣) استخدمت هنا عبارة : « اللفظ بالقرآن » من حيث الاشارة الى التفوه بالقرآن فى الكلام البشرى . وفى الفقرة التالية أخذنا بها على أنها تفيد معنى أوسع

وقد أورد السبكى (١) هذه القصة ، فقال : «قيل للكرابيسى : ماتقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله غير مخلوق . فقال له السائل : فما تقول فى لفظى بالقرآن ؟ فقال : لفظك به مخلوق . فمضى السائل الى أحمد بن حنبل، فشرح له ما جرى . فقال : هذه بدعة .. ثم اعتذر السبكى عن عبارة أحمد ، فقال : « والذى عندنا أن أحمد أشار بقوله : « هذه بدعة » ، الى الجواب عن مسألة اللفظ ، اذ ليست مما يَعْنى المرء ، وخوض المرء فيما لا يعنيه من علم الكلام بدعة . فكان السكوت عن الكلام فيه أجمل وأولى . ولا يُظَن بأحمد ، رحمه الله ، أنه يَّدعى أن اللفظ الخارج من بين الشفتين قديم . ومقالة الحسين (الكرابيسى) هذه ، قد نُقِل مثلها عن البخارى ، والحارث بن أسد المحاسبى ، ومحمد بن نصر المروزى ، وغيرهم ، وسيكون لنا عودة ، فى ترجمة البخارى الى الكلام فى ذلك

ونقل أن أحمد ، لما قال « هذه بدعة » رجع السائل الى الحسين (*) ، فقال له : تلفظك بالقرآن غير مخلوق ، فعاد الى أحمد ، فعرفه مقالة الحسين ثانيا ، فأنكر أحمد أيضا ذلك ، وقال : هذه أيضا بدعة . وهذا يدلك على ما نقوله من أن أحمد انما أشار بقوله هذه بدعة ، الى الكلام فى أصل المسألة . والا فكيف اثبات الشىء ونفيه ؟ فافهم ما قلناه ، فهو الحق ان شاء الله تعالى ، وبما قال أحمد نقول ، فنقول : الصواب عدم الكلام فى المسألة رأسا ، ما لم يدع الى الكلام حاجة ماسة . ومما يدلك أيضا على ما نقوله ، وأن السلف لا ينكرون أن لفظنا حادث ، وأن سكوتهم انما هو عن الكلام فى ذلك ، لا عن اعتقاده ، أن الرواة رَوَوْا أن الحسين بلغه كلام أحمد فيه ، فقال : لأقولن مقالة حتى يقول أحمد بخلافها

---

(١) طبقات الشافعية ورقة ١٧٢ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣

(*) هذا النص الذى أورده المؤلف جاء فى مقدمته نقلا عن السبكى : قلت (أى السبكى) : كان أبو على الكرابيسى من متكلمى أهل السنة . أستاذ فى علم الكلام كما هو استاذ فى الحديث والفقه ، وله كتاب فى المقالات ، قال ابن الخطيب (فى الاصل أبو الخطيب وهو خطأ) الامام فخر الدين فى كتاب غاية المرام ، على كتابه فى المقالات معول المتكلمين فى معرفة مذاهب الخوارج وسائر أهل الاهواء ...

فيكفر ، فقال : لفظى بالقرآن مخلوق . وهذه الحكاية قد ذكرها كثير من الحنابلة ، وذكرها شيخنا الذهبى فى ترجمة الامام أحمد وفى ترجمة الكرابيسى ، فانظر الى قول الكرابيسى فيها ان مخالفها يكفر . والامام أحمد فيما يعتقده لم يخالفها . وانما أنكر أن يتكلم فى ذلك . فاذا تأملت ما سطرناه ، ونظرنا قول شيخنا فى غير موضع من تاريخه ، ان مسألة اللفظ مما يرجع الى قول جهم ، عرفت أن الرجل لايدرى فى هذه المضايق ما يقول . وقد أكثر هو وأصحابه من ذكر جهم بن صفوان . وليس قصدهم الا جعل الأشاعرة الذين قدّر الله لقدرهم أن يكون مرفوعا ، وللزومهم للسنة أن يكون مجزوما به ومقطوعا ، فرقة جهمية »

١٣ ــ البخارى

ولدينا بيان شيق للتدليل على التقارب فى الرأى بين البخارى وأحمد ابن حنبل ، فقد اتُهِم البخارى فى نيسابور بأنه يقول باللفظ بالقرآن ، حسدًا من أحد شيوخها ، (لما رأوا من اجتماع الناس عليه) وشايعهم الكثيرون فى تصديق التهمة . مع أن البخارى امتنع عن اجابة السائل فى مسألة اللفظ ، كراهة أن يجره ذلك الى اعمال العقل فى مسألة ، رأى أن الأدلة المستمدة من الحديث فى اثباتها أو نفيها قليلة . فكان امتناعه سلاحهم الوحيد فى الطعن على صحة عقيدته ، على الرغم من أنه كان يقول بقول الامام أحمد ، وهو أن القرآن غير مخلوق . ولكن التلفظ بالقرآن الذى يُفهم منه أنه من أعمال البشر من حيث الكتابة والقراءة والتلاوة ، وكل ما يتعلق بالمحافظة على الكتاب المنزّل ومدارسته والانتفاع به ، فهى عنده أعمال مخلوقة

« قال الحسن بن محمد بن جابر[1] ، قال لنا الذهلى : لما ورد البخارى نيسابور ، قال : اذهبوا الى هذا الرجل الصالح ، فاسمعوا منه ، فذهب الناس اليه ، وأقبلوا على السماع منه ، حتى ظهر الخلل فى مجلس الذهلى ،

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ورقة ٢١٤ (* الحسينية بالقاهرة حـ ٢ ص ١١ : ١٣)

فحسده بعد ذلك ، وتكلم فيه . قال أبو أحمد بن عدى : ذكر لى جماعة من المشايخ أن محمد بن اسماعيل (البخارى) لما ورد نيسابور ، واجتمعوا عليه ، حسده بعض المشايخ ، فقال لأصحاب الحديث : ان محمد بن اسماعيل (البخارى) يقول : اللفظ بالقرآن مخلوق ، فامتحنوه . فلما حضر الناس ، قام اليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فى اللفظ بالقرآن ؟ مخلوق هو أو غير مخلوق ؟ فأعرض عنه ، ولم يجبه . فأعاد السؤال ، فأعرض عنه . ثم أعاد ، فالتفت اليه البخارى ، وقال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأفعال العباد مخلوقة ، والامتحان بدعة . فشغّب الرجل وشغّب الناس ، وتفرقوا عنه وقعد البخارى فى منزله

« قال محمد بن يوسف الفريدى : سمعت محمد بن اسماعيل يقول : أما أفعال العباد فمخلوقة . حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا مروان بن معاوية ، حدثنا أبو مالك ، عن رَبَعى عن حذيفة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله يصنع كل صانع وصنعته » . وسمعت عبيد الله بن سعيد يقول : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : ان أفعال العباد مخلوقة . قال البخارى : « حركاتهم وأصواتهم وأكسابهم وكتابتهم مخلوقة ، فأما القرآن المتلو المثبت فى المصاحف ، المسطور المكتوب الموعَى فى القلوب ، فهو كلام الله ليس بمخلوق . قال الله تعالى:« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » . وقال : يقال فلان حسن القراءة ، ولا يقال حسن القرآن ولا روى القرآن ، وانما ينسب الى العباد القراءة ، لأن القرآن كلام الرب ، والقراءة فعل العبد ، وليس لأحد أن يشرع فى أمر الله بغير علم، كما زعم بعضهم أن القرآن بألفاظنا ، وألفاظنا به شيء واحد. والتلاوة هى المتلو ، أو القراءة هى المقروء

فقيل له : ان التلاوة فعل القارىء ، وعمل التالى ، فرجع ، وقال : ظننتهما مصدرين . فقيل له : هلّا أمسكت كما أمسك كثير من أصحابك ؟ ولو بعثت الى من كتب عنك ، واسترددت ما أثبت ، وضربت عليه ؟ فزعم ، أن : كيف يمكن هذا ؟ وقال : قلت . ومضى .

فقلت له : كيف جاز لك أن تقول فى الله شيئا دون شرح أو بيـان ، اذا لم تميز بين التلاوة والمتلو ؟ فسكت اذ لم يكن عنده جواب . وقال أبو حامد الأعمش : رأيت البخارى فى جنازة سعيد بن مروان ، والذهلى يسأله عن الأسماء والكنى والعلل ، ويمر فيه البخارى مثل السهم . فما أتى على هذا شهر ، حتى قال الذهلى : ألا من يختلف الى مجلسه ، فلا يأتنا ، فانهم كتبوا الينا من بغداد أنه تكلم فى اللفظ ، ونهيناه ، فلم ينته ، فلا تقربوه . قلت : كان البخارى على ما روى ، وسنحكى ما فيه ممن قال : لفظى بالقرآن مخلوق

وقال محمد بن يحيى الذهلى : من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق ، فهو مبتدع ، لا يجالس ولا يكلم ، ومن زعم أن القرآن مخلوق ، فقد كفر . وانما أراد محمد بن يحيى ، والعلم عند الله ، ما أراده أحمد بن حنبل ، كما قدمناه فى ترجمة الكرابيسى من النهى عن الخوض فى هذا . ولم يرد مخالفة البخارى ، وان خالفه وزعم أن لفظه الخارج من بين شفتيه المحدثتين قديم ، فقد باء بغضب واثم عظيم . والظن به خلاف ذلك . وانما أراد هو وأحمد وغيرهما من الأئمة ، النهى عن الخوض فى مسائل الكلام . وكلام البخارى عندنا محمول على ذكر ذلك عند الاحتياج اليه . فالكلام فى « الكلام » عند الاحتياج واجب ، والسكوت عنه عند عدم الاحتياج سنة ، فافهم ذلك . ودع خرافات المؤرخين ، واضرب صفحا عن تمويهات الضالين الذين يظنون أنهم محدثون ، وأنهم عند السنة واقفون ، وهم عنها مبعدون . وكيف يظن بالبخارى أنه يذهب الى شىء من أقوال المعتزلة ؟

***

وقد صح عنه فيما رواه الفريدى وغيره أنه قال : انى لأستجهل من لا يكفر الجهمية . ولا يرتاب المصنف فى أن محمد بن يحيى (الذهلى) لحقته آفة الحسد التى لم يسلم منها الا أهل العصمة . وقد سأل بعضهم البخارى عما بينه وبين محمد بن يحيى ، فقال البخارى : كم يعترى محمد

ابن يحيى الحسد فى العلم ، والعلم رزق الله ، يعطيه من يشاء . ولقد ظرف البخارى ، وأبان عن عظيم حكاية ، حيث قال ، وقد قال له أبو عمرو الخفاف : ان الناس قد خاضوا فى قولك لفظى بالقرآن مخلوق . يا أبا عمرو احفظ ما أقول لك : من زعم من أهل نيسابور وقومس والرّى وهمذان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة ، أنى قلت : لفظى بالقرآن مخلوق ، فهو كذّاب ، فانى لم أقله ، الا أنى قلت : أفعال العباد مخلوقة. قلت : تأمَّلْ كلامَه ، ما أذكاه ! ومعناه ، والعلم عند الله : انى لم أقل لفظى بالقرآن مخلوق ، لأن الكلام فى هذا ، خوض فى مسائل الكلام وصفات الله ، لا ينبغى الخوض فيها الا لضرورة

ولكنى قلت : أفعال العباد مخلوقة ، وهى قاعدة مُغْنِيَة عن تخصيص هذه المسألة بالذكر . فان كل عاقل ، يعلم أن لفظنا من جملة أفعالنا ، وأفعالنا مخلوقة ، فألفاظنا مخلوقة . ولقد أفصح بهذا المعنى فى رواية أخرى صحيحة عنه ، رواها حاتم بن أحمد الكِنْدى ، فقال : سمعت مسلم ابن الحجاج ، فذكر الحكاية ، وفيها أن رجلا قام الى البخارى ، فسأله عن اللفظ بالقرآن ، فقال : أفعالنا مخلوقة ، وألفاظنا من أفعالنا . وفى الحكاية أنه وقع بين القوم اذ ذاك اختلاف على البخارى ، فقال بعضهم : قال : لفظى بالقرآن مخلوق . وقال آخرون : لم يَقُل . قلت : فلم يكن الانكار الا على من يتكلم فى القرآن »

١٤ ــ محمد بن أسلم

وكان محمد بن أسلم أبو الحسين الكِنْدى الطوسى، المتوفى سنة ٢٤٢هـ ، من أقران أحمد ، وأقربهم شبها بالامام الكبير . وكانت هذه المشابهة من

أعظم مناقبه . وكان ابن أسلم خصما لدودا لفرقتي الجهمية والمرجئة [1] : خاصم الأولى لأنها كانت تقول بخلق القرآن ، وخاصم الثانية لأنها كانت تذهب الى أن الايمان هو محض اقرار (باللسان) ، دون أن يعززه اليقين الباطني والتجربة القلبية . أما حجته فى نقض مزاعم الجهمية ، فهى الآيات القرآنية التى خاطب الله تعالى فيها محمدا ، مُنَبِئا برسالته ، والآيات التى خاطب فيها موسى قائلا عن نفسه انه رب العالمين . فاذا أنكر الجهمية الآيات الأولى ، وقالوا بأنها ليست من كلام الله ، فقد شكّوا فى رسالة النبى . واذا سلّموا بأنها من كلام الله ، فان صفة الكلام أزلية فى ذاته . ولا يتسنى لمن يتصور الذات الالهية تصورا صحيحا أن يزيل عنها صفة الكلام. وعلى ذلك فكلام الله غير مخلوق . واذا زعموا فى كلام الله لموسى ، أن خلقا قال لموسى : (ياموسى انى أنا الله رب العالمين) فقد جعلوا للعالمين ربًّا غير الله ، والهما واحد دون ريب ، وتورط القائلون بهذا الرأى فى شِرْك مبين

ولكنهم اذا أقروا بأن الله تعالى تكلم حقا بكلام ، فعلينا ألا نعتبر هذه الكلمات التى صدرت عنه تعالى، أنها كلمات مخلوقة ، لمجرد صدورها ، بل علينا أن نعدها جزءا لا ينفصل عن العلم الالهى ، لأنه ما من طريقة أخرى غير الوحى المُنَزَّل ، ليصل علم الله الى خلقه ، ويَقْوى أثره فيهم. وقد أشركت الجهمية نتيجة لمقالتها . بل انهم دون أن يذهبوا الى هذا القول باستنتاجهم الخاطىء ، قد وقعوا ، فى نظر أهل السُّنَّة ، فى كفر آخر، بافترائهم على الله ، حين زعموا أنه تعالى لم يكلم موسى ، مع أنه جاء فى القرآن أنه كلّمه تكليما

---

(١) انظر الشهرستانى ترجمة هاربريكر ، للوقوف على آراء جهم بن صفوان مؤسس فرقة الجهمية ، حـ ١ ص ٨٩ . وانظر كتاب هوتسما : المنازعات الاعتقادية (بالهولندية) ص ١٠٢ ، ص ١٢٣ وما بعدها . وتوجد آراء المرجئة فى كتاب هوتسما ص ٣٤ وما بعدها ، وفى ص ٤٠ وهى فى الشهرستانى (الملل والنحل) حـ ١ ص ١٥٦ وما بعدها من ترجمة هاربريكر وتختلف عقائد المرجئة ، كما بينها هوتسما فى كتابه فى ص ٣٦ ، عما جاء عن محمد بن أسلم ، ولكنها تتفق مع الطبقة الثانية من فرق الكرامية (هوتسما ص ٣٩) ، ومع الصفاتية الكرامية (الشهرستانى ، الملل والنحل ، ترجمة هاربريكر جـ ١ ص ١١٩ وما بعدها ، ولا سيما ص ١٢٧) . وانا نذكر أن أحمد بن حنبل ألف كتابين يحملان هذين العنوانين : أحدهما كتاب الرد على الجهمية ، والآخر كتاب الايمان

وقد نقض ابن أسلم مزاعم الكرامية المرجئة ، بما ذهب اليه من أن الايمان هو رحمة من الله الى عبده ، ونور يقذف به فى قلبه ، يحببه الى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث واليوم الآخر ، والحساب والقدر كله خيره وشره ، والجنة والنار ، وأن هذا الايمان يمُن الله به على من يشاء من عباده ، وأنه لايكتمل الا اذا نطق اللسان ، مصدقا لما آمن به القلب وعملت الجوارح بعمل الايمان ، تصديقا لما استقر فى القلب ونطق به اللسان. وشهادة اللسان الاقرار بأن الاشياء التى آمن بها القلب حق ، فهى تؤمن بصدق هذا وتقر اقرارا رسميا بألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وان عمل الجوارح فى اطاعة ما أمر الله به ينحصر فى أن « تؤدى حق الله عليها فى فرائضه ، وأن تنتهى عن محارم الله »

وهذه النقط المختلفة تعززها حجج مستمدة من الكتاب والسنة . ولكن محمد بن أسلم ، وبعض المتشددين من أهل السنة ، يسوقون حججا أخرى لا يستمدونها من أحد هذين المصدرين . فمثلا يقول ابن أسلم : انه اذا صح قول المرجئة ـ وهو أن الناس يتفاضلون بالأعمال ويتساوون فى الايمان ـ فان النبى والخلفاء الأوائل الذين لم يقضوا حياتهم كلها فى الاقرار بالاسلام ولكنهم امتازوا مع ذلك بصحة الايمان ، يمكن أن يعدوا ، قياسا على هذا الرأى ، أقل فضلا ممن جاء بعدهم ممن كانوا أكثر لوكا وترديدا لصيغ العقيدة ، وكانوا أكثر انشغالا بهذا العمل. أما أولئك ـ ويسمون أيضا المرجئة (١) ـ الذين يعتبرون الأعمال ، معيار الايمان ومادته ، فآراؤهم مردودة ، وحججهم فى الغضّ من الصحابة والرعيل الأول منقوضة (*)

وكان محمد بن أسلم « من المثبتة لصفات الله ، القائلين بأنها أزلية غير محدثة» . ولكن ليس لدينا من النصوص والروايات ، ما يبين لنا منهجه فى

---

(١) يطلق عليهم خاصة اسم : الكرامية ، انظر دى خوى : شرح المكتبة الجغرافية العربية

(*) المعروف أن المرجئة يعولون على الايمان دون الاعمال ، ومن أقوالهم المأثورة : لا تنفع مع الشرك طاعة ولا تضر مع الايمان معصية

اثبات عقيدته هذه ، كما أنه لم يصلنا عرض" مفصل ، يشتمل على ما تتطلبه البرهنة على هذه العقيدة من حجج

جاء فى الحلية (١) : وأما كلامه فى النقض على المخالفين من الجهمية والمرجئة ، فشائع ذائع . وقد كان رحمه الله ، من المثبتة لصفات الله أنها أزلية غير محدثة ، فى كتابه المترجم بالرد على الجهمية ، ذكرت منه فصلا وجيزا من فصوله ... محمد بن أسلم رحمه الله يقول : زعمت الجهمية أن القرآن خلق ، وقد أشركوا فى ذلك ، وهم لا يعلمون ، لأن الله قدبيّن أن له كلاما ، فقال: «انّى اصطفيتك على النّاس برسالاتى وبكلامى».وقال فى آية أخرى : «وكلّم اللهُ موسى تكليماً». فأخبر أن له كلاماً ، وأنه كلّم موسى عليه السلام . فقال فى تكليمه اياه : «ياموسى ، انّى أنا ربّك». فمن زعم أن قوله : «ياموسى، انّى أنا ربّك» ، خلق ، وأنه ليس بكلامه ، فقد أشرك بالله ، لأنه زعم أن خلقا قال لموسى : « انى أنا ربك » . فقد جعل هذا الزاعم رباً لموسى ، دون الله . وقول الله تعالى أيضا لموسى فى تكليمه : «فاستمع لما يوحَى ، انّى أنا الله لا اله الا أنا فاعبُدنى». فقد جعل هذا الزاعم الها لموسى غير الله . وقال فى آية أخرى لموسى فى تكليمه اياه : «ياموسَى انّى أنا اللهُ رب العالمِين». فمن لم يشهد أن هذا كلام الله ، وقولُه ، تكلّم به ، والله قاله ، وزعم انه خلق ، فقد عظّم شِركَه وافتراؤه على الله ، لأنه زعم أن خلقاً قال لموسى : «يَاموسى انّى أنَا اللهُ رب العالمين » . فقد جعل هذا الزاعم ، للعالمين رباً غير الله ، فأى شِرك أعظم من هذا ؟ فتبقى الجهمية فى هذه القصة بين كفرين اثنين : ان زعموا ان الله لم يكلم موسى ، فقد ردوا كتاب الله وكفروا ، وان زعموا أن هذا الكلام : «ياموسى انّى أنا اللهُ رب العالمِين» ، من خلق ، فقد أشركوا بالله ، ففى هذه الآيات ، بيان أن القرآن كلام الله ، وفيها بيان شرك من زعم أن كلام الله خلق ، أو قول الله خلق ، أو ما أوحى الله الى أنبيائه خلق

(١) ورقة ١٦٢ ا وما بعدها (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ٢٢٤ وما بعدها

وأما نقضه ، رحمه الله على المرجئة الكـّـرامية التى زعمت أن الايمان هو القول باللسان من دون عقد القلب الذى هو التصديق ، فقد صنّف فى الايمان وفى الأعمال الدالة على تصديق القلب وأماراته كتابا جامعا كبيرا.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقَدر كله خيره وشره » ، الحديث . وهذا أول حديث ذكره واستفتح به كتابه وبنى عليه كلامه

قال محمد بن أسلم : فبدء الايمان من قبل الله قربانا ورحمة ، ومنا يمن به على من يشاء من عباده ، فيقذف فى قلبه الايمان ، ويحببه اليه . فاذا نـوّر قلبه ، وزيّن فيه الايمان وحبّبه اليه ، آمن قلبه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر كله ، خيره وشره ، وآمن بالبعث والحساب والجنة والنار ، حتى كأنه ينظر الى ذلك ، وذلك من النور الذى قذفه الله فى قلبه . فاذا آمن قلبه ، نطق لسانه مصدقا لما آمن به القلب ، وأقر بذلك ، وشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسـول الله ، صلى الله عليه وسلم . وأن هذه الأشياء التى آمن بها القلب حق . فاذا آمن القلب وشهد اللسان ، عملت الجوارح ، فأطاعت أمر الله ، وعملت بعمل الايمان ، وأدت حق الله عليها فى فرائضه ، وانتهت عن محارم الله ، ايمانا وتصـديقا بما فى القلب ، ونطق به اللسان . فاذا فعل ذلك كان مؤمنا . وقد بيّن الله تعالى ذلك فى كتابه : ان بدء الايمان من قلبه . فقال : « ولكن الله حبّب اليكم الايمان وزيّنه فى قلوبكم» وقال : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربّه » . وقال : « الذين أوتوا العلم والايمان » . وقال : « كتب فى قلوبهم الايمان » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للحارث ابن مالك : «عبد نـوّر الله الايمان فى قلبه». وقال : «نور يقذف فى القلب فينشرح وينفتح »

ثم بيّن الرسول أنه تبيّن على المؤمن ايمانه بالعمل حين قيل له : هل له علامة يعرف بها ؟ قال : نعم ، الانابة الى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله . ألا ترون أنه قد بيّن أن ايمانه

يُعرف بالعمل لا بالقول ، وقد بيّن أن الايمان الذى فى القلب ينفعه اذا عمِل بعمل الايمان . فاذا عمل بعمل الايمان تبين علامة ايمـانه أنه مؤمن ؟ فهذا كلامه الذى عليه البناء والـكتاب ، وأنه جعل الأعمال علامة الايمان . قال : الايمان هو تصديق القلب ، وأن اللسان شـاهد" يشهد ، ومُعبِّر يُعبِّر عما فى القلب ، لا أن الشاهد المُعبِّر نفس الايمان من دون تصديق القلب ، على ما زعمت الكرّامية

***

وضمن هذا الكتاب من الآثار المُسندة وقول الصـحابة والتابعين ، أحاديث كثيرة . قال محمد بن أسلم : (انْ) قال المُرجىء : الايمان واحد ، ويتفاضل الناس بالأعمال . يقال للمُرجىء : قولك : يتفاضـل النـاس بالأعمال خطأ ، لأنه زعَم أن من كان أكثر عملا ، فهو أفضل من الذى كان أقل عملا . فعلى زعمه أن من كان بعد رسول الله ، كان أفضـل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم عملوا بعده أعمالا كثيرة من الحج والعمرة والغزو والصلاة والصيام والصدقة والأعمال الجسمية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أفضـل منهم ، ثم من كان بعد أبى بكر ، قد عملوا أعمالا كثيرة لم يبلغها أبو بكر ، وأبو بكر أفضل منهم ، ثم من كان بعد عمر ، قد عملوا الأعمال الكثيرة التى لم يعملها عمر ، ولم يبلغها ، وعمر أفضـل منهم ، ثم من بعد أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم من التابعين ، قد عملوا أعمالا كثيرة ، أكثر مما عملتـه الصحابة ، والصحابة أفضل منهم . وأى خطأ أعظم من خطأ هذا المُرجىء الذى زعم أن الناس يتفاضلون بالأعمال ؟ انما الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، يُفضّل من يشاء من عباده على من يشاء ، عدلا منه ورحمة . فكُل من فضّله الله ، فهو أعظم ايمانا من الذى دونه ، لأن الايمان قَسم من الله ، قَسَمَه بين عباده ، كيف شاء ، كما قَسَم الأرزاق ، فأعطى منها كل عبد ما شاء

ألا ترى الى قول عبد الله بن مسعود : اذا أحبّ الله عبدا أعطاه الايمان . فالايمان عطية من الله ، يعطيه من يشاء ، ويُفضّل من يشاء على من يشاء ،

وهو قوله : «ولكنّ الله حبّب اليكم الايمان وزيّنه فى قلوبكم». وقال : « أفمَن شَرح اللهُ صدْرَهُ للاسلام ، فهو على نور من ربّه » ، أفلا ترون أن هذا التزيين وهذا النور من عطية الله ورزقه ، يعطى من يشاء كما يشاء ؟ ألا ترون أن الناس يمرون يوم القيامة على الصراط على قدر نورهم ؟ فواحد نوره مثل الجبل ، وآخر نوره مثل بيت . فكم بين الجبل والبيت من الزيادة والنقصان ؟ فاذا كان نور من خارج مثل الجبل ، وآخر مثل البيت ، فكذلك نورهما من داخل القلب على قدر ذلك

فالمرجئة والجهمية قياسُهما قياسٌ واحد . فان الجهمية زعمت أن الايمان المعرفة فحسب ، بلا اقرار ولا عمل ، والمرجئة زعمت أنه قول بلا تصديق قلب ، ولا عمل ، وكلاهما من شيعة ابليس . وعلى زعمهم ابليس مؤمن ، لأنه عرف ربه ووحّده ، حين قال : «فبِعزتِك لأُغويَنّهم أجمعِين». وحين قال: « انى أخافُ اللهَ ربَّ العالمين». وحين قال : «ربِّ بما أغويتَنِى». فأى قوم أبينُ ضلالة وأظهر جهلا وأعظم بدعة ، من قوم يزعمون أن ابليس مؤمن ؟ فَضلّوا من جهة قياسهم ، يقيسون على الله دينَه ، ولا يُقاس دينُه ، فما عُبِدَت الأوثان والأصنام الا بالقياس . فاحذروا يا أمة محمد ، القياس على الله فى دينه ، واتبعوا ولا تبتدعوا ، فان دين الله استنان (*) واقتداء واتباع ، لا قياس وابتداع »

١٥ ـ الزهاد والمتصوفة

١ ـ الحارث المحاسبي

كان أحمد بن حنبل يميل للزهاد والمتصوفة ، ولكنه أبغض واحدا منهم ، هو الحارث بن أسد المحاسبى ، لأنه قيل عنه ، انه يستعين بالعقل والقياس فى المسائل الاعتقادية ، (أى أنه يخوض فى « الكلام ») ويظهر أنه لم يكن من الميسور التوفيق بين الرجلين مواجهة ومشافهة . ولكن جاء

(*) فى الأصل : « استبان » وصحتها : « استنان » أى اتباع للسنة وذلك حتى تستقيم مع ما يتلوها

فى احدى الروايات أن أحمد تسامع الحارث خلسة ، حين كان الحارث وصحبه فى وليمة ، دُعُوا اليها . فاقتنع أحمد وقتئذ بأنه قد جارَ فى حكمه الأول على الحارث

ويبدو أن الامام لم يغير رأيه فى الحارث تغييرا كاملا ، يرد اليه ما فقده من مكانة فى بغداد ، اذ أن الحارث عند وفاته سنة ٢٤٣ هـ ، لم يشيع جنازته سوى أربعة نفر . ومع ذلك فقد قيل ان الحارث أوصى قبل موته ألا يشيعه أحد (١)

وقد جاء فى طبقات الشافعية (٢) : اعلم أن الامام أحمد رضى الله عنه ، كان يشدّد النكير على من يتكلم فى علم الكلام ، خوفا أن يجر ذلك الى ما لاينبغى . ولا شك أن السكوت عنه ، ما لم تَدْع اليه الحاجة أولى . والكلام فيه عند فقد الحاجة ، بدعة . وكان الحارث قد تكلم فى شىء من مسائل الكلام . قال أبو القاسم النصرأباذى : بلغنى أن أحمد بن حنبل ، هجره بهذا السبب . قلت : والظن بالحارث أنه ربما تكلم حيث دعت الحاجة ، ولكل مقصد ، والله أعلم ، يرحمهما الله . وذكر الحاكم أبو عبد الله أن أبا بكر أحمد بن اسحق ، أخبره ، قال : سمعت اسماعيل بن اسحق السَّراج يقول : قال لى أحمد بن حنبل : يبلغنى أن الحارث هذا ، يُكثر الكون عندك ، فلو أحضرته منزلك ، وأجلستنى من حيث ألا يرانى ، فأسمع كلامه . فقصدت الحارث ، وسألته أن يحضرنا تلك الليلة ، وأن يحضر أصحابه . فقال : فيهم كثرة ، فلا نردهم على الكسب والثمر . فأتيت أبا عبد الله ، فأعلمته فحضر الى غرفة ، واجتهد فى وِرْدِه . وحضر الحارث وأصحابه ، فأكلوا ، ثم صلوا العتمة (*) ، ولم يصلوا بعدها .

(١) الملل والنحل للشهرستانى ترجمة هاربريكر جـ ١ ص ٩٧ ، جـ ٢ ص ٣٨٩ . وقد ذهب فوق كريمر مذهبا آخر فى تعليل الخلاف بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وذلك فى كتابه : تاريخ الآراء السائدة فى الاسلام (بالالمانية) ص ٦٨ هامش رقم ١ (ترجمة خواديخش الهندى الى الانجليزية وعن الانجليزية ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر الى العربية ـ القاهرة سنة ١٩٤٧ م) ، راجع ترجمة الحارث المحاسبى فى ابن خلكان رقم ١٥١

(٢) ورقة ٢٣٠ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة جـ ٢ ص ٣٩

(*) فى الاصل « القيمة » وصوابها « العتمة » أى صلاة العشاء

وقعدوا بين يدى الحارث لاينطقون الى قريب نصف الليل . ثم ابتدأ رجل منهم ، فسأل عن مسألة . فأخذ الحارث فى الـكلام ، وأصحابه يستمعون ، كأن على رءوسهم الطير . فمنهم من يبكى ، ومنهم من يحن ، ومنهم من يزعق ، وهو فى كلامه ، فصعدت فى الغرفة ، لأتعرف حال أبى عبد الله (أحمد بن حنبل) ، فوجدته قد بكى ، حتى غشِى عليه ..

فانصرفت اليهم . ولم تزل تلك حالهم ، حتى أصبحوا وذهبوا . فصعدت الى أبى عبد الله ، فقال : ما أعلم انى رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولاسمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل . ومع هذا ، فلا أرى لك صحبتهم . ثم قام وخرج . وفى رواية أن أحمد قال : لا أنكِر من هذا شيئا . قلت : تأمَّل هذه الحكاية بعين البصيرة ، واعلم أن أحمـد بن حنبل ، انما لم يَر لهذا الرجل صحبتَهم لقصوره عن مقامهم ، فانهم فى مقام ضيق لا يسلكه كل أحد ، فيُخَاف على سالـكه ، والا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر ، ولكل رأى واجتهاد (*) . حشرنا الله معهم أجمعين ، فى زمرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم

ب ـ بشر الحافى

أما بِشْر الحافى المتوفى سنة ٢٢٦ هـ ، والسَّرى السَقَطى المتوفى سنة ٢٥٣ هـ ، فقد كان أحمد على مودة وصفاء معهما . وكان يَسْعد حقا بلقاء أعظم الناس ورعا من معاصريه الذين تَقلَّلوا من الدنيا ولم يكن لهم سوى القليل مما يجاوز فقرهم وتقاهم . وممن جاءنا من هؤلاء الصالحين ، فضلا عن الاثنين اللذين ذكرناهما : عبد الله بن ادريس المتوفى سنة ١٩٢ هـ ، وأبو دواد الحَفَرى ، وأيوب بن النجار

جاء فى المقريزى (١) : « ولقى (أحمد) خلقا كثيرا من الصالحين الزهاد. وقال الامام أبو بكر المروذى : سمعت أحمد بن حنبل يقول : ما أعدِلْ

(*) فى الاصل : « ولكن راى واجبها » وقد صححناها عن طبعة القاهرة لطبقات الشافعية

(١) المقريزى ورقة رقم ١

بالفقر شيئا ، رأيت قوما صالحين . لقد رأيت عبد الله بن ادريس ، وعليه جُبَّة من لَبود، وقد أتى عليه السنون والدهور. ورأيت أبا داود الحَفَرى، وعليه جُبَّة مُخَرَّقة ، قد خرج القطن منها ، يصلى بين المغرب والعشاء ، وهو يرجح من الجوع . ورأيت أيوب بن النجار ، بمكة ، قد خرج مما كان فيه ، ومعه رشاء يستقى بها بمكة . وقد خرج من كل ما كان يملكه . وكان من العابدين . وكان فى دنيا ، فتركها فى يَدَىْ يحيى القطّان ، فى أناس أخر، ذكرهم »

١٦ ـ دواد بن على

كان دواد بن على (بن خلف الأصبهانى *) امام أهل الظاهر ، المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، من تلامذة أحمد بن حنبل . فقد روى فى حقه للامام أحمد ، رواية بعيدة جدا عن الواقع وهى أن دواد قال فى أحد دروسه فى خراسان : ان القرآن مُحْدث ، وأن اللفظ بالقرآن مخلوق . وقد غَمّ أحمد هذا الخبر ، حتى انه أبى أن يأذن له فى الدخول عليه . ولا نعلم فيما اذا كان قد غيَّر رأيه فى دواد ، فيما بعد . غير أنه من المعروف عن الظاهرية أنهم أعظم تشددا من الامام أحمد فى عقيدة عدم خلق القرآن . ومن الجائز أن أحمد ، لم يتهم دواد فى صحة اعتقاده دهرا طويلا. ومما هو جدير بالملاحظة أن محمد بن يحيى الذهلى ، هو الذى كتب هذا الخبر لأحمد ، وهو نفس الرجل الذى اتهم البخارى بالزندقة كيدا منه وحَسَدا ، وذلك لمقالته فى اللفظ . كما يلاحظ أيضا أنه قيل بوقوع مثل هذا الحادث فى حياة اسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، حين كان دواد بن على لايزال شابا . وعلى ذلك اذا صَحت هذه الرواية ، فلا بد أن آراء دواد [١] كانت قد

(*) زيادة عن الاصل لتكملة اسم امام أهل الظاهر ، ويوجد بيان عن مذهبه فى مادة داود بن على بموسوعة الدين والاخلاق . وقد كتب هذه المادة المستشرق المجرى الكبير اجناتس جولدتسيهر ، وترجم له ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ جـ ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ فى وفيات سنة ٢٧٠ هـ

(١) الظاهرية لجولدتسيهر (بالالمانية ـ ليبزج سنة ١٨٨٤ م) ص ١٣٤ ، كما اورد السبكى هذا الحادث ، انظر طبقات الشافعية ورقة ٢٣٢ (*) الحسينية بالقاهرة جـ ٢ ص ٤٣

تغيرت فى السنوات الباقية من حياته . والمعروف أنه وُلد سنة ٢٠٢ هـ ، وتوفى سنة ٢٧٠ هـ

١٧ - ابراهيم بن اسماعيل المعتزلى

توفى بمصر فى سنة ٢١٨ هـ ، ابراهيم بن اسماعيل أبو اسحق البصرى الأسدى المعتزلى ، المعروف بابن عُلَيَّة . وكان يقول بمبدأ خلق القرآن . وناظَر الشافعى فى مصر فى مسائل الفقه ، كما ناظر أحمد بن حنبل فى بغداد فى مسألة القرآن . وقد عده أحمد زنديقا خطرا (١) . أما ابن علية الأكبر ، الذى جاء اسمه فى تاريخ المحنة فى عهد المـأمون ، فيظهر أنه شخص آخر، وقد كان معروفا الى ذلك الوقت بآرائه السُّنّية . واذا تقيـدنا بتشابه الاسمين ، فان ما أبداه ابن علية الأكبر من الاستعداد ، أيام محنة المأمون ، ليجيب بأن القرآن مخلوق ، قد يشير مع ذلك الى اتصـاله بشكل ما بالحزب الذى ذكرناه آنفا . غير أن هذا محض تقدير وافتراض

---

(٢) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٦٧ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٨٨
وقد جاء فيه : قال بن حنبل : ابن علية ضال مضل

الفصل الثانى

تاريخ المحنة

تاريخ المحنة (*)

١ ــ التطور التاريخي ٢ ــ نبوءة الشافعي . ٣ ــ المأمون ٤ ــ ابن أبي دواد ٥ ــ الكتاب الاول للمأمون الى عامله ببغداد ٦ ــ بداية المحنة في جهات أخرى (أ) مصر ، (ب) دمشق ، (حـ) الكوفة . ٧ ــ الكتاب الثاني للمأمون ٨ ــ أثر الكتاب الثاني . ٩ ــ الكتاب الثالث ١٠ ــ نص الفقهاء في بغداد (أ) بشر ابن الوليد ، (ب) على بن أبي مقاتل (حـ) أبو حسان الزيادي ، (د) أحمد بن حنبل ، (هـ) ابن البكاء الاكبر ١١ ــ الكتاب الرابع للمأمون ١٢ ــ اجابة الفقهاء ١٣ ــ اشخاص أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الى الخليفة بطرسوس ١٤ ــ انكار المأمون دعوى التقية التي تعلل بها الفقهاء ١٥ ــ أمر المأمون باشخاص الفقهاء اليه ١٦ ــ وفاة المأمون ونتائجها ١٧ ــ اعادة أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الى بغداد ، ووفاة ابن نوح في الطريق ١٨ ــ الممتنعون عن الاجابة : (أ) عفان ابن مسلم ، (ب) أبو نعيم الفضل بن دكين ، (حـ) على بن المديني ١٩ ــ أحمد بن حنبل في السجن ٢٠ ــ أشخاص أحمد بن حنبل مرة أخرى الى اسحق بن ابراهيم ٢١ ــ حمل أحمد بن حنبل الى المعتصم ٢٢ ــ محاكمة احمد بن حنبل امام المعتصم : (أ) اليوم الاول للمحاكمة (ب) اليوم الثاني (حـ) اليوم الثالث ٢٣ ــ ضرب أحمد ابن حنبل ٢٤ ــ ماوقع بعد ضرب الامام أحمد ٢٥ ــ المحنة في مصر في عهد المعتصم ٢٦ ــ المعتصم والمحنة ٢٧ ــ الواثق وأحمد بن حنبل ٢٨ ــ الواثق يتابع المحنة ٢٩ ــ احمد بن نصر الخزاعي ٣٠ ــ نعيم ابن حماد ٣١ ــ أبو يعقوب البويطي ٣٢ ــ فداء الاسرى المسلمين من البيزنطيين ٣٣ ــ رجوع الواثق عن القول بخلق القرآن : السبب المزعوم ٣٤ ــ المتوكل يبطل المحنة ٣٥ ــ عرض عام للمحنة

(*) العنوان ليس في الأصل ، وكذلك العناوين الفرعية الواقعة بين معقفين . وقد جمعناها من عناوين الفقرات التي وضعها المؤلف وأثبتنا لها رقما مسلسلا

١ — التطور التاريخى

فى بداية القرن الثانى للهجرة ، أخذ الجَعْد بن درهم ، مؤدب الخليفة (الأموى) مروان الثانى بالمبدأ القائل بأن القرآن مخلوق . و فى هذا الوقت جمح الخيال بخصوص هذه الفكرة ، فأبدوا مقدرتهم فى استخراج الروايات والأحاديث التى تعينهم على ارجاع هذه الفكرة وتتبعها بالعودة بها من عهد الجعد بن درهم الى عهد لبيد اليهودى الذى قيل انه سحر النبى (عليه السلام) وأمرضه (١) . ومع أن الفكرة قد آلت الى الجعد ، فقد قُتِل من أجلها ، قتله خالد بن عبد الله (القسرى) حاكم العراق ، وذلك بأمر الخليفة هشام (ابن عبد الملك) . ولا نسمع بعد مقتل الجعد بن درهم ، بشىء عن مذهب خلق القرآن ، حتى عهد الخليفة العباسى هرون الرشيد (٢)

أما قصة التطور التاريخى لمذهب خلق القرآن (٣) الذى أدى الى أن يمتحن الناس به فى عهد المأمون وخلفائه ، فقد بينه أبو الفرج بن الجوزى (*) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فيما يلى : لم يزل الناس على قانون السَّلَف ، وقولهم ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، حتى نبغت المعتزلة (٤) ، فقالوا بخلق

---

(١) محمد (بالالمانية) بقلم فيل Weil ص ٩٤ هامش رقم ١٢١

(٢) هوتسما فى كتابه : المنازعات الاعتقادية (بالهولندية) ص ١٠١ وما بعدها

(٣) انظر فى هذا الموضوع كتاب فيل Weil تاريخ الخلفاء (بالالمانية حـ ٢ ص ٢٦٢ هامش رقم ١ ، وتاريخ الآراء السائدة فى الاسلام (بالالمانية) بقلم فون كريمر ، ص ٢٣٣ وما بعدها . وانظر فى نفس الكتاب اللاحظة الخاصة بالترتيب الزمنى للوقائع فى الهامش رقم ٢٠ فى ص ١٢٧

(*) فى الاصل : المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وصحتها ما أثبتناه

(٤) انظر فى أصل تسمية المعتزلة وقيام فرقتهم كتاب : المعتزلة (المفكرون الاحرار فى الاسلام — بالالمانية نشر فى ليبزج سنة ١٨٦٥ م) بقلم شتينر Steiner ص ٢٥ وما بعدها ، وكتاب هوتسما : المنازعات الاعتقادية ص ٥١ . وانظر فى تاريخ فرقة المعتزلة كتاب شتينر ص ٤٨ وما بعدها ، وكتاب دوزى : الاسلام (بالهولندية وله ترجمة فرنسية) ص ١٨٣ ، ١٨٤ وشرح المسعودى مذهبهم (فى كتابه مروج الذهب طبعة باريس) جـ ٦ ص ٢٠ وما بعدها ، وكذلك شتينر ص ٣ وما بعدها ، وهوتسما فى ص ٥٥ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١٢١ وما بعدها فى كتابه. وكذلك فى ترجمة هاربريكر (بالالمانية) لكتاب الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٤٠ ، أما مذهب المعتزلة فى القرآن فيوجد فى كتاب شتينر ص ٧٥ وما بعدها ، وفى كتاب هوتسما ص ١٠٤ وما بعدها . (وللمترجم تعليقات على هذه المراجع وعلى ما ظهر خاصا بالمعتزلة بعد سنة ١٨٩٧ م التى ظهر فيها كتاب المؤلف

القرآن ، وكانوا يتسترون بذلك الى زمن الرشيد ، حتى أن الرشيد قال يوما : بلغنى أن بشر المريسى (١) يقول : القرآن مخلوق ، والله علىَّ ، ان أظفرنى الله به لأقتلنه قِتْلة ، ما قتلتها أحدا . ولما علم بشر بذلك ظل متواريا أيام الرشيد ، نحوا من عشرين سنة (وهذا يرجع بنا فى تحديد اعلانه للمذهب الذى نحن بصدده الى نحو سنة ١٧٣ هـ) ، فلما توفى الرشيد ، كان الأمر كذلك فى زمن ولده الأمين . فلما ولى المأمون ، خالطه قوم من المعتزلة وضللوه ، فَحسَّنوا له القول بخلق القرآن (٢) ؟

٢ ــ نبوءة الشافعى

ويُروى أن الامام الشافعى رأى فى نومه ، وذلك قبل وفاته فى سنة ٢٠٤ هـ أن النبى (عليه السلام) أنبأه بوقوع المحنة فى السنين التالية ، وأن أحمد بن حنبل سيُمْتَحن فى القول بخلق القرآن . بل قيل انه أرسل كتابا للامام أحمد يخبره بما رآه فى منامه هذا . كما جاء فى الرواية أن أحمد عندما قرأ كتابه قال : « أرجو الله تعالى أن يحقق ما قاله الشافعى » . ويمكن أن نستخلص من هذه القصة أن مذهب خلق القرآن سبق أن أحدث اضطرابا فكريا ، لما كان الشافعى ببغداد ، وأن أحمد فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المحنة ، كان خصما قويا لهذا الرأى

جاء فى المقريزى (٣) تحت عنوان : فصل فى بشارة النبى صلى الله عليه وسلم ، له (أى للامام أحمد بن حنبل) بالمحنة ، قبل وقوعها بسنين على

---

(١) تاريخ الأدب (بالالمانية) بقلم فون هامر Von Hammer حـ ٣ ص ٢٠٥ والنجوم الزاهرة لابى المحاسن بن تعرى بردى ، جـ ١ ص ٦٤٧ ، وهامش رقم ٩ وابن خلكان رقم ١١٤ ، شتينر فى كتابه : المعتزلة (بالالمانية) ص ٧٨ . اما هوتسما فى كتابه : المنازعات الاعتقادية ص ٧٩ (قارن هامش رقم ١) فقد عد بشر المريسى من أعلام المرجئة فى عصره . وقد صحف الشهرستانى اسمه فى كتاب الملل والنحل ، ترجمة هاربريكر (بالألمانية) فقد ذكره : بشر بن عتاب المريسى ، بدلا من بشر بن غياث (*) لعل التصحيف من هاروبريكر — جـ ١ ص ٩٤ : وقد اورد الشهرستانى آراءه فى جـ ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ ، وقارنها بما جاء فى جـ ١ ص ٢٤٣

(٢) المقفى ورقة ٣

(٣) المصدر السابق

لسان الامام محمد بن ادريس الشافعي رضى الله عنه : « كان الامام الشافعي رضى الله عنه ، لما دخل مصر ، رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأخبره أن الامام أحمد سيمتحن . قال الربيع بن سليمان : فكتب الشافعي على يدى كتابا الى أبى عبد الله أحمد بن حنبل ثم قال لى : ياأبا سليمان ، انحدر بكتابى هذا الى العراق ، ولا تقرأه

فأخذت الكتاب وخرجت من مصر، حتى قدمت العراق ، فوافيت مسجد أحمد بن حنبل ، فصادفته يصلى الفجر ، فصليت معه ، وكنت لم أركع السُّنَّة ، فقمت أركع عَقِيب الصلاة . فجعل ينظر الى مَلِيًّا ، حتى عرفنى . فلما سَلَّمت من صلاتى ، سلّمت عليه . وأوصلت الكتاب اليه . وقلت له : هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر . فجعل يسألنى عن الشافعي طويلا ، قبل أن ينظر فى الكتاب . ثم قال لى : نظرت فيه ؟ قلت : لا . فَفك ختمه وقرأه ، حتى اذا بلغ موضعا منه ، بكى ، وقال : أرجو الله تعالى أن يحقق ما قاله الشافعي

قلت : يا أبا عبد الله ، أى شيء قد كتب اليك ؟ قال : ذكر فى كتابه أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه ، وهو يقول له : يا ابن ادريس، بَشّر هذا الفتى أبا عبد الله أحمد بن حنبل أنه سيُمتَحن فى دين الله ، ويُدعى أن يقول القرآن مخلوق ، فلا يفعل ، فانه سيُضرب بالسياط . وان الله عز وجل ينشر له بذلك عَلَما لا يُطوى الى يوم القيامة

فقلت : بشارة ، فأى شيء جائزتى عليها ؟ وكان عليه ثوبان ، فنزع أحدهما ، فدفعه الىّ . وكان مما يلى جِلده . وأعطانى جواب الكتاب . فخرجت حتى قَدِمت على الشافعي . فأخبرته بما جرى . قال : فأين الثوب ؟ قلت : هو ذا . فقال : ليس نَفجَعك به . ويُروى أن الشافعي رضى الله عنه قال للربيع : لا نبتاعه منك ولا نستهديه ، ولكن اغسله وجئنا بمائه . قال : فغسلته وحملت ماءه اليه . فجعله فى قنينة . وكنت أراه فى كل يوم ، يأخذ منه ، فيمسح على وجهه تبركا بأحمد بن حنبل »

٣ ـ المأمون

أجمع المؤرخون على عناية المأمون بدراسة المسائل المتعلقة بعلم الكلام(١). كما انه تلقى دروسا كثيرة فى الحديث وعلوم القرآن ، كما درس القرآن فى سن مبكرة . وكان من شيوخه : مالك بن أنس ، وهُشَيْم بن بِشر ، وأبوه (٢) الرشيد

وقد هيَّأت له همته فى التحصيل لما كان طالبا مكانة ممتازة بين المتفقهين بعلوم الدين ، ولكن ذهنا متقدا كذهنه ، قوى الميل الى قدر من العلم أوسع مدى ، مما تهيؤه له حدود السنة الاسلامية ، سرعان ما أبدى شغفه بالفلسفة التى كان الناس قد بدأوا بالعناية بها فى عهد الخلفاء (العباسيين) ، كما تعلق بآداب العرب وعلومهم . وقد أشبع ميوله العقلية (٣) ، فجمع الى بلاطه ، من مختلف أنحاء امبراطوريته ، الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا على جانب من التفكير الحر ، أوفر حظا من أولئك الذين كانوا يَغْشَوْن مجالس آبائه وأسلافه (٤) . ومع ذلك فانا لا ننظر الى المأمون على أنه رجل ليس الورع والتقوى من طبيعته ، أو أنه اشتد ولعه بالمسائل الدينية ليشبع نهمه فى الجدل والمناظرة . فقد قيل عنه انه خَتَم فى رمضان ثلاثا وثلاثين

---

(١) انظر أيضا النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٦٤٤ ، وتاريخ الادب بقلم همر برجشتول جـ ٣ ص ٢٦ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ـ كلكتا سنة ١٨٥٧ م ص ٣١٠ ، والاسلام بقلم دوزى ، سنة ١٨٨٠ م ص ١٥٢ ، وتتفق الملاحظات التى كتبها كل من السبكى ص ١٤٤ ، والمقريزى ص ٤ ، فى اخلاق المأمون ، مع ما جاء فى المؤلفات السابقة الذكر

(٢) قال هوتسما فى ص ١٣ من كتابه : المنازعات الاعتقادية ، بأن المأمون بدأ بالاستماع الى محاضرات المتكلمين ثم عنى فيما بعد بعلوم السنة . ولم يشر هوتسما الى المرجع الذى استند اليه فى هذا . كما انه لا يتفق مع ما تيسر لى أن أطلع عليه من المصادر التى رجعت اليها ، وهى تعكس الترتيب الذى ذكره هوتسما ، وقد تقيدت بترتيبها (*) يريد المؤلف أن المأمون بدأ بعلوم السنة وانتهى الى علم الكلام لا العكس كما زعم هوتسما ، وهذا هو الراجح

(٣) ذهب شتينر فى ص ١٦ من كتابه المعتزلة الى أن نزعة المسلمين نحو الآراء الحرة فى المسائل الكلامية التى زادت الفلسفة اليونانية من قوتها ، سبق أن أحس بها العرب قبل تعرفهم بالفكر اليونانى الفلسفى

(٤) انظر ص ٨٦ وما بعدها فى كتاب : المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ، فى موضوع رعاية الخلفاء العباسيين لرجال الادب والفلسفة . وأثر هذه الرعاية فى قيام المتكلمين ، وأثرها المضاد أو غير المباشر فى اثارة همم المشتغلين بالحديث .

خَشَنة (١). كما أنه كان ينفح شيوخ الحديث بالمال سداً لحاجتهم . وكانوا جميعا يقبلون هذه المِنَح ما عدا أحمد بن حنبل (٢) . غير أن الكتب التى كتبها المأمون بشأن المحنة لا تعطينا صورة مُرضِيَة عن أخلاقه

ويعد المؤرخون السنيون رجال حاشية المـأمون ، مسئولين فى حمـل المأمون على مخالفة أهل السنة فى المسائل الاعتقادية ، وعلى اضطهاد الفقهاء المتمسكين بالسنة . غير أن الواقع الذى هو أكثر انطباقا على الحقـائق التاريخية ، هو أن المأمون ضاق ذرعا بالسنة ، واستثقل جوها الخانق(*)، فالتمس مخرجا منها فى احاطة نفســه برجال يماثلونه فى نزعته نحو الفكر الحر (٣)

أما اذا كان هؤلاء الرجال قد حبَّذوا هذا الرأى أو ذاك ، فان هذه الفكرة لا توزن بالفكرة القائلة بأن الخليفة آثر بيئـة الزندقة على بيئـة السنة . كما يمكن أن يقال بأن أحمد بن أبى دُؤاد ، قاضى القضاة كان مسئولا عن المحنة (٤) . ولكن يجب ألا ننسى أنه قبل أن يظفر ابن أبى دواد بهذه السيطرة على عقل المـأمون ، كاد المـأمون يهم بامتحان النـاس بخلق القرآن ، لولا خشيته عواقب هذا العمل . ويرجع اختيـار الخليفة لمذهب خلق القرآن الى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) (٥)

---

(١) دراسات اسلامية لجولدتسيهر جـ ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ ، وتاريخ الآراء السائدة بقلم فون كريمر ص ٣٠١ هامش رقم ١٥ ، وكتاب المعتزلة بقلم شتينر ص ٦ هامش رقم ٥ ، والسبكى ورقة ١٤٤ (*) الحسينية بالقاهرة جـ ١ ص ٢١٧

(٢) الحلية لابى نعيم ورقة ١٤٣ ب (*) طبعة القاهرة جـ ٩ ص ١٨١ : دفع المأمون مالا ، فقال : اقسمه على اصحاب الحديث فان فيهم ضعفاء ، فما بقى أحد الا أخذ الا احمد بن حنبل

(*) المؤلف هنا يعبر عن رأيه الخاص وهو لم يدرس السنة الاسلامية دراسة صحيحة

(٣) انظر كتاب هوتسما : المنازعات الاعتقادية ص ١٠٨

(٤) انظر النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧٣٣ ، والشذور العربية التاريخية لدى خوى ص ٥٤٧ ، والسبكى ورقة ١٣٦ (*) الحسينية جـ ١ ص ٢٠٦ : وكان معظما عند المأمون أمير المؤمنين يقبل شفاعاته ويصغى الى كلامه . وأخباره فى هذا كثيرة . فدس بن أبى داود له القول بخلق القرآن وحسنه عنده وصيره يعتقده حقا مبينا ، الى أن اجمع رأيه فى سنة ثمان عشرة ومائتين على الدعاء به .

(٥) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ١٠٩٩

والحادث التالى يكشف لنا بوضوح عما كان يجول بذهن المأمون قبل هذا التاريخ ، ويذكر الكتّاب أن لهذا الحادث صلة بيزيد بن هرون ، المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وذلك قبل أن يستصوب المأمون مذهب خلق القرآن بست سنوات ، وقبل ابتداء المحنة باثنتى عشرة سنة . فقد رُوِى أن يحيى ابن أكثم (١) قال : قال لنا المأمون : لولا مكان يزيد بن‌هرون ، لأظهرن القول بخلق القرآن . فقال له بعض جلسائه : ومَن يزيد بن هرون ، حتى يتقيه أمير المؤمنين ؟ فقال : انى أخاف ان أظهرته ، يرد علىّ ، فيختلف الناس وتكون فتنة ، وأنا أكره الفتنة . فقال الرجل الذى كان فى المجلس للمأمون : أنا أختبر ذلك من يزيد بن هرون . فخرج الى واسط ، فجاء الى يزيد ، فدخل عليه المسجد ، فقال : يا أبا خالد ، ان أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : انى أريد أن أظهر القول فى أن القرآن‌مخلوق. فقال له يزيد : كَذَبْت على أمير المؤمنين ، فان كنت صادقا ، فاصبر الى أن يجتمع علىّ الناس . قال : فلما كان الغد ، واجتمع عليه الناس ، أعاد رسول الخليفة ما قاله فى اليوم السابق وتساءل قائلا : « ما عندك فى ذلك ؟ قال : كذبت على أمير المؤمنين ، أمير المؤمنين لا يحمل الناس على ما لايعرفونه وما لم يَقُل به أحد . وبعد هذه المقالة عاد الرجل الى أمير المؤمنين وأخبره بالنتيجة وأقر بأن المأمون كان أكثر دقة وأعظم تبصرا منه فقال له أمير المؤمنين : انه قد تَلَعَّب بك (٢)

ولما أقرت الدولة الاسلامية مذهب خلق القرآن ، كان اقرارها مقترنا باعلانها أفضلية علىّ ، على أبى بكر وعمر . فالمأمون كان من الخلفاء

---

(١) هذا ما رواه القريزى فى ص ٣ من كتابه المقفى مخطوط ليدن ، نقلا عن البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ .

(٢) القريزى ورقة ٣ ، وانظر ايضا : تاريخ الادب (بالالمانية) بقلم فون هامر جـ ٢ ص١٥٩: يزيد بن هرون (*) ذكره ابن‌العماد الحنبلى فى‌شذرات الذهب جـ٢ ص ١٦ ، فى وفيات‌سنة٢٠٦هـ وقال بأنه كان حافظا اماما ثقة ، يزدحم مجلسه بطالبى الحديث . وله ترجمة مطولة فى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى جـ ١١ ص ٣٦٦ : ٣٦٩ —

المشايعين للعلويين (١) . ولما ألغى المتوكل مذهب خلق القرآن ، وأبطل المحنة (أعلن أفضلية الشيخين) ولا غرو فقد كان المتوكل ناصبيا معاديا للعلويين . وفى الحق ان الشيعة كانوا ينزعون فى آرائهم الكلامية نحو الاعتزال . ولذا فانا لا ندهش اذا رأينا الخليفة الذى أقـر رأيهم فيما يتعلق بالقرآن ، يُفَضِّل فى نفس الوقت امامَهم على بن أبى طالب ، على أبى بكر وخليفته ، كما لا ندهش اذا علمنا أن الخليفة الذى أبطل مذهبهم فى القرآن ، أعاد للخليفتين أبى بكر وعمر ، سَبْقَهما وفضلهما على علىّ .

وقد استغل أشـياع الحزبين : أهل السنة والشيعة ، هـذين الحادثين استغلالا سياسيا . غير أنه يبدو لنا أن رائد الخلفاء كان مبعثه فى الأصـل فى كل من هذين الاتجاهين المتضادين ، هو أن ينهضوا باصلاح الدين (٢)

وقد ظل المأمون مترددا طيلة ست سنوات ، فى أخذ رعاياه بمذهب خلق القرآن ، وارغامهم على القول به ، وأخيرا حينما عزل يحيى بن أكثم قاضى قضاته (٣) فى سنة ٢١٧ هـ ، وقلّد هذا المنصب ، أحمد بن أبى دواد ، شجعه أثيره الجديد على اتخاذ هذه الخطوة ، الى أن أمر فى السنة الأخيرة من حياته وهى سنة ٢١٨ هـ ، بامتحان الناس بخلق القرآن

---

(١) المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٩٧ . وقد ذهب هوتسما فى ص ٩٩ من كتابه الى أن المأمون كان يرمى من أعمـاله (لبس الخضرة شعار العلويين ونزع السواد شعار العباسيين ، وسب معاوية واباحة المتعة والقول بخلق القرآن) الى توثيق عرا الاتحاد السياسى مع العلويين، ولكنه بعد انقضاء فترة من الزمن ، تبين له انه لم ينل شيئا من هذا الاتحاذ ، بل فقد الكثير ، فأقلع عن هذه السياسة ، ولو أنه ظل مصافيا للحزب العلوى ، مشايعا للكثير من آرائه .

(٢) المنازعات الاعتقادية لهوتسما ص ٩٩ وما بعدها . وانظر فى هذا الموضوع : تاريخ الخلفاء (بالالمانية) بقلم فيل ج ٢ ص ٢٥٨ وما بعدها . وتاريخ الآراء السائدة بقلم فون كريمر ص٣٣٣ وما بعدها

(٣) الشذور العربية التاريخية لدى خوى ص ٣٧٦ .

٤ ـ احمد بن أبى دواد (*)

شَغَل أحمد بن أبى دواد منصبا من المناصب الواسعة النفوذ ، فى عهود ثلاثة من الخلفاء : المأمون والمعتصم والواثق ، وكان أقوى مُنَافح عن المحنة ابان خلافتهم (١) . ويصوره مؤلفو تراجم أحمد بن حنبل ، من أهل السنة ، تصويرا قاتما . غير أنه كان عالما متكلما ، أخذ الكلام عن هيّاج ابن العلاء السلمى الذى كان من أصحاب واصل بن عطاء (٢) . وهو أول من افتتح الكلام (*) مع الخلفاء ، وكان لايبدؤهم أحد حتى يبدأوه

وقد قال فى مجلس المعتصم مرة : « انى لأمتنع من تكليم الخلفاء بحضرة محمد بن‌عبدالملك الزيات. الوزير فى‌حاجة،كراهة أن‌أعلـمه ذلك ، ومخافة أن أعَلّمه التَأتّى لها » . وكان الخليفة المعتصم خاضعا لرأيه ، واقعا تحت نفوذه . وقد بدأ ابن أبى دُوَاد خدمته (للعباسيين) فى سنة ٢٠٤ هـ ، حين اتصل أمره بالمأمون‌عن‌طريق يحيى بن‌أكثم الذى قرّبه للخليفة وزكّاه. وأوصى المأمون عند موته أخاه المعتصم بأن يُشْرِك ابن أبى دواد فى مشورته ، (وألا يتخذ وزيرا . فلما ولى المعتصم الخلافة ، عزل يحيى بن أكثم ، وجعل ابن أبى دُوَاد قاضى قضاته) . وفى أول خلافة المتوكل

(*) يهمز كثير من الكتاب الواو فى داود كما فى كتاب ابن حنبل للاستاذ محمد أبى زهرة القاهرة سنة ١٩٤٧ م ص ٦٠ وما بعدها . وقد اشار ابن خلكان فى ترجمته لاحمد بن دواد أن دواد غير مهموزة . وفى القاموس المحيط فى مادة (دود) أن الدواد الرجل السريع وهى بوزن غراب . وفى تاج العروس جـ ٢ ص٣٥٠ توكيد لهذا . وفى اعجام الاعلام لمحمود مصطفى ، القاهرة سنة ١٩٣٥ م ص ٣ توضيح لخطأ من يهمز الواو .

(١) المعتزلة بقلم شتينر ص ٧٨

(٢) انظر فيما يتعلق بواصل بن عطاء كتاب الاسلام بقلم دوزى ص ١٣٣ وما بعدها ، والمعتزلة لشتينر ص ٢٥ ، ٥٠ . وقد ذهب هوتسما فى ص ١٠٣ من كتابه : المنازعات الاعتقادية الى انه يبدو ان واصل لم يقل بخلق القرآن .

(*) زعم المؤلف ان « الكلام » هنا يقصد به علم الكلام مع أن المراد به هنا مجرد التحدث . فالآداب المرعية فى البلاط العباسى كانت تقضى بأن الخليفة هو الذى يبدأ الحديث فى مجلسه. ولكن نظرا لعلو منزلة احمد ابن ابى دواد أبيح له ان يبدأ الحديث . وقد حملنى هذا على ايراد نص عبارة ابن خلكان فى ترجمته لابن أبى دواد ، راجع وفيات الاعيان حـ١ ص ١٧٢ من طبعة الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م

فلج أحمد بن أبى دواد ، فعين ابنه محمدا قاضيا للقضاة بدله . ولكنه عزله فى نفس العام أى فى سنة ٢٣٢ هـ

وقد كان أحمد بن أبى دواد بليغا وشاعرا (*) ، مدحه الشعراء والأدباء وأطنبوا فى ذكر مناقبه ومآثره ، وكان سخيا واسع الكرم محبا للعيش الرخى الرغد (١) وقد وصفه ابن السبكى(٢) فقال : كان القاضى أحمد بن أبى دواد ممن نشأ فى العلم وتضلّع بعلم الكلام ... وكان رجلا فصيحا . قال أبو العيناء : ما رأيت رئيسا قط أفصح ولا أنطق منه ، وكان كريما مُمَدَّحا ، وفيه يقول بعضهم :

لقد أنست مساوىء كلّ دهر
محاسنُ أحمد بن أبى دوادِ
فما سافرتُ فى الآفاق الا
ومن جدواك راحلتى وزادى
مُقيمُ الظنّ عندك و الأمانى
وان قلِقَتْ ركابِى فى البلادِ (*)

ويقابل هذا التقدير للرجل ، ما وصفه به أهل السنة فى كتاباتهم من التهور والجهل والتعصب . وفى سنة ٢٣٦ هـ أو ٢٣٧ هـ ، سخط عليه المتوكل وسجنه واستصفى أملاكه ، ثم أرسل بعد ذلك ليقيم فى بغداد ،

(*) لم ينتفع المؤلف فيما يبدو من الترجمة التى أوردها الخطيب البغدادى لاحمدبن ابى دواد كتابه «تاريخ بغداد» . مع أن مخطوطه ليدن لهذا الكتاب كانت من مراجع المؤلف . راجع هذه الترجمة فى طبعة القاهرة بغداد سنة ١٩٣١ م ج٤ من ص ١٤١ : ١٥٦

(١) عن ترف رءوس المعتزلة ، انظر هوتسما ص ٨١ وما بعدها ، وشتينر ص ١٠

(٢) طبقات الشافعية ورقة ١٣٦ (*) الحسينية بالقاهرة جـ ١ ص ٢٠٦

(*) نقل المؤلف البيت الثالث مصحفا ، وقد صححته عن المنتحل للثعالبى طبعة أحمد ابى على ، الاسكندرية سنة ١٩٠١ م ص ٨٦ ، واخبار ابى تمام للصولى ، طبعة لجنة التأليف ، القاهرة سنة ١٩٣٧ م ص ١٤١ .

حيث مات بها . وقد توفى هو وولده مغضوبا عليهما فى سنة ٢٤٠ هـ ، وتوفى ولده محمد قبله بعشرين يوما (١)

قال أبو نعيم فى الحلية (٢) : «وجعل يعقوب وعتّاب يصيران اليه (أى الى أحمد بن حنبل) ، فيقولان له : يقول لك أمير المؤمنين : ما تقول فى ابن أبى دُوَاد فى ماله ؟ فلا يجيب فى ذلك بشىء . وجعل يعقوب وعتّاب يخبرانه بما يحدث فى أمر ابن أبى دواد كل يوم . ثم احضر ابن أبى دواد الى بغداد ، بعد ما أشهد عليه ببيع ضياعه »

٥ ــ الكتاب الأول للمأمون الى عامله ببغداد

كانت الخطوة الأولى التى خطاها المأمون ليضمن انصياع رعيته وتسليمها بالنحلة التى انتحلها وهى خلق القرآن ، أنه أرسل كتابا الى عامله على بغداد : اسحق بن ابراهيم ، وهو ابن عم طاهر بن الحسين . وقد أمره فيه أن يَشْخِص لديه القضاة والمحدثين وأن يمتحنهم فى موضوع خلق القرآن . وهاك صورة هذا الكتاب (٣) :

---

(١) تاريخ الخلفاء بقلم فيل جـ ٢ ص ٣٣٤ ، ودراسات اسلامية لجولدتسيهر جـ ٢ ص ٥٨ ، ومروج الذهب للمسعودى طبعة باريس حـ٦ ص ٢١٤ ، وابن خلكان ترجمة رقم ٣١ ، والنجوم الزاهرة حـ ١ ص ٧٣٣ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ . والشذور العربية التاريخية لدى خوى ص ٥٤٧

(٢) ورقة ١٥٢ ا (*) طبعة القاهرة جـ ٩ ص ٢١٠

(٣) ان النص الذى اعتمدت عليـه فى ترجمة كتب المأمون المتعلقة بالمحنة هو مارد فى طبعة ليدن التاريخية الطبرى حـ ٢ من ص ١١١٢ الى ص ١١٢٣ ، ويبدو أن هذه النصوص هى نسخة أصلية لكتب المأمون . أما ما أورده ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٣٧ : ٦٤١ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢١٨ وما بعدها . ودى خوى فى الشذور التاريخية العبرية جـ٢ ص ٦٥٤ ، وأبو الفداء فى تاريخه حـ ٢ ص ١٥٤ ومابعدها والسبكى ص١٣٦ ومابعدها(*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٠٦ وما بعدها) فهو ملخص شديد الاختصار لهذه الكتب . ويظهر أن الكتاب المتأخرين اعتمدوا على الطبرى فى ايرادهم لها ، لانها تبين لنا نفس الروايات المختلفة التى تشمل عليها هذه الكتب فى تاريخ الطبرى ، أى أنها تزودنا بأجزاء معينة متشابهة من هذه الكتب (لان بعض المؤلفين الآنفى الذكر أوجزوا فى ايراد هـذه الكتب أكثر من غيرهم ، وأورد آخرون كتابا أو كتابين) ولم نجد فى كتابات هؤلاء المؤرخين مايعيننا على توضيح النصوص التى ذكرها الطبرى أو تحسينها . وذلك فيما عدا الفائدة الجليلة التى جنيناها من مقابلة كتاباتهم على نسخة النجوم الزاهرة .

« أما بعد فان حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم ، الاجتهاد فى اقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التى أورثهم ، وأثَر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق فى رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والاقساط فيما ولاه الله من رعيته ، برحمته ومنّته . وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حَشْو الرعية وسِفْلة العامة ، ممَّن لا نظر له ولا رويَّة ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة بالله ، وعَمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والايمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ، ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكر والتذكر ، وذلك أنهم ساوَوْا بين الله تبارك وتعالى ، وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ، ويُحدِثه ويخترعه . وقد قال الله عز وجل فى مُحْكَم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى : « انَّا جعلناهُ قرآنا عربيا (١) » فكل ما جعله الله ، فقد خلقه

وقال : « الحمدُ لله الذى خلَق السَّموات والأرضَ وجعلَ الظُّلُمات والنُّور(٢) » . وقال عز وجل : «كذلك نقُص علَيك من أنبَاء مَا قدْ سَبَق (٣) » . فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها . وقال : « ألر ، كتاب أحْكِمَت آياته ، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير (٤) . وكل مُحْكَم مُفَصَّل ، فله مُحْكِمٌ مُفَصِّل . والله مُحْكِمُ كتابه ومُفَصِّله ، فهو خالقه ومُبْتَدِعه . ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدَعَوا الى قولهم ونسبوا أنفسهم الى السنَّة . وفى كل فصل

---

(١) سورة الزخرف رقم ٤٣ آية ٢
(٢) سورة الانعام (رقم ٦) ، آية ١
(٣) سورة طه (رقم ٢٠) ، آية ٩٩
(٤) سورة هود (رقم ١١) آية ١

من كتاب الله ، قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم . ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرّوا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب، والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين ، الى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيىء آرائهم ، تزيّنا بذلك عندهم، وتصنّعا للرياسة والعدالة فيهم. فتركوا الحق الى باطلهم ، واتخذوا دون الله (١) وليجة الى ضلالتهم ، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دغل دينهم ، ونغل أديمهم ، وفساد نياتهم ويقينهم . وكان ذلك غايتهم التى اليها جروا ، واياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمّهم الله ، فأعمى أبصارهم ، (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها (٢)

« فرأى أمير المؤمنين ان أولئك شر الأمة ورءوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظا والمخسوسون من الايمان نصيبا ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان ابليس الناطق فى أوليائه ، والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فى صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله . فانه لا عمل الا بعد يقين ، ولا يقين الا بعد استكمال حقيقة الاسلام واخلاص التوحيد . ومن عمى عن رشده وحظه من الايمان بالله وبتوحيده ، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد فى شهادته ، أعمى وأضل سبيلا . ولعمر أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب فى قوله ، وتخرص الباطل فى شهادته ، من كذب على الله فى وحيه ، ولم يعرف الله حقيقة

---

(١) وازن ذلك بالآية ١٦ فى سورة التوبة (رقم ٩) « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون »

(٢) سورة محمد (رقم ٤٧) ، آية ٢٤ ، والآية السابقة لها « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم واعمى ابصارهم »

معرفته ، وأن أولاهم برد شهادته ، فى حكم الله ودينه ، من رَدّ شهادة الله على كتابه ، وبَهَتَ حق الله بباطله

« فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون ، فى خلق الله القرآن واحداثه . وأعلِمهُم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلّده الله واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لايوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه . فاذا أقروا بذلك (*) ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فَمُرهُم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك اثبات شهادة من لم يُقِر أنّه مخلوق مُحدث ولم يَرَه ، والامتناع من توقيعها عنده . واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرِف عليهم وتفقّد آثارهم ، حتى لاتنَفّذ أحكام الله ، الا بشهادة أهل البصائر فى الدين ، والاخلاص للتوحيد ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك ان شاء الله »

كتب المأمون هذا الكتاب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ ، قبل أن يخرج خَرْجَته الأخيرة على الحدود لغزو الروم (البيزنطيين) ، وقبل وفاته بزهاء أربعة شهور . ولا بد أن نعترف بأن الروح الغالب على هذه الوثيقة ، يكشف لنا عن رجل ، هو الى التشدد الضيق والتعصب المظلم ، أدنى منه الى الفكر الحر والعقل الطليق(**) . كما لا نستطيع أن نفترض أن رجلا فى خلق المأمون ، يسمح بأن تُكتَب له وثيقة من هذا الطراز ، وأن

(*) أى بخلق القرآن

(**) يخلط المؤلف هنا بين امرين : الاول مضمون الوثيقة ، والثانى سياسته فى حمل الناس عليها . ولا شك أن مضمون الوثيقة يدل على التفكير الحر وعلى استخدام العقل فى فهم العقائد الدينية كما لا يخفى نبل مقصد المأمون فى تصحيح عقائد الناس ، ولو اقتصر على هذا لكان مصلحا مستنيرا . ولكن يؤخذ عليه ارغام الناس على الاخذ بهذه الآراء

تــكون مُشْبَعة بنزعة أو بروح مخــالفة لنزعته وروحه . كما أن كل ما يُستخلَص منها من الدلائل ، يشير الى شعوره بزهو عقلى ، واكتفاء ذاتى فى التفكير ، واحتقار للآراء المخالفة له . ويبدو أن الخليفة المزْدَهِى بنفسه المُمْتَهِن لغيره ، قد أقنعه الملتفّون حوله ، بأنه يستطيع أن يروع أهل السنة وأن يظفر منهم بالاذعان لمذهبه والقول بمقالته ، وخاصة الضعيف منهم ، الذى يُرْهِبُه الوعيد ويُفزعُه التعذيب ، وأنه قادر على تطهير الأرض من المعاندِين ، اذا ما تَعذر اصلاحهم واستعصت هدايتهم

٦ ـ بداية المحنة فى البلاد الاخرى

١ ـ مصر :

أرسل هذا الــكتاب الى كافة الولايات فى الدولة الاسلامية ، وكانت النسخة التى أرسلت الى كيدر (*) ، متولى امرة مصر ، مماثلة تماما لتلك التى أوردناها مترجمة . ولــكنها لم تصل مصر حتى شهر جمادى الآخرة . وكان القاضى بمصر يومئذ ، هرون بن عبد الله الزهرِى الذى أجاب عند امتحانه بشأن القرآن ، كما أجاب الشهود المُعتَمدون . ومن توقف منهم عن القول بخلق القرآن ، أسقطت عدالته وأبطلت شهادته (*) . وبدأ كيدر بامتحان الفقهاء والعلماء . ويبدو أنه لم يتخذ اجراء شديدا ، حين بلغه نعى المأمون فى الشهر التالى لوصول خطابه ، الذى أمر فيه الخليفة بأخذ

(*) كيدر فى الاصل مكتوبة بما يدل على فتح الدال ولكنها ضبطت فى كتاب الكندى،ولاةمصر وقضاتها بفتح الدال ، انظر طبعة روفن جست لهذا الكتاب المنشورة ببيروت سنة ١٩٠٨ م ص ١٩٣

(*) نظام الشهادة فى المحاكم الاسلامية أن القضاة يعدون المسلمين الذين يتقدمون للشهادة عدولا مالم يعرف عنهم فى سيرتهم أنهم يرتكبون اعمالا تسقط عدالتهم

الناس بالمحنة . ولما ورد عليه الخبر بموته أوقفها (*)

ب ـ دمشق :

وقد أتت المصادر بأخبار بعض المحاكمات فى دمشق من أجل القول بخلق القرآن . ولـكن الحـكومة لم تعمل ـ فيما يبدو ـ سوى القليل فى انفاذ المحنة ، سواء أكان ذلك فى دمشق أم فى سائر المقاطعات الأخرى ، لأن الاشارات الخاصة بها يسيرة جدا ومقتضبة . ويمكن أن نستخلص من طريقة أبى المحاسن (بن تَغْرِى برْدِى) فى روايتها أن الأمر بالمحنة فى الأماكن الخارجة عن ولايتى العراق ومصر من البلاد الاسلامية ، بلغها متأخرا عن تاريخ وصوله لهاتين الولايتين . فلا بد اذا صح هذا الاستنتاج أن الزمن الذى استغرقته المحنة فى هذه البلاد الاسلامية الأخرى كان قصيرا ، وأن هذا يَصْدُق على الأقل على خلافة المأمون . كما يستخلص أيضا ، أن نجاح حملة الاضطهاد فى بغداد ، قد دفعت المأمون الى أن يصدر أمرا عاما بأخذ الناس بالمحنة فى كافة أرجاء امبراطوريته . ففى سنة ٢١٨ هـ ، ذهب المأمون بنفسه الى دمشق ، وربما كان فى طريقه وهو ذاهب الى حملته الأخيرة على آسيا الصغرى. وهنالك فى دمشق أشرف بنفسه على امتحان الفقهاء والعلماء فى مسائل حرية الارادة ووحدانية الذات الالهية أى العدل والتوحيـد ،

(*) النجوم الزاهرة لابى المحاسن بن تغرى بردى حـ ١ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ (*) لم يرد فى الطبعة المصرية للنجوم الزاهرة حـ ٢ ص ٢٢٢ ومابعدها ، القاهرة سنة ١٩٣٠ م ، ما يشير الى أن كيدر أوقف المحنة لما جاءه نعى المأمون . هذا ولم يطلع باتون على كتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى ، الآنف الذكر ، وهو يتضمن حقائق تاريخية هامة عن المحنة فى مصر ، وهى تبدأ بما جاء فى ص ١٩٣ من كتابه حيث يقول : « وورد كتاب أبى اسحاق بن الرشيد على كيدر بأن يأخذ الناس بالمحنة ، ورد الكتاب فى جمادى الآخرة سنة ثمانى عشرة ومائتين (الموافق للرابع والعشرين من شهر يونية سنة ٨٣٣ م ، نقلا عن التوفيقات الالهامية ص ١٠٩) ، والقاضى بمصر هارون ابن عبد الله الزهرى ، فأخذه كيدر بذلك ، فأجاب ، وأخذ الشهود به ، فأجابوا ، فمن وقف منهم ، سقطت شهادته ، وأخذ بها الفقهاء والمحدثين والمؤذنين ، فكان الناس على ذلك من سنة ثمانى عشرة الى أن قام المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين »

وعنده أن عقيدة التوحيد تعد اختبارا يؤدى الى القول بخلق القرآن (١) .
وكان اسحق بن يحيى حاكم دمشق فى عهد المأمون ، كما كان حاكمها فى عهد خليفتيه المعتصم والواثق . وقد كتب له المعتصم ، ابان خلافته كتابا أمره فيه بأن يمتحن الناس الذين تولى امرتهم بمبدأ خلق القرآن . غير أنه ترفق بهم ، ولم يأخذهم بالشدة ، فيما يتعلق بانفاذ الأمر الذى تلقاه . وقد عينه المتوكل فى سنة ٢٣٥ هـ حاكما على مصر (٢)

جـ ــ الكوفة :

عندما بلغ الكوفة الأمر بالمحنة ، كان بمسجدها الجامع ، جمع غفير من

---

(١) تاريخ اليعقوبى حـ ٢ ص ٥٧١ (*) نشره هوتسما فى ليدن سنة ١٨٨٣ فى مجلدين ، وفى طبعة النجف سنة ١٣٥٨ هـ فى حـ ٣ ص ١٩٤ والعبارة التى يشير اليها المؤلف هى : « وصار المأمون الى دمشق سنة ٢١٨ هـ ، وامتحن الناس فى العدل والتوحيد) » . وقد سمى المعتزلة انفسهم أهل التوحيد والعدل . وحجتهم على الاخص فى هذا ، هى أنهم لا يقولون من جهة ، بقول أهل السنة فى صفات الله وفى القرآن ، لتعارض هذا القول مع فكرة الوحدانية فى الاسلام وذهبوا الى أن الصفات ماهى الا أسماء جوفاء ، وليست بكائنات حقيقية قائمة منفصلة عن الذات ، ولكنها ابراز لنواح خاصة فى جوهر الذات تدل على أن الله تعالى عالم وقادر ومريد الخ . كما أن المعتزلة أنكروا من جهة أخرى مذهب أهل السنة فى القدر الالهى ، وما كتبه الله على خلقه فيما يأتونه من أعمال ومايلقونه من مصير . لان هذا القدر يتناقض مع العدالة الالهية المطلقة . لذلك قالوا بأن الانسان حر فى ارادته وأنه خالق لافعاله ومتحكم فى مصيره . لذلك نرى أن ماسمى به المعتزلة فى كتب الجدل والكلام من أنهم أهل التوحيد والعدل ، يحمل معنى خاصا أكثر مما ظهر لنا فى بداية هذه الملاحظة ، فالمعتزلة يقولون أولا : بانكار وجود الصفات الالهية ويذهبون الى أنها لا تنفصل عن الذات ، ويترتب على ذلك أن القرآن مخلوق ولذلك سموا بأهل التوحيد ، ثانيا يقولون بحرية الارادة عند الانسان ولذلك سموا بأهل العدل . انظر كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٥٥ ، ٩٢ ، ١٣٣ ، وكتاب المعتزلة بقلم شتينر ص ٣٠ ، ٥٠ وهامش رقم ٣ ، والملل والنحل للشهرستانى ترجمة هاربريكر حـ ١ ص ٣٩ ، ٤٢

فاذا صح ماذهب اليه اليعقوبى ، فان عبارة هوتسما فى ص ١٠٨ من كتابه يتحتم تصحيحها وهى (عبارة هولندية ترجمتها :) « أن المأمون لم يدخل الدولة فى حسابه حينماأعلن عقيدته فى خلق القرآن » . وكل الدلائل ترجح أن الخليفة أتى ماذكره اليعقوبى ، ولو أنا بصفة عامة لا نعتبر اليعقوبى حجة يوثق به فيما حكاه عن المحنة . ويبدو أنه تنقصه فى موضوع المحنة الدقة المعروضة عنه فى تسجيله للحوادث

(٢) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٧١١ وما بعدها (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٨٣ ، سنة١٩٣٠م وقد جاء فيها : (اسحق بن يحيى) ولى امرة دمشق فى أيام المأمون ... وكان فيه رفق بالرعية وعدل وانصاف . رفق بالناس فى أيام ولايته بدمشق ، عندما ورد كتاب المعتصم بامتحان الرعية بالقول بخلق القرآن

المشايخ . فلما قرىء عليهم كتاب الخليفة (لم يرد اسمه فى النص الذى نقلنا عنه) ، كان الشعور هو عدم الاذعان للأمر الذى اشتمل عليه . وممن شهد هذا المجلس أبو نُعَيم الفضل بن دُكَين، أحد مُحدِّثى الكوفة ، المتوفى سنة ٢١٩ هـ . وقد رُوِى عنه أنه قال : « أدركت ثمانمائة شيخ ونيفا وسبعين شيخا ، منهم الأعمش ، فمن دونه ، فما رأيت أحدا يقول بهذه المقالة ، يعنى بخلق القرآن ، ولا تكلم أحد بها الا رُمِى بالزندقة(١) ». ولقد شهد أبو نعيم الفضل بن دُكَين بداية المحنة فى الكوفة . وهذه الحقيقة تدلنا على التاريخ التقريبى لوقوع حادث المحنة هنالك ، لأن هذا الرجل توفى سنة ٢١٩ هـ ، كما ذكرنا (٢)

نص الزعماء السبعة (*) :

ويحق لنا أن نحدس ما يمكن أن يثيره كتاب المأمون لعامله على بغداد من احساس بالمقاومة ، يذكيها أكبر المحركين لها وأشدهم حماسة وهو أحمد بن حنبل (٣) . ولم يكن المأمون الى ذلك الوقت قد تجرأ على حبسه

(١) انظر فى تاريخ كلمة زنديق واستعمال أهل السنة لها ، كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٧٥

(٢) المقريزى ورقة ١٣ : « وأما الحافظ أبو نعيم الفضل بن دكين ، فروى الحافظ أبو الفرج (بن الجوزى) بسنده الى محمد بن أحمد بن عمرو بن عيسى ، قال : سمعت أبى يقول : ما رأيت مجلسا أنبل من مجلس اجتمع فيه المشايخ بجامع الكوفة فى وقت الامتحان فقرىء عليهم الكتاب الذى فيه المحنة . فقال أبو نعيم .. (*) العبارة السابقة التى أوردناها فى المتن وهى فى الاصل فى الحاشية) . (*) يلاحظ أن المؤلف أضعف من رواية اليعقوبى لحوادث المحنة مع قرب عهده بها أكثر من الطبرى ، اذ توفى بعد سنة ٢٧٨ هـ والطبرى توفى سنة ٣١٠هـ ولم يوضح لنا المؤلف أسباب عدم توثيقه لرواية اليعقوبى ، والراجح أن ذلك يرجع لتعارض رواية اليعقوبى مع كافة المراجع التى رجع اليها المؤلف . وكلها مما كتبه أهل السنة والحنابلة

(*) فى الاصل Citation ومعناها استدعاء أو اعلام ، وهى تؤدى معنى كلمة « نص » فى اللغة العربية ففى تاج العروس حـ ٤ ص ٤٤٢ « من المجاز : نص فلانا « نصا » اذا استقصى مسألته عن الشيء اى أحفاه فيها ، ورفعه الى حد ماعنده من العلم حتى استخرج كل ماعنده» وقد وردت فى الكتاب الاول للمأمون : « فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس » . وترجمها باتون بكلمة Citation

(٣) أنكر أهل بغداد على المأمون فى سنة ٢١٥ هـ ، وحتى قبل هذا التاريخ ، بدعته الخاصة بخلق القرآن ، النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٣١ (*) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٠ م حـ ٢ ص ٢٠٣ : « وفيها (أى سنة ٢١٢ هـ) أظهر المأمون القول بخلق القرآن .. واشمأزت النفوس منه »

واعتقاله . وتكشف لنا خطوته التالية التى أدخلها فى حسابه وتدبيره عن مدى سلامة الاجراء الذى اتخذه ، لحمل رعيته على الانقياد لآرائه والقول بمذهبه

٧ ــ الكتاب الثانى للمأمون

كتب المأمون كتابا ثانيا الى اسحق بن ابراهيم ، حاكم العراق ، يأمره فيه بأن يُشخِص اليه سبعة من وجوه المحدّثين ببغداد ، حتى يتولى امتحانهم بنفسه . وكانت هذه الحركة من جانبه ، تدل على حذقه وبراعته ، اذا نظرنا اليها من وجهة الهدف الذى كان يسعى اليه . اذ أن توقف هؤلاء المحدثين عن الاجابة ، يكون أعسر عليهم وأشق ، بدرجة كبيرة ، عما لو جرى امتحانهم ببغداد ، حيث يلقون مؤازرة أدبية وتأييدا معنويا من زملائهم عامة المحدثين والفقهاء هنالك ، فضلا عن أنهم سيكونون فى حضرة الخليفة وجها لوجه أمام أعوانه ، ورجال بلاطه وجلاديه، فيُدخِل الخليفة فى روعهم ، ما قد يجرّه غضبه من نِقَم وأهوال ، تحيق بهم لو أنهم جنحوا الى التمرد والخلاف . واذا ما ظفر الخليفة بانقياد هؤلاء الزعماء ومتابعتهم لرأيه ، لم يكن هناك ما يخشاه ممن كان من المحدثين والفقهاء أقل شأنا وأدنى منزلة . وفى البداية كان اسم أحمد بن حنبل ، مُدرَجا بين أسماء أولئك السبعة المشار اليهم آنفا . ولكن أحمد بن أبى دُوَاد أمر بمحوه ــ وعلى الأقل فان هذا هو ما زعمه قاضى القضاة

وهؤلاء الذين أشخصوا (١) لحاشية المأمون هم : محمد بن سعد ،كاتب الواقدى ، وأبو مسلم ، مُستَمْلِى يزيد بن هرون ، ويحيى بن مَعِين ، وزهير بن حَرب أبو خيثَمة ، واسماعيل بن داود ، واسماعيل بن أبى مسعود ، وأحمد بن ابراهيم الدوَرقى . وقد أجاب هؤلاء السبعة جميعا ، بفضل ما استخدمه الخليفة من وسائل الاكراه والضغط عليهم . وبعد أن

---

(١) تاريخ الطبرى ص ١١١٦ (من الطبعة الاوربية) ولم يأت الطبرى بنص الكتاب الثانى للمأمون

نال بغيته من اجابتهم ، ردهم الى عامله اسحق بن ابراهيم ببغداد ، حيث أمره أن يشهر أمرهم وقولهم ، وأن يجيبوا بما أجابوا به الخليفة ، فى حضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث (١)

٨ ــ أثر الكتاب الثانى للمأمون

كان تنكب هؤلاء السبعة جادة السنة مما أساء كثيرا الى أحمد بن حنبل وأحزنه . وكان يرى أنهم لو ثبتوا وتوقفوا ، لانقطع أمر المحنة ، ولما سمع بها أحد فى بغداد ، ولكف المأمون عن مخاشنتهم ولهاب ايذاءهم ، لأنهم أقطاب المدينة وأعلامها . ولكنهم لما ضعفوا لم يتردد الخليفة فى امتحان غيرهم . (روى المقريزى (٢) قال (أحمد بن حنبل) : « فأجابوا ، ولو كانوا صبروا ، وقاموا لله ، لكان انقطع الأمر ، وحذرهم الرجل ، يعنى المأمون . ولكن لما أجابوا ، وهم عين البلد ، اجترأ على غيرهم » . وكان أبو عبد الله ، اذا ذكرهم يتغتم ، ويقول : « هم أول من ثلم هذه الثلمة » .) وقد اعتذروا بأنهم انما أجابوا تقية (أى تحللا من أحكام الدين اذا كان فى مراعاتها خطر على الحياة) . ولكن الباعث الحقيقى لاجابتهم ، هو خوفهم من القتل ، فيما اذا خالفوا . وهذا هو ما أقر به يحيى بن معين ، مستعبرا نادما ، (اذا ما ذكر المحنة (٣)) . قائلا بأن

---

(١) تاريخ الطبرى ص ١١١٦ وما بعدها (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١٠ ص ٢٨٦ وقد ترجم ابن خلكان فى كتابه وفيات الاعيان لمحمد بن سعد ، رقم ٦٥٦ ، كما ترجم النووى فى تهذيبه ليحيى بن معين ص ٦٢٨ (*) طبعة مصر بالقاهرة حـ ٢ ص ١٥٦ . وترجم الذهبى فى كتابه تذكرة الحفاظ لكل من أحمد بن ابراهيم الدورقى ، الطبقة ٨ رقم ٩٨ ، ولزهير بن حرب فى نفس الطبقة رقم ٢٣ ، ولم أستطع أن أعثر على تراجم الثلاثة الاخرين (من هؤلاء الثلاثة : اسماعيل بن داود ،ذكره الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال حـ ١ ص ١٠٥ ، وذكر أنه من المحدثين الضعفاء ولعله هذا

(٢) المقفى ورقة ٤

(٣) السبكى ورقة ١٣٧ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٠٧ : وسبب طلبهم ، انهم توقفوا أولا ثم اجابوه تقية ، وكتب (المأمون) الى اسحق بن ابراهيم بأن يحضر الفقهاء ومشايخ الحديث ، ويخبرهم بما أجاب به هؤلاء السبعة ، ففعل ذلك ، فأجابه طائفة وامتنع آخرون ، فكان يحيى بن معين (وغيره ، وهذه الكلمة زيادة من تاريخ الخلفاء للسيوطى) يقول : أجبنا خوفا من السيف

هذا هو السبب فى اجابته . وقد كان من سوء الحظ ، ما أظهره هؤلاء الزعماء السبعة من ضعف وخور . لأنه ليس من المستبعد أن المأمون كان يجدُ فى حَزْمهم وصلابتهم ، زاجرا له عن المضى فى سياسته ، وهى حمل النـاس قسرا على اتباع مذهبه . كما أنه لم يكن من المحتمل آنذاك أن تستأنف المحنة بعد موته ، وأن يعمد من وليه من الخلفاء الى احياء محاكمة تحقيقية كهذه ، سبق أن عدِل عنها

٩ ـ الكتاب الثالث للمأمون

ثم أرسل الخليفة المأمون كتابا ثالثا الى اسحق بن ابراهيم ، عامله على بغداد ، ونصه فيما يلى : (١) : (أما بعد) فان من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لاقامة دينه ، وحمّلهم رعاية خَلْقه ، وامضاء حكمه وسُنَنه ، والائتمام بعدله فى بريته ، أن يُجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلّدهم ، ويدلوا عليه ، تبارك اسمه وتعالى ، بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التى جعلهـا فيهم ، ويهدوا اليه من زَاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سَمت نجاتهم ، ويقفوهم على حدود ايمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم عن مُغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبيّنة على كافتهم ، وأن يُؤثروا ذلك من ارشادهم وتبصيرهم . اذ كان جامعا لفنون مصـانعهم ، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم . ويتذكروا (أى الخلفـاء) ما الله مُرصِد من مساءلتهم عما حُمّلوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه ، وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين الا بالله وحده ، وحَسْبُه الله ، وكفى به

ومما بيّنه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبيّن عظيم خطره ، وجليل ما يرجع فى الدين من وكفه وضرره ، ما ينال المسلمون بينهم من

(١) الطبرى حـ ٣ ص ١١١٧ وما بعـدها (*) طبعة الحسينية بالقاهـرة حـ ١٠ ص ٢٨٦ وما بعدها

القول فى القرآن ، الذى جعله الله اماما لهم ، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفيّه محمد صلى الله عليه وسلم ، باقيـا لهم ، واشتباهه (أى القرآن) على كثير منهم حتى حَسُن عندهم ، وتَزيَّن فى عقولهم ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك ، لدفع خَلْق الله ، الذى بَان عن خَلْقه ، وتَفَرّد بجلالته ، من ابتداع الأشـياء كلها بحكمته ، وانشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليّته ، التى لا يُبْلَغ أولاها ، ولا يُدْرَك مداها ، وكان كل شىء دونه ، خَلْقاً من خَلْقه ، وحَدَثاً هو المُحْدِث له (*) ، وان كان القرآن ناطقاً به ، ودالا عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضَاهوا به قولَ النصارى ، فى ادعائهم فى عيسى بن مريم ، أنه ليس بمخلوق ، اذ كان كلمة الله(١)، واللهعزوجل يقول:«انَّا جَعلْناه قُرآناعَربِياً»(٢). وتأويلذلك انا خلقناه ، كما قال جل جلاله : « وجعلَ منها زوجها ليسكُن اليها (٣) »

وقال : «وجعلْنا اللَّيل لِباساً ، وجعلْنا النَّهار معاشاً (٤)». «وجعلْنا من المَاء كُل شىء حىّ (٥) » . فسَوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها فى شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : « بل هُو قرآنٌ مجِيدٌ فى لَوح محفوظ (٦) » . فقال ذلك ، على احاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحاط الا بمخلوق (٧) . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم :

(*) أى هذه الفكرة الباطلة التى يذهبون اليها (*) العبارة السابقة أوردها المؤلف بينقوسين فى الاصل ، ليشرح سياق كتاب المأمون فى ترجمته له

(١) وازن ذلك بما فى سورة الاخلاص رقم ١١٢ ، وبما فى كتاب المعتزلة بفلم شتينر ص ٩٠ وهامشها

(٢) سورة الزخرف رقم ٤٣ آية ٣

(٣) سورة الاعراف رقم ٧ آية ١٨٩

(٤) سورة النبأ رقم ٧٨ آية ١٠ ، ١١

(٥) سورة الانبياء رقم ٢١ آية ٣٠

(٦) سورة البروج رقم ٨٥ آية ٢١ ، ٢٢

(٧) وازن ذلك بما جاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ترجمـة هاربريكر حـ ١ ص ٨٢

«لاتحرك به لسانك لتعجل به (١)». وقال : «مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث (٢)». وقال : «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أوكذب بآياته (٣) » . وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : «ما أنزل الله على بشر من شىء (٤)». ثم كذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : «قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى (٥)». فسمى الله تعالى القرآن قرآناً ، وذكرا وايماناً ونورا وهدى ومباركاً وعربيا وقصصا ، فقال : «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن(٦)».وقال : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله (٧)». وقال : «قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات(٨)». وقال : «لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (٩) » . فجعل له أولا وآخرا ، ودل عليه أنه محدود مخلوق

وقد عظم هؤلاء الجهلة ، بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم ، والحرج فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الاسلام ، واعترفوا بالتبديل والالحاد على قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله ، بالصفة التى هى لله وحده ، وشبهوه به . والأشباه أولى بخلقه . وليس يرى أمير المؤمنين ، لمن قال بهذه المقالة ، حظا فى الدين ، ولا نصيبا من الايمان واليقين . ولايرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق فى قول ، ولا حكاية ، ولا تولية لشىء من أمر الرعية ، وان ظهر قصد

---

(١) سورة القيامة رقم ٧٥ آية ١٦ (والآية التى تليها : ١٧ : ان علينــا جمعه وقرآنه)
(٢) سورة الانبياء رقم ٢١ آية ٢
(٣) سورة الانعام رقم ٦ آية ٩١
(٤) سورة الانعام رقم ٦ آية ٩١
(٥) نفس الآية السابقة
(٦) سورة يوسف رقم ١٢ آية ٣
(٧) سورة الاسراء رقم ١٧ آية ٨٨
(٨) سورة هود رقم ١١ آية ١٣
(٩) سورة فصلت رقم ٤١ آية ٤٢

بعضهم ، وعـُرف بالسداد مُسـَــدَّد فيهم.فانالفروع مردودة الىأصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها . ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا

فاقرأ على جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحق القاضى ، كتاب أمير المؤمنين ، بما كتب به اليك ، وأنتصـنهما عن علمهما فى القرآن . وأعلمهما أن أمير المؤمنين لايســتعين على شىء من أمور المسلمين ، الا بمن وثق باخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يـُقـِر بأن القرآن مخلوق . فان قالا بقول أمير المؤمنــين فى ذلك ، فـَتقدم اليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق، ونـَصـِّهم (*) عن قولهم فى القرآن. فمن لم يقل منهم : انه مخلوق ، أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله . وان ثـَبـَت عفافـُه بالقصد والسداد فى أمره . وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة ، وأشـرِف عليهم اشرافا ، يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المـُرتـَاب من اغفال دينه . واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك ، (ان شاء الله)

١٠ ـ نص العلماء فى بغداد

وقد نفذ اسحق بن ابراهيم الأوامر التى تلقاها فى كتاب المأمون ، فأحضر جماعة من الفقهاء والعلماء والمحدثين (١) . فممن أحضرهم ، أحمد بن حنبل، وبشر بن الوليد الـــكندى ، وأبا حسـَّان الزيادى ، وعلى بن أبى مقاتل ، والحسن بن حمـَّاد السجـَّادة (٢) ، والذيـَّال بن الهيثم ، وقتيبة بن سعيد

(*) سبق لنا أن شرحنا معنى كلمة نص اى استقصاء المسألة عن الشىء

(١) تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١١٢١ وما بعدها ، وقد تابعته فى هذه القطعة بطولها (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١٠ ص ٢٨٧ وما بعدها

(٢) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٣٨ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٢٠ والمقريزى ورقة ٤حيث يقول : الحسن بن حماد المعروف بسجادة

الذى يبدو أنه كان وقت ذاك فى بغداد بصفة مؤقتة ، وسعدويه ، سعيد بن سليمان أبوعثمان الواسطى[1] ، واسحق بنأبىاسرائيل، وابنالهِرش(*)، وابن عُلَيَّة الأكبر ، ومحمد بن نوح المضروب العِجلى [2] ، ويحيى ابن عبد الرحمن العُمَرى ، وأبا نصر التَّمَّار ، وأبا مَعْمَر القطيعى ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، وشيخ من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضى الرقة ، وابن الفـرخان، والنضر بن شُمَيْل، وعبد الرحمن بن اسحق ، وابن البَكّاء الأكبر ، وأحمد بن يزيد بن العَوام ، أبو العَوام البزاز ، وابن شُجَاع ، ومحمد بن الحسن بن على بن عاصم . وقد ذكرت أسماء أخرى تتبينها فى التحقيق التالى

١ ـ بشر بن الوليد الكندى :

لما أشخِص هؤلاء القوم الى اسحق بن ابراهيم ، قرأ عليهم كتاب المأمون مرتين حتى وقفوا على معناه . ثم سألهم الاجابة للمذهب الذى دعا اليه الخليفة . ففى البداية حاولوا الادلاء بحججتحايلوا بها مغالطة وتمويها ، ولا يُفهم منها اذا كانوا يوقنون بخلق القرآن أو ينكرون أنه مخلوق . وكان أول من امتحنه اسحق بن ابراهيم ، بشر بن الوليد (الكِنْدى) . سأله : ما تقول فى القرآن ؟ فرد بشر قائلا : قد عَرَفْت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة . فقال اسحق : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى . فرد بشر: أقول القرآن كلام الله . فقال اسحق : لم أسألك عن هذا ، أمخلوقٌ هو ؟ فقال بشر : الله خالق كل شىء . قال اسحق : ما القرآن شىء ؟ قال : بشر :

---

(١) أورد ابو المحاسن بن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٦٥(*)طبعةالقاهرة حـ ٢ ص ٢٤٣) اسمه : « سعيد بن سليمان ، سعدويه وكنيته أبو عثمان الواسطى

(*) فى الاصل بفتح الهاء وصحتها بكسرها

(٢) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٤٨ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٢٠ ، ويضيف السبكى ورقة ١٣٨ ، الى اسمه كلمة المضروب (*) لا توجد كلمة المضروب فى طبعة الحسينية بالقاهرةحـ١ ص ٢٠٧ ، وقد أورد الخطيب فى تاريخ بغداد حـ ٣ ص ٣٢٢ رقم ١٤٢٥ ، اسمه : محمد بننوح ابن ميمون ... العجلى المعروف والده بالمضروب

هو شيء . فســأله اسحق : فمخلوق ؟ فرد بشر : ليس بخالق . قال اسحق : ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

فأقر بشر حينذاك بأنه قد سَلَّم الى أقصى مدى يستطيع أن يسلم به ، فضلا عن أن الخليفة قد احلَّه من الافصاح عن رأيه فى هذا الموضوع . وعندئذ أخذ اسحق رقعة كانت بين يديه ، فقرأها على بشر ووقفه عليها . ثم قال لبشر : أشهد ألا اله الا الله ، أحد فرد ، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه (١) . فقال بشر : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا . ثم التفت اسحق للكاتب وقال له : أكتب ما قال

ب ـ على بن أبى مقاتل :

ثم قال اسحق لعلى بن أبى مقاتل : (ما تقول يا على ؟) سائلا اياه عن معتقده . فقال على : قد سَمَّعْت كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير مرة ، وما عندى غير ما سمع. فامتحنه اسحق بالرقعة التى قرئت عليه فأدلى على بالاقرار المطلوب . ثم قال اسحق : القرآن مخلوق ؟ فرد علىٌ : القرآن كلام الله . فأجابه اسحق بما أجاب به بشر ، بأنه لم يسأله عن هذا . فرد علىٌ : هو كلام الله ، وان أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا . وقد أمر الكاتب مرة أخرى بتسجيل ما قاله

ثم قال للذيَّال نحوا من مقالته لعلى بن أبى مقاتل ، فقال له : مثل ذلك

حـ ـ أبوحسان الزيادى :

وانا نلاحظ فيما أجاب به أبو حَسَّان الزيادى معنى من معانى الخضوع

---

(١) يبدو أن هوتسما فى كتابه : المنازعات الاعتقادية الخ ص ١٠٨ فهم من هذه العقيــدة المكتوبة التى كان على من وضعت لهم أن يسلموا بها ويوقعوا عليها ، أنها تتضمن اعترافا بأن القرآن مخلوق . والموضوع كما عرضه الطبرى فى تاريخه يوضح أن الوثيقة اقتضت فحسب الاقرار بوحدانية الله . ومن الواضح أن الغرض منها تأييد الاختبار الشفهى المنفصل ، فيما يتعلق بالقرآن . ويظهر أنه لم يتحرج فقيه واحد من هؤلاء الفقهاء عن الاقرار بما جاء فى الاختبار المكتوب ، بيد أنهم ودوا تجنب الاختبار الشفوى الآخر ، لو كان ذلك ميسورا لهم

الساذج . فقد قال بأن القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق . ولـكن أمير المؤمنين امامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم. وقد قلّده الله أمرنا ، فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدى اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ونرى امامته امامة . فان أمرنا ائتمرنا وان نهانا انتهينا وان دعانا أجبنا . (قال اسحق : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حَسّان مقالته) ، قال اسحق : ان هذه مقالة أمير المؤمنين . فرد أبو حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم اليها . وان أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلت ما أمرتنى به . فانك الثقة المأمون عليه ، فيما أبلغتنى عنه من شيء . فان أبلغتنى عنه بشيء صرت اليه . فرد اسحق قائلا : ما أمرنى أن أبلغك شيئا . فقال له أبو حسان : ما عندى الا السمع والطاعة فمُرْنى أأتمر . فقال اسحق : ما أمرنى أن آمرك وانما أمرنى أن أمتحنك . وهنا ينتهى امتحان أبى حسان

د ـ احمد بن حنبل :

وفى حالة أحمد بن حنبل (عندما جاء دور امتحانه) ، اقترح ابن البكاء الأصغر على اسحق بن ابراهيم أن يسأل أحمد بن حنبل عن معنى : « وهو السميع البصير » التى وردت فى اقراره . فأجاب أحمد بما يتفق مع مبادىء الطبقة التى ينتمى اليها (وهى رجال الحديث) فقال : هو كما وصف نفسه. ولما شُدد عليه بعد ذلك لتوضيح معانىهذه الكلمات قال : لا أدرى هو كما وصف نفسه . وقد كان أحمد حازما ثابتا فى التمسك باقراره أن القرآن كلام الله ، ولم يزد شـيئا للتقريب بين الرأيين وللتسـليم بمذهب الخليفة

أما أولئك الذين امتُحِنوا بعد ذلك ، فقد اقتدوا بأحمد بن حنبل ، فيما عدا قتيبة ، وعُبَيْد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُلَيّة الأكبر ، وابن البَكّاء ، وعبد المنعم بن ادريس بن بنت وهب بن مُنَبّه ، والمُظَفر بن مُرَجّى ، ورجلا (ضريراً) ليس من أهل الفقه ولا يُعْرف بشيء منه ، الا

أنه دُسَّ فىذلك الموضع (*) ، وابنالأحمر، ورجلا من ولد عمر بنالخطاب، قاضىالرقّة . ولم تزودنا مصادرنا بما رد به هؤلاء النفر . ولكن يبدو أن ردودهم تضمنت التوفيق بين آرائهم وما حُملوا على القول به . وفى هذه المناسبة حين علم أحمد بن حنبل ، باجابة أقرانه من الفقهاء والمحدثين ، لما أجرِىَ عليهم الامتحان ، غضب غضبا شديدا

قال أبو نُعَيْم (١) : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، حدثنى أبومَعْمَر القطيعى قال : لما أحْضِرنا فى دارالسلطان ، أيام المحنة ، وكان أبو عبد الله أحمد بن حنبل قد أحْضِر . فلما رأى الناس يجيبون ، وكان أبو عبد الله رجلا لينا .. انتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه . وذهب ذلك اللين الذى كان فيه . فقلت : انه قد غضب لله . قال أبو مَعْمَر : فلما رأيت ما به قلت : يا أبا عبد الله أبْشِر

هـ ــ ابن البكاء الاكبر :

وقد أجاب ابن البكاء الأكبر . ولكن لم تكن اجابة كاملة ، بل كان فيها أكثر كياسة مما كان فى اجابة بعض زملائه . لأنه استمسك بنصوص الآيات القرآنية ، فى صياغة ما أقر به من الحجج التى أسفر عنها الامتحان . فمما أمضاه وسلَّم به ، من جهة قوله بأن القرآن مجعول ، ومن جهة أخرى بأن القرآن مُحْدث . ففى موقفه الأول أشار للآية القرآنية التى احتج بها ، وهى الآية التى استشهد بها الخليفة ليثبت أن القرآن مخلوق ، وهى الآية الثانية من سورة الزخرف رقم ٤٣ : « انا جعلناه قرآناً عربياً »

وفى موقفه الثانى ، استند للآية القرآنية التى استشهد بها الخليفة أيضا للتدليل على صحة مذهبه ، وهى الآية الثانية من سورة الأنبياء رقم ٢١ : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحْدَث » . وقد سأل اسحق ابن البكاء عما اذاكانت كلمة «مجعول» تفيد معنى كلمة «مخلوق» ، فأجاب ابن البكاء

(*) فى الاصل : تصادف حضوره أو اتفق وجوده ، وقد آثرنا اثبات نص العبارة التى أوردها الطبرى فى تاريخه طبعة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م حـ ٧ ص ٢٠١

(١) حلية الاولياء ورقة ١٤٦ ب (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٩٤

بالايجاب . فقال حاكم بغداد : اذن فالقرآن مخلوق ؟ فقال ابن البكاء : لا أقول مخلوق ولـكنه مجعول . (فكتب مقالته)

فلما فرغ اسحق من امتحان جميع الفقهاء الآخرين ، اعترض ابن البكّاء الأصغر مشيرا الى وجوب امتحان القاضيين اللذين نفترض أنهما عبدالرحمن ابن اسحق ، وجعفر بن عيسى . فقال حاكم بغداد انهما يدينان بمقالة أمير المؤمنين . فاقترح ابن البكاء الأصغر قائلا بأنهما لو أمِرا بالافصـاح عن رأيهما ، لتيسر ابلاغ أمير المؤمنين مقالتهما نيابة عنهما . غير أن حاكم بغداد، كان قد اعتزم فيما يبدو الامتناع عن امتحان القاضيين ، لـكى يجنب أحدهما (عبد الرحمن بن اسحق) الذى أرجح أنه كان ولده ، ما عسى أن يتعرض له عند امتحانه من فضول ومهانة . فلم يزد اسحق على قوله للسائل المعترِض بأنه ان شهد عندهما بشهادة فسيعلم مقالتهما

١١ ـ الكتاب الرابع للمأمون

ثم كتب اسحق بن ابراهيم للمأمون كتابا فصّل فيه ردود القوم وما أجابوا به . وبعد انقضاء تسعة أيام ، دعا اسحق الفقهاء ليسمعهم رد الخليفة. وفيما يلى نسخته (١) :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد) ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك ، جواب كتابه ، كان اليك فيما ذهب اليه متصنّعة أهل القبلة ، وملتمسو الرئاسة فيما ليسوا له بأهل ، من أهل الملة ، من القول فى القرآن ، وأمَرَك به أمير المؤمنـين من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، واحلالهم محالّهم ، تذكر احضارك جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع مَن أحضَرت ، ممن كان ينسب الى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث ، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام (بغداد) ، وقراءتك عليهم جميعا كتاب أمير المؤمنين ، ومسألتك اياهم عن اعتقادهم

(١) تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١١٢٥ وما بعدها (*) طبعة الحسينية حـ ١٠ ص ٢٨٩ وما بعدها)

فى القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ، واطباقهم على نَفْى التشبيه ، واختلافهم فى القرآن وأمْرِكَ مَن لم يَقُل منهم انه مخلوق ، بالامساك عن الحديث ، والفتوى فى السر والعلانية ، وتقدمك الى السِّنْدِى ، وعباس مولى أمير المؤمنين ، بما تَقَدَّمْت به فيهم الى القاضِيَيْن ، بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسَهما من الشهود ، وبث الكتب الى القضاة فى النواحى من عملك ، بالقدوم عليك ، لتحملهم وتمتحنهم على ما حَدَّه أمير المؤمنين ، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماء من حَضَر ومقالاتهم . وفهم أمير المؤمنين ما اقتصَصْت . وأمير المؤمنين يَحْمَد الله كثيرا ، كما هو أهله ، ويسأله أن يُصَلِّى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم . ويرغب الى الله فى التوفيق لطاعته ، وحُسْن المعونة على صالح نيته برحمته

وقد تَدبَّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سَأَلْت عن القرآن ، وما رجع اليك فيه كل امرىء منهم ، وما شرحت من مقالتهم . فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد ، فى نَفى التشبيه ، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وادعى من تَركِه الكلام فى ذلك ، واستعهاده أمير المؤمنين ، فقد كَذَبَ بِشْر فى ذلك وكَفَر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره عَهْد ولا نظر ، أكثر من اخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الاخلاص (١) ، والقول بأن القرآن مخلوق . فادعُ بِهِ اليك ، وأعلِمْهُ ما أعلَمَكَ به أمير المؤمنين من ذلك ، وأنْصِصْهُ عن قوله فى القرآن ، واستَتِبْهُ منه . فان أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته ، اذ كانت تلك المقالة ، الكفر الصُّراح ، والشِّرك المحض عند أمير المؤمنين . فان تاب منها ، فأشْهِر أمْرَه ، وأمْسِك عنه . وان أصَر على شِرْكه ، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا ، بِكُفْرِه والحاده ، فاضرب عنقه ، وابعث الى أمير المؤمنين برأسه (٢)

---

(١) أى الايمان بوحدانية الله

(٢) انظر كتاب : دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر حـ ٢ ص ٢١٦ عن عقاب المرتدين بالقتل

وكذلك ابراهيم بن المهدى ، فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا ، فان كان يقول بقوله ، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ . فان قال : ان القرآن مخلوق ، فأشهر أمره واكشفه ، والا فاضرب عنقه ، وابعث الى أمير المؤمنين برأسه

وأما علىّ بن أبى مقاتل ، فقل له : ألست القائل لأمير المؤمنين أنك تحلّل وتحرم ، والمكلّم له بمثل ما كلّمته به ، مما لم يذهب عنه ذكره . وأما الذيّال بن الهيثم ، فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس(١)، ما يشغله . وانه لو كان مقتفياً آثار سلفه ، وسالكاً مناهجهم ومحتذياً سبيلهم لما خرج الى الشرك بعد ايمانه

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام ، وقوله أنه لا يحسن الجواب فى القرآن ، فأعلمه أنه صبى فى عقله لا فى سنه ، جاهل ، وانه ان كان لا يحسن الجواب فى القرآن ، فسيحسنه اذا أخذه التأديب ، ثم ان لم يفعل ، كان السيف من وراء ذلك ان شاء الله (*)

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها . واستدل على جهله وآفته بها . وأما الفضل بن غانم ، فأعلمه انه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك . فانه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته فى الدينار والدرهم رغبته ، فليس بمستنكر أن يبيع ايمانه طمعا فيهما ، وايثاراً لعاجل نفعهما . وأنه مع ذلك ، القائل لعلىّ بن هشام ، ما قال ، والمخالف له فيما خالفه . فما الذى حال عن ذلك ونقله الى غيره ؟

وأما الزيادى فأعلمه أنه كان منتحلا لأول دعى كان فى الاسلام ،

---

(١) وازن ذلك بما جاء فى تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ٨٠ ، حـ ١ ص ١٨ وما بعدها ، والمجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية (تحقيق دى خوى) ص ٢٣٧ س ٥ وما بعدها

(*) لم يثبت المؤلف عبارة « ان شاء الله » فى كتب المأمون وآثرنا اثباتها نقلا عن تاريخ الطبرى

خولف فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم (*) . وكان جديرا أن يسلك مسلكه (ولكن أنكر أبو حسَّان أن يكون مولى لزياد ، أو يكون مولى لأحد من الناس ، وذكر أنه انما نُسِب الى زياد (بن أبيه) لأمر من الأمور (**) . وأما المعروف بأبى نَصْر التمَّار ، فان أمير المؤمنين ، شبَّه خَساسَة عقله ، بخساسة متجره . وأما المفضل بن الفَـرَّخان ، فأعْلِمْه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن ، أخْذَ الودائع التىأودعها اياه ، عبد الرحمن بناسحقوغيره ، تربصا بمناستودعه ، وطمعا فىالاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به . فقـل لعبد الرحمن بن اسحق : لاجزاكَ الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وايمانك اياه ، وهو مُعْتَقِد للشِرك ، مُنْسَلخ من التوحيد

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأعلِمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين ، لو لم يستحل محاربتَهم فى الله ، ومجـاهدتَهم الا لاربائهم ، وما نزل به كتاب الله فىأمثالهم ، لاستحل ذلك. فكيف بهم وقدجمعوا مع الارباء شركا وصاروا للنصارى مَثَلا ؟

وأما أحمد بن شجاع ، فأعْلِمْه أنك صاحبُه بالامس ، والمستخرج منه ما استخرجتَه من المال الذى كان استحله من مال على بن هِشام ، وانه مِمَّن الدينار والدرهم دينُه . وأما سَعْدويه الواسطى ، فقُل له : قبَّح الله رجـلا ، بلغ به التصنّع للحديث ، والتَّزيُّن به ، والحرص على طلب

(*) أراد المأمون ان أبا حسان الزيادى منسوب الى زياد بن أبيه ، المجهول النسب ، والذى كان عاملا على العراق لمعاوية . وقد استلحقه معاوية وعده أخا له من ابيه أبى سفيان الذى اتصل بسمية أم زياد . وحكم النبى عليه السلام فى ابناء الزنا هو أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ولذلك عد استلحاق معاوية لزياد أول حادثة خولف فيها حكم الاسلام

(**) الكلام الواقع بين القوسين المستديرين شرح ورد فى تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١١٢٨ وفى حـ ٢ ص ٦ : ٨ ، سطر ٧ ، اقرأ ذكر (فعل ماض) بدلا من ذكر (بالبناء للمجهول ، وهـذه مصححة فى طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١٠ ص ٢٩٠ ـ وأرجح أن العبارة المحصـورة بين القوسين لم ترد أصلا فى كتابه المأمون مع أن الطبرى أوردها فى تاريخه

الرياسة فيه ، أن يتمنى وقت المحنة ، فيقول بالتقرب بها منى ، يمتحن ، فيجلس للحديث

وأما المعروف بسجادة ، وانكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه ، القول بأن القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه فى شغله باعداد النوى (*) ، وحكه لاصلاح سجادته (١) ، وبالودائع التى دفعها اليه ، على بن يحيى وغيره ، ما أذهله عن التوحيد وألهاه . ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ، ومحمد بن الحسن يقولانه ، ان كان شاهدهما وجالسهما

وأما القواريرى ، ففيما تكشف من أحواله وقبوله الرشا والمصانعات ، ما أبان عن مذهبه ، وسوء طريقته ، وسخافة عقله ودينه . وقد انتهى الى أمير المؤمنين انه يتولى لجعفر بن عيسى الحسنى مسائله . فتقدم الى جعفر ابن عيسى فى رفضه وترك الثقة به والاستنامة اليه . وأما يحيى ابن عبد الرحمن العمرى ، فان كان من ولد عمر بن الخطاب ، فجوابه معروف (**) . وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم ، فانه لو كان مقتديا ، بمن مضى من سلفه ، لم ينتحل النحلة التى حكيت عنه (٢). وأنه بعد صبى يحتاج الى تعلم

وقد كان أمير المؤمنين ، وجه اليك المعروف بأبى مسهر (٣) ، بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته فى القرآن . فجمجم عنها ولجلج فيها ، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فأقر ذميما . فأنتصصه عن اقراره .

(*) النوى جمع نواة والمقصود به نوى التمر

(١) هى قطعة جاسئة من الجلد ، تتكون فى الجبهة من كثرة السجود ، هذا اذا كان صاحبها يكثر حقا من السجود ، اما المراءون بالتقوى والورع فانهم يحدثونها بأن يحكوا جلد جباههم

(**) أى أنه سيجيب

(٢) تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١١٣٠ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١٠ ص ٢٩١

(٣) توفى أبو مسهر سنة ٢١٨ هـ ، راجع طبقات الذهبى الطبقة ٧ رقم ٦٢ (*) صحتها ٦٥ وكتاب الذهبى هذا قريب من تذكرة الحفاظ ، راجع حيدر اباد سنة ١٣٣٣ هـ حـ ١ ص ٣٤٦

فان كان مقيما عليه ، فأشهر ذلك وأظهره (ان شاء الله)

ومن لم يرجع عن شركه ممن سمَّيت لأمير المؤمنين فى كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا ، ولم يقل ان القرآن مخلوق ، بعد بشر بن الوليد ، وابراهيم بن المهدى ، فاحملهم أجمعين موثقين الى عسكر أمير المؤمنين ، مع مَن يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤديهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم الى مَن يؤمَن (*) بتسليمهم اليه. لينصّهم أميرالمؤمنين. فانلم يرجعوا ويتوبوا ، حملهم جميعا على السيف (ان شاء الله ولا قوة الا بالله)

وقد أنفذ أميرالمؤمنين كتابه هذا ، فى خريطة (**) بندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية ، معجلا به ، تقرباً الى الله عز وجل ، بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد ، وادراك ما أمَّل من جزيل ثواب الله عليه . فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعَجل اجابة أمير المؤمنين ، بما يكون منك فى خريطة بندارية ، منفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعلمونه (ان شاء الله وكتب سنة ٢١٨ هـ .) .

١٢ ــ اجابة الفقهاء

ولما قرىء هذا الكتاب ، أجاب كافة الفقهاء الذين ورد ذكرهم فيه ، ما عدا أحمد بنحنبل، وسجّادة ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح المضروب. فأودع هؤلاء الأربعة مصفّدين فىالأغلال. وفى اليوم التالى ، أشخصوا مرة أخرى الى حاكم بغداد ، وأعطوا الفرصة للاجابة (الى خلق القرآن).

(*) فى رواية : « يؤمرون » وهى التى اعتمدناها فى الترجمة (أى ترجمة كتاب المأمون . ولكنا آثرنا كلمة يؤمن لانها أقرب الى مراد المأمون ، فضلا عن أنها وردت فى طبعة الحسينية بالقاهرة لتاريخ الطبرى حـ ١٠ ص ٢٩١)

(**) الخريطة شبه كيس يسرج من أديم وخرق والجمع خرائط وهى أجربة أو أكياس توضع الكتب فيها وتختم بختم المرسل منه وتحمل الى المرسل اليه والخريطة البندارية هى بريد سريع

وقد انتفع سَجَّادة بها فأجاب وأطلق سراحه (١) . ثم أحضروا أيضا من السجن فى اليوم التالى . وأتيحت لهم فرصة أخرى للاذعان والتسليم ، فانتهزها عبيد الله بن عمر القواريرى ، فظفر بفكاكه وحريته . ومن ثَم لم يَثبت على عقيدته بين من أشخصوا وأنتصوا سوى أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح . وكان أحمد يلتمس دائما لهم العذر استنادا على مبدأ التقيَّة الذى أيَّده القرآن (٢) فى الآية ١٠٦ بسورة النحل رقم ١٦ : « الا مَن أكْرِه وقلبُه مُطمئِن بالايمان». (قال المقريزى(٣) : وكان أبوعبدالله رحمه الله ، يقيم عذرهما ، ويقول : أليس قد حُبِسا وقُيِّدا ؟ قال الله تعالى : (الآية السابقة) . ثم قال أبو عبد الله رحمه الله : القيد كُره والحبس كُره والضرب كُره . فأما اذا لم يَنَل بمكروه ، فلا عذر له)

١٣ــ امتناع احمد ومحمد بن نوح عن الاجابة واشخاصهما الى الخليفة فى طرطوس

فكتب اسحق حاكم بغداد كتابا الى المأمون ، ينبؤه بنتائج امتحان الفقهاء (٤) . وبعد قليل ، أمر المأمون اسحق بن ابراهيم بأن يُشخص اليه فى طرسوس أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، موثقين فى الأغلال . ولما وصلا فى طريقهما الى قرب الأنبار ، عبر أبو جعفر الأنبارى نهر الفرات ، ليرى أحمد فى الخان الذى وضع فيه . فذكره بمسئوليته كعَلَم مُقَدم ينظر اليه الناس جميعا للاقتداء به . فان أجاب اجابة موافقة لرغبة الحكومة ، فسيجيب الناس جميعا الى القول بهذه المقالة . ولكنه لو رفض التسليم بها . فجلهم ان لم يكن كلهم سيتوقفون عن الاجابة . كما أخبره بأن يذكر بأن الموت سيأتيه شأن كل حى ، وأوصاه فيما قال بالحرص على سلامة دينه وصحة معتقده

---

(١) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٧٣٨ ((*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٣٠٦) ويقول أبو المحاسن بن تغرى بردى فى سجادة ، انه ثبت على السنة

(٢) المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٦٩ وهامشها

(٣) المقفى ورقة رقم ٤

(٤) تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١١٣١ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١٠ ص ٢٩٢

جاء فى المـُقَفَّى للمقريزى (١) : ثم ورد كتاب المـأمون الى اسحق بن ابراهيم ، بحمل أبى عبد الله ، ومحمد بن نوح ، اليه ببلاد الروم ، فحـُمِلا.. وأورد السبكى فى طبقات الشافعية : وذكر ابن الجوزى بسـنده الى أبى جعفر الأنبارى (٢) أنه قال : لما حـُمِل أحمد الى المأمون ، أخـُبِرْت ، فعبرت الفرات . فاذا هو جالس ، فسَلَّمت عليه

فقال : يا أبا جعفر ، تـَعَنَّيـْت . فقلت : ليس فى هذا عناء . وقلت له : أنت اليوم رأس ، والناس يقتدون بك . فوالله لئن أجَبْت الى خلق القرآن ، ليجيبَن باجابتك خَلْق من خَلْق الله . وان أنت لم تـُجِب ، ليمتنعن خَلْق من الناس كثير . ومع هذا فان الرجل ، يعنى المأمون ، ان لم يقتلك تموت . ولا بد من الموت . فثِق بالله ولا تـُجِبْهـُم الى شىء . قال : فجعل أبوعبدالله يبكى ويقول : ما شاء الله ، ما شاء الله

وانفاذاً لأمر الخليفة ، حـُمِل الفقيهان الممتنعان عن الاجابة ، على الابل . وأرسِلا اليه من بغداد . وكان رفيق أحمد فى الراحلة رجل يدعى أحمد بن غسَّان . فلما كانا فى طريقهما ، قال أحمد (بن حنبل) لرفيقه انه يعتقد أن رجَاء الحِضَّارى رسول الخليفة سيوافيهما تلك الليلة ، وأن أمر ملاحظة السجينين سينتقل الى رجاء هذا

بيد أن أحمد بن غسان لم يتح له المضى طويلا فى أداء مهمته ، اذ وافاه نعى المأمون ، فأعفاه ذلك من التزامه اشخاصهما الى الخليفة فى طرسوس . فانه لما صار بهما الى « أذنَة » ، وكان على وشك أن يمضى الليل معهما ، لقيهم رجل على باب البلدة ، يحمل اليهم نبـأ وفاة الخليفة المـأمون على نهر البَذَنـدُون فى آسية الصغرى . بعد أن ترك لخلفـه فى آخر ما أوصاه به ، أن ينهض بأمر المحنة ، وأن يحمل الناس عليها فى عنف وشدة

---

(١) ورقة ٤

(٢) فى السبكى ورقة ١٣٦ : الابيارى وصحته ما اثبتناه

جاء فى أبى نُعَيْم (١) ــ وقد أتى السبكى (٢) والمقريزى (٣) بتفصيلات أوفى ــ : قال أحمد بن غسان : حُمِلْتُ أنا وأحمد بن حنبل فى مَحْمَل على جمل يُراد بنا المأمون . فلما صرنا قرب « عانة ، قال لى أحمد : قلبى يَحِس أن رجاء الحِضَارى يأتى فى هذه الليلة . فان أتى وأنا نائم ، أيقظتُك ... فلم يكن بأسرع أن خرج علينا رجاء الحضارى ، فقال : أين هؤلاء الأشقياء ؟ فقال أحمد (بن حنبل) : ياعدو الله ، أنت تقول القرآن مخلوق ، ونكون نحن الأشقياء ؟ قال (أحمد بن غسّان) : فأنزلنا من المحامل وصيِّرنا فى خيمة ... قال : والله ما مضى الثلث الأول من الليل ، الا ونحن بصيحة وضجة . واذا رجاء الحضارى قد أقبل علينا ، فقال : صَدقْت يا أبا عبد الله ، القرآن كلام الله غير مخلوق . قد مات والله أمير المؤمنين . (وسبق أن دعا أحمد ربه أن يسدد خطاه وأن يهديه الى سواء السبيل)

ومضى أبو نعيم فيما جاء فى كتابه : فلما صِرنا الى « أذنَة » ، ورحلنا منها . وذلك فى جوف الليــل . فتُـح لنا بابها ، فلقينـــا رجل ، ونحن خارجون من الباب ، وهو داخل . فقال : البُشْرى ، قد مات الرجل. قال أبى : وكنت أدعو الله ألا أراه . قال أبو الفضل صالح : فصـــار أبى ، ومحمد بن نوح الى طرسوس . وجاء نعى المأمون من البَذَنْدُون ، فرُدا فى اقيادهما الى الرقّة . وأخْرِجا من الرقة فى سفينة مع قوم مُحَبَّسين . فلما صارا « بعانات » ، توفى محمد بن نوح رحمه الله ، وتقدم أبى فَصَلّى عليه . ثم صار أبى الى بغداد ، وهو مُقَيَّد . فمكث بالياسرية أياما . ثم صُيِّر الى الحبس فى دار اكتُرِيت عند دار عُمَارة ، ثم نُقِل بعد ذلك الى حَبْس العامة ، فى درب الموصلية . فمكث فى الحَبْس منـذ أخـذ وحُمِل ، الى أن ضُرب وخُلّى عنه ، ثمانية وعشرين شهرا . قال أبى : فكنت أصَلّى بهم ، وأنا مُقَيَّد . وكنت أرى بوران ، يحمل له فى زورق

---

(١) الحلية ورقة ١٤٧ ا ، ب ((*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٩٥)
(٢) السبكى ورقة ١٣٩ ((*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١. ص ٢٠٩)
(٣) المقريزى فى المقفى ورقة ٤

ماء باردا ، فيُذْهَب به اليه الى السجن

١٤ ــ انكار المأمون دعوى التقية تعلل بها الفقهاء

وفى غضون ذلك كان المأمون (قبل وفاته) قد تسلم كتاباً بأن أولئك الذين أجابوا (الى خلق القرآن) ، برروا اقدامهم على الاجابة بدعوى التَّقيَّة ، استنادا على تلك الرخصة التى أجازها القرآن لمن أكْرِه على الاقرار بعقيدة باطلة ، بينا يظل قلبه مستمسكا بعسًرا العقيدة الصحيحة(١). ويفهم بطبيعة الحال من هذه التقية أن ما آمن به الخليفة ودعا الناس الى اعتناقه ، انما هو الكفر والضلال . وهى نتيجة لم يقبلها المأمون بأى حال. ولذا فانه عاود الكتابة الى اسحق بن ابراهيم ، ليخبر بشر بن الوليد وزملاءه الآخرين الذين احتجوا بأن قضيتهم مماثلة لقضية عمَّار بن ياسر ، التى أجيزت فيها رخصة القرآن للمُكْرهين ، بأنه لا توجد أية مشابهة بين الحالتين . فعمَّار أظهر الشِرْك بينا كان فى قلبه مؤمنا . أما هم فقد أظهروا الايمان ، بينا اعتقدوا فى قلوبهم ما يعد شركا (*)

١٥ ــ أمر المأمون باشخاص الفقهاء اليه

وحَسْماً لهذه المشكلة ، كان من المحتم اشخاص الممتحنين جميعاً الى طرسوس، حيث ينتظرون الىالوقت الذى يغادر فيه الخليفة آسيا الصغرى. ولذا فانه قد أرسل فى اثر أحمد ورفاقه ، النفر التالى وهم بشر بن الوليد ، والفضل بن غانم ، وعلى بن أبى مقاتل ، والذيَّال بن الهيثم ، ويحيى بن عبد الرحمن العَمَرى ، وعلى بن الجَعْد ، وأبو العَوام ، وسَجَّادة ،

---

(١) تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١١٣١ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١٠ ص ٢٩٢ ، والشذور العربية التاريخية بقلم دى خوى حـ ٢ ص ٤٦٥ وما بعدها ، وتاريخ أبى الفداء حـ ٢ ص ١٥٥

(*) لما اعدت ترجمة عبارة المؤلف وجدتها بعيدة عن نص كتاب المأمون بشأن التقية الذى أورده الطبرى ، ولذا فانى قد آثرت اثباته فيما يلى : « وكتب (اسحق الى المأمون) كتابا مفردا بتأويل القوم فيما أجابوا اليه ، فمكثوا أياما . ثم دعا بهم . فاذا كتاب قد ورد من المأمون على اسحق بن ابراهيم : أن قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم اليه مطمئن بالايمان . وقد أخطأ التأويل ، انما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقد الايمان مظهر الشرك . فأما من كان معتقد الشرك مظهر الايمان ، فليس هذه له . »

والقواريرى ، وابن الحسن بن على بن عاصم ، واسحق بن أبى اسرائيل ، والنضر بن شـمَيل ، وأبو نصر التمّار ، وسعدويه الواسطى ، ومحمد ابن حاتم بن ميمون ، وأبو مَعْمر ، وابن الهرِش ، وابن الفرخان ، وأحمد ابن شجاع ، وأبو هرون بن البكّاء

١٦ ــ وفاة المأمون ونتائجها

فلما صاروا الى الرقة ، بلغتهم وفاة المأمون . فأمر عنبسة بن اسحق والى الرقة باحتجازهم بها ، حتى يعادوا الى بغداد فى حراسة الرسول نفسه الذى كان قد تَوجَّه بهم الى المأمون . فلما صاروا الى بغداد ، أمرهم حاكمها اسحق بن ابراهيم ، بأن يلزموا دورهم (١) . ولكنه خفف فيما بعد من أوامره المشددة لهم ، وأباح لهم الخروج . غير أن فريقاً ممن بُعِث بهم ، تجاسر على مغادرة الرقة والتوجه الى بغداد من غير أن يُؤذن لهم . وقد لاقوا جزاء جرأتهم ، كما هو المنتظر ، اذ عاقبهم اسحق وآذاهم لما عادوا الى بغداد . فكان ممن جلب على نفسه الضرر فى ذلك : بشر بن الوليد ، والذيال وأبو العوام ، وعلى بن أبى مقاتل

١٧ ــ اعادة احمد ، وابن نوح الى بغداد ، ووفاة ابن نوح فى الطريق

ولنعد الآن الى أحمد ورفيقه محمد بن نوح . فقد أعيد هذان الى الرقة ، حيث ظلا فى السجن ، الى أن أخِذت البيعة للخليفة المعتصم . ثم أخذا بعد هذا الحادث فى زورق ، وأحدِرا من الرقة الى عانات ، حيث مات محمد ابن نوح . فصلى عليه أحمد ودفنه ، ثم أعيد أحمد وحده مقيدا الى بغداد(٢). وقد سُجن فى مبدأ الأمر ، على ما يظهر ، فى شارع الياسرية لعدة أيام . ثم نُقِل الى دار الشرشير ، بجوار دار عُمَارة . ثم وُضع فى حظيرة جياد

(١) انظر كتاب : دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر حـ ٢ ص ٩٤ فى موضوع ارغام المحدثين والفقهاء على لزوم بيوتهم

(٢) يقول هوتسما فى كتابه : المنازعات الاعتقادية ص ١٠٦ ، ان المعتصم قد ضرب محمد بن نوح كما ضرب احمد بن حنبل . وفى الحق أن محمد بن نوح لم يظهر قط أمام الخليفة

لمحمد بن ابراهيم ، أخى اسحق بن ابراهيم ، وقــد استؤجر ليكون مقر اعتقاله . وكان المكان بالغ الضيق ، بيد أن اقامته به كانت قصيرة . فقد مرض فى رمضان . ولذا فانه نُقِل الى سجن العامة فى درب الموصلية

جاء فى طبقات الشافعية (١) : قال صالح : صار أبى الى بغداد مُقَيَّدا . فمكث بالياسرية أياماً ، ثم حُبِس بدار الشرشير عند دار عُمَارة . ثم نُقِل بعد ذلك الى حبس العامة فى درب الموصلية (فى هامش المخطوط : المفضلى) ... وأما حنبل بن اسحق ، فقال : حُبِس أبو عبد الله فى دار عُمارة ببغداد فى اصطبل لمحمد بن ابراهيم ، أخى اسحق بن ابراهيم . وكان فى حَبْس ضيِّق . ومرِضَ فى رمضان. فحُبِس فى ذلك الحَبْس قليلا . ثم حُوِل الى سِجْن العامة . فمكث فى السِّجن نحوا من ثلاثين شهرا . فكنا نأتيه . وقرأ علىّ كتاب الارجاء وغيره فى الحَبْس . فرأيتُه يصلى بأهل الحَبْس وعليه القيد . وكان يُخْرِج رجْلَه من حَلقةِ القيد وقت الصلاة والنوم

١٨ ــ الممتنعون عن الاجابة

١ ــ عفان بن مسلم :

وممن ثبت على عقيدته فى الامتحان ، ابان خلافة المأمون ، ولكن اسمه لم يَكُن قد عُرِف بعــد الى ذلك الوقت : عفان بن مسلم أبو عثمان ، الذى قطع عنه كل من المأمون ، واسحق بن ابراهيم ، عامله على العراق ، الرزق الذى أجراه عليه كل واحد منها . وذلك عقاباً له لأنه توقف عن الاجابة فى المحنة . ولما سئل عما كان عليه أن يقول ، ردا على ما طُلِب منه ، تلا سورة الاخلاص (رقم ١١٢) ، واستفسر عما اذا كانت هــذه السورة مخلوقة . وقد غضب منه أهل بيته ، لأنه حرمهم (بعناده) مما يقيم أودهم ، اذ كان يعول أربعين نفساً . ولــكن جاءه فى ذات اليوم الذى قُطِع فيه رزقُه ، رجل غريب . ووصله بكيس فيه ألف درهم . (وكان

(١) لابن السبكى ورقة ١٣٩ (*) الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢١٠ . وفى هذه الطبعة « دار التريب » . بدلا من دار الشرشير ولعله تصحيف

رزقه من المأمون خمسمائة درهم ، كل شهر) . وقد وعده بأنه سيتسلم مثل هذا المبلغ كل شهر ، من نفس واهبه . ومات عفان ببغداد سنة ٢٢٠ هـ. وكان فى حياته من الأعلام البارزين فى بغداد ، وكان من أصحاب أحمد المقربين اليه النافذى الكلمة عنده

قال المقريزى (١) : وأما عفان بن مسلم ، فقال حنبل بن اسحق : كنت حاضرا عند عفان ، بعد أن امتُحِن . فسأله يحيى بن معين ، بحضور أبى عبد الله أحمد بن حنبل ، ونحن معه . فقال : يا أبا عثمان ، أخْبِرْنا بما قال لك اسحق بن ابراهيم ، فى المحنة . وما رددت عليه ؟ فقال عفان لابن معين : يا أبا زكريا ، لم أسود وجهك ولا وجوه أصحابك. يعنى أنه لم يُجِب الى القول بخلق القرآن

فقال له : فكيف كان ؟ فقال : دعانى اسحق بن ابراهيم ، فلما دخلت عليه ، قرأ الكتاب الذى كتبه المأمون من أرض الجزيرة الى الرقّة ، فاذا فيه : امتحِنْ عفّان وادْعُه الى أن يقول : القرآن كذا وكذا . فان قال ذلك فأقره على أمره . وان لم يُجِبْك ، فاقطع عنه الذى يجرى عليه . وكان المأمون يُجْرِى عليه فى كل شهر خمسمائة درهم . قال عفان : فلما قرأ علىّ الكتاب ، قال لى : ما تقول ؟ فقرأت عليه : قل هو الله أحد ، الى آخرها . وقلت : أمخلوق هذا ؟

فقال لى اسحق : ان أمير المؤمنين أمر ان لم تُجِبْه ، يقطع عنك ما يُجْرَى عليك ، وان قطع عنك أمير المؤمنين ، قطعنا عنك نحن أيضا . فقلت له : قال الله تعالى «وفى السّماء رزْقُكم وماتُوعَدُون». فسكت عنى اسحق ، وانصرفت فَسُر أبو عبد الله ، ويحيى ، ومن كان حاضرا . فلما رجع الى داره ، عذله أهل بيته ، وكانوا أربعين نفسا . فبعد قليل ، دق عليه الباب انسان . فدخل ومعه كيس فيه ألف درهم . فقال : يا أبا عثمان ، ثَبَّتَك الله كما ثَبَّتّ الدين ، وهذا لك فى كل شهر

---

(١) المقفى ورقة ١٣

ب ــ أبو نعيم الفضل بن دكين :

وممن أجريت عليهم المحنة فى عهد هذه الخلافة ولم يُجِب ، أبو نُعَيْم الفضل بن دكَيْن ، الكوفى . ولما بلغ كتاب المأمون الكوفة ، سُئل عن فحواه ، فقال : انما هو ضرب الأسواط . ثم أمسك بزر ثوبه وقال : رأسى أهون علىّ من هذا . ولم تأت لنا مصادرنا بشىء من أخبار محاكمته . ولكن كيفما كان الأمر ، يبدو أنه لم يمت موتا عنيفا . وقد توفى سنة ٢١٩ هـ (١)

***

كان على بن المدينى من أولئك الفقهاء الذين أذعنوا وأجابوا فى المحنة . وقد حدث ذلك ــ فيما يبدو ــ فى نحو بداية أمرها . ومع ذلك. فانه قد ندم كثيرا على ضعفه . بيد أنه عاد الى عِقيدة أهل السنة ، الى أشد ما يكون اعتصامه بها . وذلك قبل وفاته سنة ٢٣٤ هـ

قال ابن السبكى (٢) : وكان على بن المدينى ممن أجاب الى القول بخلق القرآن فى المحنة . فنُقِم ذلك عليه ، وزِيدَ عليه فى القول . والصحيح عندنا أنه انما أجاب خشية السيف ... وقال محمد بن عثمان بن أبى شيبة : سمعت على بن المدينى يقول قبل موته بشهرين : القرآن كلام الله غير مخلوق. ومن قال مخلوق ، فهو كافر

١٩ ــ احمد بن حنبل فى السجن

اعتُقِل أحمد بن حنبل فى سجن العامة مدة طويلة . وقد بلغت منذ اعتقاله حتى اطلاقه ، بعد أن ضربه المعتصم ، ثمانية وعشرين شهرا . وقد كان فى حبسه يُصَلّى بأهل السجن . كما كان يشتغل بدراسة الكتب التى كان يزوده بها أصحابه . وقد آثره صديقه الطيب « بوران » بعطفه

---

(١) جاء فى المقفى للمقريزى ورقة ١٣ « وقال الامام أبو بكر بن أبى شيبة : لما جاءت المحنة الى الكوفة ، قال لى أحمد بن يونس : الق أبا نعيم ، فقل له . فلقينه ، فقلت له . فقال : انما هو ضرب الاسواط ، ثم أخذ زر ثوبه ، وقال : رأسى أهون على من هذا » وقد ذهب الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل الى أن ابا نعيم الفضل بن دكين ، كان شيعيا ، انظر ترجمة هاربريكر حـ ١ ص ٢١٨

(٢) طبقات الشافعية ورقة ١٨٥ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٦٧

ورعايته ، بما كان يبعث به اليه من ماء مُثَلَّج ، فى الزورق كل يوم

وابان الفترة الأولى من حبسه ، كَلَّم عمّه اسحق بن حنبل ، عمال حاكم العراق ورجاله الملتفين حوله ، فى أمر اطلاق ابن أخيه من الحبس . ولكن لما خابت مساعيه ، التجأ الى اسحق بن ابراهيم بنفسه . ونظرا لأن اسحق بن ابراهيم كان يطمع فى أن يعدل أحمد بن حنبل عن موقفه ، فقد أرسل حاجبه مع عم الامام أحمد الى السجن ، وأمره أن يبلغه بكل ما يدور بين أحمد وعمه . فلما وافيا السجن ، ألح اسحق بن حنبل على ابن أخيه ، أن يجيب ويعلن اعتناقه للمذهب الذى فُرض عليه . وذكّره بأن أصحابه قد أجابوا على ضعف أعذارهم . وأبدى تبريره لمسلكهم ، لأنهم أجابوا تَقِيّة . فَلِم لا يجيب مثلهم ؟

وبعد أن طال النقاش بينهم على غير جدوى ، صمما (أى الحاجب وعم الامام أحمد) على تركه فى الحبس . ولكنه مضى يقول بأنه لايكترث للحبس ، ولا يهمه الحبس فى شيء ، لأنه لا فرق بين بيته والسجن . كما أن قتله بالسيف يعده من الأمور التى لا تسبب له مزيدا من القلق والجزع . والأمر الوحيد الذى يخشاه ، انما هو الضرب ، فانه ان حل به هذا ، فقد لايَتْثبّت على احتماله ، فيُفْتَتَن . وعند ذاك بدد مخاوفه أحد السجناء . فقد ذكّره انه عند الضرب ، سوف لا يدرى ماعسى أن يحل به ، اذا ماتلقى ضربتين بالسوط . وقد أزال هذا التوكيد ما ظل باقيا لدى أحمد من خوف واضطراب وبدده تماما

« قال (١) اسحق بن حنبل ، عم الامام أحمد : كنت أتكلم مع أصحاب السلطان والقُوّاد ، فى خلاص أبى عبد الله . فلم يتم لى أمر . فاستأذنت على اسحق بن ابراهيم . فدخلت اليه وكلمته . فقال لحاجبه : اذهب معه الى ابن أخيه ، ولا يُكَلّم ابن أخيه بشيء الا أخبرتنى به . قال اسحق : فدخلت على أبى عبد الله ومعى حاجبه . فقلت : يا أبا عبد الله ، قد أجاب

(١) المقفى للمقريزى ورقة ٥

أصحابك ، وقد أعذرتَ فيما بينك وبين الله ، وبقيت أنت فى الحبس والضيق فقال أبو عبد الله : ياعم ، اذا أجاب العالِم تقية ، والجاهل بجهل، متى يتبيَّن الحق ؟ قال : فأمسكت عنه

قال : فذكر أبو عبد الله ما رُوِى فى التقية من الأحاديث ، فقال : كيف تصنعون بحديث خبَّاب ؟ ان مَن كان قبلكم ينشَر أحدهم بالمنشار ، ثم لايصده ذلك عن دينه . قال : فيئسنا منه ، ثم قال : لستُ أبالى بالحبس ، ما هو ومنزلى الا واحد ، ولا قتلا بالسيف . انما أخاف فتنة بالسوط ، وأخاف ألا أصبر . فسمعه بعضُ أهل الحبس ، وهو يقول ذلك . فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ، ما هو الا سوطان ، ثم لا تدرى أين يقع الباقى . فلما سمع ذلك سُرِّىَ عنه . قال : ثم حُوِّل أبو عبد الله الى دار اسحق بن ابراهيم فى شهر رمضان (لليلة سبع عشرة خلت منه (١)) سنة تسع عشرة ومائتين

٢٠ ـ اشخاص احمد مرة أخرى الى اسحق بن ابراهيم

وفى السابع عشر من رمضان سنة ٢١٩ هـ ، أى بعد انقضاء أربعة عشر شهرا ، منذ ايقافه ، حين كان فى طريقه الى المأمون ، أحضِر أحمد من سجن العامة الى دار اسحق بن ابراهيم ، وكان مقيدا بقيد واحد فى قدميه . وبينا كان معتقلا فى محبسه الجديد ، كان اسحق بن ابراهيم يرسل اليه كل يوم ، رجلَيْن يناظرانه ويناقشانه وهما : أحمد بن رَبَاح ، وأبو شعيب الحَجَّام. وقد اعتاد هذان محاجَّته . ولما كان أحمد لايتزحزح عن موقفه ، فقدكانا عند انصرافهما عنه كل يوم ، يأمران باضافة قيد جديد يوضع فى قدميه ، الى أن بلغت أخيرا الأقياد الاضافية أربعة . وتناولت احدى المناقشات مع أحمد، موضوع « علم الله » . فاستفسر أحمد من أحد هذين المحققين عن رأيه فى ذلك

فأجاب بأن علم الله مخلوق . ولما سمع أحمد قوله ، وصمه بالكفر . وعلى

---

(١) زيادة من الحلية لأبى نعيم ورقة ١٤٧ ب (*) طبعة القاهرة جـ ٩ ص ١٩٧

الرغم من تذكيره بأنه يتنقص رسول الخليفة ويهينه ، أبى أن يدفع التهمة عن نفسه . وكانت حجته فى ذلك أن أسماء الله الدالة على صفاته قد وردت فى القرآن ، وأن القرآن قدر من علم الله الذى هو صفة من صفاته . ولذا فان من زعم بأن القرآن مخلوق ، كفر بالله ، كما يكفر به من زعم أن أسماء الله مخلوقة . وهنا يبدو أن تسلسل الحجج والنقاش جرى هكذا : أسماء الله غير مخلوقة ، وأسماء الله تؤلف جزءا من القرآن ، فينتج اذن أن جزءا من القرآن على الأقل غير مخلوق

جاء فى أبى نعيم (١) : « حدثنا محمد بن جعفر ، وعلى بن أحمد ، والحسين بن محمد ، قالوا : حدثنا محمد بن اسماعيل ، حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل ، قال ، قال أبى رحمه الله : لما كان فى شهر رمضان لليلة سبع عشرة خلت منه ، حولت من السجن الى دار اسحق بن ابراهيم. وأنا متقيد بقيد واحد . يوجه الى فى كل يوم رجلان . سماهما أبى . قال أبو الفضل : وهما أحمد بن رباح ، وأبو شعيب الحجام (٢) . يكلمانى ويناظرانى . فاذا أرادا الانصراف ، دعى بقيد فقيدت به

فمكثت على هذه الحالة ثلاثة أيام ، وصار فى رجلى أربعة أقياد . فقال لى أحدهما فى بعض الأيام ، فى كلام دار ، وسألته عن علم الله . فقال : علم الله مخلوق . فقلت له : ياكافر كفرت . فقال لى الرسول الذى كان يحضر معهم من قبل أبى اسحق (*) : هذا رسول أمير المؤمنين . قال : فقلت له : ان هذا قد كفر . وكان صاحبه الذى يجيء معه خارجا . فلما دخل ، قلت له : ان هذا زعم أن علم الله مخلوق . فنظر اليه كالمنكر عليه ما قال ، ثم انصرفا . قال أبى : وأسماء الله فى القرآن ، والقرآن من علم الله ، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة فقد كفر »

---

(١) الحلية ورقة ١٤٧ ب وما بعدها (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٩٧ وما بعدها

(٢) فى مخطوط الحلية : الحجاج ، وفى المقفى للمقريزى : الحجام

(*) أبو اسحق هو الخليفة المعتصم

٢١ ـ حمل احمد الى المعتصم

وفى الليلة الرابعة منذ أن نُقِل أحمد الى دار اسحق بن ابراهيم ، وصل بُغَا الكبير ، رسول الخليفة المعتصم ، بعد صلاة العشاء ، يُبَلِّغ اسحق أمْر الخليفة فى حمل أحمد اليه ، ولما أحْضِر أحمد الى اسحق ، قبل اشخاصه الى المعتصم ، خاطبه حاكم بغداد مذكرا اياه بأن حياته هى التى تتعرض للخطر ، وأن الخليفة قد أقسم ألا يقتله بالسيف ، وأنه سوف يضربه ضربا بعد ضرب ، وأنه سيزج به فى مكان مظلم لايرى النور فيه . ثم ناظره اسحق فى القرآن ، مستشهدا بالآية : « انا جعلناه قرآنا عربيا (١) » . وسأله عما اذا وُجِد شيء قد جُعِل ما لم يكن قد خُلِق . فَرد أحمد مستشهدا بآية أخرى : «فَجعلهُم كعَصْف مأكُول (٢)». واستفسر من حاكم بغداد عما اذا كان يفهم من هذه الآية أنها تفيد أن شيئا قد خُلِق . وانحصرت المناقشة فى هذه الحالة ، فيما اذا كانت كلمة « جَعَل » تؤدى حتما معنى كلمة « خَلَق »

ثم أعِدت المعدات لحمل أحمد الى المعتصم . وقد أبدى بُغَا رسول الخليفة اهتماما بسجينه وتطلعا الى تفهم قضيته . ولـكنه فى اهتمامه وتطلعه لم يكشف عن قدر كبير من الذكاء . فقد استفسر من رسول اسحق بن ابراهيم، عمَّا يُراد بأحمد . ولما أوقِف على جلية الأمر ، أعلن جهله بهذه المسائل ، وذهب الى أن مدى ايمانه كمسلم لا يتجاوز شهادتى ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن أمير المؤمنين من قرابة النبى (عليه السلام)

وبعد أن ساروا فى الزورق لمسافة قصيرة فى نهر دجلة ، رسَوْا عند بستان قصر الخليفة ونزلوا عند بابه . وأخْرِج أحمد من الزورق ، ووُضِع على دابَّة ، كان مهددا بخطر السقوط من فوق ظهرها ، نظرا لعجزه الناجم عن ثقل أقياده . وحُمِل وهو على هذه الحال الى ناحية مجاورة للقصر(٣).

---

(١) سورة الزخرف رقم ٤٢ آية ٢

(٢) سورة الفيل رقم ١٠٥ آية ٥

(٣) كان قصر المعتصم فى الجانب الشرقى من بغداد (انظر اليعقوبى (كتاب البلدان) حـ ٧=

ثم أنزل الى دار اعتقل فى احدى حجراتها ، بلا سراج يعينه على الرؤية فى الليل . وفى الليل قيل بأنه رأى فى منامه علىّ بن عاصم (١) ، فأولها على أنها فأل طيب يؤكد له علواً وتشريفاً وصيانة من الله وعصمة

جاء فى الحلية (٢) : « قال أبى رحمه الله : فلما كانت الليلة الرابعة ، بعد العشاء الآخرة ، وجّه المعتصم بغًا الى اسحق بن ابراهيم ، يأمره بحملى. فأدخلت على اسحق . فقال لى : يا أحمد ، انها والله نفسك ، انه قد حلف ألا يقتلك بالسيف ، وأن يضربك ضربا بعد ضرب ، وأن يلقيك فى موضع لاترى فيه الشمس. أليس قد قال الله تعالى : « انّا جَعلناه قرآناً عربيا » . أفيكون مجعولا الا وهو مخلوق ؟ قال أبى : فقلت له : قد قال الله : « فَجَعلهم كَعصف مأكول » . أفخلقهم ؟

فقال : اذهبوا به . قال أبى رحمه الله : فأنزلتُ الى شاطىء دجلة ، وأحدرت الى الموضع المعروف بباب البستان ، ومعى بغا الكبير ، ورسول من قِبَل اسحق . قال : فقال بغا لمحمد المحاربى بالفارسية : ما تريدون من هذا الرجل ؟ قال : يريدون منه أن يقول : القرآن مخلوق . فقال : ما أعرف شيئا من هذا الا قول لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وقرابة أمير المؤمنين من رسول الله (*) . قال أبى : فلما صرنا الى

=من المكتبة الجغرافية العربية (نشر دى خوى) ص ٢٥٥ س ١٧) ، واذا كان سجن العامة فى درب المفضل (ولكن انظر ص ٨٥ هامش رقم ٢) فى نفس الحى الذى تقع فيه دار اسحق ابن ابراهيم ، حاكم بغداد ، فان المسافة ليست بكبيرة بين هذه الدار والسجن . وعلى اية حال فمن الواضح أن محاكمة أحمد بن حنبل وضربه جرى كل منهما فى بغداد حيث اشتهر أحمد وكثر المعجبون به . ولذا فقد قامت المظاهرات الشعبية فى وجه الخليفة حين ضربه

(١) جاء فى المقفى للمقريزى ورقة ٤ : قال حنبل بن اسحق بن حنبل ، ابن عم الامام أحمد : سمعت أبا عبد الله يقول : لما دعيت الى المحنة ، رأيت فى المنام ، على بن عاصم ، فأولتها علوا وعصمة من الله عز وجل ، والحمد لله على ذلك

(٢) أبو نعيم ورقة ١٤٧ ب (طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٩٧ ، ١٩٨)

(*) لعل من أكثر اخبار المحنة طرافة تعليق بغا الكبير ، رسول الخليفة التركى على قضية أحمد ومسألة خلق القرآن ، فهو تعليق يتسم بالنظرة الواقعية ويلقى ظلا من التهكم اللاذع على عناية الدولة بدقائق كلامية عويصة وتشقيقات اعتقادية تستدق على أفهام الشعب ولا يحتاج اليها فى « تدينه »

الشط ، أخرجتْ من الزورق ، فجعلت على دابة ، والأقياد عليّ ، وما معى أحد يمسكنى ، فجعلت آكاد أخر على وجهى ، حتى انتهى بى الى الدار ، فأدخلتْ ، ثم عرج بى الى حجرة ، فصيّرت فى بيت منها ، وغلق عليّ الباب ، وأقعد عليه رجل ، وذلك فى جوف الليل ، وليس فى البيت سراج ، فاحتجت الى الوضوء ، فمددتْ يدى أطلب شيئا ، فاذا أنا باناء فيه ماء وطست ، فتهيأتْ للصلاة وقمت أصلّى

٢٢ ـ محاكمة احمد امام المعتصم

وفى صباح اليوم التالى ، اقتيد أحمد الى القصر مصفدا فى أغلاله ، وأشخص الى الخليفة . وكان ممن حضر فى هذه المناسبة ، مع الخليفة ، أحمد بن أبى دؤاد وأعوانه . وقد قيل أن المعتصم لما رأى أحمد بن حنبل ، قال لمن حوله كالمنكر عليهم : « أليس قد زعمتم أنه حدث السن ؟ هذا شيخ مكتهل (١) » «كان سنه وقت ذاك أربعا وخمسين سنة (*) » ، وعندما دخل الخليفة ، أمر أحمد بالدنو منه وبالجلوس . ثم استأذن أحمد فى الكلام ، فلما أذن له ، طرح هذا السؤال : « الى ما دعا اليه رسول الله ؟ (صلى الله عليه وسلم) » . فقال الخليفة : « الى شهادة ألا اله الا الله » . فرد أحمد قائلا : « أنا أشهد ألا اله الا الله »

وبعد أن أعلن أحمد ايمانه بأركان الاسلام الخمسة ، أخبره الخليفة بأنه لولا تقيده بسلفه فى الخلافة ، لما تعرض له بأى مكروه . ثم التفت الخليفة الى عبد الرحمن بن اسحق وسأله عما اذا لم يكن قد أصدر اليه أمرا بالغاء المحنة . ولما سمع أحمد بذلك ، طار فرحا ، ظانا بأن هذا هو ما يقصده الخليفة حقا ، لتخليص رعاياه من هذا الاختبار البغيض . ثم تبع ذلك جدل ونقاش ، أمر فيه الخليفة ، عبد الرحمن بن اسحق أن يشترك فيه . وقد طرح هذا الرجل سؤالا على أحمد ، وهو : « ما تقول فى القرآن ؟ »

---

(١) المقفى للمقريزى ورقة ٥

(*) زيادة من المؤلف

ولم يأت أحمد باجابة مباشرة ، ولـكنه سأل بدوره : « ما تقول فى علم الله ؟ » بيد أن عبد الرحمن لم يَحـُر جوابا . وابان الامتحان ، كان هـذا السؤال عند أحمد حيلته المفضلة ، يستعين بها عموما لافحام خصومه وايقاعهم فى الحيرة والارتباك . وتتجلى قوة حجته فى تلك الحقيقة وهى الاقرار بأن القرآن عِلْم من الله ، وهذا يعادل فى نظر أحمد أن القرآن جزء لا ينفصل عن علم الله . فاذا قالوا بأن « هذا العلم غير مخلوق ، فالقرآن تبعا لذلك يجب أن يكون غير مخلوق » . وهناك نقطـة أخرى دفع بها عبد الرحمن ابن اسحق وهى : « أكان الله ولا قرآن». فرد أحمد على هذا بحجة مماثلة وهى : أكان الله ولا علم (١) ؟

وفى خلال المجادلة بين عبد الرحمن بن اسحق وأحمد بن حنبل ، سـأل أحمد عبد الرحمن عمّا يَحفظ عن أستاذه الشافعى فى موضوع المسح على الخفين . فصاح أحمد بن أبى دواد فى عَجَب زائد وقال : أنظروا رجلا هو ذا يُقَدم لضرب العنق يناظر فى الفقه (٢)

وكان من أولئك الحـاضرين فى القاعة ، رجل ساق حديث عِمران بن حُصَيْن بأن الله خلق الذِكْر ، والذكر هو القرآن . فرد أحمد بأن هـذا الحديث رُوِى له من طُرُق فى رواية تقول : ان الله كتب الذكر . وفحوى هذا الحديث كما صححه أحمد ، تؤدى الى القول بأن مادة القرآن وألفاظه ليست مخلوقة ، ولكن السجل الأرضى له مخلوق . وقد أوردوا حديثا آخر، احتجوا به عليه ، رُوِى عن عبد الله بن مسعود ، وهو : « ما خلق الله من جنة ولا نار ، ولا سماء ولا أرض ، أعظم من آية الكرسى (٣) » . فرد

---

(١) جاء فى المقفى للمقريزى ورقة ٦ : فقال لى عبد الرحمن : كان الله ولا قرآن ؟ فقلت له : أكان الله ولا علم ؟ فأمسك ولو زعم أن الله كان ولا علم ، كفر

(٢) فى الحلية ورقة ١٤٤ ب (طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٨٦) : الحسن يقول : أدخـل أحمد بن حنبل على الخليفة وعنده ابن أبى دواد ، وأبو عبد الرحمن الشافعى ، فأجلس بين يدى الخليفة ، وكانوا هولوا عليه . وقد كانوا ضربوا عنق رجلين . فنظر أحمد الى أبى عبد الرحمن الشافعى ، فقال : أى شىء تحفظ عن الشافعى فى المسح ؟ فقـال ابن أبى دواد : انظروا ... الخ

(٣) من سورة البقرة رقم ٢ آية ٢٥٦

أحمد : « انما وقع الخلق على الجنة والنار ، والسماء والأرض ، ولم يقع على القرآن (١) » ، وهذه حجة يمكن التسليم بها

وقد استشهد آخر بالآية القرآنية : «مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث» ، وسأل قائلا: أفيكون المحدث الا مخلوقا ؟ ولكن أحمد استشهد بالآية : « والقرآن ذى الذكر » (*) ، واحتج بأن الذكر المعرفة تفيد القرآن ، أما كلمة ذكر الأخرى فليست بها اداة التعريف . وهنا يوضح الاحتجاج بأن كلا من الذكر والقرآن متماثلان فى المعنى . ولكن « ذكر » الخالية من أداة التعريف ليست هى والقرآن أمرا واحدا . واذن فلا دليل يمكن استخلاصه من الآية لاثبات أن القرآن محدث

كما احتجوا بالآية القرآنية:«الله خالق كل شىء» ، فرد أحمد مستشهدا بالآية : «تدمر كل شىء». ثم أضاف اليها : «فدمرت الا ما أراد الله» وحجة أحمد أن عبارة « كل شىء » ، يجب أن تفهم بما يتفق وما جاء فى الآيات الأخرى بين دفتى الكتاب نفسه بأن القرآن غير مخلوق

وقد قيل بأن أحمد بن أبى دواد ، عيل صبره ، ابان المناظرة ، لأن أحمد ابن حنبل أصر على التقيد بالقرآن والحديث . وكان دفاع أحمد يؤدى الى تبرير منحاه فى المناظرة . لأن قاضى القضاة استخرج من القرآن تأويلا لا تقبله العقول السليمة . ولما أبى الناس عليه تخريجه ، زج بهم فى غياهب السجون وصفدهم بالأغلال ، مما دعا ابن أبى دواد الى أن يتقدم الى الخليفة باستفتاء قضاته وفقهائه عما اذا كان أحمد بن حنبل ضالا مضلا مبتدعا . فلما استعلم منهم عن أمره ، أفتوا بضلاله وابتداعه . ولكن أحمد عاود شكاته للخليفة بأن خصومه لا يتقيدون بالكتاب والسنة وهما العدتان اللتان تفصلان فى مثل هذه المسائل (٢)

وفى الحق لقد كان أحمد بين المتناظرين جميعا أشدهم مراسا وأقواهم

---

(١) المقفى للمقريزى ورقة ٦ : واحتجوا على بحديث ابن مسعود ... الخ

(*) تقدمت مواضع هذه الآيات

(٢) راجع كتاب « الاسلام » (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٥٢

عارضة فى الجدل والنقاش . كما أبدى ابن أبى دواد روحا حماسية مماثلة ، وذلك عندما كان يعمد فى كثير من الأحيان الى اقحام آرائه على المتناظرين. وحين تدخل ابن أبى دواد فى المناقشة لأول مرة ، لم يرد عليه أحمد ، ولما وبّخه الخليفة على سكوته عن الرد على ابن أبى دواد (١) قال : « لست أعرفه من أهل العلم فأكلّمه (*) »

وعندما حان موعد اختتام هذا المجلس ، أمر الخليفة شهوده جميعا بأن يقوموا . وبعد انتهاء هذه الجلسة ، عقد الخليفة مع عبد الرحمن بن اسحق مجلسا خاصا مع أحمد بن حنبل ، ذكر فيه المعتصم العِقَاب الذى وقّعه على مؤدبه الخاص صالح الرشيدى ، الذى عارض الخليفة فى موضوع القرآن . كما شكا الخليفة من أنه لم تتَـح له أية فرصة للوقوف على آراء أحمد والحجج التى يدلل بها أحمد على صحتها . غير أن عبد الرحمن بن اسحق أبان للخليفة أنه قد عرف أحمد بن حنبل منذ ثلاثين سنة كمسلم يتصف بالورع والتقوى ، يؤدى فريضة الحج ويرى طاعة الخليفة والجهاد معه

ونظرا لما قاله عبد الرحمن للخليفة ، وما سمعه الخليفة بنفسه من اجابات أحمد ، صاح المعتصم قائلا : « حقا انه لفقيه ، حقا انه لعالم ، وما يسّرنى أن يكون مثله معى ، يرد على أهل الملل » . ثم أبدى استعداده لأن يوقف فى الحال كافة الاجراءات التى اتخذت لامتحان أحمد ، وتأييده بكل قوته ، اذا خفف أحمد من تشدده ولو قليلا جدا ، حتى يستطيع أن يتخذ من هذا التخفيف والتنازل مبررا لكى يطلق عنه . فرد أحمد على هذا ،

---

(١) المقفى للمقريزى ورقة ٦ : قال أبو عبد الله كان القوم اذا انقطعوا عن الحجة ، عرض ابن أبى دواد ، فتكلم ، وكلمنى مرة ، فلم التفت اليه . فقال لى المعتصم : ألا تكلمه ؟ فقلت: لست أعرفه .. الخ ، قال أبو عبد الله : وكان ابن أبى دواد من اجهل (الناس) بالعلم والكلام

(*) هذا يتنافى مع ماجاء فى ترجمة ابن أبى دواد فى تاريخ بغداد للخطيب ووفيات الاعيان لابن خلكان وغيرهما من المصادر من علو كعبه فى العلم وسعة احاطته بمعارف عصره . ولكن خطأه ينحصر فى حمل الناس بالقوة على انتحال آراء المعتزلة

ردا يتفق مع ما قاله من قبل ، ملتمسا آية من القرآن أو حديثا للنبى ، يبرر موقفه حتى يقول بقولهم

وقد ختم هذا ، اجراء اليوم الأول . وأعيد أحمد الى محبسه ، حيث زاره رجلان من أصحاب ابن أبى دُوَاد ، وهما صاحب الشافعى ، ورجل يدعى غَسَّان (أحمد بن غسان) . واشتبكا معه فى مناقشته ومناظرته ، الى صباح اليوم التالى . وفى غضون ذلك أحْضِرت مائدة الافطار فى المساء ، وتناول الزائرون منها . غير أن أحمد لم يأكل منها شيئا على الرغم مما كان يعانيه من آلام الجوع

وقبل أن ينعقد المجلس فى اليوم التالى ، أحضر ابن أبى دواد بنفسه رسالة من الخليفة ، يستفسر فيها عما اذا كان أحمد بن حنبل قد غير من موقفه أم لا . كما عبَّر أحمد بن أبى دواد عن أسفه الشخصى للقبض على أحمد ولما بدا بصفة خاصة من عزم الخليفة على عدم قتله بالسيف ، فى حالة توقفه عن الاجابة ، ولكنه سيأخذ فى ضربه حتى يذعن أو يموت تحت السياط . وقد أكد لأحمد أن الخليفة المأمون قد أدرج اسمه مع الفقهاء السبعة الأول الذين استُدْعوا لامتحانهم . ولكنه توسط لدى الخليفة حتى مسح اسمه . وكان أحمد بن حنبل يجيب على كافة هذه المحاولات لاقناعه واستمالته بنفس الحجة وهى ايراد دليل مقنع ، من القرآن أو الحديث ، يستند عليه فى تغيير معتقده . كما أرْسِل اليه أحمد بن عمَّار صاحب الدار التى اعتُقِل فيها أحمد ، وقد بعث اليه أكثر من مرة ، ومعه رسائل من الخليفة . ولكن لم تُجْد معه كافة هذه المحاولات ، (ولم يتزحزح أحمد عن موقفه قيد شعرة) (*)

وقد أخذت وصف المحاكمة فى النصوص العربية التى أدرجتها ، من كتاب حلية الأولياء لأبى نُعَيْم ، وذلك فيما عدا استثناءات قليلة أشرتُ

(*) زيادة لتوضيح مراد المؤلف

اليها فى مواضعها (١) . ومما جاء فى الحلية (٢) :

« فلما أصبحتُ ، جاءنى الرسول ، فأخذ بيدى ، فأدخلنى الدار . واذا هو جالس ، وابن أبى دُوَاد حاضر . وقد جمع أصحابه ، والدار غاصَّة بأهلها . فلما دنوت منه ، سلَّمْت . فقال لى : ادنه ادنه . فلم يزل يدنينى حتى قربت منه . ثم قال لى : اجلس . فجلست ، وقد أثقلتنى الأقياد . فلما مكثت هنيهة ، قلت : تأذن فى الكلام ؟ فقال : تكلم ، قلت : الام دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : الى شهادة ألا اله الا الله . قال : فقلت : أنا أشهد ألا اله الا الله. ثم قلت له : ان جَدك ابن عباس ، يحكى أن وفْد عبد القَيْس ، لما قَدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرهم بالايمان بالله ، فقال : أتدرون ما الايمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة ألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخُمس من المغنم

قال أبو الفضل : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شُعْبَة ، قال : حدثنى أبو جَمْرة ، قال : سمعت ابن عباس قال : ان وفد عبد القيس ، لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرهم بالايمان بالله فذكر الحديث . قال أبو الفضل : قال أبى : فقال لى عند ذلك (أى الخليفة المعتصم) : لولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى ما تعرضت لك . ثم التفت الى عبد الرحمن بن اسحق ، فقال له : ياعبد الرحمن ، ألم آمرك أن

---

(١) راجع تاريخ أبى الفداء جـ ٢ ص ١٦٨ . ويوجد فى تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ (*) فى طبعة النجف سنة ١٣٥٨ هـ جـ ٣ ص ١٩٨ ببيان موجز متسوه عن اجراءات محاكمة أحمد امام المعتصم (*) وقد أورد المؤلف صفحات كاملة من النصوص العربية تبدأ فى كتابه من ص ٩٣ الى ص ١٠٠ نقلا عن الحلية لابى نعيم ، ولم استطع ادراجها كلها فى موضع واحد فى الترجمة العربية ، كما صنع المؤلف فى كتابه ، ولكنى قسمنها طبقا لما كتبه المؤلف فى وصف أيام المحاكمة ، فذيلت وصفه لكل يوم منها بالنصوص العربية المطابقة لهذا الوصف

(٢) أبو نعيم ورقة ١٤٨ أو مابعدها (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٩٨ وما بعدها

ترفع المحنة (*) ؟ قال أبى : فقلت فى نفسى : الله أكبر، ان فى هذا ، لفرجا للمسلمين . قال : ثم قال : ناظروه وكلموه . ثم قال : ياعبد الرحمن كلّمه. فقال لى عبد الرحمن : ما تقول فى القرآن ؟

قال : قلت له : ما تقول فى علم الله ؟ فسكت . قال أبى : فجعل يكلمنى هذا وهذا ، فأرد على هذا ، وأكلم هذا ، ثم أقول : يا أمير المؤمنين، أعطونى شيئا من كتاب الله أو سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول به ما أراه . قال : فيقول ابن أبى دواد : أنت لا تقول الا ما فى كتاب الله ، أو سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : فقلت له : تأولتَ تأويلا ، فأنت أعلم وما تأولتَ ما يُحبَس عليه ويُقيَّد عليه . قال : فقال ابن أبى دُؤَاد : هو والله يا أمير المؤمنين ضالٌ مُضِل مبتدع ، وهؤلاء قضاتك والفقهاء ، فَسَلهُم . فيقول لهم (أى الخليفة) : ما تقولون ؟ فيقولون : يا أمير المؤمنين ، هو ضال مضل مبتدع

« قال : ولايزالون يكلموننى . قال : وجعل صوتى يعلو على أصواتهم. فقال لى انسان منهم : قال الله : «ما يأتيهم من ذِكر من ربِّهم مُحدَث». أفيكون مُحدَث الا مخلوق ؟ فقلت له : قال الله تعالى : « ص ، والقرآن ذى الذكر[1]» ، فالذكر هو القرآن ، وتلك ليس فيها ألِف ولا لام . قال :

(*) لاحظ أن المؤلف لم يناقش هذه الرواية ليعرف مدى صحتها وأرى أن سياق حوادث محاكمة أحمد بن حنبل فى سنة ٢١٩ هـ يؤكد أن المعتصم لم يأمر قط عبد الرحمن بن اسحاق أو غيره برفع المحنة ، وانما هذا من وضع المؤرخين وكتاب الطبقات الذين أرخوا لهذه الفترة فى ظل الدولة العباسية . فقد كانوا يجاملون خلفاء بنى العباس على حساب الوقائع التاريخية للتخفيف من تبعتهم والصاق أوزار المحنة برجال حاشية المعتصم من أمثال عبد الرحمن بن اسحق ، وأحمد بن أبى دواد . ومما يوضح أن هذه الرواية موضوعة ومختلقة انه بعد أن سأل المعتصم عبد الرحمن بأنه أمره برفع المحنة ، يطلب من رجال حاشيته أن يناظروا احمد بن حنبل ويكلموه

(1) سورة ص رقم ٣٨ آية ١

فجعل ابن سماعة (*) لايفهم ما أقول . قال : فجعل يقول لهم : ما يقول ؟ قال : فقالوا له : انه يقول كذا وكذا . قال : فقال لى انسان منهم حديث خَبَّاب . يا هَنَاه ، تَقربْ الى الله بما استطعت ، فانك لن تتقرب اليه بشىء هو أحَب اليه من كلامه . قال أبى : فقلت له : نعم هكذا هو

قال : فجعل ابن أبى دُوَاد ينظر اليه ويَلحظ مُتَغَيِّظا عليه . قال أبى : وقال بعضهم : أليس قال « الله خالقُ كلِّشىء » ؟ قال : قلت : قد قال : « تُدَمِّر كل شىء (١) » . فدمَّرت الا ما أراد الله . قال : فقال بعضهم : فما تقول ؟ وذَكَرَ حديث عمران بن حُصَيْن : ان الله تعالى كتب الذكر . فقال : ان الله خَلَق الذِكر . فقلت : هذا خطأ ، حدثناه غيْر واحد : ان الله كتب الذكر . قال أبى : فكان اذا انقطع الرجل منهم ، اعترض ابن أبى دُوَاد فتكلم . فلما قارب الزوال ، قال لهم : قوموا

« ثم احتَبَس (أى الخليفة) عبد الرحمن بن اسحق ، فخلا بى ، وبعبد الرحمن ، فجعل يقول لى : أما تعرف صالحا الرشيدى ؟ كان مؤدبى ، وكان فى هذا الموضع جالسا . وأشار الى ناحية من الدار . قال : فتكلم وذَكَرَ القرآن ، فخالفنى ، فأمرت به فسُحِب ووُطِىء . ثم جعل يقول : ما أعتَرِفُك ، ألم تكن تأتينا ؟ فقال له عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين ، أعترِفُه منذ ثلاثين سنة ، يرى طاعتك والحج والجهاد معك ، وهو مُلازِم لمنزله . قال : فجعل يقول : والله انه لفقيه ، وانه لعالم ، وما يسَّرنى أن يكون مثله معى ، يَرُد على أهل الملل ، ولئن أجابنى الى شىء له فيه أدنى

(*) هو القاضى أبو عبد الله محمد بن سماعة ، تفقه على أبى يوسف ومحمد بن الحسن ، وروى عن الليث بن سعد ، وله مصنفات واختيارات فى المذهب الحنفى ، وتوفى فى سنة ٢٣٣ هـ وقد جاوز المائة ، أى أنه كان فى نحو التسعين أو اقل منها عند محاكمة احمد ، واشتراكه فى امتحان احمد بن حنبل ، مع أحمد بن ابى دواد يدل على انه كان على الاقل ميالا للمعتزلة ان لم يكن من رجالهم ، راجع ترجمته فى وفيات سنة ٢٣٣ هـ فى شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى حـ ٢ ص ٧٨ طبعة القدسى ، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ

(١) سورة الاحقاف رقم ٤٦ آية ٢٥

فرج ، لأطلقن عنه بيدى ، ولأطأن عقبه ، ولأركبن اليه بجندى . قال : ثم يلتفت الىّ فيقول : ويحك يا أحمد ، ما تقول ؟ قال : فأقول : يا أمير المؤمنين ، اعطونى شيئا من كتاب الله ، أو سنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . فلما طال بنا المجلس ، ضجر ، فقام ، فرددت الى الموضع الذى كنت فيه

« ثم وجه الىّ برجلين سماهما وهما : صاحب الشافعى ، وغسان ، من أصحاب ابن أبى دؤاد ، يناظرانى ، فيقيمان معى ، حتى اذا حضر الافطار ، وجه الينا بمائدة عليها طعام ، فجعلا يأكلان ، وجعلت أتعلل ، حتى ترفع المائدة . وأقاما الى غد . وفى خلال ذلك يجىء ابن أبى دواد ، فيقول لى : يا أحمد ، يقول لك أمير المؤمنين ما تقول ؟

فأقول له : اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقول به . فقال لى ابن أبى دؤاد : والله لقد كتب اسمك فى السبعة ، فمحوته ، ولقد ساءنى أخذهم اياك ، وانه والله ليس السيف ، انه ضرب بعد ضرب . ثم يقول لى : ما تقول ؟ فأرد عليه نحوا مما رددت عليه

ثم يأتينى رسوله ، فيقول : أين أحمد بن عمار ، أجب الرجل الذى أنزلت فى حجرته . فيذهب ، ثم يعود ، فيقول لى : يقول لك أمير المؤمنين :ما تقول ؟ فأرد عليه نحوا مما رددت على ابن أبى دواد . فلا تزال رسله تأتى أحمد بن عمار ، وهو يختلف فيما بينى وبينه ويقول : يقول لك أمير المؤمنين : أجبنى حتى أجىء فأطلق عنك بيدى »

ب ـ اليوم الثانى للمحاكمة :

وفى اليوم الثانى ، اتبعت نفس الاجراءات التى اتخذت فى المجلس السابق . وكلما استشهدوا بآية قرآنية أو حديث قوى الاسناد ، أظهر أحمد استعدادا لمناظرتهم ، ويبدو أنه كان على تمام القدرة للدفاع عن موقفه . غير أنهم كانوا اذا اتبعوا منهجا آخر فى المناقشة ، أبى اباء مطلقا أن يسلم

بصحة ما يصلون اليه من النتائج ، ولاذ بالصمت والعناد . وقد أحكم انفاذ هذا المَنحَى فى النقاش ، حتى ان خصومه شكوا الى الخليفة أنه كلما كانت الحجة فى جانبه ، سارع فى الادلاء برده ، وكلما كانت فى جانبهم اقتصر على معارضة الأدلة التى يحتجون بها . ومما أقلق أحمد بن حنبل فيما يبدو ، أن خصومه كان يجب أن يصروا على الاحتجاج بظاهر القرآن ، كما صنعوا فى بعض الأحيان . ولكى يثبت لهم أنه لاينبغى أن يتقيدوا تقيدا بالغا بالمعنى الظاهرى للقرآن ، سأل واحدا من المتناظرين عما يقوله فى الآية القرآنية: «يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ».فأجاب بأن الآية قد خَصَّ الله بها المؤمنين

وعند ذاك سأله أحمد عما تكون عليه القاعدة اذا كان الرجل قاتلا أو عبدا أو يهوديا أو نصرانيا ؟ فلم يقو مناظره على الاجابة عن هذا السؤال . وقد برر أحمد استعانته بهذه الحجة لأن مناظريه اتبعوا فى مجادلته أسلوبا يثير ضجره وتبرمه . ويلوح أنه كان فى هذه الحال على تمام الأهبة لمتابعة نص القرآن متابعة حرفية كلما كانت الحاجة العملية تقتضى ذلك . ولكنه سلّم بالحاجة ، فى بعض الحالات الخاصة ، الى تخصيص عموم المعنى الظاهرى للقرآن، أو الى بسطه وتفصيله ، وذلك عن طريق الاستعانة بأضواء اضافية نستمدها من بعض المصادر الأخرى . وعنده فيما يبدو أن هذه الأضواء الاضافية لا تستمد الا من الأحاديث المعتمدة الموثوق بصحتها

وفى هذا اليوم كما فى اليوم السابق ، قام أحمد بن أبى دواد بدور فعال فى المناقشة ، كلما سنحت له الفرصة بذلك . وفى أحد الاختبارات الثلاثة التى اختبر بها أحمد بن حنبل ، وربما كان ذلك فى اختباره الأول أو الثانى ، اتهم بأنه يقيم مع الله الها آخر ، أى يدين بالثنوية (١) ، وذلك حين أعلن أحمد اعتقاده بأن القرآن غير مخلوق . وقد رد على ذلك قائلا : « أحَدٌ

(١) انظر كتاب : المعتزلة بقلم شتينر ص ٧٧ ، وراجع ص ٩٠ ومابعدها

صَمَدٌ ، لا شبيه له ولا عدل، وهو كما وصف به نفسه (١) ». وفى نهاية هذه الجلسة ، عُقِدت مداولة خاصة بين الخليفة ، وعبد الرحمن بن اسحق ، وأحمد بن حنبل . وقد دُعِى اليها أحمد بن أبى دواد فيما بعد

وفى نهايتها أعيد أحمد الى محبسه ، كما أعيد ما أجرِى فى الليلة السابقة . فكانت الرسل تغدو وتروح ، كما عاد الرجلان اللذان صحباه بالأمس ، ولزماه هذه الليلة . وقبل طلوع شمس اليوم التالى ، أنذِر أحمد بأنهم سيصلون قطعا الى قرار بشأنه فى الجلسة القادمة ، وقد أعد نفسه لما ينتهون اليه

جاء فى الحلية (*) : « قال : فلما كان فى اليوم الثانى ، أدخلتُ عليه (أى أدخل الامام أحمد على الخليفة المعتصم) فقال : ناظِروه وكلموه . قال : فجعلوا يتكلمون ، هذا من هاهنا ، وهذا من هاهنا ، فأرد على هذا وهذا . فاذا جاءوا بشىء من الكلام مما ليس فى كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فيه خبَر ولا أثَر ، قلت : ما أدرى ما هذا ؟

قال : فيقولون : يا أمير المؤمنين ، اذا توجهت له الحجة علينا وثَب ، واذا كلمناه بشىء ، يقول : لا أدرى ما هذا . قال : فيقول : ناظِروه . ثم يقول : يا أحمد ، انى عليك شفيق ، فقال رجل منهم : أراك تذكر الحديث وتنتحله . قال : فقلت له : فما تقول فى قول الله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم ، للذكَرِ مثلُ حظ الانثيين » ؟

فقال : خصَّ الله بها المؤمنين . قال : فقلت له : ما تقول ان كان قاتلا أو عبدا أو يهوديا أو نصرانيا ؟ فسكت . قال أبى : فانما احتججتُ عليهم بهذا ، لأنهم كانوا يحتجّون علىّ بظاهر القرآن ، ولقوله أراك تنتحل

---

(١) المقفى للمقريزى ورقة ٤ : وكان أبو عبد الله ، اذا دعى الى القول بخلق القرآن ، وضرب بالسياط ، يقول : كلام الله غير مخلوق . فاذا قيل له : القول بذلك يؤدى الى التشبيه يقول : احد صمد ... الخ

(*) الحلية لابى نعيم ورقة ١٤٨ وما بعدها ، طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٩٨ وما بعدها وقد حصره المؤلف فى موضع واحد ورأينا تقسيمه طبقا لايام المحاكمة

الحديث . وكان اذا انقطع (*) الرجل ، اعترض ابن أبى دُوَاد ، فيقول : والله يا أمير المؤمنين ، لئن أجابك ، لهو أحب الىّ من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار ، فيُعَدد ما شاء الله اليه من ذلك

« ثم أمرهم بعد ذلك ، بالقيام ، وخَلاَ بى وبعبد الرحمن (بن اسحق) ، فيدور بيننا كلام كثير ، وفى خلال ذلك يقول : تدعوا أحمد بن أبى دواد . فأقول : ذلك اليك . فيُوجّه ، فيجىء فيتكلم . فلما طال بنا المجلس ، قام ، ورُدِدْتُ الى الموضع الذى كنت فيه . وجاءنى الرجلان اللذان كانا عندى بالأمس . فجعلا يتكلمان . فدار بيننا كلام كثير . فلما كان فى وقت الافطار ، جىء بطعام على نَحْو مما أتى به فى أول الليلة ، فأفطِروا ، وتَعلّلْتُ . وجَعلت رسله تأتى أحمد بن عمّار . فيمضى اليه برسالة على نحو ما كان فى أول ليلة

فجاء ابن أبى دواد ، فقال له : انه قد حلف أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وأن يحبسك فى موضع لاترى فيه الشمس . فقلتُ له : فما أصنع؟ حتى اذا كِدْتُ أن أصبِح ، قلتُ : لخليق" أن يحدُث فى هذا اليوم من أمرى شىء . وقد كنت أخرَجت تِكتى من سراويلى ، فشَدَدْت بها الأقيادَ ، أحملها بها ، اذا توجهتُ اليه . فقلتُ لبعض مَنْ كان معى ، المُوَكّل بى : أريد خيطا . فجاءنى بخيط ، فشددتُ بها الأقياد ، وأعدتُ التِكة فى سراويلى ، ولبستُها كراهية أن يحدث شىء من أمرى ، فأتعرى »

حـ ـ اليوم الثالث :

وحينما جاء الرسول فى اليوم التالى ، أشتخِص أحمد الى قصر الخليفة ، وتأيّدت مخاوفه ، حين رأى حشـدا كبيرا من الرجال المسلّحين ومظاهر الأبهة والروعة التى أعِدت فيما يظهر ، لمناسبة خاصة . وقد بدأت المحاكمة بمجلس تناقش فيه العلماء والفقهاء مع أحمد بن حنبل ، ثم تلته مداولة أخرى

(*) انقطع الرجل أى لزمته الحجة فأفحم وصار لا يستطيع ردا ، وقطع المرء مناظره أى الزمه الحجة وأسكته

خاصة ، حدث فيها كما حدث من قبل أن سأل الخليفة أحمد أن يذعن ويُجيب ، ولو اذعانا يسيرا ، حتى يرد اليه حريته ، وأكد له الخليفة أنه يضمر له فى مثل هذه الحال من العطف والرأفة بقدر ما يشعر به نحو ولده هرون . وكان رد أحمد لايتغير ، وهو أنه يلتمس بعض السند من المصادر الوحيدة التى يُقر بها كأصول يُعتمد عليها ، لكى يغير معتقده . وأخيرا عيل صَبْر الخليفة ، حين رأى أن آماله فى الظفر بما يبرر استعمال الرأفة مع سجينه ، قد تبددت وذهبت أدراج الرياح . فأمر بأن يُطرَد ويُضرَب

٢٣ ـ ضرب احمد بن حنبل

وقد حدث أن ضرب أحمد بعد ذلك . وقبل ضربه ، لوحظ وجود عُقدَة فى كم قميصه ، فسئل عما يمكن أن يكون الغرض منها . فرد بأنها عقدة تحوى شَعرَتَين من شعر النبى (١) (عليه السلام) ، وعندما علم بذلك اسحق بن ابراهيم ، منع من تخريق القميص . وقد سعى الخليفة قبل توقيع الضرب ، وفى خلاله ، فى أن يظفر من أحمد بالاجابة الى مذهبه . ويبدو أنه قد تأثر بدافع الرأفة به . ولكنه كان أيضا يحدوه العزم والتصميم على دفع أحمد الى الرجوع عن ابائه والاقلاع عن عناده . بيد أن ابن أبى دُوَاد ومن معه من كبار الفقهاء ، لم يدخروا وسعا فى حمل الخليفة على قتله . ولما أوثق أحمد فى أقياده ، شكا للخليفة من أن العقوبة التى توقع عليه ، لم يأمر بها الشرع ، لأنه رُوِى عن النبى (عليه السلام) أنه قال : أمِرتُ بأن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، فاذا قالوها ، عصموا منى دماءهم وأموالهم »

ولما ظن أحمد بن أبى دواد أن مولاه الخليفة قد يلين اعجابا بثبات أحمد وشجاعته وتأثرا بقوة حججه ، ذكّر المعتصم أنه لو سَلّم ولاَنَ ، فسيقال حتما عن المعتصم انه ناهض مذهب المأمون ، الخليفة السابق ، وان الناس

(١) عن استعمال شعر النبى (عليه السلام) كتمائم ، انظر كتاب : دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر حـ ٢ ص ٢٥٨

سيرون أن أحمد قد أحرز نصرا على خليفتين ، وهى نتيجة قد تحنفز أحمد ابن حنبل على أن يعد نفسه زعيما ، مما يفضى بدولة الخلفاء الى أوخم العواقب

جاء فى المقفى للمقريزى (١) : « قال أبو عبد الله : وجعلت بين العقابين . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايحل دم امرىء مسلم يشهد ألا اله الا الله وأنى رسول الله ، الا باحدى ثلاث .. الحديث . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت بأن أقاتل الناس .. الحديث ، فبم تستحل دمى ، ولم آت شيئا من هـذا ؟ يا أمير المؤمنين ، اذكر وقوفك بين يدى الله عز وجل ، كوقوفى بين يديك ، يا أمير المؤمنين ، راقب الله . فلما رأى المعتصم ثبوت أبىعبد الله وتصميمه ، لان لأبى عبد الله . فخشى ابن أبى دواد من رأفته عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان تركته ، قيل انك تركت مذهب المأمون ، وسخطت قوله . وأنه غلب خليفتين . فهاجه ذلك ، وطلب كرسيا ، جلس عليه . وقام ابن أبى دواد وأصحابه على رأسه ، ثم قال للجلادين .. الخ »

ولما ربط الى العقابين ، تعاقب على ضربه ، فيما قيل مائة وخمسون جلادا ، كل واحد منهم يضربه سوطين ثم يتنحى (٢) . وفى ابتداء الضرب ، كان أحمد عند كل ضربة ، يتفوه بعبارات دينية ، اختلفت الروايات فى ايراد حقيقة مدلولها (٣) . وهناك قصة موضوعة فحواها ، أنأحمد بعد أن ضرب تسعة وعشرين سوطا ، كانت سراويله على وشك السقوط ، ولكنها أعيدت الى مكانها بطريقة خارقة ، وربطت باحكام ، وذلك استجابة لدعاء دعا به أحمد . بل مضت بعض الروايات الى ما هو أبعد من هذا ، فزعمت أن

---

(١) ورقة ٧

(٢) ابن السبكى ورقة ١٣٧٦ (أرجأنا نصه الى مابعد أبى نعيم)

(٣) المقريزى ورقة ٨ (*) وقد أرجأنا اثبات النص العربى الذى أورده المؤلف الى مابعد استكمال رواية أبى نعيم

يدا من ذهب رؤيت وهى تخرج من تحت ثوبه ، وتصلح ماكان مشعثا (١).
ولما مضى الجلادون فى الضرب ، فقد أحمد وعيه تحت تأثير ضربات السياط، فنُقِل وهو فى حالة اغماء الى غرفة مجاورة . وفى غضون ذلك ، كانت جموع العامة المحتشدة خارج فِناء القصر ، قد ثارت ثائرتها ، حنقا وسخطا على معاملة الخليفة لأحمد

وربما كان ذلك أيضا بسبب ما ترامى اليهم من نبأ انهياره واشرافه على الهلاك . وعلى أية حال ، فانهم كانوا قد تأهبوا لمهاجمة القصر، حينما أمر الخليفة بايقاف ضرب أحمد . ومن الراجح أن هذا الأمر كان يرجع الى خوف المعتصم من هياج العامة وثورتهم عليه أكثر مما يرجع الى سبب آخر . وتحكى احدى الروايات أن أحمد ، حتى بعد أن نُحِّى الى الغرفة المجاورة مُغْمى عليه ، تابع مُعَذبوه اساءته وايذاءه بركله ووطئه بأقدامهم . ولما أفاق أعْطِى سَوِيقا لكى يتقيأ ، ولكنه أبى تناوله

وقد تلا هذا نقله الى دار اسحق بن ابراهيم ، حيث أطلق سراحه بعد اعتقاله لفترة قصيرة ثم عاد الى داره . وقد وقعت هذه الحوادث كلها ، فى خلال الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان سنة ٢١٩ هـ ، ولو أننا لانعرف على وجه التحديد تاريخ اليوم الذى وقعت فيه (٢) . ولم يضمر أحمد ، فيما يبدو ، سخطا على الخليفة لما وقع منه ، كما أنه أعلن فيما بعد ، أنه لايُكِن حقدا نحو أى واحد من أولئك الذين شركوا فى ايذائه واضطهاده

قال أبو نعيم فى الحلية : « فلما كان فى اليوم الثالث ، أدْخِلتُ عليه والقوم حضور ، فجعلت أدْخَلُ من دار الى دار ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط ، وغير ذلك من الزى والسلاح ، وقد حُشِيتْ الدار بالجند . ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير أحَد من هؤلاء . حتى اذا صِرْتُ اليه ، قال : ناظروه وكلموه . فعادوا بمثل مناظرتهم ، فدار بيننا وبينهم كلام كثير ، حتى اذا كان فى الوقت الذى كان يخلو بى فيه ، نحَّانى ،

---

(١) انظر الهامش السابق (رقم ٣)
(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ترجمة رقم ١٩

ثم اجتمعوا وشاورهم ، ثم نحّاهم ودعانى ، فخلا بى وبعبد الرحمن ، فقال لى : ويحك يا أحمد ، أنا والله عليك شفيق ، وانى لأشفق عليك ، مثل شفقتى على هرون ابنى ، فأجبنى

فقلت : يا أمير المؤمنين ، اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما ضجر وطال المجلس قال : عليك لعنة الله ، لقد كنت طمعتُ فيك ، خذوه ، خلّعوه ثيابه ، اسحبوه . قال : فأُخِذْتُ فسُحِبْتُ ثم خُلّعتُ . ثم قال : العُقَابين والسياط . فجىء بعُقابين (صحتها : بالعُقَابَيْن) والسياط

فقال أبى : وقد كان صار الىّ شَعْرتان من شَعْر النبى صلى الله عليه وسلم ، فصَرَرْتُهما فى كم قميصى ، فنظر اسحق بن ابراهيم الى الصُّرة فى كم قميصى . فوجّه الىّ : ما هذا مصرور فى كم قميصك ؟ (١) فقلت : شَعْرٌ من شَعْر النبى صلى الله عليه وسلم . وسعى بعضُ القوم الى القميص ليُخْرِقه فى وقتما أقِمت بين العُقابين. فقال لهم : لاتُخْرقوه ، انزعوه عنه . قال أبى : فظننتُ أنه دُرِىء عن القميص الخرْق لسبب الشعْر الذى كان فيه

« ثم صُيِّرْتُ بين العُقابَين وشُدت يدى وجىء بكرسى ، فوُضِع لى ، وابن أبى دُوَاد قائم على رأسه ، والناسُ أجمعون قيام ممَّن حَضَر . فقال لى انسان ممن شَدنى : خذ نابَىْ الخشبتين بيدك وشُد عليهما . فلم أفهم ما قال . قال : فتَخلّعَتْ يدى لما شُدِدْتُ ولم أمسك الخشبتين

قال أبو الفضل : ولم يزل أبى رحمه الله يتوجع منهما من الرسغ الى أن توفى . ثم قال للجلادين : تقدموا . فنظر الى السياط ، فقال : ائتوا بغيرها . ثم قال : تقدموا . فقال لأحدهم : ادنه ، أوجع ، قَطَع الله يَدك . فتقدم ، فضرب سوطَين ، ثم تَنَحَّى . ثم قال : ادنه ، شُد ، قطع الله يدك . فتقدم فضربنى سوطين ثم تنحّى . فلم يزل يدعو واحدا بعد

(١) فى رواية فى هامش المخطوط : « فى تلك »

واحد ، فيضربني سوطين ثم يتنحى

ثم قام ، حتى جاءني ، وهم محندِقون به ، فقال : ويحك يا أحمد ، تقتل نفسك ؟ ويحك أجِبْني ، أطلِقْ عنك بيدي . قال : فجعل بعضهم يقول لي : ويحك امامُك على رأسك قائم . قال : وجعل عُجَيف يَنْخَسُني بقائم سيفه ويقول : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ قال : وجعل اسحق ابن ابراهيم يقول : ويلَك ، الخليفة على رأسك قائم . ثم يقول بعضُهم : يا أمير المؤمنين ، دَمُه في عنقي . قال : ثم رجع فجلس على الكرسي ، ثم قال للجلاد : ادنُه ، شد ، قطع الله يدك . ثم لم يزل يدعوا جلادا بعد جلاد ، فيضربني سوطين ويتنحَّى وهو يقول له : شُد قطع الله يدك

« ثم قام التي الثانية ، فجعل يقول : يا أحمد أجِبني . فجعل عبد الرحمن ابن اسحق يقول لي : من صنع بنفسه من أصحابك في هـذا الأمر ، ما صَنعت ؟ هذا يحيى بن معين ، وهذا أبو خيثَمة ، وابن أبي اسرائيل . وجعل يُعدد عليَّ من أجاب . وجعل هو يقول : ويحك أجِبْنِي. قال : فجعلت أقول نحوا مما كنت أقوله لهم . قال : فرجع فجلس . ثم جعل يقول للجلاد : شُد قطع الله يدك . قال أبي : فذهب عقلي وما عقلت الا وأنا في حجرة مُطْلق" عن الأقيـاد . فقال : انسان ممن حضر : انا كببْنَاكَ على وجهك ، وطرحنا على ظهرك باريَّة ودسْناك . قال أبي : فقلت : ما شعرت بذلك

قال : فجاءوني بسَوِيق ، فقالوا لي : اشرب وتَقيّاً : فقلت : لا أفطِر. ثم جيء بي الى دار اسحق بن ابراهيم . قال أبي : فنودي بصلاة الظهر ، فصلينا الظهر . فقال ابن سَمَاعة : صليَّت والدم يسـيل من ضربك ؟ فقلت : قد صلى عمر رضى الله عنه ، وجُرْحُه يَثْعَبُ دما . فسَكَت . ثم خلي عنه فصار الى المنزل

« (قال) : ووُجِّه التي برجل من السـجن ممن يُبْصر الضرْبَ والجراحات ، ويعالج منها . فنظر اليه ، فقـال : أنا والله لقد رأيتُ من

ضَرِب ألف سوط ، ما رأيتُ ضربا أشَدّ من هذا . لقد جُرّ عليه من خلفه ومن قدّامه . ثم أدخل ميلا فى بعض تلك الجراحات ، وقال : لم ينقب . فجعل يأتيه ويعالجه . وقد كان أصاب (*) وجهه غَيْرُ ضربة . ثم مكث يعالجه ما شاء الله . ثم قال له : ان هاهنا شيئا أريد أن أقطعه . فجاء بحديدة . فجعل يعلق اللحم بها ، ويقطعه بسكين معه ، وهو صابر بذلك يحمد الله فى ذلك ، فبرأ منه . ولم يزل يتوجّع من مواضع منه . وكان أثر الضرب بينا فى ظهره ، الى أن توفى رحمه الله

« قال أبو الفضل : سمعتُ أبى يقول : والله لقد أعطيتُ المجهود من نفسى ، ولَوَدِدْتُ أنى أنجو من هذا الأمر كفافا لا علىّ ولا لى . قال أبو الفضل : وأخبرنى أحد الرجلين اللذين كانا معه ، وقد كان هذا الرجل ، يعنى صاحب الشافعى ، صاحب حديث ، قد سمع ونظر . ثم جاءنى بعد فقال : يا ابن أخى ، رحمة الله على أبى عبد الله ، ما رأيت أحدا بعينى يشبهه ، لقد جعلت أقول له فى الوقت ما يُوجّه الينا بالطعام : يا أبا عبدالله، أنت صائم وأنت فى موضع تقِيّة

ولقد عطش ، فقال لصاحب الشراب : ناولنى . فناوله قدحا فيه ماء وثلج. فأخذه ، فنظر اليه هنيهة ، ثم رَدّه عليه . قال : فجعلت أعجب اليه من صبره على الجوع والعطش وما هو فيه من الهول . قال أبو الفضل : وكنت ألتمس وأحتال أن أوصل اليه طعاما أو رغيفا أو رغيفين فى هذه الأيام ، فلم أقدر على ذلك . وأخبرنى رجل حَضَره قال : تَفقّدْتُه فى هذه الأيام ، وهم يناظرونه ويكلمونه ، فما لحن فى كلمة ، وما ظننت أن أحدا يكون مِثْلَ شجاعته وشدة قلبه قدّس الله روحه »

وقال ابن السبكى فى طبقات الشافعية (١) : « حدثنا أبو بكر

(*) مكتوبة فى مخطوطة ليدن : اصحاب . واشار المؤلف بمراجعة تاج العروس . ولكن صحتها : أصاب

(١) ورقة ١٣٦ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٠٥ ، وفى هذه الطبعة تحريف لاسم ابى دن فقد كتبت أبو ذر

السُّهْرَوَرْدِي بمكة قال : رأيت أبا دن بِسُهَرورْد... وكان ممن ضرب أحمد (بن حنبل) بين يدى المعتصم ، قال : دُعِينا فى تلك الليلة ، ونحن خمسون ومائة جلاد ، أن أمرنا بضربه ، كنا نعدوا على ضَرْبه ونمر ، ثم يجيىء الآخر على أثره ثم يضرب » (وفى رواية أبى نُعَيْم (١) : ثم دعا بجلاد يقال له أبو الدَن ، فقال : فى كم تقتله ؟ قال : فى خمسة أو عشرة أو خمسة عشر أو عشرين . فقال : اقتله)

وقال المقريزى فى المُقَفَّى (٢) : « فلما ضُرِب (أحمد) سوطا ، قال : بسم الله . فلما ضُرِب الثانى قال : لاحول ولاقوة الا بالله. فلما ضُرِب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق . فلما ضُرب الرابع قال : (قُلْ لن يصيبَنا الا ماكتب الله لنَا) . فضربه تسعة وعشرين سوطا. وكانت تكة سراويله حاشية ثوب ، فانقطعت . فنزل السراويل الى عانته ، فقلت : الساعة ينتهك ، فرمى ابو عبد الله طرْفَه نحو السماء ، وحَرَكَ شفتيه ، فما كان بأسرع من أن بقى السراويل ، لم ينزل . قال ميمون : فدخلتُ الى أبى عبد الله ، بعد سبعة أيام ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، رأيتُك يوم ضربوك ، قد انحل سراويلك ، فرفعتَ طرْفَك نحو السماء ، ورأيتُك تحرك شفتيك ، فأى شيء قلت ؟

قال : قلتُ : اللهم انى أسألك باسمك الذى ملأتَ به العرْشَ ، ان كنتَ تعلم انى على الصواب ، فلا تهتِكْ لى سترا . ورُوِى أنه قال : يا من لايعلم العرش منه أين هو الا هو ، ان كنتُ على الحق ، فلا تُبْدِ عورتى ، انتهى

وذكر البيهقى : أنه فى أول سوط قال : بسم الله ، وفى الثانى قال : توكلتُ على الله وهذا فى رِضَى الله . وفى الثالث قال : ما شاء الله كان ، وكل شيء عنده بمقدار

(١) الحلية ورقة ١٥٠ب (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ٢٠٢

(٢) ورقة ٨

وفى الرابع قال : لاحول ولا قوة الا بالله . وفى الخامس قال : يا أمير المؤمنين ، انك موقوف ومسؤل عنى بين يدى رب لا يظلم ، ويأخذ للمظلوم من الظالم . وفى السادس قال : يا أمير المؤمنين ، سألتك بالله والدار الآخرة . قال وهو لايرفع رأسه اليه . وفى السابع قال : يا أمير المؤمنين اذكر الوقوف بين يدى الله كوقوفى بين يديك ، لا تستطيع منعا ، ولا عن نفسك دفعا . فلما ضربه الثامن ، اضطرب المئزر فى وسطه . قال المروزى ، وعباس بن مسكويه الهمذانى : لقد رأينا أحمد رفع رأسه الى السماء وحرك شفتيه ، فما استتم الدعاء ، حتى رأينا كفا من ذهب ، قد خرج من تحت مئزره ، فرد المئزر الى موضعه ، بقدرة الله تعالى . فضجّت العامة ، وهمّوا بالهجوم على دار السلطان . فأمر بحلّه

قال المروزى ، وابن مسكويه : فدخلنا على أبى عبد الله ، فقلنا : أى شىء كان تحريك شفتيك عند اضطراب المئزر ؟ قال : رفعتُ بصرى الى السماء وناديتُ : ياغياث المستغيثين ويارب العالمين ، ان كنتَ تعلم أنى قائم بحق ، فلا تهتك عورتى ، فاستجاب الله دعائى . قال : فكان اسحق ابن ابراهيم يقول : أنا والله رأيتُ يوم ضُرِب أحمد ، وقد ارتفع السراويل من بعد انخفاضه ، وانعقد من بعد انحلاله ، وما رأيت يوما كان أعظم على المعتصم من ذلك اليوم ، والله لو لم يُرفع عنه الضرب ، لم يبرح من مكانه الا ميتا »

٢٤ ــ ما وقع بعد ضرب الامام احمد

وقد عاد أحمد بن حنبل فى داره طبيب السجن الذى عالجه الى أن التأمت جراحه . غير أن ما خلفته الجراح من ندوب ظل ظاهرا فى جسمه الى يوم وفاته . ولم يبطل قط توجعه من تخلع رُسغَيه الذى حل به لأنه أهمل ما أشير عليه بأدائه عندضربه ، وهو أن يُمسك بالأطراف العالية للعُقابين. ولما أغفل العمل بهذه النصيحة ، صار الثقل الرئيسى لجسده معلقا من رسغيه . وبعد أن فرغ المعتصم من ضرب أحمد ، أخرج الى العامة عمّه

اسحق بن حنبل ، وسألهم أن يستمعوا الى شهادته التى تثبت أن الخليفة سلـَّمهم امامهم سليما معافى لم يلحقه ضرر أو أذى فى بدنه . وقد قيل بأن الخليفة لو لم يعمد الى اجراء هذا التمويه والتضليل ، لشغب العامة وأوقدوا نار الفتنة . غير أنه بهذه الحيلة قد هدأ من ثائرتهم وتلافى العواقب الوخيمة التى تنجم عن هياجهم

وقد رأى أحمد بن أبى دواد أن من الواجب حينذاك أن يزج بأحمد بن حنبل فى السجن . ولكن المعتصم أغضبه هذا الاقتراح ، وأمر عامله اسحق ابن ابراهيم أن يطلق سراح أحمد . ومن المحتمل أنه فى هذه الحالة أيضا ، كان خوف الخليفة من قيام ثورة شعبية ، صارفا له عن أن يمضى فى اصطناع القسوة نحو سجينه . ولما انتهت الأمور الى هذا الحد ، خلع المعتصم على أحمد خِلَعا سنية ، ورده الى داره كما سبق أن حكينا ، وأمر عامله اسحق أن يستفسر عن حالته كل يوم ، طالما أن أحمد كان محتبَسا فى داره . غير أن أحمد باع هذه الخِلَع وتصدق بثمنها

جاء فى المقفى للمقريزى [1] (تحت عنوان) : فصل فيما وقع له رضى الله عنه بعد انقضاء المحنة : قال ابن أبى حاتم : سمعتُ أبا زُرْعة يقول : دعا المعتصم باسحق ، عم أحمد بن حنبل ، ثم قال للناس : تعرفونه ؟ قالوا : نعم . قال : فانظروا اليه . (ثم قال لاسحق) : أليس هو صحيح البدن ؟ (فقال برأسه : نعم) . ولولا أنه فعل ذلك ، لوقع شر لايـُقْدر على دفعه . فلما قال : قد سلـَّمته اليكم صحيح البدن ، هَدأ الناس وسكتوا

وكان ابن أبى دواد يحث الخليفة على حبس أبى عبد الله وعدم اطلاقه ، ويقول : يا أمير المؤمنين احبسه ، فانه فتنة . فغضب المعتصم ، وقال لنائبه : يا اسحق (بن ابراهيم) أطلقه . قال أبو عبد الله : فلم (*) يجد بدا من

---

(١) ورقة ٨

(*) فى الاصل : فلا

أن يخلي عني ، ولولا ذلك لكان قد حبسني . وقال المعتصم لهم : ليس هذا كما وصفتم

قال البيهقي : وذلك أنهم وضعوا من قدره وقللوه وصغّروه عنده ، فلما شاهده ورأى ما عنده ، عرف له فضله . وقال ميمون بن الاصبع : أخرج أحمد بعد أن اجتمع الناس وضجّوا حتى خاف السلطان ، فخرج . قال البيهقي : قال حنبل : وخلع عليه المعتصم مُبطّنة وقميصا ، وطيلسانا وخفّا وقلنسوة ، وأخرج على دابة عند غروب الشمس . فصار الى منزله ومعه الناس . فدخل منزله ، ورمى بنفسه على وجهه ، وخلَع ما كان خُلع عليه ، فأمر به فبيع ، وأخذ ثمنه فتصدق به . وبلغنا أن أبا اسحق يعني المعتصم ، ندم وأسقط في يده ، وأمر(*) اسحق نائبه ، ألا يقطع عنه خبره . قال : فكان اسحق يأتينا كل يوم يتعرف خبره ، حتى صَح وبَرأ بعد العلاج ، وخرج للصلاة والحمد لله »

وقد حُكِيَ أن أحمد ظل مقيما بالعسكر ستة عشر يوما فحسب . وكان طعامه ابان هذه المدة لا يتجاوز رُبْعَ سَوِيق (أى أربع حِفْنات من دقيق الشعير) . وكان يستقي كل ليلة بشَرْبَة ماء ، ويَطْعَم كل ثلاثة ليال بحفنة من سَوِيق . وقد بَرحت به هذه المِحَن وعاني كثيرا مما لاقاه فيها ، حتى انه لم تعد اليه صحته وقواه كما كانت ، الا بعد انقضاء ستة أشهر كاملة منذ عودته الى داره

قال أبو نعيم (١) : « حدثنا أبي ، والحسين بن محمد ، قالا : حدثنا أحمد بن محمد بن عمر ، قال : سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول : مكث أبي بالعسكر عند الخليفة ستة عشر يوما ، ما ذاق شيئا الا مقدار رُبْع سوِيقا . كل ليلة ، كان يشرب شرْبة ماء ، وفي كل ثلاث ليال ، يَستف حِفْنة حِفْنة من السويق . فرجع الى البيت ، ولم ترجع اليه نفسُه الا بعد ستة أشهر ، ورأيت مُوقيْه دخلا في حدقتيْه »

(*) في المخطوطة : امه تحريف

(١) الحلية ورقة ١٤٢ ب وما بعدها (طبعة القاهرة حـ ٩ ص ١٧٩ وما بعدها)

٢٥ ــ المحنة فى مصر فى عهد المعتصم

وقد وصل المُظَفَّر بن كَيْدَر ، ابان ولايته القصيرة على مصر ، وكان قد خلف أباه فى حكمها ، كتاب من الخليفة المعتصم (*) ، يأمره فيه بتجديد

(*) ليس صحيحا أن المعتصم أرسل كتابا الى المظفر بن كيدر يأمره فيه بتجديد المحنة . ولعل المؤلف وقع فى هذا الخطأ لاعتماده على كتاب النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة لمؤلفه أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى . وقد رجع الى النسخة التى نشرها المستشرق الهولندى يونيبول فى ليدن من سنة ١٨٥١ م الى سنة ١٨٦١ م . ولكن يوجد مرجع متقدم بكثير عن ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ ، ذلكم هو العالم المصرى ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، صاحب كتاب ولاة مصر وقضاتها ، الذى نشره روفون جست فى بيروت سنة ١٩٠٨ م ، بعد أن نشر باتون رسالته عن المحنة بأكثر من عشر سنوات . ولو أنه أتيح لباتون الرجوع الى كتاب الكندى هذا ، لاعاد كتابة الفقرات الخاصة بأخبار المحنة فى مصر . وسأوضح فى هذا الهامش خطأين وقع فيهما المؤلف وأورد به ، لفائدة القارىء بيانات اضافية عن تاريخ المحنة فى مصر ، اقتصر فيها على مايتعلق منها بعهد كل من المأمون والمعتصم ، وأرجىء أخبار المحنة فى عهد الواثق الى الموضع الذى يتكلم فيه المؤلف عن عهده . وقد بدات المحنة فى مصر عندما كان المأمون لايزال على قيد الحياة . والكتاب الخاص بالمحنة الذى أرسل الى مصر ، لم يكن هو نفس الكتاب الاول الذى أرسله المأمون لعامله على بغداد اسحق بن ابراهيم . وانما هو كتاب آخر أرسله أخو المأمون الذى تسمى فيما بعد عند توليه الخلافة باسم المعتصم . وكان اسم المعتصم آنذاك أبا اسحاق بن هرون الرشيد . وقد أورد الكندى فى ص ٤٤٥ من كتابه نص هذا الكتاب . وقد أرسله أبو اسحق الى كيدر نصر بن عبد الله والى مصر من قبل المأمون . وورد هذا الكتاب على كيدر فى جمادى الاخرة سنة ٢١٨ هـ (الكندى ص ١٩٣) ، أى بعد وصول كتاب المأمون الى بغداد بنحو ثلاثة أشهر (من ربيع الاول الى جمادى الآخرة) . ولا تخرج التعليمات التى وردت لوالى مصر عن نظائرها التى وردت فى كتاب المأمون لحاكم بغداد وتتلخص فى فصل القضاة مالم يقروا بأن القرآن مخلوق واسقاط عدالة الشهود فى القضايا مالم يقروا بهذه العقيدة ، أى ابطال شهادتهم ، ومنع الفقهاء والمحدثين فى المساجد من الافتاء أو رواية الحديث مالم يعلنوا ايمانهم بخلق القرآن . وقد كان كيدر واليا على مصر منذ خروج المأمون من مصر فى صفر سنة ٢١٧ هـ الى أن توفى فى ربيع الآخرة سنة ٢١٩ هـ أى فى خلافة المعتصم التى بدأت منذ وفاة المأمون فى شهر رجب سنة ٢١٨ هـ . (الكندى ص ١٩٤) . ثم ولى مصر مظفر بن كيدر الذى يشير اليه باتون ، وذلك باستخلاف أبيه له ، وقد عزله المعتصم فى شعبان سنة ٢١٩ هـ . ونظرا لان ولاية مظفر بدات من ربيع الآخر من نفس السنة ، فقد استغرقت نحو خمسة أشهر . ولم تكن هناك متاعب بسبب المحنة فى عهد ولايته القصيرة كما يقول باتون ، لان الكندى يقول فى ص ٤٥١ من كتابه : « ان أمر المحنة كان سهلا فى ولاية المعتصم ، لم يكن الناس (أى فى مصر) يؤخذون بها شاءوا أو أبوا ، حتى مات المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين ، فأمر أن يؤخذ الناس بها ، وورد كتابه على محمد بن أبى الليث وكأنها نار أضرمت»

المحنة . فامتحن المظفر الفقهاء ، انفاذا للأمر الذى تلقاه . ولـكن هـذا العمل لم يجنِ منه شيئا سوى أن زاد فى متاعبه فى خلال حكمه القصير

ولا نعلم شيئا عما أصابته المحنة من نجاح (١) . وليس لدينا بعد ولاية المظفر ، سجل متميز يشتمل على أخبار المحاكمات التى أقيمت فى مصر من أجل القرآن . غير أنه من الثابت أن البُوَيْطى عانى امتحانا فى مصر فى عهد الواثق . وسوف نشير الى قضيته بعد قليل فى كتابنا هذا . وقد بعث الواثق لعماله فى سنة ٢٣١ هـ ، بكتاب يأمرهم فيه باحياء أمر المحنة (٢) . ولا بد أن البويطى قد أشخص لاختبار عقيدته (٣) فى خلال المِحَن التى تلت هذا الـكتاب

٢٦ ــ المعتصم والمحنة

ومن المرجح أن السبكى قد أدرك عين الصواب ، حين ذهب الى أن المعتصم ، لم يكن لديه من العلم ما يؤهله للفصل فى صحة القول بخلق القرآن أو بطلانه ، والى أن استمراره فى المحنة ، يرجع الى حد كبير الى ما ألقاه المأمون على عاتقه فى وصيته ، والى روح التحريض المنبعثة من أولئك الذين كانوا يلتفون حوله

قال السبكى (٤) : « قال المؤرخون : ومع كونه كان لايدرى شيئا من العلم ، حمل الناس على القول بخلق القرآن . قلت : لأن أخاه المأمون أوصى اليه بذلك ، وانضم الى ذلك القاضى أحمد بن أبى دُوَاد وأمثاله من فقهاء السوء ؟ ولا نسمع بعد ذلك عن عمل أتاه هـذا الخليفة ، قصد به ايذاء أحمد بن حنبل أو اضطهاده . وقد توفى المعتصم فى سنة ٢٢٧ هـ

(١) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٩٤ (طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٣٠)

(٢) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٨٣ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٥٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤٦ (طبعة منير بالقاهرة ص ٢٢٦)

(٣) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٨٦ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٦٠ ، ٢٦١

(٤) طبقات الشافعية ورقة ١٤٥ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢١٩ ووازن ذلك بما جاء فى تاريخ الخلفاء (بالالمانية) بقلم فيل حـ ٢ ص ٣٣٤

٢٧ - الواثق واحمد بن حنبل

بعد وفاة المعتصم وتقلد ولده هرون الواثق الخلافة ، صار أحمد محدثا طائر الصيت محببا الى القلوب ، فاتجه الناس اليه للأخذ عنه والتفقه عليه . وقد لحظ الحسن بن على قاضى بغداد ، فكتب بذلك الى أحمد بن أبى دواد. بيد أن أحمد بن حنبل ، لما سمع بما صنعه القاضى ، أمسك من تلقاء نفسه عن القاء دروس فى الحديث . وذلك قبل أن تقوم الحكومة من جانبها باجراء صده . وقد حاول ابن أبى دواد مرة أخرى أن يحمل الواثق على ايذاء أحمد ابن حنبل واضطهاده ، ولكنه لم يوفق الى ذلك . فقد ترك الخليفة ، أحمد ابن حنبل طليقا

ولا يتضح لنا جليا اذا كان الباعث له على تركه ، الاعجاب به أو خوف توهمه من شر قد يحيق به ، لو أنه آذى رجلا على مثل هذه الدرجة من التقى والورع . وقد قيل ان الواثق كان فيما يتعلق بالمحنة ، لا يريد شخصياً أن يأخذ الناسَ بها ، غير أن ماالجأ اليه وزيرُه من الحث عليها والتشبث بها ، لم يدع للخليفة فرصة واسعة تتيح له التخلص من السياسة التى شغل الوزير باتنهاجها وتحمس لانفاذها

ومن المرجح كثيرا ، اذا كان الأمر يتعلق بأحمد بن حنبل ، أن الواثق كان كسلفه ، يخشى أن يقوم العامة بثورة ، لو عاودت الحكومة ايذاء الامام . لذا عمد الخليفة ، رغبة منه فى ارضاء كافة الأحزاب ، الى أن يأمر أحمد بمبارحة بغداد ، وأن يسكن فى مكان ناء عن الخليفة . غير أن أحمد لم يبرح موطنه ولم يبتعد ، فقد اقتصر على الانزواء فى شبه عزلة ظل ملازما لها طيلة الجانب الأكبر من السنوات الباقية من حياته

جاء فى المقفى للمقريزى (١) : « فلما مات المعتصم ، وولى ابنه هرون الواثق ، أكثرَ الناسُ من الأخذ عن الامام أحمد . فشق ذلك على

(١) ورقة ٨ وما بعدها ، وانظر أيضا تاريخ الخلفاء بقلم فيل حـ ٢ ص ٢٤٠ ، والنجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٩١ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٦٧٦

أهل البِدَع . فكتب الحسن بن على الجَعْد ، قاضى بغداد الى ابن أبى دُوَاد ، أن أحمد قد انبسط فى الحديث . فلما بلغ أبا عبد الله ، أمسك عن الحديث من نفسه ، من غير أن يُمنع . واستمر ابن أبى دُوَاد يُحَسِّن للواثق امتحان الناس بخلق القرآن . ففعل ذلك . لـكنه لم يتعرض للامام أحمد . قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزى : امَّا لِما علم من صبره ، أو لأنه خاف على نفسه أن يعرِض له شىء ببركته ، يعنى كما عرَض لأبيه . الا أنه أرسل يقول له : لا تساكننى بأرضى ، فاختفى الى أن مات الواثق»

٢٨ ــ الواثق يواصل المحنة

غير أن الواثق، مع ذلك تابع سياسة أسلافه . وقد ذكرنا فيما سبق، الأمر الذى بعث به الى جميع عماله من حكام الولايات المختلفة فى أن يعاودوا تنفيذ اجراءات المحنة حتى يقول الناس بخلق القرآن . وقد أصدر هـذا الأمر فى سنة ٢٣١ هـ . وقد قيل انه بعث به على الرغم من أن أباه المعتصم كان قد منع (١) من أخذ الناس بالمحنة . وليس لدينا بيان بأولئك الذين امتُحِنوا فى عهد الواثق ، أكثر من خبر عن اسم أو اسمين ورد فيه أنهما أبيا أن يجيبا الى القول بخلق القرآن وأنهما عانيا نتيجة امتناعهما

---

(١) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٨٣ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤٦ (*) طبعة منير بالقاهرة ص ٢٢٦ . وقد غيرت عبارة المؤلف فى الاصل ، وهى : « على الرغم من أنه منع أباه المعتصم من أخذ الناس بالمحنة » . وهى عبارة أخطأ فى نقلها من كتاب النجوم الزاهرة ونصها كما وردت فى طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٥٩ : وفيها (أى فى سنة ٢٣١ هـ) ورد كتاب الخليفة هـرون الواثق الى عماله بامتحان العلماء بخلق القرآن ، وكان قد منع أبوه المعتصم ذلك » . ويتضح من ذلك النص أن الواثق لم يمنع أباه، فضلا عن وجود قرينتين تؤيدان ذلك . الاولى أن المعتصم بعد ضرب الامام أحمد فى سنة ٢١٩ هـ تساهل فى أمر المحنة منذ سنة ٢١٩ الى وفاته فى سنة ٢٢٧ هـ أى لمدة ثمانى سنوات ، وقرار الواثق الذى أصدره سنة ٢٣١ هـ بالتشديد فى أمر المحنة مخالف لسياسة المعتصم . والثانية أن منع الواثق لابيه لامعنى له طالما انه ينهج سياسة مخالفة لسياسة أبيه ، بدأ بها بعد وفاة أبيه بأربع سنوات أى سنة ٢٣١ هـ

٢٩ - أحمد بن نصر الخزاعى

وأشهر من استشهد فى سبيل معتقده ، فى عهد هذا الخليفة ، هو أحمد ابن نصر بن مالك الخزاعى ، وهو مروزى من مدينة مرو ، ينتمى لاحدى العشائر الكبيرة فى قبيلته خزاعة . ومن شيوخه مالك بن أنس . ومن تلامذته الآخذين عنه : يحيى بن معين . وقد ترك أحمد بن نصر ، فى البداية ، طليقا لم يلحق به أذى . ولكنه اعتقل فيما بعد لسبب سنبسطه فيما يلى . وكان طبقاً لما ذهب اليه أحمد بن حنبل ، رجلا نبيل النفس ، ونعرف من مصادر أخرى ما كان له من حسب متميز، فقد شغل أبوه وجده المناصب العالية فى عهد الخلفاء العباسيين. كما اشتهر فى نفس الوقت بالأمانة والعدالة بين المحدثين من أهل السنة ، كما كان هو نفسه رجلا راسخ الايمان بعقيدة أهل السنة قوى التمسك بها . ولذا فانه كان يحقد حقدا شديدا على كل من الخليفة وأحمد بن أبى دواد

وقد تحداهما تحديا ظاهرا ، حين أعلن، غير هياب ، أن القرآن كلام الله غير مخلوق . ولما عرف أهل حى من أحياء بغداد ، يعرف بحى عمرو بن عطاء ، قدر أحمد بن نصر ومكانته ، وطبعه ونزعته ، أغروه بأن يؤيدهم تأييدا أدبيا، كما التمسوا منه -فيما يبدو- عونا ماديا فى تدبير مؤامرة ضد الخلافة . وقد دبر المتآمرون الاستيلاء على مدينة بغداد فى ليلة من الليالى. بيد أن أحد المتآمرين كان قد شرب حد الثمل ، فى الليلة السابقة التى حددت لانفاذ المؤامرة . فصاح الصيحة الخاصة المتفق عليها كى يقوم الشركاء بهجومهم . فلم يلبوا جميعاً نداءه

وقد ترتب على ذلك أن أمر القائم بأعمال الحاكم فى بغداد ، وهو محمد ابن ابراهيم ، بالقبض على المتآمرين فى الحال . وكان القبض راجعاً الى قرائن ، أمكن للحكومة أن تستدل عليها ، من أحد صغار المتآمرين الذين كان لهم دور ثانوى فى المؤامرة . ومن الغريب أن أحمد بن نصر، لما أشخص الى الواثق ، لم يسأله شيئاً عن الدور الذى اضطلع به فى تلك الفتنة المبتدئة الغريرة . ولكنه بدلا من ذلك بدأ بسؤاله عن القرآن وعن رؤية

الله فى الآخرة (١) . وربما آثر ذلك لأن الأدلة التى تدينه فى موضوع القرآن والرؤية ، ترجح بكثير اتهامه فى الفتنة التى غمس فيها . ولما سأله الواثق عن اعتقاده فيما يتعلق بالقرآن ، لم يجد مع ذلك ما يرد به ، سوى القول بأنه كلام الله

وهناك رواية أخرى فيها اطناب ومبالغة ، تصور لنا ابن أبى دُؤَاد ، وهو يحث الخليفة على اعطاء سجينه مهلة . لأنه شيخ هرم ، أصابته فى حواسه غشية" مؤقتة . وأنه سوف يفيق ويعود الى عقله ، لو أمهل شيئاً من الوقت . ويبدو الواثق فى هذه الرواية معرضاً عن هذا الرأى ، متعللاً أن كفر ابن نصر هو الذى دفعه الى الرأى الذى ذهب اليه. وكيفما كان نصيب هذه القصة من الصدق ، فان محاكمة أحمد بن نصر ، لم تمض طويلا فى اجراءاتها ، حين دعا الخليفة بالنطع والسيف المسمى بالصمصامة

ثم طلب أن يضرب بنفسه عنق ذلك المارق العنيد ، لأنه يرجو المثوبة من الله على قتله . فأتيح له أن يحاول القضاء على الشهيد . غير أنه لما أخفق فى محاولته ، هَبّ لنجدته سيما الدمشقى وقتل الرجل . ثم أمر الخليفة بأن ترسل رأسه الى بغداد ، حيث عُرِضت فى الجانب الشرقى للمدينة لعدة أيام

ثم عُرِضت مثل هذه المدة فى جانبها الغربى ، أعيدت بعدها لتنصب فى الجانب الشرقى بصفة دائمة . وقد حدث قتل أحمد بن نصر الخزاعى فى اليوم السابق للأخير من شهر شعبان سنة ٢٣١ هـ . وظل الرأس والجذع معروضين لأنظار الناس طيلة ست سنوات ، الى أن أمر الخليفة المتوكل بانزالهما وتسليمهما الى أقرباء أحمد بن نصر لدفنهما (٢)

---

(١) منع الواثق رعاياه من الاقرار باى من هاتين العقيدتين (وهما عدم خلق القرآن ،ورؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة) ، انظر كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ١٠٩

(٢) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٧١٩ (*) طبعةالقاهرة حـ ٢ ص ٢٩٠ وقد جاء فيها : « وفيها (أى فى سنة ٢٣٧ هـ) اطلق المتوكل جميع من كان فى السجن ممن امتنع من القول بخلق القرآن فى أيام أبيه ، وأمر بانزال جثة احمد بن نصر الخزاعى فدفعت الى اقاربه ودفنت »

قال المقريزى (١) فى المقفى : فأما أحمد بن نصر ، فكان من أهل الدين والصلاح والأمَّارين بالمعروف . سمع الحديث من مالك بن أنس وغيره ، وروى عنه يحيى بن معين وغيره . دعاه الواثق الى القول بخلق القرآن ، فأبى . فأمر بضرب عنقه فضُرِب . وحُمِل رأسه الى بغداد . فنُصِب فى الجانب الشرقى أياماً ، وفى الجانب الغربى أياماً . وأما جسده فصُلِب بسر من رأى . وروى الحافظ أبو الفرج بسنده الى ابراهيم بن اسماعيل ، قال : كان أحمد بن نصر خَتَلِّى . فلما قُتِل فى المحنة ، وصُلِب رأسه ، أخبِرْت أن الرأس يقرأ القرآن . فمضيتُ ، فبِت بقرب من الرأس . وكان قد وُكِل به من يحفظه

فلما هدأت العيون ، سمعتُ الرأس يقرأ القرآن : « ألم . أحَسِبَ النَّاسأنْ يُتْرَكوا أن يَقولوا آمنَّا ، وهُمْ لايفتَنُون (٢)». فاقشعر جلدى . ثم رأيته بعد ذلك فى المنام ، وعليه السندس والاستبرق ، وعلى رأسه تاج . فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وأدخلنى الجنة . قال المروزى : سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وذكر أحمد بن نصر ، فقال :

---

(١) ورقة ١٠ وما بعدها . وانظر تاريخ الآراءالسائدة فى الاسلام (بالالمانية) بقلم فون كريمر ، وتاريخ الخلفاء بقلم فيل (بالالمانية) حـ ٢ ص ٣٤١ وما بعدها . وكتاب الاسلام (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٥٧٦ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤٦ (*طبعةمنير بالقاهرة ص ٢٢٦) وتاريخ اليعقوبى حـ ٢ ص ٥٨٩ (*) طبعة النجف سنة ١٣٥٨ هـ حـ ٣ ص ٢٠٧ وجاء فيها : « وصار أحمد بن نصر بن مالك الخزاعى الى ابن أبى داود فى بعض اموره ، فرده فانصرف ذاما له . فجعل يبسط عليه لسانه ، ويشهد عليه بالكفر . فمال اليه قوم منهم . وهم لا يشكون ان ذلك غضب للدين . فاشرأبت قلوبهم للمعصية لسبب القرآن . وخرج قوم فضربوا بطبل وصاروا الى ناحية صحراء أبى السرى . فأخذوا واقروا عليه . فكتب الواثق الى اسحق فى اشخاصه . فأشخصه اليه . فكلمه بكلام غليظ . وحضر قوم فشهدوا عليه بشهادات وامتحنه بالقرآن فأبى أن يقول انه مخلوق . وشتمه الواثق فرد عليه . فضرب عنقه وصلبه بسر من رأى . ووجه برأسه فنصب ببغداد فى الجانب الشرقى » . وهذه أقدم رواية لدينا أتت بتفصيلات لم تأت بها المصادر المتأخرة ـ) وانظر ايضا الشذور العربية التاريخية بقلم دى خوى حـ ١ ص ٥٢٩ ومابعدها . وتاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١٣٤٣ وما بعدها

(٢) سورة العنكبوت رقم ٢٩ آية أو ٢

رحمه الله ، ما كان أسخاه ، لقد جاد بنفسه »

وقد تنوقلت قصة خرافية ، فحواها أن الرأس منذ أن نُصِب الى أن دُفِن كان يتلو القرآن . وتضاهيها قصة أخرى تحكى أنه بعد مقتل أحمد ابن نصر بسنين طويلة ، خرج جماعة للصيد فى الصحراء ، فوجدوا رأس أحمد نصر وجسده مطمُورين فى الرمال ، لم يلحقهما أى أثر للبلى

جاء فى طبقات الشافعية لابن السبكى (١) : « قلت ، وبلغنى وما أراه الا فى تاريخ للحاكم أن بعض الأمراء ، خرج يتصيد ، فألقاه السَّيْرُ على أرض نزل بها ، فعبث بعضُ غلمانه فى التراب ، فحفر حتى رأى مَيْتاً فى قبره طرياً . وهو فى ناحية ورأسه فى ناحية . وفى أذنه رقعة ، عليها شىء مكتوب . فأحضر من قرأه . فاذا هو : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك ، دعاه عبد الله الامام هرون وهو الواثق بالله أمير المؤمنين ، الى القول بخلق القرآن ونفى التشبيه . فأبى الا المعاندة ، فجعله الله الى ناره (*) . فعلموا أنه رأس أحمد الخزاعى . فدفن ورفع سنام قبره . وكان هذا فى زمن الحاكم أبى عبد الله الحافظ ، وهو على طراوته ، وكيف لا وهو شهيد ، رحمه الله ورضى عنه » (٢)

٣٠ — نعيم بن حماد

وهناك رجل آخر توقف عن الاجابة هو نُعَيْم بن حمَّاد. وكان رابع أربعة أصلهم من مرو . وقد ثبتوا فى المحنة واحتملوا خَطْبَها صابرين . أولهم أحمد بن حنبل ، والآخران محمد بن نوح المضروب ، وأحمد بن نصر . وقد تلقى نعيم بن حماد ، الحديث وشغل بدراسته وقتاً طويلا فى الحجاز والعراق. ثم رحل بعد ذلك الى مصر . وقد أحضِر فى خلافة الواثق من مصر ،

---

(١) ورقة ١٤٢ وما بعدها (*) طبعة الحسينية القاهرة حـ ١ ص ٢١٥

(*) زيادة عن الاصل نقلا عن طبقات الشافعية فى الموضع السابق

(٢) هذا القصص نسجه الخيال الشعبى للتعبير عن استنكار الضمير العام لقتل أحمد بن نصر ، وتوجد قصة أخرى أوردها ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب حـ ٢ ص ٧٠ سنوردها فى الحواشى فى آخر الكتاب

وامتُحِن . ولما لم يُجِب الى ما طُلِب منه ، وهو القول بأن القرآن مخلوق ، زُجّ به فى السجن حيث مات (*)

قال المقريزى (١) فى المقفى : « وأما نعيم بن حمّاد ، فكان من أهل مَرْو ، طلب الكثير من الحديث بالحجاز والعراق . ثم نزل مصر . ثم أشْخِص منها فى خلافة الواثق وسئل عن القرآن . فلم يوافقهم على ما أرادوه منه ، يعنى القول بخلقه . فحُبِس حتى مات »

٣١ ـ أبو يعقوب البويطى

وأما أبو يعقوب يوسف بن يحيى البُوَيْطى ، تلميذ الامام الشافعى الذى استخلفه على حلقة طلابه بعد موته ، فانه قد سُجِن لأنه أبى أن يُقر بأن القرآن مخلوق ، ومات فى سجنه سنة ٢٣٢ هـ . وكان من أقرانه فى التفقه على الشافعى ، الربيع بن سليمان (**) ، الذى حكى أنه رأى البويطى مصفدا فى أغلاله ، وسمعه يقول : « انما خَلَق الله الخَلْق « بكُن » (٢) ، فاذا كانت « كُن » مخلوقة ، فكأن مخلوقا خَلَق مخلوقا . والله لأموتَن فى حديدى هذا ، حتى يأتى من بَعْدى قوم يعلمون

(*) توجد تفصيلات أخرى عن نعيم بن حماد أوردها الذهبى فى كتابه تذكرة الحفاظ حـ ٢ ص ٦ وما بعدها ، وجاء فيها : وكان شديد الرد على الجهمية وكان يقول : كنت جهميا فلذلك عرفت كلامهم . فلما طلبت الحديث علمت أن مآلهم الى التعطيل

(١) ورقة ١١

(**) هو الربيع بن سليمان المرادى ، من موالى قبيلة مراد ، وهو الفقيه المصرى صاحب الشافعى ، وهو آخر من روى عن الشافعى بمصر ، ذكره ابن العماد الحنبلى فى وفيات سنة ٢٧٠ هـ ، راجع شذرات الذهب حـ ٣ ص ١٥٩

(٢) ان كلمة كن مستعملة هنا كمرادف لما يعتبر مظهرا من مظاهر كلمة الله (كما هو موضح فيما يلى فى كتابنا) .ويبدو أن البويطى هو على تمام الاتفاق فى هذا ، مع شيخه الشافعى ، كما أن الشافعى بدوره متفق مع أحمد بن حنبل ، على الاقل فيما يتعلق بالقرآن . (قارن ذلك بما جاء فى ص ٤٩ من اكتابنا ، وراجع كذلك كتاب النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٨٦ (طبعة القاهرة جـ ٢ ص ٢٦٠ ، ٢٦١) ، ويظهر أن البحث فى لفظ «كن» فى كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ١٢٩ ، يتجه نحو آراء أخرى غير تلك التى كان يذهب اليها أهل السنة فى زمن المحنة

أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم . ولئن دخلت عليه (١) (يعنى الواثق) لأصدُقَنَّه » . وقد كتب من سجنه الى الربيع بن سليمان يوصيه خيرا بطلابه (بأن يُصَبِّر نفسَه للغُربَاء) (*) ويحسن خُلُقه لأهل حَلْقته

٣٢ ـ فداء الأسرى المسلمين من البيزنطيين

وقد حكت لنا مصادرنا الجزء الباقى من تاريخ المحنة ، بصورة مقتضبة . وهو يشتمل على حادث يتفق مع روح التعصب التى أبداها أحمد بن أبى دُوَاد ، والتى تجلت فيما بذله من جهود لاقرار المذهب القائل بأن القرآن مخلوق . فقد اقتُرِح فى سنة ٢٣١ هـ ، فِداء أربعة آلاف وستمائة أسير من المسلمين الذين وقعوا أسرى فى أيدى البيزنطيين ، فأشار ابن أبى دواد أنه يجب ألا يُفتَدَى الا أولئك الذين يُقِرون بأن القرآن مخلوق . وأن من يُجيب الى هذا القول ، يتحتم أن يُدفع له ديناران عند اطلاقه . وقد تم هــذا العمل فعلا . بيد أن عددا قليــلا من الأسرى ، لم يستطيعوا أن يحملوا ضــمائرهم على اجتيــاز الاختبــار والاجابة ، فتُرِكوا (٢)

---

(١) المقفى للمقريزى ورقة ١١ (*) وتكملة اقتباس المؤلف : وأما أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى ، فأريد منه القول بخلق القرآن ، فامتنع ، فحبس الى أن مات سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . قال الربيع بن سليمان صاحب الشافعى : رأيت البويطى على بغل ، فى عنقه غل ، وفى رجليه قيد ، وبين الغل والقيد ، سلسلة حديد ، فيها طوبة ، وزنها أربعون رطلا ، وهــو يقول : انما خلق الله الخلق بكن ... الخ ، وراجع (بصدد كلمة : كن) سورة الانعام رقم ٦ آية ٧٣ (وهى : « ويوم يقول كن فيكون ») ، انظر تاريخ الادب (بالالمانية) بقلم همربرجشتول حـ ٣ ص ٢٠٠ رقم ١٠٥٠ ،وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٥٠ (* طبعة منير بالقاهرة ص ٢٢٩) وتاريخ ابى الفداء حـ ٢ ص ١٣٢ ، والفهرست لابن النديم حـ ١ ص ٢١٢ (* طبعة التجارية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ ص ٢٩٨) ، والنجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٨٦ (* طبعة القاهرة حـ ٢ ٢٦٠ ، ٢٦١ ؟

(*) زيادة عن الاصل لتوضيح وصية البويطى للربيع ، مستمدة من طبقات الشافعية لابن السبكى فى ترجمة البويطى

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ١٣٥١ وما بعدها (*) الحسينية بالقــاهرة جـ ١١ ص ١٩ وما بعدها) والشذور العربية التاريخية لدى خوى حـ ٢ ص ٥٣١ ، والنجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٨٤ ص ٦٨٤ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٥٩ وطبقات الشافعية لابن السبكى ورقة ٤٦؟ (*) الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٢٠

يعانون ذل الأسر فى أيدى البيزنطيين (*)

٣٣ ـ رجوع الواثق عن مذهب خلق القرآن : السبب المزعوم

يمكن القول بصفة عامة ، ان الواثق قبل موته ، كان قد أقلع عن فكرة المحنة . ويعلل رجوعَه عنه ، حادث (١) قد نسلم بوقوعه ، ونعده صحيحاً فى جوهره . فقد أمر ابن أبى دواد باشخاص شيخ من أذَنَة الى الخليفة ، بدعوى اتهامه بالزيغ والمروق . وقد أمره الخليفة بأن يناظر ابن أبى دواد ، فى موضوع خلق القرآن . غير أن الشيخ أبى مناظرته محتجاً بأن ابن أبى

(*) فات المؤلف مرجع هام يزوده بتفصيلات عما وقع فى فداء الاسرى المسلمين ابان المحنة ، وقد كان ميسورا لديه وهو يحضر هذه الرسالة التى تقدم بها لجامعة هيدلبرج سنة ١٨٩٧م. وذلك هو كتاب التنبيه والاشراف للمسعودى ، وهو الجزء الثامن والاخير من مجموعة المكتبة الجغرافية العربية التى اشرف على نشرها وتحقيقها المستشرق الهولندى الكبير دى خوى ، مع أن باتون رجع الى هذه المجموعة فى بعض المواضع من رسالته . وكان كتاب التنبيه والاشراف مطبوعا ومنشورا فى ليدن سنة ١٨٩٤ م . وقد أتى المسعودى ببيان مطول عن هذه الافدية التى جرت بين المسلمين والبيزنطيين ويهمنا منها الفداء الذى جرى فيه امتحان الاسرى المسلمين بالقول بخلق القرآن . والفداء السابق له حدث فى عهد الرشيد ، وكان القيم عليه ثابت بن نصر بن مالك الخزاعى ، وأرجح انه أخو أحمد بن نصر بن مالك الخزاعى الذى قتله الواثق . وفداء الرشيد عده المسعودى الفداء الثانى طبقا لترقيمه لهذه الافدية . أما فداء المحنة فهو عنده الفداء الثالث . ويقول المسعودى بأنه : « فداء خاقان فى خلافة الواثق باللامس فى المحرم سنة ٢٣١ هـ . والملك على الروم ميخائيل بن توفيل ، وكان القيم به خاقان الخادم التركى . وعدة من فودى به من المسلمين ، فى عشرة أيام ، أربعة آلاف وثلثمائة واثنين وستين من ذكر وأنثى . وقيل أربعة آلاف وسبعة واربعين ، على ما فى كتب الصوائف ، وقيل أقل من ذلك.» وقال المسعودى فيما يتعلق بالمحنة : « وحضر هذا الفداء (أى الفداء الثالث) مع خاقان ، رجل يكنى أبا رملة ، من قبل أحمد بن أبى داود قاضى القضاة . يمتحن الأسارى وقت المفاداة ، فمن قال منهم بخلق التلاوة ونفى الرؤية فودى به ، وأحسن اليه . ومن أبى ترك بأرض الروم . فاختار جماعة من الاسارى الرجوع الى أرض النصرانية على القول بذلك . وأبى أن يسلم الانقياد الى ذلك . فنالته محن ومهانة الى ان تخلص . » وهذا نص هام يمتاز بقربه من عهد المحنة فقد كتبه المسعودى كما ذكر فى كتابه فى سنة ٣٤٥ هـ ، وقبل وفاته بسنة واحدة ، راجع طبعة القاهرة للتنبيه والاشراف سنة ١٣٥٧ هـ ص ١٦١ ، ١٦٢

(١) انظر تاريخ الآراء السائدة فى الاسلام (بالالمانية) بقلم فون كريمر ص ٢٤٣ وما بعدها . وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤٧ وما بعدها (*)طبعة منير بالقاهرة ص ٢٢٧ومابعدها . والنجوم الزاهرة حـ ١ ص ٦٩١ وما بعدها (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها ، والمقفى للمقريزى ورقة ٩ وما بعدها . وطبقات الشافعية لابن السبكى ورقة ١٤٣ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢١٦)

دواد من الصائبة ، وأن آراءه بلغت من الوهن والخلل حدا لا تقوى معه على الجدل والنقاش . وهنا بدأ الواثق يشتد غضبه ويضيق صدره . ولكن الشيخ وعد بأن يعزز حججه ويثبت صحتها ، فيما لو أصغى الخليفة اصغاء تاماً لما يدور بينهما من الجدال والمناظرة

وقد بدأ الشيخ نقاشه بأن سأل ابن أبى دواد ، فيما اذا كان مذهبه فى خلق القرآن أصلا ضرورياً من أصول الايمان ، على المؤمنين أن يقروا به . فأجاب ابن أبى دواد بأنه يجب أن ينظر اليه على هذا الاعتبار . ثم استفسر الشيخ قائلا بأن الله بعد أن بعث محمدا ليبلغ الوحى الى قومه ، هل كتم شيئا من الرسالة التى أبلغها ؟ فأقر ابن أبى دواد بأن محمدا بلّغ الرسالة كاملة . وعند ذلك سأله مناظره ، عما اذا كان النبى (على أساس الوحى الذى كان واسطة فى ابلاغه) قد دعا الناس الى الاقرار بأن القرآن مخلوق ؟ فلم يحر ابن أبى دواد جواباً . فطلب الشيخ من الواثق أن يعد هذه نقطة فى جانبه تؤيد دعواه . فأقره الواثق على هذه النقطة

وكانت الخطوة الثانية فى النقاش مبنية على الاستشهاد بالآية القرآنية : (اليَوم أكملتُ لكُم دينَكم وأتممتُ عليكُم نِعمتي ورضيتُ لكمُ الاسلام ديناً) (١) ، وذلك حين سأل الشيخ عن الكيفية التى نبرر بها استحداث فكرة مذهبية جديدة بعد نزول هذه الآية . ولم يحاول ابن أبى دواد أن يدافع عن موقفه ازاء هذا الهجوم . وطلب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثانية فى تأييد حجته . وسلّم له الواثق بذلك

وفى الخطوة الثالثة من المناظرة ، سأل الشيخ عما اذا كان النبى قد عرف النِحلة المذهبية التى دُعِي الناس اليها فى ذلك الوقت ، وعما اذا كان النبى قد دعا الناس الى الاقرار بها ؟ فزعم ابن أبى دواد أنه قد علِمها . ولكنه لم يُجِب عما اذا كان النبى قد ألزم المسلمين الايمان بها أم لا . وهنا طلب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثالثة وأخيرة فى تأييد حجته . بيد أن الشيخ لم

(١) سورة المائدة رقم ٥ آية ٣

يقف عند هذا الحد ، بل احتج قائلا بأنه اذا سلمنـــا بأن محمدا علم بهذه النِحلة كما علمها الخلفاء الأوائل ، وأنهم جميعاً قد رَضَوْا بالامتناع عن حمل الناس على الاقرار بأن القرآن مخلوق ، فهل من الواجب على داعية جديد أن يشتد فى القيام (*) بما لم يقوموا به؟ ولوفرضنا بأنالنبى والخلفاء قد آمنوا بما يؤمن به هذا الداعية ، أفما كان الأجدر به أن يحتفظ بهذه العقيدة على أنها مجرد رأى شخصى من آرائه الخاصة ، كما صنع السلف ، بدلا من أن يرغموا الناس على الاقرار بها مثلما عمد هو نفسه الى ذلك ؟ وقد قال أحد رفقة الخليفة المهتدى الذى روى هذه القصة ، ان المهتدى أحد شهود هذه المناظرة ، رجع عن مذهب خلق القرآن منذ ذلك الوقت ، وأن الواثق أمر باطلاقسراح الشيخ الأَذَنى فى الحال . ويبدو أن الواثق نفسه صار لايؤمن بعد ذلك بتلك العقيدة المتعلقة بالقرآن. وجاء فى روايات أخرى أنه غير معتقده فى القرآن قبل موته . وان شهادة المهتدى حيث تقع فى هذا الصدد فى المصادر العربية تساق للتدليـــل على أن الحـــادث الذى

(*) محافظة منا على الاصل ، ترجمنا عبارة المؤلف فى وصف هـــذه المنـــاظرة ولم نثبت نصوصها كما جاءت فى المصادر العربية مع ان عبارتها ابلغ من أية ترجمة أو وصف : ورغبة فى افادة القارىء سنورد فيما يلى مختارات منها نقلا عن النجوم الزاهرة : قال الشـــــيخ (مستفمرا من أحمد بن دواد) : يا أحمـــــد ، اخبرنى عن مقالتك هـــذه أهى مقـــالة واجبة داخلة فى عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ما قلت) فقال أحمد نعم . ثم قال الشيخ : اخبرنى عن رسول الله فى حين بعثه الله ، هلسترشيئا ممالمر به؟(لم يردأحمد) فقال الشيخ : يا امير المؤمنين واحدة . فقال الواثق : واحدة . ثم قال الشيخ : اخبرنى عن الله تعالى حين قال « اليوم اكملت لكم دينكم »أكان الله هو الصادق فى اكمال دينه أم أنت الصادق فى نقصانه حتى تقال مقالتك ؟ فسكت ابن ابى دواد . فقال الشيخ : ثنتان . فقال الواثق : نعم . ثم قال الشيخ : اخبرنى عن مقالتك هذه ، اعلمها رسول الله (ص) أم جهلها ؟ فقال ابن دواد : علمها . قال الشيخ : فدعا الناس اليها ؟ فسكت . فقال الشيخ : يا امير المؤمنين ثلاث . فقال الواثق : نعم . ثم قال الشيخ : فاتسع لرسول الله (ص) أن علمها أن يمسك عنها ولم يطالب امته بها ؟ فقال ابن أبى دواد : نعم . فقال الشيخ : واتسع لابى بكر وعمر وعثمان وعلى ذلك ؟ قال : نعم . وفى رواية أخرى قال الشيخ : ماتقول فى القرآن ؟ فقال ابن أبى دواد : مخلوق . فقال الشيخ : شىء علمه رسول الله (ص) ؟ قال ابن أبى دواد : علمه. فقال الشيخ : علمه ولم يدع الناس اليه ؟ قال : نعم . قال : فوسعه ذلك ؟ قال : افلا وسعك ما وسعه ووسع الخلفاء بعده ؟ ... الخ

ذكرناه آنفاً ، كان قد جرى حوالى الفترة الأخيرة من خلافة الواثق (١)

٣٤ ــ نسخ المتوكل للمحنة

بدأ المتوكل خلافته فى سنة ٢٣٢ هـ ، وظلت المحنة قائمة خلال عامين من حكمه . ثم نُسِخت فى سنة ٢٣٤ هـ ومن ثَم فان مدتها الكاملة بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون ، وهى سنة ٢١٨ هـ ، وانتهت فى السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة ٢٣٤ هـ . وفى السنة الأخيرة ، أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة . وأصدر اعلاناً عاماً فى كافة أنحاء الدولة ، نهى الناس فيه عن الاقرار بخلق القرآن ، وتهدد من يخوض فى ذلك بالقتل (٢) . فعَم الناس الفرح فى كل مكان ، وأثنَوا على سجايا الخليفة ومآثره ، ونسوا شروره ورذائله . وسُمِع الدعاء له من كل جانب ، وذكر اسمُه مع اسمى خليفتين صالحين هما أبو بكر ، وعمر بن عبد العزيز . ولم يذكر رعاياه المسلمون من مساوئه سوى أمرين ، وكلاهما وقعا فى سنة ٢٣٦ هـ : الأول أنه اذن لجنوده الترك فى سلب مدينة دمشق واستباحتها (بيد أن هذا الحادث لم يقع) . والثانى : هو هدم قبر الحسين ، وهدم ما يحيط به من المبانى ، وتحويل الأرض بعد تسويتها الى حقول ومزارع (٣)

---

(١) يقول شتيز فى كتابه : المعتزلة ، بأن الواثق وصل بالمحنة الى ختامها . ولكنه فى الحق لم يذهب الى مدى أبعد من تغييره لرأيه فيما يتعلق بالقرآن والى انتواء نسخ المحنة . وقد حال موته دون اخراج نيته الى حيز التنفيذ

(٢) فيما يتعلق بعقوبة الارتداد أو الزندقة بالقتل ، انظر كتاب دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر حـ ٢ ص ٢١٦

(٣) راجع كتاب : الآراء السائدة فى الاسلام بقلم فون كريمر ص ٢٤٥ وما بعدها ، وكتاب الاسلام (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٦٣ ، وكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان ترجمة رقم ١٣٣ ، والنجوم الزاهرة حـ ص ٦٩١،٦٩٥،٧٠٢ (*) طبعة القاهرة حـ٢ص ٢٨٣،٢٨٤،٢٨٦وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٥٢ (*) طبعة منير بالقاهرة ص ٢٣٠ ، وتاريخ اليعقوبى حـ ٢ ص ٥٩٢ ،حـ ٣ص ٢٠٩ من طبعة النجف وقد جاء فيها : « ونهى المتوكل الناس عن المناظرة فى القرآن واطلق من كان فى السجون من أهل البلدان ومن اخذ فى خلافة الواثق فخلاهم جميعا وكساهم جميعا . وكتب الى الآفاق كتبا ينهى عن المناظرة والجدل ، وأمسك الناس . » ولم يذكر اليعقوبى شيئا عن هدم المتوكل لقبر الحسين ، على الرغم من عنايته بتاريخ ائمة الشيعة لانه شيعى

جاء فى طبقات الشافعية (١) : « وقد طال أمر هذه الفتنة ، وطال شرها. واستمر من هذه السنة التى هى سنة ثمان عشرة ومائتين ، الى سنة أربع وثلاثين ومائتين . فرفعها المتوكل فى مجلسه ، ونهى عن القول بخلق القرآن. وكتب بذلك الى الآفاق ، وتوفر دعاء الخلق له ، وبالغوا فى الثناء عليه ، والتعظيم له ، حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق ، يوم الرّدة ، وعمر بن عبد العزيز فى رده المظالم ، والمتوكل فى احياء السنة . وسكت الناس عن ذنوب المتوكل

وقد كانت العامة تنقم عليه شيئين : أحدهما (٢) أنه ندب لدمشق أفريدون التركى أحد مماليكه ، وصيّره واليا عليها وكان ظالما فاتكا . فتقدمَ فى سبعة آلاف فارس ، وأباح لهم المتوكل القتل والنهب ، على ما نقل الينا ، ثلاث ساعات . فنزل بيت لهْيا ، وأراد أن يصبح البلد،فلما أصبح ، نظر الى البلد ، وقال : يا يوم يصبحك منى . فقدمت له بغلة ، فضربته بالزوج فقتلته ، وقبره ببيت لهْيا . ورد الجيش الذى معه خائبا وبلغ المتوكل ، فصلُحت نيّته لأهل دمشق . والثانى (٣) أنه أمر بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله ، من الدور ، وأن يعمل مزارع ، ومنع الناس من زيارته ، وحرث وبقى صحراء . فتألم المسلمون لذلك . وكتب أهل بغداد شتْمه على الحيطان والمساجد »

وقال المقريزى فى المقفى (٤) : « وقال الحافظ أبو الفرج (بن الجوزى): وَلِىَ المتوكل على الله سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . فأظهر الله به السنّة وكشف تلك الغمّة . فشكره الناس على ما فعل . ثم ذكر بسنده الى محمد ابن خلف ، قال : كان ابراهيم بن محمد التيْمِى ، قاضى البصرة يقول : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر ، قاتَل أهل الردة ، حتى استجابوا له ، وعمر

---

(١) لابن السبكى ورقة ١٤٣ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦

(٢) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٧١٤ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٨٦

(٣) الموضع السابق من النجوم الزاهرة والشذور العربية التاريخية لدى خوى حـ٢ص٥٤٦

(٤) ورقة ١٠

ابن عبد العزيز ، ردّ مظالم بنى أميّة ، والمتوكل محا البدع وأظهر السنّة »

٣٥ – عرض عام للمحنة

اذا ألقينا نظرة عامة على المحنة (١) التى افتتح المأمون عهدها ، وسار على نهجه فيها الخليفتان اللذان وليا الخلافة بعده ، يمكننا أن نقول بأن محاولة يقصد بها طمس العقائد فى نفوس الناس ، قسرا وارغاما ، مقضىّ عليها بالفشل والخذلان منذ البداية . فقد كان يوجد فى العالم الاسلامى ، وفى الأقطار الأخرى كذلك ، شعور من الاعجاب والتأييد الأدبى ، توليه الجمهرة الغالبة من الناس ، لأولئك الذين يعانون صنوف الأذى والاضطهاد ، وهى أرزاء وخطوب قد تدفع بأناس ، هم دون مستوى أحمد بن حنبل فى الطهارة والاخلاص الى حد كبير ، الى أن يقوموا فى وجه حملة باغية من القمع والاكراه (*)

---

(١) يوجد بيان موجز عن المحنة ونتائجها ، فى كتاب الاسلام (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٥٤ وما بعدها

(*) يبدو أن هوتسما (فى كتابه : المنازعات الاعتقادية (بالهولندية) ص ١٠٦ وما بعدها قد جمل السياسة الدينية الباعث الذى حمل فقهاء أهل السنة على معارضة خصومهم العقليين أصحاب العقل والنظر . فقد رأى السنيون انه : اذا أبطل المذهب القائل بأن القرآن غير مخلوق ، فليس هناك من أمل فى نشر الاسلام فى كافة أنحاء العالم . ولم أجد لهذا الباعث المعزو الى أهل السنة سندا فى اى مصدر من المصادر التى رجعت اليها . بيد انى أستطيع مع هذا أن أقرر أن هذا الباعث ثانوى ، وليس الباعث الاساسى الذى دفع اهل السنة الى معارضة فكرة خلق القرآن) . فالباعث الاول كان شخصيا بحتا . فقد آمن احمد ومن نهض معه فى امر المحنة بعقيدة بسيطة تستعصى على التحليل والتفصيل ، وهى عقيدتهم فى أن القرآن ازلى وانه غير مخلوق . وقد ابتغوا أيضا من نضالهم المثوبة من الله ، اذا ما ثبتوا على عقيدتهم مهما كلفهم ذلك من عناء أو تضحية . كما أنهم خشوا عذاب الآخرة لو فرطوا فى عقيدتهم او حادوا عنها . فجلالة الذات الالهية ، ورسالة النبى التى فوضه الله بابلاغها ، وما تفرد به القرآن من مكانة رفيعة تجل عن الوصف ، واخيرا ماسوف تجزى به أرواحهم وأرواح أولئك الذين اقتدوا بهم من نعيم مقيم فى الآخرة – هذه هى البواعث التى أفصح عنها أهل السنة فى تزكية مذهبهم ، والدفاع عنه ، والتى أصبحت فى بعض الحالات مبررا للذب عنه حتى الموت . وان العقيدة التى ترى فى القرآن انه كلام الله وانه غير مخلوق كانت أساسا لكافة الحجج التى احتج بها أهل السنة كما كانت مبعثا للاعمال التى صدرت عنهم فى سبيل الذود عنها . وفى الشواهد التاريخية الدالة على هذه المقاومة كان العنصر الشخصى فى العقيدة هو الباعث المحرك لها اكثر مما يرجع الى اية اعتبارات تتعلق بسياسة دينية معينة

ومن الرجال الذين ارتبطوا بالمحنة ، سواء أكانوا من المضطهِدين أم من المضطَهَدين ، يبرز لنا من صفوفهم أحمد بن حنبل ، وقد أحرز لنفسه فيها أكبر الفضل وأعظم الاعتبار ، وقد روى عن بِشر بن الحارث الحافى أنه قال فيه : « ان الله أدخله الكير ، فخرج ذهباً أحمر » . ولم يكن منهج أحمد فى المناظرة ، أكثر وهنا واختلالا من منهج خصومه (١) . فقد أعلن خصوم أحمد ، استنادا الى حجج فلسفية ، أن القرآن مخلوق ، كما أن صفات الله مخلوقة. ولكنهم حين نهضوا بمعارضته ، عملوا على ادانته بالبدعة والضلالة ، مستعينين فى اتهامه بطريقته هو ، وبمنهجه فى الجدل والاستدلال

ويبدو أنه ظهر عليهم فى تخريج معانى أغلب العبارات والاستشهادات التى أوردوها . وكانت الحجج التى أدلى بها الفريقان حججا ضعيفة ، ولكنها لم تكن أكثر تهافتاً وضعفاً فى جانبه مما كانت فى جانبهم . ومما عزز مركز أحمد ، تلك الحقيقة ، وهى أنه كان عليه أن يذود عن معتقدات راسخة يدين بها ، وأن كثيرين من أولئك الذين ناهضوه ، كان السلطان قد أفزعهم وأرهبهم ، أو صانعهم بالرِشا والأموال ، وذلك حتى يقفوا من أحمد موقف الخصومة والعداء . وهذا كله يقتضى منا أن نخصه بالتقدير والاجلال،

(١) ان بيان هوتسما (فى كتابه المنازعات الاعتقادية ص ١٠٦) يوحى بأن أهل السنة فى حجاجهم مع خصومهم لم تكن لهم ادلة تستحق الذكر حتى يدلوا بها ، وانهم كانوا عاجزين تماما عن مناظرة أولئك الذين وقفوا فى وجوههم . واذا حكمنا على هذه المناظرات من وجهة النظر الحديثة ، فان الفريقين المتنازعين لم تكن فى جانبهما حجج قوية رصينة . ولكن لو حكمنا عليها من وجهة النظر الاسلامية ، فان المجادلات التى أوردناها فى هذه الصفحات ، تبين ان من الحجج القوية التى كانت فى جانب أهل السنة هى كتاب الله وسنة نبيه . وقد تسنى لهم ان يستخدموا هاتين الحجتين متكافئين مع خصومهم أو راجحين عليهم . وقد قيل بأن اسحق بن ابراهيم حاكم بغداد ، وعبد الرحمن بن اسحق ، والخليفة المعتصم ، قد تأثروا جميعا بقوة الحجج التى أدلى بها احمد بن حنبل ، وبطريقته فى عرضها وبسطها . ويقول شتينر (فى كتابه : المعتزلة ص ٨) ان المعتزلة استعانوا بآيات القرآن بعد ان عمدوا الى تأويلها تأويلا مجازيا ، كما انهم اضفوا على حججهم طابعا فلسفيا . ويتكلم هوتسما (فى كتابه : المنازعات الاعتقادية ص ٨٠) عن المعتزلة على انهم على وجه العموم رجال تنقصهم الغيرة والاجتهاد وانهم أكبوا على التشقيقات التافهة فى مجادلاتهم . (*) لم ينصف المؤلف المعتزلة بايراد هذه الملاحظات . ويبدو انه لم يوفق مع هوتسما فى تقدير الخدمات التى أداها المعتزلة للاسلام وقد أوضحنا ذلك فى مقدمة الترجمة ولواحق الكتاب

حين نستعرض اليوم أمام أعيننا هذا المنظر التاريخى بأكمله ، الذى كان فيه أحمد علما من أعلامه (*)

وكان أحمد بن أبى دؤاد رجلا يصعب علينا أن نعده ممن يؤمن ايمانا صادقا بالمبادىء والمعتقدات . ومن الجائز أن تنسب الى سيده الأول وهو المأمون ، أنه صدر فيما قام به عن اعتقاد بأنه كان على صواب ، وقد ترتب على ذلك أنه رغب فى كسب الناس الى جانبه وحملهم على انتحال آرائه . ولكنا لا نسىء الحكم على وزيره ، اذا رأيناه رجلا متأثرا بازرائه على المتشددين ، وحقده الجامح على المتزمتين والدعاة المتحمسين للتقيد بأحكام الدين وفرائضه ، فقد بدت له نزعتهم التطهرية ، نزعة لا تخرج عن كونها نفاقا « فريسيا » (**) ورياء مموها

ولم تكن سيرته من السوء والتلطخ بما يصوره به أشياع أحمد بن حنبل . بيد أنى لم أصادف مصدرا من المصادر التى تعرضت لذكر المحنة ، تنعت أحمد بن دؤاد بصفة غير صفة التحكم والاستبداد فى الرأى ، والتبلد وجمود الحس نحو دواعي العطف والرأفة ، اللهم الا فى حالة وحيدة ، خاصة

(*) بعد هذا فقرة نبا فيها المؤلف وجانب الحق فحذفناها كما أنه ينسب المأمون الى التعصب والاستبداد وقد نسى الطابع الدينى الذى انتحلته الدولة العباسية حتى تميز نفسها من الدولة الاموية كما اغفل الصلة الروحية التى قامت بين أوائل خلفاء بنى العباس واعلام الاعتزال. مما حمل المستشرق نيبرج على القول بأن المعتزلة كانوا من العوامل الفعالة فى قيام دولة العباسيين، انظر مادة معتزلة التى كتبها فى دائرة المعارف الاسلامية . وقد جاهد المعتزلة فى ميادين ثلاثة ١ ـ بث الدعاة لنشر الاسلام فى أقاصى الارض من الصين الى مراكش ٢ ـ الدفاع عن العقيدة الاسلامية من هجمات الثنوية والزنادقة والملاحدة والفلاسفة ٣، ـ محاربة المفاسد الاجتماعية بالامر المعروف والنهى عن المنكر ، وتطهير الاسلام من سخافات المحدثين وخرافات العقائد الشعبية . كما أن تشدد المأمون هو تشدد رجل مثقف بثقافة واسعة يصطنع الحلم والاناة مع مخالفيه ، وكان منهم من ينزع الى الخلاف بدافع تصنع الرياسة والاشتهار بين العامة بالذود عن السنة . وكتب المأمون تؤيد ايمانه العميق بصحة الاجراء الذى اتخذه فى المحنة . وقد ادرك هذه الحقيقة كاتب متأخر هو ابن العماد الحنبلى فقال فى كتابه شذرات الذهب حـ ٢ ص ٢٩ : « وقام المأمون فى هذه البدعة قيام متعبد بها »

(**) نسبة الى كلمة Pharisee المأخوذة من الكلمة العبرية فاروش وكانت تطلق على فرقة يهودية قديمة كانت تتشدد فى اتباع الطقوس والفرائض ، التى أمرت بها الشريعة المدونة . وقد تميزوا على سائر اليهود بهذه النزعة . ثم اصبحت تطلق على المنافقين الذين يتمسكون بالأداء الشكلى للشعائر الدينية رياء وتظاهرا بالتدين وكسبا للسمعة

بمحاكمة أحمد بن نصر الخزاعى المتآمر على الخلافة الذى قتله الواثق . فقد حدث آنذاك ،كما سبق أن رأينا ، أن أحمد بن أبى دواد ، لما رأى الواثق وقد اشتد غضبه على أحمد بن نصر لاستمساك الأخير بعقيدته واصراره عليها ، دافع عن السجين بأنه شيخ مختل ، لعل به عاهة أو تغير عقل يؤخر أمره ويستتاب

ويلاحظ أن هذه الرواية وردت فى طبقات الشافعية لابن السبكى (فى ترجمته لأحمد بن حنبل) . وقد أخذ ابن السبكى فى أكثر من موضع من كتابه ، يلتمس الأعذار لابن أبى دواد فيما قام به . ولكنه صدر فى كل اعتذار له عن رأى شخصى، أكثر من استناده فيها الى روايات تاريخية يوثق باسنادها وتؤمن صحتها . وفى المصادر القديمة ، القريبة من عصر المحنة والمتأخرة عنها ، يتصوَر لنا فيها ابن أبى دواد ، رجلا قديرا ، يتحلى بصفات اجتماعية رفيعة ، تصحبها نزعة تعسفية اضطهادية فى شئون الحكم والادارة [1]

---

(١) لقد تأثر المؤلف فى تقدير أحمد بن أبى دواد بالمصادر السنية التى رجع اليها ، وهى مع ذلك أوردت شيئا عن حقيقته لو أنه خص دراستها بشىء من العناية . ففى مخطوطة تاريخ بغداد التى رجع اليها المؤلف ترجمة مستفيضة لاحمد بن ابى دواد كان يمكن ان تصحح فكرة المؤلف عنه . وقد قال المؤلف بأنه لم يصادف مصدرا من المصادر العربية تنعت ابن أبى دواد بصفة غير صفة التحكم والاستبداد وانه لم يجد حادثة واحدة تدل على استجابته لداعى العطف والرأفة سوى تدخله لانقاذ احمد بن نصر الخزاعى من القتل . والى القارىء ما يدحض هذا ، وما يدل على الروح الانسانية العالية عند احمد بن أبى دواد من تاريخ بغداد للخطيب البغدادى طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م (فى ١٤ مجلدا) جـ٤ص ١٤٤ : ١٤٩ : (قال احمد بن أبى دواد للمعتصم بصدد حريق وقع فى حى الكرخ ببغداد لاستحثاث الخليفة على اعانة المنكوبين) : « يا امير المؤمنين رعيتك فى بلد آبائك ودار ملكهم نزل بهم هذا الامر فاعطف عليهم بشىء يفرق فيهم ويمسك أرماقهم ويبنون به ما انهدم عليهم ويصلحون به أحوالهم ، فلم يزل بالخليفة حتى اطلق لهم خمسة آلاف الف درهم . » فاستجاب له الخليفة . ومما يدل على ان هذه الروح الانسانية العالية عند احمد بن دواد كانت مصحوبة بادراك عميق بوقائع الامور انه خشى الا يصل المبلغ الى المنكوبين وان ينهبه القائمون بتوزيعه فقال للخليفة : «يا امير المؤمنين ان فرقها عليهم غيرى خفت الا يقسم بالسوية ، فأذن لى فى تولى امرها ليكون الاجر والثناء أكثر . » قال : ذلك اليك فقسمها على مقادير الناس ، واحتاج الى زيادة فازدادها من المعتصم وغرم من ماله فى ذلك كثيرا ، فكانت هذه فضائله التى لم يكن لاحد مثلها . وقال البغدادى =

ومع أننا كنا قد ذكرنا أن المأمون رغب فى انفاذ المحنة قبل الوقت الذى أنفذها فيه فعلا ، فانه يجب ألا يغيب عنا ، أنه كف فى الواقع عنها من تلقاء نفسه ، لولا أن أحمد بن أبى دواد هو وحده الذى رجَّح كفة الميزان الى الجانب الآخر ، فاستحدث عهدا استبداديا طويلا استغرق ستة عشر عاماً ، ولم ينته الا بعد أن تولى المتوكل الخلافة بزمن قصير . ولعلنا نذهب أيضاً الى أنه لولا أحمد بن أبى دواد ، لكانت المحنة قد انقضى عهدها قبل رفع المتوكل لها ، وذلك لقلة الاهتمام بها والميل اليها ، أو لما يكون قد داخل المعتصم والواثق من شعور النفرة منها والاستثقال لها

وليس لدينا الكثير مما نعلق به على نصيب المعتصم فى هذه الحركة . فانه لم يكن ليلذ له البتة أن يأتى ذلك العمل الحقير، وهو اضطهاد الناس فى معتقداتهم واصطناع الأذى لهم . وقد أثبت لنا فى جلاء ، وذلك فى حالة أحمد بن حنبل ، أنه لولا تقيده بعهود والتزامات رآها واجبة الوفاء والرعاية

= أيضا بأن احمد بن أبى داواد مرض ذات مرة فنذر المعتصم ان هو برىء ان يتصدق بعشرة آلاف دينار ، فلما تماثل للشفاء وفى الخليفة بنذره فقال له ابن ابى دواد : اجعلها فى أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الاسعار عنتا . فقال الخليفة : نويت ان اتصدق بها هاهنا وانا اطلق لاهل الحرمين مثلها .. » وقد قال فيه ابن النديم : « ولم يرق فى أبناء جنسه أكرم منه ولا أنبل ولا اسخى » (راجع التراجم التى سقطت من طبعة فلوجل للفهرست لابن النديم ونشرت على حدة) . وكان يخص بالعطاء ذوى الحاجات افرادا وجماعات وكان يستخدم نفوذه فى قضاء مصالحهم . واطنب الشعراء مدح هذه الصفة فيه وعلى الاخص أبو تمام (راجع اخبـــار أبى تمام للصولى ص ١٤١ وكتاب الاغانى حـ ١٥ ص ١٠٠) . وذكر باتون أن ابن أبى دواد لم يكن صاحب مبادىء والمصادر العربية تنكر هذا . فقد كان من كثرة استشهاده بآيات القرآن ان قال فيه ابو العيناء : ما ارى ابن ابى دواد الا ان القرآن انما انزل عليه (العقد الفريد جـ ٢ ص١٠٨) وروى له بيت من الشعر لابى نواس قال فيه

يا احمد المرتجى فى كل نائبة   قم سيدى نعص جبار السموات

فتفزع منه وجعل يستمطر اللعنات على قائله (الموشح للمرزبانى ص ١٧٠)

ولم يحاب المعتزلة بسبب انه معتزلى . فقد حاد ابن حائط المعتزلى عن عقائد الاعتزال فعاقبه (الانتصار للخياط ص ١٤٩) وكان مهيبا وقورا بلغ من وقاره وتدينه انه كان ينكر أمر الطرب على الغناء وما يستفز الناس منه ويغلب على عقولهم (الاغانى حـ ٩ ص ٥٢)

ومالا الجاحظ عدوه محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الذى كان يقول : الرحمة خور فى الطبيعة وملك ابن أبى دواد عقوبة الجاحظ ولكنه عفاعنه واكرمه . ويطول بنا القول فى تعداد مآثر ابن أبى دواد وشرح مناقبه وقد حاولت رايات أهل السنة ان تطمسها وعلى البحث التاريخى أن يعيد الحق الى نصابه

لما مضى فى حمل الناس على القول بخلق القرآن

أما نصيب الواثق من المحنة ، فانه قد عاد فيه الى حد كبير نوعاً الى سياسة المأمون . وكان كأسلافه خاضعاً لتأثير أحمد بن أبى دواد . وفيما اوردته المصادر من قضايا القوم الذين امتحنهم الواثق فى القرآن ، وهى قضايا قليلة جدا من حيث عددها ، ما يكشف عن سمة القسوة فى خلق الخليفة بوجه عام ، وعن سمة الوحشية فى قضية أحمد بن نصر بوجه خاص(*)

وانا لا نجد مجال القول متسعاً فى صالح أولئك الذين أجابوا فى المحنة. فان موافقة السبعة الأول الذين اشخِصوا الى الخليفة (واجابتهم الى ما أريد بهم أن يقولوه) كانت عاملا حاسماً أدى الى المُضِى فى سياسة الاضطهاد . كما انه ليس فيما بدا من الضعف والتردد الأقل نسبياً ، من أولئك الذين أجابوا فيما بعد ، ما يبرر مخاوف هؤلاء الى درجة الاذعان . فان أصدقاءهم ورفقتهم كانوا أسخياء فى تطبيق مبدأ التقيَّة عليهم . ولاشك أن هذا ، احتفظ لهم بقدر كبير من المكانة والتقدير فى نظر الجمهور ، غير أنهم لم يشعروا فى قرارة نفوسهم بأن مسلكهم كان مما يُحْمَدون عليه . وكم بَرح الأسف والندم بقوم مثل يحيى بن معين ، لأن التهديد بالسيف قد أفزعهم وأرهبهم، فأنكروا عقيدة كانوا يوقنون بأنها عين الحق والصواب. ولا غرو فان جريرة هذا العصر الجَدَلى (الذى احتدمت فيه المناظرات والمناقشات) الركون الى منطق الألفاظ ، واتخاذها الى حد كبير ، أساسا تبنى عليه المذاهب الاعتقادية ، والآراء الكلامية ، بدلا من أن تبنى على الحقائق التى لايمكن أن تفترق عنها الأحكام الخلقية والعقلية . وقد كان هذا هو الحال فى المذهب القائل بأن القرآن غير مخلوق. فالأدلة التى سيقت لاثبات عدم خلقه ، كانت محض ألفاظ وكلمات . ولم يتهيأ لأحد أن يرى فى هذه المشكلة ما رأته شخصية فذة كشخصية أحمد بن حنبل التى أدركت الجانب النظرى البحت ، لمسألة أصل القرآن من حيث العلاقات (التى تربطها

(*) قد حذفنا فيما اوردنا فى ص ١١٨ من قصة مقتل احمد بن نصر الخزاعى أشد مواضعها فظاعة وتعذيبا

بأركان الاسلام) (*) . وقد بدا لأحمد أن صيانة هذه الروابط هى مما يمس كيان الحياة الدينية ذاتها ويتعلق بجوهر العقيدة ، وصار التنازل عما ارتآه أمرا له خطره وجسامته . ولم يكن لدى الفقهاء الآخرين مثل هـذا التصور الخطير للمشكلة ، كما كان يراها أحمد . فقد ظنوا أنها لا تعدو أن تكون نقطة من النقاط المتنازع عليها فى المجادلات التى كانت تدور حولهم. فالتنازل عنها قد يكون فوزا فى المناقشة لخصم من الخصوم . ولكنه يصير عظيم القيمة حين يقدم عليه المرء انقاذا لحياته (من السيف) (*)

وان من أجاب من هؤلاء الفقهاء ، فقد نظروا لعملهم فيما بعد نظرة أكثر تدبرا واتزاناً . غير أن المشكلة بدت لهم فى الوقت الذى ارتكبوا فيه وزر التنكر لعقيدتهم ، أنها لا تخرج عن مجرد التنازل عن نقطة اعتقادية يسيرة الخطب ، ضئيلة القدر ، ليست من النقـاط الجوهرية الضرورية ، فأقروا باذعانهم وأنهم غلبوا على أمرهم ، حتى أن احتجاجهم بالتقية لايمكن أن نعده مما ينفى هذا التوضيح لمسلـكهم

وذلك على الرغم من أن هذا الاحتجاج قد يوحى لنا بأنهم نظروا لتصرفهم على أنه عمل يوقع المرء فى أكبر الكبائر، وهى الارتداد عن الاسلام ، وهى كبيرة تتصل بمبدأ التقية بصفة خاصة . واحتجاجهم هذا لم يكن سوى عذر انتحلوه وتعللوا به بقصد التأثير على عامة الناس ، ولم يكن بطبيعة الحال تفسيرا يوضح لنا كيف تهيأ لهم أن يصنعوا ما صنعوا . وقد عذرهم أحمد ابن حنبل من هذا الوجه . ولكنه بنى عذره لهم على تفكيره فى الجريمة بعد اقترافها ، والتماسه الأسباب لاقالتهم من عثرتهم والصفح عنهم

ولـكن هذا الاحتجاج لايقدم لنا شرحاً لحقيقة اجابتهم وأسبابها الخفية كما لا يوضح مبلغ خطورتها . والتقية ذاتها تجعل من المتعذر علينا أن نثبت بأن عملا من الأعمال يعد ارتدادا عن الاسلام ، لأنه كثيرا ما يحتج

(*) زيادة عن الاصل لتوضيح مراد المؤلف

مرتكب هذا العمل بأن ردته مقصورة على التفوه بألفاظ الكفر ، بينا قلبه عامر بالايمان مطمئن للدين الصحيح

وعلى الرغم مما شهد به المؤرخون من قسوة المتوكل وسفكه للدماء ، فانه لايمكن القول بأنه عامل أحمد بن حنبل فى خشونة وغلظة ، أو أبدى نحوه ضيقاً وتبرماً . وقد كان من الجائز أن يثيره ما اتصف به أحمد بن حنبل من عبوس ومزاج مكتئب ، فيحمله هذا على الاساءة اليه ، لولا أن الخليفة لم يسمح لنفسه أن تستجيب لهذه الاثارة . بل كان بدلا من ذلك دائم الحدب والعطف على هذا الرجل المسن ، كثير الاهتمام بتوفير وسائل الراحة والرعاية له . ويظهر أن المتوكل لم يكن متعصباً فى مسائل الدين تعصب أسلافه ، وذلك اذا لم نعد مناهضته لحركات العلويين ، مناهضة ذات صبغة دينية (١)

وأرى أنه يحق لنا أن نفترض أن ما أبداه المتوكل من عناية واهتمام بمسائل الدين والعقائد ، لم يكن من قبيل التحزب النازع الى العسف والاضطهاد الذى يصدر عن حزب سياسى . ولكنها عناية رجل متدين صادق الايمان ولو أنه تجاوز بايمانه واخلاصه الى حد التعصب والتطرف(٢). ولم تكن علاقته بأهل السنة مبنية على باعث من البواعث السياسية لأنه كان خالياً من أية نزعة اضطهادية تدفع به الى اظهار العنف والمسارعة الى الايذاء (٣) . وفى الحق أن المتوكل كان فى مقدوره أن يثنى حركة الاضطهاد التى مضت ، بحركة اضطهاد مضادة ، لولا أن المتوكل رغب فى أن يستغل لصالحه علاقته بأهل السنة

ومن المرجح كثيرا أن موقفه بازاء مسائل العقيدة والدين، يفسره لنا مزاجه وتغير شعوره الفجائى نحو مسلك أسلافه . حقاً لقد سبق أن أظهر أسلافه

---

(١) راجع فى موضوع هذه العداوة النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٧١٢ (*) طبعة القاهرة حـ ٢ ص ٢٨٤ وما بعدها .)

(٢) توجد وجهة نظر مخالفة لهذه فى كتاب دراسات اسلامية بقلم جولد تسيهر حـ٢ص ٥٥٧ وكتاب الاسلام بقلم دوزى ص ١٦٣

(٣) المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ١١٣

من الأدلة القوية ما يثبت أنهم كانوا شخصياً قد ضاقوا بالمحنة واستثقلوها. ولكنهم مع ذلك ظلوا يوفقون بين آرائهم الاعتقادية وآراء الحزب القائم بحركة الاضطهاد ، الذى خضعوا لتأثيره ، وانضووا تحت لوائه . وكان المتوكل فيما يظهر شافعى المذهب (١) . وما من أحد ينكر أن موقفه من المسائل الكلامية ، قد نجم عنه أنه أوجد له أنصارا وأصدقاء . ولكنا نعتقد مع ذلك أن المتوكل مهما تلطخت صحيفة أعماله بالفظائع والمنكرات ، ومهما تعددت أوجه مؤاخذته على ضيق تفكيره وشدة تعصبه ، فانه لم يكن له من مقصد سوى اصلاح المساوىء الدينية كما لمسها وشاهدها (٢)

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٥٩ (*) طبعة منير بالقاهرة ص ٢٣٤

(٢) يكاد يجمع الكتاب الاوربيون على أن هذا الخليفة صدر فى اعماله عن أغراض وبواعث سياسية ، وينسبون مثلها للمأمون حين بدأ اضطهاد المحنة . ويمكن ان نسلم بأن المتوكل ادرك ان مواصلة الاضطهاد هى خطة قليلة الجدوى ، مادام السواد الاعظم من رعاياه يميل الى عقائد أهل السنة . (المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ١١٢) . ولكن الحقيقة التى يبدو لنا انها ثابتة تماما هى ان المتوكل كان سنيا فى عقيدته ، وهى بالاضافة الى الحقائق الاخرى التى أشرنا اليها لم يصدر فى عمله (فى رفع المحنة) عن أى باعث آخر سوى باعث اختياره الشخصى للفكرة الدينية التى كان يميل اليها ، وترتب على هذا التفضيل الشخصى البحت أنه اعتزم اعادة العقائد السنية الى سابق عهدها . كما أن معاداته للعلويين هى أكثر ما تكون خصومة صادرة عن رجل يمثل آراء معينة يتعصب لها وينافح عنها ، من أن تكون خطة يبتغى منها صاحبها زيادة التقرب الى السواد الاعظم من رعاياه عن طريق الخطوة التى اتخذها . يدلنا على هذا حالة الشعور العام للمسلمين حين هدم المتوكل قبر الحسين

الفصل الثالث

أحمد بن حنبل والمتوكل

أحمد بن حنبل والمتوكل

١ ـ المتوكل وأحمد بن حنبل ٢ ـ الدعوة الاولى لزيارة المتوكل ، والحادثة مع اسحق بن ابراهيم فى موضوع القرآن ٣ ـ اتهام أحمد بالدسائس العلوية ٤ ـ الدعوة الثانية من المتوكل ٥ ـ امتناع أحمد عن البقاء فى العسكر وكفه عن التحديث ٦ ـ اهتمام المتوكل بأحمد ٧ ـ زيادة أحمد للقصر ٨ ـ مطالبة احمد بتغيير موضع اقامته ٩ ـ ماساء أحمد من مظاهر الترف التى أحيط بها ١٠ ـ صيام أحمد ومرضه ١١ ـ سؤال أحمد عن رايه فى أحمد بن أبى دواد ١٢ ـ اقتراح شراء دار لاحمد بن حنبل ١٣ ـ حمل أحمد مرة أخرى على ملازمة الخليفة . ١٤ ـ اعفاء أحمد ١٥ ـ مراسلة أحمد لابنائه . ١٦ ـ وصية أحمد ١٧ ـ الاذن له بالعودة الى بغداد ١٨ ـ اعتراضه على الارزاق التى كانت تتناولها أسرته من السلطان ١٩ ـ اتهام أحمد مرة أخرى بالدسائس العلوية ٢٠ ـ استفسار الخليفة من أحمد عن رأيه فى القرآن ٢١ ـ كتاب أحمد فى رده على الاستفسار ٢٢ ـ زيارة يحيى بن خاقان لاحمد ٢٣ ـ دعوة لاحمد من محمد بن عبد الله ابن طاهر ٢٤ ـ مرض أحمد وموته ٢٥ جنازة أحمد ٢٦ ـ المترجمون لاحمد بن حنبل

١ ـ المتوكل وأحمد بن حنبل

عمل دعاة السوء فى السنين الأولى من خلافة المتوكل على ايذاء أحمد والايقاع بينه وبين الخليفة . وقد جاء على الأخص فى احدى هذه السعايات أن أحمد اتهم أسلاف الخليفة بالزندقة والالحاد . وهى رواية يبدو أن الخليفة لم يحلها محل الاعتبار بصفة جدية ، لأنه قيل عنه انه أمر بالرجل الذى سعى بالوقيعة أن يُضرب بالسياط ، لأنه حاول أن يؤذى رجلا من رعايا الخليفة الصالحين

٢ ـ الدعوة الاولى لزيارة المتوكل ، والمحادثة مع اسحـــاق بن ابراهيم فى موضـــوع القـــرآن (*)

وصلت من الخليفة قبل نهاية سنة ٢٣٥ هـ ، دعوة الى أحمـــد ، يدعوه فيها لزيارته ، وكان رسوله اليه اسحق بن ابراهيم (**) ، الذى سأل أحمد فى هذه المناسبة ، أن يصفح عنه ، للدور الذى قام به ، فى ضربه فى خلافة المعتصم . وقد أكد له أحمد ، عندما أجاب سؤله ، أنه قد أحل كل من سعى فى ايذائه أو شارك فيه بطريقة من الطرق ابان تلك المحنة . ثم مضى اسحق يسأل أحمد عن القرآن ، اشباعا لرغبته الخاصة (فى تجليه حقيقة هـــذا الموضوع) ، فرد أحمد بما كان يرد به دائمًا ، وهو أن القرآن كلام الله غير مخلوق . فاستوضحه اسحق الأدلة على صحة هذه الدعوى . فتلا أحمـــد الآية : « أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ (١) »

وأشار الى ماجاء بها من التفرقة بين الخَلْق والأمر . فالأمر فى هذه المجادلات ، يشير الى كلام الله الأزلى السماوى ، كما هو الحـــال مع كلمة :

(*) العنوان ليس موجودا فى الاصل كما هو الحال فى سائر فصول الكتاب التى اكتفى المؤلف بترقيمها . وقد صدرنا كل فصل بجملة العناوين الجانبية التى وضعها المؤلف للفقرات كما قمنا بترقيمها

(**) مات كل من اسحق بن ابراهيم حاكم العراق ، واسحق بن ابراهيم الموصـــلى الذى كان مقربا للخلفاء فى سنة واحدة وهى ٢٣٥ هـ . واسحق بن ابراهيم المشار اليه فى المتن هو بطبيعة الحال الاول اى حاكم العراق . قال فيـــه صاحب الشـــذرات حـ ٢ ص ٨٤ : هو الامير اسحق بن ابراهيم بن مصعب الخزاعى ، ابن عم طاهر بن الحسين ، ولى بغداد أكثر من عشرين سنة . وكان يسمى صاحب الجسر . وكان صارما سايسا حازما وهو الذى كان يطلب العلماء ويمتحنهم بأمر المأمون . » وقد ألف فيه أبو بكر محمد بن يحى الصولى كتابا اسمه أخبار اسحق ابن ابراهيم ، انظر مقدمة ادب الكتاب للصولى طبع السلفية سنة ١٣٤١ هـ ص ١٤ —

(١) سورة الأعراف رقم ٧ آية ٥٤

(*) رد على هذا القاضى المعتزلى عبد الجبار بن أحمد ، المتوفى سنة ٤١٥ هـ فى كتابه : تنزيه القرآن عن المطاعن ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ ص ١٣٥ فقال : وربما سأل الحشو (اى الذين يزعمون انهم من اهل السنة) عن قوله تعالى : ألا له الخلق والامر ، ان ذلك يدل على ان امر الله تعالى فى القرآن ليس بخلق ولا مخلوق . وجوابنا ان المراد انه له الخلق والامر من نفس الخلق . فهو الذى يبقيه او يفنيه ويتصرف فيه كيف يشاء . فلا يدل افراده بالذكر على صحة ماقالوه ، من انه لم يدخل الامر تحته . كقوله تعالى : « ان الله يأمر بالعـــدل والاحسان » والاحسان من العدل . وذلك كثير فى الكلام »

«كُـن» التى سبق ذكرها (*) . فقال اسحق : « الأمر مخلوق » . فصاح أحمد : « ماذا تقول ؟ الأمر مخلوق ؟ كلا انه يخلق المخلوق » . ثم استفسر اسحق عن راوى الحديث القـائل بأنه غير مخلوق . فرد أحمـد بأنه جعفر ابن محمد الذى قال بأنه ليس بخالق ولامخلوق (**) . ثم بعد الانتهاء من هذه المحادثة ، ظفر اسحق بموافقة أحمد على الذهاب الى العسكر . ولم يمض وقت طويل حتى كان فى طريقه الى هنالك . غير أنه لسبب غير مفهوم ، صدرت اليه الأوامر وهو فى طريقه الى الخليفة بأن يعود الى داره . ويُرجَّح كثيرا أن اشتباه الخليفة بأن أحمد له ميول علوية ، يزودنا بما يفسر هـذه الاعادة . وسيتضح لنا فيما يلى أن أحمد اتهم بمثل هذه الميول مرتين أو ثلاث مرات

٣ ــ اتهام احمد بالدسائس العلوية

وصل الى الخليفة فى سنة ٢٣٧ هـ ، خبر اتهم فيه أحمد بأنه أرسل واحدا من أصحابه ، ليوافى علويا كان قادماً من خراسان . فلما سمع الخليفة بذلك، كتب كتاباً الى عبد الله بن اسحق ، حاكم بغداد (وهو الذى خلف أخاه محمدا وأباه اسحق بن ابراهيم فى هذا المنصب) ، يسأله أن يحقق مع أحمد فى صحة هذه التهمة التى ألـصِقت به ، كما أمره بتفتيش داره ، والكشف عن حقيقة هذا الموضوع . وانفاذا لهذه الأوامر ، أرسل عبد الله بن اسحق ، حاجبَه مُظَفَّر . وصاحب البريد ابن الكلبى[1] ، كما أرسل معهما نساء نُدِبن لفحص غرف النساء ، وقد أمِروا جميعـاً بانفـاذ التعليمات التى أبلغوها . فلما وافوا دار أحمد ، وقرأوا عليه كتاب الخليفة ، أنكر ما عُزِى اليه وعد الخبر باطلا لا أساس له . وأعلن طاعته للخليفة وأنه يعد نفسه من

(*) انظر هامشه (٢) ص ١٦٧

(**) يبدو ان هذا ليس حديثا صحيحا فحسبولكنه أوضح ماساقه أهل السنة منحديث، واظهر ما احتجوا به من دليل لتعزيز رأيهم

(١) انظر كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ، ٧١ ، فى استخدام اصحاب البريد للقيام بهذا النوع من اعمال التجسس

كل الوجوه واحدا من رعاياه المخلصين الموالين (١) . كما أن تفتيش الدار لم يسفر عن شيء يثبت عليه التهمة

وقد أبلغت نتيجة التحقيق للخليفة . وبعد يوم أو يومين جاء كتاب من على بن الجهم (٢) الى أحمد يقول فيه ان الخليفة شعر بتمام الارتياح عندما أدرك بطلان هذه التهمة ، وأن أهل البدع لفقوها ودسوها عليه قصد ايذائه . كما أفصح كتاب على بن الجهم عن رغبة الخليفة فى أن يزوره أحمد ، وأشار الى أن فى الطريق رسولا يحمل اليه صلة مالية من الخليفة

جاء فى حلية الأولياء (٣) : « ذكر ورود كتاب المتوكل بمحنته أولا ، ثم بجائزة له واشخاصه الى العسكر ثانياً ، رحمه الله . حدثنا محمد بن جعفر ، والحسين بن محمد ، وعلى بن أحمد ، قالوا : حدثنا محمد بن اسماعيل بن أحمد ، حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل ، قال : لما توفى اسحق ابن ابراهيم ، ومحمد ابنه ، ووَلِىَ عبد الله بن اسحق ، كتب المتوكل اليه أن وجّه الى أحمد بن حنبل أن عندك طلبة أمير المؤمنين. فوجّه بحاجبه مظفّر، وحضر معه صاحب البريد ، وكان يعرف بابن الكلبى . وكتب له أيضاً . فقال له مُظفّر : يقول لك الأمير : قد كتب الىّ أمير المؤمنين أن عندك طلبته . وقال له ابن الكلبى مثل ذلك . وكان قد نام الناس ، فدفع الباب ، وكان على أبى رحمه الله ازار. ففتح لهم الباب. وقعدوا على باريّة ، ومعهم

---

(١) كان أحمد قد لزم داره الى ذلك الوقت ، تنفيذا لامر اسحق بن ابراهيم ، حاكم بغداد السابق . وفى لزوم الفقهاء دورهم ، انظر : كتاب دراسات اسلامية بقلم جولدتسهر حـ٢ص ٩٤ ، وانظر كتاب : المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٢٦ ومابعدها ، وذلك فى نظام شبيه بهذا يسمى بنظام القعدة : وانظر النجوم الزاهرة حـ١ص ٧٣٠ (*) طبعة القاهرة حـ٢ص ٣٠٠ وتاريخ ابى الفداء حـ٢ص ١٩٠

(٢) نفى على بن الجهم الى خراسان وقتل هنالك بأمر من الخليفة المتوكل فى سنة ٢٣٩ هـ، انظر وفيات الاعيان لابن خلكان ، ترجمة رقم ٤٧٣ (*) طبعة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م رقم ٤٣٥ حـ ٣ ص ٣٩ ومابعدها

(٣) لابى نعيم ورقة ١٥٠ ب وما بعدها (*) طبعة القاهرة حـ٩ص٢٠٦ ومابعدها وأنا نتابع الآن هذا المصدر ، فيما عدا استثناءات قليلة نشير اليها فى مواضعها

نسساء (*) . فلما قُرِىءَ عليه الكتاب ، قال لهم أبى : ما أعرف هذا ، وانى لأرى طاعته فى العُسْر واليُسْر ، والمَنْشَط والمَكْرَه والأثرة ، وانى أتأسّف على تخلّفى عن الصلاة وعن حضور الجماعة (**) ودعوة المسلمين. وقد كان اسحق بن ابراهيم وجّه الى أبى أن ألزم بيتك ، ولا تخرج الى جمعة ولا جماعة ، والا نزل بك ما نزل فى أيام أبى اسحق . ثم قال ابن الكلبى : قد أمرنى أمير المؤمنين أن أحلّفك ما عندك طَلِبَتُه فتحلف

فقال : ان استحلفتنى حلفتُ . فأحلفَه بالله وبالطلاق ماعندك طلبة أمير المؤمنين . فكأنهم أشاروا الى أن عنده علوياً . ثم قال : أريد أن أفتّشَ منزلك . قال أبو الفضل : وكنتُ حاضرا . فقال : ومنزل ابنك . فقام مظفر وابن الكلبى ، وامرأتان معهما ، فدخلا ففتّشا البيت . ثم فتّشت الامرأتان النساء والصبيان . قال أبو الفضل : ثم دخلوا منزلى ، ففتّشوه ، ودلّوا شمعة فى البئر ، فنظروا ووجّهوا بالنسوة ، ففتّشوا الحرم وخرجوا

فلما كان بعد يومين ورد كتاب على بن الجهم ، أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قرفت به . وقد كان أهل البدع قدموا أعناقهم ، فالحمد لله الذى لم يُشْمِتْهم بك . وقد وجّه اليك أمير المؤمنين ، يعقوب المعروف بقوصرة ، ومعه جائزة ، ويأمرك بالخروج . فالله الله أن تستعفى أو ترد الجائزة »

٤ ـ الدعوة الثانية من المتوكل

و فى اليوم التالى لوصول الكتاب ، جاء يعقوب قَوصَرة رسول الخليفة ، يحمل معه فى صورة رسمية ، الدعوة التى أشرنا اليها ، وقدم له مبلغ عشرة

(*) انى أستدل من وجود نساء مع رجال الشرطة عند تفتيش دار أحمد بن حنبل على انه كان يوجد فى الدولة العباسية ما يقرب من نظام البوليس النسائى فى الوقت الحاضر

(**) كان يعتبر تخلف أعلام المسلمين عن حضور صلاة الجماعة دليلا على انكارهم شرعية الحكومة القائمة وان بيعة الخليفة غير صحيحة وان الصلاة خلف رجال الحكومة تعد تبعا لذلك صلاة باطلة

آلاف درهم كجائزة ملكية . ثم انصرف يعقوب قائلا لأحمد : انه سيعود فى صباح اليوم التالى ، ليعرف رده على هذه الدعوة التى أرسل لابلاغها . وفى تلك الليلة أرِق أحمد ، لأن جائزة المتوكل التى وكل بها أحمد ولده صالح ، قد أقلقته الى درجة بالغة ، وأقضَّت مضجعه

وأخيراً عزم على أن يتخلص من هذا المال كلية . فنهض فى السحَر ، ودعا أشخاصا أمرهم بأخذ أجزاء منه لتفريقها بين سلالة المهاجرين والأنصار ، وبين الفقراء عموما ، حتى ينفَذ عن آخره المبلغ الذى تسلمه. وقد أحزنه كثيرا أن يرى نفسه آنذاك وهو فى أواخر حياته ، مضطرا لأن يكون صنيعة تلقى الهوان بما تنال من صِلات الخليفة ومعونته ، بعد أن أفلح وقتا طويلا فى أن يأبى قبول أى شىء من هذا القبيل . وقد سعى بكل ما أوتى من قوة فى تجنب هذه العلاقة التى نجح،بعد حادث هذه الجائزة ، فى أن يتحرر منها تحررا تاما الى أخريات أيامه . وحين بلغ الخليفة ماصنعه أحمد ، هدأ على بن الجهم من غضب سيده ، بأن أوضح له أن رجلا كأحمد لا حاجة به الى المال ، لأن قوته لايتجاوز رغيفا

وبعد وقت قصير ، كان أحمد فى طريقه الى الخليفة . ولم يُذكر لنا عن هذه الرحلة شىء ذو أهمية خاصة ، سوى أنه أفاد من الرخصة الشرعية التى تبيح تقصير الصلاة فى السفر. وقد أول ذلك بأنه عمل مندوب ، وليس مباحا فحسب ، عندما شكا ذا تمرة ، ابان الرحلة ، من أن ولده صالحا قد أطال كثيرا فى الصلاة . ولما وصل العسكر ، أنزل أولا فى دار « ايتاخ » (*) . وأرسل الخليفة الى أبنائه بأنه أمر لهم بعشرة آلاف درهم ،

(*) وايتاخ كان قائدا تركيا من رجال الدولة العباسية وكان فى أول نشأته غلاما طباخا لسلام الابرشى واشتراه المعتصم فى سنة ١٩٩ هـ ، ورقاه بفضل شجاعته الى أرفع المراتب وفى عهد المتوكل كان اليه الجيش والاموال والبريد والحجابة . وكان القتل والحبس فى يده فى عهد كل من المعتصم والواثق والمتوكل . ثم دس اليه المتوكل الى أن قتله فى سنة ٢٣٥ هـ. راجع الكامل فى التاريخ لابن الاثير جـ ٥ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ طبعة منير بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ. وفى شذرات الذهب جـ ٢ ص ٨٠ : الامير ايتاخ التركى مقدم الجيوش وكبير الدولة . خافه المتوكل وعمل عليه بكل حيلة حتى قبض عليه نائبه على بغداد اسحق بن ابراهيم وأميت عطشا واخذ له المتوكل من الذهب ألف ألف دينار —

خصصت لهم بدلا من المبلغ السابق الذى فرقه أبوهم ، وفى نفس الوقت أمِروا بصفة خاصة ألا يعلِمُوا أباهم بشىء عن هذا الموضوع

ثم بعث المتوكل آنذاك بتحيته الى أحمد ، وتهنئته اياه على نجاته من محاولات أعدائه فى سبيل غمسه فى الشبهات والمؤامرات . واذا جاز لنا أن نصدق ما جاء فى هذه الرواية ، ويحتمل أن نميل الى جانب التصديق ، فان المتوكل عبَّر أيضا عن سروره لحضور أحمد ، لأنه رغب فى أن يستشيره فى مسألة أحمد بن أبى دواد الذى سقطت منزلته وشيكا وصار مغضوبا عليه . وسرعان ما أفصح الخليفة لأحمد عن رغبته فى أن يبقى معه لكى يلقى دروسا فى الحديث ، وألا يفكر فى العودة الى بغداد . وقد طلب اليه الخليفة بصفة خاصة أن يقوم على تعليم ولده المعتز، أحب أولاده لديه (١)

قال أبو نُعَيْم (٢) : « قال أبو الفضل : ثم ورد من الغد يعقوب ، فدخل الى أبى ، فقال له : يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول : قد صَح نقاء ساحتك ، وقد أحببْت أن آنس بقُربك وأتبرك بدعائك ، وقد وجهت اليك عشرة آلاف درهم معونة على سفرك . وأخرج بدرة فيها صُرة نحو من مائتى دينار ، والباقى دراهم صحاح . فلم ينظر اليها . ثم شدها يعقوب وقال له : أعود غدا حتى أنظر على ما تعزم عليه . وقال له : يا أبا عبد الله ، الحمد لله الذى لم يُشْمِت بك أهل البِدع ، وانصرف

« فجئت باجَّانة خضراء ، كببتُها على البدرة . فلما كان عند المغرب ، قال : يا صالح ، خذ هذه ، صيِّرها عندك فصيَّرتُها عند رأسى ، فوق البيت . فلما كان سحَر ، اذ هو ينادى : يا صالح . فقمت وصعدت اليه .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٥٧ (*) طبعة منر بالقاهرة ص ٢٣١

(٢) حلية الاولياء ورقة ١٥٠ ب (*) جـ ٩ ص ٢٠٦ وما بعدها ، وقد وضع المؤلف هذه الاستشهادات من أبى نعيم فى ثمانى صفحات متواصلة ولكنا رأينا توزيعها بما يتفق مع موضوعات البنود التى كتبها المؤلف

فقال : يا صالح ، ما نمت ليلتى هذه . فقلت له : لِمه ؟ فجعل يبكى وهو يقول : سلِمت من هؤلاء ، حتى اذا كان فى آخر عمرى ، بُليت بهم . قد عزمت على أن أفرق هذا الشيء ، اذا أصبحت . فقلت : ذاك اليك . فلما أصبح ، جاءه الحسن بن البزار ، والمشايخ ، فقال : جئنى يا صالح بالميزان . فقال : وجِّهوا الى أبناء المهاجرين والأنصار . ثم قال : وجِّه الى فلان . فلم يزل حتى فرقها كلَّها ، ونفض الـكيس ، ونحن فى حالة الله بها عليم . فجاء بُنَـىّ له فقال : يا أبَه اعطنى درهما ، فنظر الىَّ . فأخرجت قطعة أعطيته

« وكتب صاحب البريد أنه تصدق بالدراهم من يومه ، حتى تصدق بالكيس . قال على بن الجهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين قد تصدق بها ، وعلم الناس أنه قد قبل منك . ما يصنع أحمد بالمال ؟ وانما قُوتُه رغيف . قال : فقال لى : صدقت يا على . قال أبو الفضل : ثم أخرج أبى ليلا ، ومعنا حُراس ، معهم النفَّاطات . فلما أضاء الفجر ، قال : يا صالح ، معك دراهم ؟ قلت : نعم . قال : اعطهم . فأعطيتهم درهما درهما ..

« قال أبو الفضل : وقصَر أبى فى خروجه الى العسكر ، وقال : تُقصر الصلاة فى أربعة بُرد ، وهى ستة عشر فرسخا . وصلَّيْت به يوما العصر ، فقال لى : طولت بنا العصر ، تقرأ فى الركعة مقدار خمس عشرة آية . وكنت أصلّى به فى العسكر . فلما صرنا بين الحائطين قال لنا يعقوب : أقيموا . ثم وجَّه الى المتوكل بما عمل ، فدخلنا العسكر، وأبى منكَّس الرأس ، ورأسه مُغطّى . فقال له يعقوب : اكشف رأسك يا أبا عبد الله . فكشف . ثم جاء وصيف يريد الدار . فلما نظر الى الناس وجمعهم قال : ما هؤلاء ؟ قالوا : أحمد بن حنبل . فوجَّه اليه بعد ما جاز بيحيى بن هرثمة ، فقال : يقرئك (أى الخليفة) السلام ، ويقول الحمد لله الذى لم يُشْمِت بك أهل البدع . قد علمت ما كان حال ابن أبى دواد ، فينبغى أن تتكلم بما يجب لله ، ومضى يحيى

« قال أبو الفضل : أنزل أبى دار ايتاخ . فجاء على بن الجهم ، فقال : قد أمر لكم أميرالمؤمنين ، بعشرة آلاف مكان التى فرقها أبوكم ، وأمركم ألا يُعلم بذلك ، فيغتم . ثم جاءه محمد بن معاوية ، فقال : ان أمير المؤمنين يكثر ذكرك ويقول : تقيم ها هنا تُحَدث . فقال : أنا ضعيف . ثم وضع اصبعه على بعض أسنانه ، فقال : ان بعض أسنانى يتحرك ، وما أخبرت بذلك ولدى »

٥ ـ امتناع احمد عن البقاء فى المعسكر وكفه عن التحدث

وقد حاول أحمد أن يعتذر عن تلبية كافة هذه الرغبات ، بسبب عجزه وسقمه ، كما أشار الى تخلخل أسـنانه وغير ذلك من امارات الضـعف والشيخوخة . وقد أفصح أحمد عن اعتقاده فى هذه الدعوة وما يصحبها من كرم وحفاوة ، اذ عدها كلها مراحل لمؤامرة يُقصد بها تقييده والحجر عليه . فيغدو سجينا ، بينا هو فى نفس الوقت ضيف على الخليفة . وقد نذر نذرا أنه لن يحـدث بحديث كامل طول حياته ، ويقول البعض : ان هذا النذر استغرق السنوات الثمانية الأخيرة من حياته ..

غير أنه اذا كان قد زار الخليفة فى سنة ٢٣٧ هـ وأخذ على نفسه هـذا النذر ، ليتخلص من حال الاعتقال التى كان فيها ، فان مدة تقيده بنذره تزيد قليلا على أربع سنوات . ومن الجائز أن يكون قد نذر نذره ، حين طلب منه الواثق مبارحة بغداد ، لأنا نعلم أنه كف عن القاء دروس فى الحديث ، ابان الشهور الأخيرة من خلافة الواثق (١) . وفى الواقع لايزال لدينا فى هذه الفترة أكثر من ثمانى سنوات . وعلى العموم فانه يبدو من المستصوب أن نحدد تاريخ انقطاعه النهائى عن تعليم الحديث ، ابتداء من وقت زيارته هذه الى المتوكل ، وكان ، كما نعلم حقا ، رجلا برح به ضعفه الجثمانى وأثقلته الشيخوخة

(*) اى فى سنتى ٢٢٦ هـ ، ٢٢٧ هـ

٦ ـ اهتمام المتوكل بأحمد

ويبدو أنه كان قد مضى بعض الوقت قبل أن يُدعى أحمد الى القصر ، ولكن فى غضون ذلك أظهر الخليفة اهتماما بأحمد ينم عن العطف والمودة ، وكشف عن تقديره لعلمه وفقهه ، حين طرح عليه مسائل ، أراد أن يقف على رأيه فيها وحلّه لها . ومنها المسألة التالية : اذا فرضنا أن بهيمتين تقاتلا بالانتطــاح بقرونهما ، حتى عقرت احداهما الأخرى ، ثم ذبحت البهيمة المعقورة ، أيجوز تناول لحمها ؟ فأجاز أحمد ذلك اذا أظهرت البهيمة قبــل ذبحها شيئا من علائم الحياة ، كأن أطرفت بعينها أو حركت ذنبها ، واذا كان دمها لايزال سائلا ولم يتخثّر بعد (*)

٧ ـ زيارة أحمد للقصر

وأخيرا أمر أحمد بأن يكون فى حضرة المعتز ، ولد الخليفة . وقد آلمه مجيء يحيى بن خاقان اليه ، ليهيىء له ملابس المقابلة الخاصة بالبلاط وليعاين تجربة ارتدائه لها . وقد ألح عليه فى أن يسمح بوضعها على جسده ، ولكنه اعتزم ألا يفعل . وأفضى يحيى فى هذه المناسبة ، لأبناء أحمد ، بأن الخليفة قد أمر بأن يُجرى عليهم أربعة آلاف درهم فى الشهر ، وأمرهم ألا يُعلِموا أباهم بذلك . وعندما وصل أحمد القصر ، قوبل بحفاوة ، على الرغم من أنه لا توجد فى مصادرنا سوى اشارة مجملة شديدة الاقتضاب لشهود هذا اللقاء فى مجلس الخليفة عند مقدَم أحمد ..

وبعد عودته الى مسكنه من هذه الزيارة الأولى لراعيه الجديد ، ندم على ما ظن أنه اجترحه من اثم ، لأنه ارتدى ثيابا فاخرة كان قد أُجبِر على ارتدائها . فخلعها وأزاحها عن نفسه فى الحال ، وأمر ولده صالح بأن يبعث بها الى بغداد ، حيث تُباع ويُتصدّق بثمنها على الفقراء . وحظر على

(*) نصها فى رواية أبى نعيم فى الحلية : « ثم وجه اليه (أى الخليفة المتوكل لاحمد بن حنبل) : ما تقول فى بهيمتين انتطحتا ، فعقرت احداهما الاخرى فسقطت فذبح (أى فذبحت)؟ فقال : ان كان أطرف بعينه وتطع بذنبه وسال دمه ، يؤكل »

أفراد أسرته أن يحتفظوا بشيء من هذه الثياب ، قصد استعمالها . غير أن صالح احتفظ مع ذلك بالقلنسوة . وفى هذا الوقت زال عن أحمد هدوء نفسه وصفاء خاطره ، وقد أزعجه كثيرا ، علاوة على ذلك، تفكيره فى زياراته المقبلة للخليفة نفسه ، وفى المهمة التى كلف بأدائها ، وهى تعليمه لولده ، لأنه يبدو أن المتوكل لم يضع موضع الاعتبار فى مبدأ الأمر ، النذر الذى أخذ أحمد نفسه به ، وهو ألا يتلقى حديثا من الأحاديث بتمامه

وليس من المحتمل أنه لقى المتوكل حقيقة . فليس لدينا ما يثبت على الأقل أنه مَثَل أمامه ، كما أنه يعوزنا أى دليل يدل على أنه كُلِّف فعلا بتعليم ولد الخليفة . اذ لم يتجاوز سن المعتز، عند وصول أحمد سُرَّ من رأى ، ست سنوات ، اذ كان قد بلغ هذه السن (١)

٨ ــ مطالبة أحمد بتغيير موضع اقامته

وكانت الشكوى التالية لأحمد هى حين علم أن الدار التى أسكِن فيها كانت ملكا لايتاخ (٢) . فلما سمع بهذا ، طلب أن تُكتَب رقعة لمحمد بن الجراح ، يسأله أن يستعفى له من الخليفة من أن يلتزم الاقامة بها . فأجابه الخليفة الى طلبه . ثم أمر بالبحث له عن دار أخرى ، فوجَّه الى قوم ليخرجوا من المنزل الذى كانوا يشغلونه ، ولكن أحمد لم يرغب فى هذا الاجراء فعُدل عنه . وأخيرا اكتُرِيَت له دار ملائمة بمائتى درهم

٩ ــ ما ساء احمد من مظاهر الترف التى أحيط بها

وقد ساء أحمد هنا الترف الذى تجلى فى أثاث هذه الدار ورياشها .

---

(١) ولد المعتز بن المتوكل فى سنة ٢٣٢ هـ ، النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٤ (*) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٠ م جـ ٢ ص ٢٨٠)

(٢) قتل ايتاخ التركى فى سنة ٢٣٤ هـ ، النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧٠٢ (*) طبعة القاهرة جـ ٢ ص ٢٧٦ ، وقد أوردنا ترجمة موجزة له فى حاشية سابقة نقلا عن ابن الاثير ، وشذرات الذهب» ، وفى تاريخ الطبرى طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م جـ ٧ ص ٣٥٠ وما بعدها بيــان مفصل عنه فى حوادث سنتى ٢٣٤ هـ ، ٢٤٥ هـ . وفى ابن الاثير جـ ٥ ص ٢٨٢ طبعة منير انه كان غلاما حوريا ، وصحته غلاما خزريا أى من الخزر وهم جنس من الترك . وهو تصحيف

فترك الغرف التى أثثت تأثيثا فاخرا ، وقنع باستخدام مَضْربة متواضعة كان قد أحضرها معه . كما ضايقه كثيرا ما كان يُرسَل اليه من مائدة حافلة بألوان الطعام. وهذه حادثة يمكن أن نسلم بوقوعها ، اذا علمنا أن صاحب الدار قدم لصالح بن أحمد مبلغ ثلاثة آلاف من الدراهم كل شهر للانفاق على هذه الموائد . فلم يقبل صالح . أما أولئك الأفراد من أسرة أحمد الذين رغبوا فى استبقاء هـذه الموائد فقـد اضطروا لأن يطلبوا اجراءها عليهم ونصْبها لهم فى دهليز الدار ، حتى لايراها أحمد

قال أبو نُعَيْم : « قال أبو الفضل : ثم صار اليه يحيى بن خاقان ، فقال : يا أبا عبد الله ، قد أمرنى أمير المؤمنين أن أصير اليك لتركب الى أبى عبد الله المعتز . ثم قال لى : قد أمرنى أن أقطع له سوادا وطيلسانا وقلنسوة . فأى قلنسوة يلبس ؟ فقلت له : ما رأيتُه لبس قلنسوة قط . فقال له : ان أمير المؤمنين قد أمرنى أن تصير لك مرتبة فى أعلا المراتب ، ويصير أبو عبد الله (أى المعتز) فى حِجْرك . ثم قال لى : ان أمير المؤمنين قد أمر أن يُجْرى عليكم وعلى قراباتكم أربعة آلاف درهم . ففرقها عليهم

ثم عاد يحيى من الغد ، فقال : يا أبا عبد الله تركب ؟. فقال : ذاك اليكم . فقال : أستخر الله . فلبس ازاره وخُفَّيْه ، وقد كان خُفُّه قد أتى له عنده نحو من خمسة عشر سنة ، مرقوع برقاع عدة . فأشار يحيى الىّ ، يلبس قلنسوة . فقلت له : ماله قلنسوة . قال : كيف يدخل عليه حاسرا ؟ ويحيى قائم . فطلبنا له دابة يركبها . فقال يحيى : تُصَلّى ؟. فجلس على التراب وقال : « منها خَلَقْناكُم وفِيها نُعِيدُكُم (١) »

ثم ركب بغل بعض التجار ، فمضينا معه ، حتى أدخِل دار المعتز ، فأجلس فى بيت الدهليز . ثم جاء يحيى ، فأخذ بيده حتى أدخله ورفع الستر ، ونحن ننظر ، وكان المعتز قاعدا على دكان فى الدار . وقد كان

---

(١) سورة طه رقم ٢٠ آية ٥٥

يحيى تقدم اليه فقال : لا تمد يدك اليه . فلما صعد الدكان جلس . فقال له يحيى : يا أبا عبد الله ، ان أمير المؤمنين جاء بك ليُسَر بقربك ، ويصير أبو عبد الله (أى المعتز) فى حِجْرك ..

« وقد كانوا حدثوا أنه يخلع عليه سوادا ثم انصرف ، فلما صار الى الدار ، نزع الثياب عنه ، ثم جعل يبكى . ثم قال : قد سلِمت من هؤلاء منذ ستين سنة ، حتى اذا كان فى آخر عمرى ، بُلِيت بهم . ما أحسبنى سلِمت من دخولى على هذا الغلام ، فكيف بمن يجب علىَّ نُصْحُه من وقت أن تقع عينى عليه ، الى أن أخرج من عنده . ثم قال : يا صالح ، وجِّه بهذه الثياب الى بغداد ، تُباع ويُتَصدق بثمنها ، ولا يشترى أحد منكم شيئا . قال أبو الفضل : فوجَّهت بها الى يعقوب بن البَخْتَشَان ، فباعها وفرق ثمنها ، وبقيت عندى القلنسوة . ثم أخبرناه ان الدار التى هو فيها كانت لايتاخ

فقال : اكتب رقعة الى محمد بن الجراح ، ليستعفى لى من هذه الدار ، فكتبنا رقعة ، فأمر المتوكل أن يُعْفَى منها . ووجَّه الى قوم ليخرجوا من منازلهم . فسأل أن يُعْفَى من ذلك . فاكتريت له دار بمائتى درهم ، فصار اليها . وأجرى لنا مائدة وثلج وضرب الخيش وفرش الطبرى . فلما رأى الخيش الطبرى ، نحَّى نفسه عن ذلك الموضع وألقى نفسه على مضربة له ..

« وجعل يُواصل ، يُفطر كل ثلاث على ثمن سويق . فمكث خمس عشرة يفطر فى كل ثلاث . ثم جعل بعد ذلك يُفطر ليلة ليلة ، لايفطر الا على رغيف . فكان اذا جىء بالمائدة توضع فى الدهليز ، لكى لايراها . فيأكل من حضر . فكان اذا جهده الحَر ، تُبَل له خرقة ، فيضعها على صدره

« وقطع له يحيى دراعة وطيلسانا سوادا ... وكان ربما صار اليه يحيى وهو يصلى ، فيجلس فى الدهليز حتى يَفرُغ ، ويجىء على بن الجهم فينزع سيفه وقلنسوته ويدخل عليه »

١٠ ـ صيام احمد ومرضه

وكان أحمد يصوم أغلب الأيام ، ولا يفطر الا على قليل من السَّويق والخبز ، حتى نَقِل مريضا فى آخر الأمر ، وجىء له بالطبيب الشهير ابن ماسويه ليعالجه . وقد فحص ابن ماسويه أحمد ، فأكد له أن ما يشكو منه ليس فى الحقيقة مرضا ، ولكنه لايخرج عن ضعف وانحلال فى الجسم، نشأ عن قلة التغذية ، ووصف له زيت السمسم . فقال : انه كمسيحى اعتاد أن يصفه للزهاد من ملته اذا بلغ بهم الضعف مبلغه . ويبدو أن أحمد فى هذا الوقت كان قد نال من المتوكل وحاشيته كل رعاية واهتمام ، ولو انه لايدهشنا أن نجده أحيانا يأبى ماخُص به من كرم وعطف

جاء فى الحلية (١) : « وفى كل يوم يوجّه (الخليفة) اليه بابن ماسويه ، فينظر اليه ، ويقول : يا أبا عبد الله ، انما أميل اليك والى أصحابك ، وما بك من علة الا الضعف وقلة الزاد ... فقال له ابن ماسويه (*) : انا ربما أمرنا عُبّادنا بأكل دهن الخل ، فانه يُلين . وجعل يجيئه بالشىء ليشربه ، فيصبه »

١١ ـ سؤال أحمد عن رأيه فى أحمد بن أبى دواد

وقد بُذلت عدة محاولات لأن يُنتزع منأحمد رأيه فىأحمد بنأبى دواد،

---

(١) لابى نعيم فى الموضع السابق

(*) هو يوحنا بن ماسويه النصرانى السريانى ، قال أبو الفرج بن العبرى فى كتابه : تاريخ مختصر الدول ، تحقيق الادب صالحانى ، بيروت سنة ١٨٩٠ م انه من أطباء الرشيد وقد ولاه ترجمة الكتب الطبية القديمة . وخدم الرشيد ومن بعده الى أيام المتوكل ، وكان معظما ببغداد جليل القدر وله تصانيف جميلة . وكان يعقد مجلسا للنظر ويجرى فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة . وكان يدرس ويجتمع اليه تلاميذ كثيرون ، ص ٢٢٧ ، كما ورد ذكره فى صفحات أخرى . وانظر أيضا كتاب طبقات الاطباء لابن أبىأصيبعة ج ١ ص ١٧٥ ، واخبار الحكماء للقفطى ص ٢٤٨ .هذا وقد تعلم الطب على يدجبرائيلبنبختيشوع ببغداد ، وتوفى سنة ٢٤٣ هـ

الذى ناله فيما مضى بالأذى والاضطهـاد ، والذى سقطت منزلته لدى الخليفة فى ذلك الوقت وأصبح مغضوبا عليه . ولكنه لم يَبْدِ رأيا فى الرجل ولا فىضياعه وأمواله وماحدث بشأنها (منمصادرة واستصفاء) ، كما أنه لم يظهر ميلا الى سماع شائعات من تقولات النـاس فى خصمه القديم وما كان قد اتخذ ضده [1]

١٢ ـ اقتراح شراء دار لاحمد بن حنبل

ثم اقترح المتوكل ، بعد انقضاء مدة أن تشترى دار لأحمد بن حنبل

ولكن أحمد أبى ، فى اصرار ، أن يوافقعلى هذا الاقتراح . وأمر ولده صالحا ألا يشترك فى تنفيذ مشروع كهذا . وفىالنهاية استبعدت هذه الفكرة

قال أبو نعيم : (قال أحمد) وأمر المتوكل أن تشترى لنا دار . فقلت يا صالح . قال : لبَّيك. قلت : لئنأقررت لهم بشراء ذلك لتكونن القطيعة بينى وبينكم ، انما يريدون أن يصيروا هـذا البلد لى مأوى ومسكنا . فلم يزل يدفع شراء الدار حتى اندفع »

١٣ ـ حمل أحمد مرة أخرى على ملازمة الخليفة

وبدأ الخليفة فى ذلك الوقت يحث أحمد على أن يجالسه ويلازمه . اذ كان فى نيته أن يبارح أحمد بغداد (ويقيم فى سامراء) . وقد اتفق على تحديد اليوم الذى كان عليه فيه أن يبدأ الرحيل فعلا . ومع ذلك فان أحمد لم يكتم أحدا مبلغ ما يشعر به من الضيق الشديد والكراهية من حمله على هذا اللقاء . كما ناشده عمه اسحق بن حنبل ، أن يذهب الى الخليفة ، وأن يبذل له خالص النصيحة والتوجيه الصالح . واستشهد بما

---

(١) انظر النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧١٩ (*) طبعة القاهرة جـ ٢ ص ٣٠٢

صنعه اسحق بن راهويه (*) مع ابن طاهر (١) (وقد كان عمــلا جزيل الفائدة لاسحق) . فرد أحمد بأنه لايرضى مسلك ابن راهويه ، ولا يقبل الخطــة التى انتهجها ، وأنه يعتقــد أن القرب من أصحاب الســلطان ومجالستهم مفسدة للدين ومحنق للضمير ، وأنه يشعر حتى مع ابتعاده عنهم بأنه لم يسلم منهم

١٤ ــ اعفاء احمد

وقد ورد بعد كل هذا ، رسالة من الخليفة ، يعفيه مما كان عليه أن يقوم به ، وهو المثول بين يديه أو بين أيدى ولاة عهوده ، كما أعفاه من لبس السواد ، والزى الواجب ارتداؤه فى بلاط الخليفة . وأباح له أن يلبس أردية القطن أو الصوف حسبما يشاء . ويظهر أنه أحله فى الواقع من أداء أى عمل ، مما يفرضه عليه رجال السلطان ، ويكون مما يكرهه

جاء فى الحلية : «.. وصار الى صاحب المنزل ، فقال : أعطيك كل شهر ثلاثة آلاف (درهم) مكان المائدة . فقلت : لا أفعل . وجعلت رسل المتوكل تأتيه ، يســألونه عن خبره ، فيصــيرون اليه ، ويقولون : هو ضعيف . وفى خلال ذلك يقولون : يا أبا عبد الله لابد له من أن يراك . فسكت . فاذا خرجوا قال : ألا تعجب من قولهم لابد له من أن يراك ؟ وما عِلْمُهم أنه لابد له من أن يرانى ؟

(*) هو أبو يعقوب اسحق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلى المروزى ثم النيســابورى توفى سنة ٢٣٨ هـ . وعلى الرغم مما جاء فى الحلية وطبقات الشافعى لابن السبكى من انتقــــاد أحمد بن حنبل له ، لاتصاله بالامير عبد الله بن طاهر الا ان كتب الطبقات الاخرى اوردت ثناء مستفيضا من احمد لاسحق بن راهويه ففى تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٢ ص ٢٠ ان احمد قال : لا أعلم لاسحق بالعراق نظيرا ، واسحق لم يلق مثله . وفى شذرات الذهب ج ٢ ص ٨٩ أن احمد قال : ما عبر الجسر (أى جسر بغداد) مثل اسحق . ولم ينــــاقش المؤلف تناقض هذه المصادر

(١) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعى الذى كان قائدا فى عهد الخليفــة المأمون توفى فى خلافة الواثق سنة ٢٣٠ هـ وكان اليه الحرب والشرطة والســواد وخراســان والرى وطبرستان وكرمان . وكان من ادب الناس وأعلمهم بأيام العرب راجع الطبرى جـ ٧ ص ٢٣٢ وشذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٢ ، ٣١ ، ٦٨

« وكان فى هـذه (الدار) حجرة صـغيرة ، وفيها بيتـان . فقال لى : ادخلونى تلك الحجرة ، ولا تسرجوا لى سراجا . فأدخلناه اليها . فجاءه يعقوب ، فقال : يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين ، مشتـاق اليك ويقول : انظر اليوم الذى تصير التى فيه ، أى يوم هو ، حتى أعرفه . فقال : ذاك اليكم . فقال : يوم الأربعاء يوم خال . وخرج يعقوب ، فلما كان من الغد ، جاء فقال : البشرى يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول : قد أعفيتك من لبس السواد والركوب التى ، والى ولاة العهود ، والى الدار ، فان شئت فالبس القطن ، وان شئت فالبس الصوف . فجعل يحمد الله على ذلك

« قال (أحمد) : انى أعطى الله عهدا ، « ان العَهْد كان مَسئُولا (١) ». وقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفُوا بالعقُود (٢) » . انى لا أحَدث حديثا تماما أبدا ، حتى ألقى الله ، ولا أستثنى منكم أحدا . فخرجنا ، وجاء على بن الجهم ، فقلنـا له . قال : « انّا لله وانّا اليْه راجعون » (٣) وأخبـر المتوكل بذلك

وقال (أحمـد) انما يريدون أن أحدث ، فيكون هـذا البلد حبسى ، وانما كان سبب الذين أقاموا بهذا البلد ، لما أعطوا وأمروا فحدثوا

« وكانوا يدخلون عليه ، فيتكلمون وهو مُغمَّض العين ، يتَعلّل . وضعُف ضعفا شديدا . فقالوا يخبرونه . فيتوجع لذلك وجعل يقول : والله لقد تمنَّيْت الموت فى الأمر الذى كان ، وانى لأتمنى الموت فى هـذا وذاك ، ان هذا فِتْنة الدنيـا ، وكان ذاك فتنة الدين . ثم جعل يضم أصـابع يده ، ويقول : لو كانت نفسى فى يدى لأرسـلتها ، ثم يفتح أصابعه . وكان المتوكل يتوجّه اليه فى كل وقت يسأله عن حاله . وكان

---

(١) سورة الاسراء رقم ١٧ آية ٣٤

(٢) سورة المائدة رقم ٥ آية ١

(٣) سورة البقرة آية ١٥٦

فى خلال ذلك يُؤمر لنا بالمال ، فيقول : يُوصَل اليهم ولا يعلم شيخُهم ، فيغتم ما يريد منهم ، ان كان هؤلاء يريدون الدنيا فما يمنعهم ؟ وقالوا للمتوكل : انه كان لا يأكل من طعامك ، ولا يجلس على فراشك ، ويُحَرِم الذى تشرب . فقال لهم : لو نشر المعتصم لم أقبل منه

« قال أبو الفضل : ثم انى انحدرت الى بغداد ، وخَلَّفت عبد الله عنده ، فاذا عبـد الله قد قدم ، وجاء بثيابى التى كانت عنده . فقلت : ماجاء بك ؟ قال : قال لى (أبى) : انحدر وقل لصالح : لا تخرج ، فأنتم كنتم آفتى ، والله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، ما أخرجت واحدا منكم معى ، لولا مكانكم ، لمن كان توضع هذه المائدة ، ولمن كان يفرش هذا الفرش ويجرى الاجراء ؟ »

وقال المقريزى فى كتـابه المُقَفَّى (١) : « قال المروزى : سـمعت اسحق بن حنبل ، عم أحمد ، ونحن بالعسكر ، يناشده ويسأله الدخول على الخليفة ليأمره وينهاه ، وقال : انه يقبل كلامك ، هذا اسحق بن راهويه ، يدخل على ابن طاهر ، فيأمره وينهاه ، فقال له أبو عبد الله : تحتج علىّ باسحق وأنا غير راض بفعله ، ماله فى رؤيتى خير ، ولا لى فى رؤيته خير ، يجب علىّ اذا رأيته أن آمره وأنهاه ، الدنو منهم فتنة والجلوس معهم فتنة ، نحن متباعدون منهم ، ما أرانا نسلم ، فكيف لو قربنا منهم ؟ »

وقد تَبَدّدت أخيرا مخاوف أحمد من أن يجعله رجال الخليفـة واحدا من الأشخاص الملحقين بالقصر . ولذلك فان باله قد هدأ وخاطره قد اطمأن من هذه الناحية . ويبدو أن شعوره نحو أقرانه من المحدثين الذين أقاموا مع رجال الحاشية ، كان شعورا ينطوى على التقريع لهم والزراية بهم ، لأن هؤلاء المحدثين كانوا يخشون أن يصنعوا شيئا يؤدى الى حرمانهم من الأرزاق التى أجراها الخليفة عليهم ، وقد يَجُر عليهم فعلهم ما هو

---

(١) ورقة رقم ١٠

أسوأ عاقبة من ذلك . وقد ظفر أحمد بمقصوده ، وهو ضمان اعفـائه من الحضور مع رجال الحاشية . لا عن طريق الرفض المباشر لأوامر الخليفة ، ولكن بالمثابرة على بسط المعاذير له ، واظهار الكراهية لما ينتظر من أحمد أن يفعله ، وابداء التبرم والاستياء من الترتيبات العامة التى كان المتوكل يأمر بعملها له . فكان أحمد يقف فى طريق رغبات الخلافة دون أن ينكرها

١٥ ــ مراسلة احمد لأبنائه

وفى ذلك الوقت عاد ولدا أحمد ، صالح وعبد الله ، الى بغداد . وبعد انصرافهما ، أزيل الرياش الفاخر الذى أثثت به الدار ، وانقطعت المائدة التى رتب الخليفة ارسالها لأهل الدار كل يوم . وأرسل أحمد لولده صالح عن طريق ولده الآخر عبد الله الذى بقى مع أبيه مدة قصيرة ، بعد رحيل أخيه صالح الى بغداد ، ينبؤه أنه لايريد منه ولا من أخيه ، أن يقوما على رعاية أمره ، بأى حال بعد ذلك ، لأنه عزا أغلب ما ساءه من التجارب الأليمة التى عاناها ، الى عدم تأييدهما له فى الموقف الذى اتخذه ، والى نقص رعايتهما الفعالة لمبادئه . وأن رضاءهما باستضافة الخليفة لهما ، فيما لو عادا ، سوف يجر له الفضيحة وسوء الذكر عند الناس ، كما أنه عد قبولهما لصلات الخليفة وأرزاقه ، بما يناقض رغبته المعروفة وشـعوره بالواجب ، عقوقا منهما له ، وتفريطا فيما تستوجبه له طاعة البنوة ، وأن لهما أن يذهبا حيث شاءا ، فسيتبعهما دعاؤه لهما ، ولكنه رغب اليهما فى ألا يثقلا عليه بحضورهما . وقد كان هذا مضمون كتابيه الأولين لولده صالح ، بيد أنه أخذ على ولديه فى كتاب ثالث ، تقاعدهما عن السعى لاطلاقه مما عده حبسا ثقيلا منكرا . ثم نصحهما أن يلتزما داريهما ، وعبّر عن رجائه فى أن الله (سبحانه وتعالى) سيهيىء له طريق الفرج ويمنحه الهداية والسداد

« جاء فى الحلية : قال أبو الفضـل : فكتبت اليه أعلمه ما قال لى

عبد الله ، فكتب الىّ بخطه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أحسن الله عاقبتك ، ودفع عنك كل مكروه ومحذور ، الذى حملنى على الكتاب اليك ، والذى قلت لعبد الله ، لايأتينى أحد منكم ، رجاء أن ينقطع ذكرى ويخمل ، فانكم اذا كنتم ها هنا ، فشا ذكرى . وكان يجتمع اليك قوم ينقلون أخبارنا ، ولم يكن الا خيرا . واعلم يابنى أنك ان أقمت فلا تأتينى أنت ولا أخوك ، فهو رضائى ، فلا تجعل فى نفسك الا خيرا ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

« قال أبو الفضل : ثم ورد الىّ كتاب آخر بخطه يذكر فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : أحسن الله عاقبتك ودفع عنك السوء برحمته ، كتابى اليك ، وأنا فى نِعَم الله متظاهرة ، وأسأله اتمامها ، والعَون على أداء شكرها ، قد انفكت عنا عُقَد ، انما كان حُبِس من هاهنا ، لما أعطوا ، فقبلوا ، وأجرى عليهم فصاروا فى الحد الذى صاروا اليه ، وحدثوا ودخلوا عليهم ، فهذه كانت قيودهم ، فنسأل الله أن يعيذنا من شرهم ويخلصنا . فقد كان ينبغى لكم ، لو قد فديتمونى بأموالكم وأهليكم ، لهان ذلك عليكم للذى أنا فيه ، فلا يكبر عليكم ما أكتب به اليكم . فالزموا بيوتكم ، فلعل الله أن يخلصنى. والسلام عليكم ورحمة الله

« ثم ورد غير كتاب الىّ بخطه ، بنحو من هذا ، فلما خرجنا من العسكر ، رفِعت المائدة والفَرْش وكل ما أقيم لنا »

١٦ ـ وصية أحمد (*)

ولما كان أحمد بالعسكر ، كتب وصيته ، وفيما يلى نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد ألا اله الا الله ، وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله «بالهُدى ودِينِ الحَق، ليُظهِرهُ على الدينِ كلّه ، ولوْ كَرِه المشركون[1]».

(*) أورد المؤلف النص العربى لوصية أحمد نقلا عن حلية الاولياء لابى نعيم ، ثم ترجمها وقد اثبتنا الأصل

(١) سورة التوبة رقم ٩ آية ٣٣ ، وكذلك سورة الصف رقم ٦١ آية ٩

وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته ، أن يعبدوا الله فى العابدين ، ويحمدوه فى الحامدين ، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين ، وأوصى أنى قد رضيت بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وأوصى أن لعبد الله بن محمد ، المعروف ببوران ، علىّ نحوا من خمسين دينارا ، وهو مُصَدق فيما قال ، فيُقْضى ماله علىّ ، من غلّة الدار ان شاء الله . فاذا استوفى ، أعْطِى ولد صالح وعبد الله ، ابنا أحمد بن حنبل، كل ذكر وأنثى عشرة دراهم ، بعد وفاء مال أبى محمد . شهِد أبو يوسف وصالح وعبد الله ابنا أحمد بن محمد بن حنبل »

١٧ ـ الاذن له بالعودة الى بغداد

ولم يمض وقت طويل حتى التمس أحمد مرة أخرى تغيير موضع اقامته . وقد لبى الخليفة رجاءه فى كثير من العطف والرعاية . ولم يُتح له فحسب السكنى فى دار أخرى ، بل أرسل اليه ألف دينار ليفرقها على الفقراء والمساكين . كما أذن له فى نفس الوقت فى العودة الى داره ، وأمر بأن تُعَد له حَراقة (*) لتعود به الى بغداد . غير أن أحمد رفض هذه المنة الأخيرة ، مفضلا السفر براً لا نهراً ، لأن صحته تتعرض للخطر بسبب البرودة فى رحلة النهر . ولما رحل لداره ، أمر المتوكل بكتابة كتاب الى محمد بن عبد الله حاكم بغداد ، يأمره فيه بالترفق به والحدب عليه ، وأن يتخذ نحوه كل رعاية واهتمام

« قال أبو الفضل (١) : ثم سأل أبى رحمه الله أن يَتحَول من الدار التى اكترِيَت له . فأكرى هو دارا ، وتحول اليها . فسأل المتوكل عنه . فقيل : انه عليل . فقال : كنت أحب أن يكون فى قربى ، فقد أذنت له ، يا عُبَيْد الله ، احمِل اليه ألف دينار ، يَقسِمها . وقال لسعيد : تهَيَّأ

(*) فى الاصل : pleasure harge اى سفينة للنزهة وهى ترجمة المؤلف لكلمة : حراقة ، نقلا عن المصدر الذى رجع اليه وهو كتاب الحلية لابى نعيم

(١) الحلية لابى نعيم ورقة ١٥٣ ا (*) طبعة القاهرة جـ ٩ ص ٢١٣ وانى الآن أتابع هذا المصدرلفترة من الوقت ، فيما أبسط من البيان

له حَراقة ينحدر فيها . فجاءه على بن الجهم فى جوف الليل ، فأخبره . ثم جاء عُبَيْد الله ، ومعه ألف دينار ، فقال : ان أمير المؤمنين قد أذن لك ، وقد أمر لك بهذه الألف دينار ، فقال : قد أعفانى أمير المؤمنين مما أكره . فردها وقال : أنا رقيق على البرد ، والظَّهر أرفق بى ، فكُتِب له جواز . فكتب الى محمد بن عبد الله فى بِره وتعاهده »

١٨ ــ اعتراضه على الأرزاق التى تتناولها أسرته من السلطان

ومنذ عودة أحمد الى بغداد ، أصبح الباقى من قصة سيرته لا يتجاوز سوى القليل من أخبار الخلافات بينه وبين أسرته ، وعلى الأخص بينه وبين ولديه : صالح وعبد الله ، وكذلك بينه وبين عمه اسحق بن حنبل ، وكانت هذه الخلافات تدور على الأرزاق والهدايا التى كان الخليفة ينفحهم بها من وقت لآخر . فكان يعمد الى سد الأبواب بينه وبين دور ولديه ، اذا ما أفصحوا عن عزمهم على قبول هذه العطايا التى كانوا بحاجة اليها لاعالة أسرهم

وكانوا يخالفون رأيه مخالفة شديدة حين يذهب الى أن موقفهم مماثل لموقفه ، وأن ما يصلح له يصلح لهم . وقد ينقطع عن ولديه مدة شهرين أوثلاثة . ولايتصلان به ، فيما يبدو، الا حين يذهب أبناؤهما خلال لعبهم الى دار جدهم ، فيثيرون فيه شعور العطف والرحمة ، أو حين يقوم صديقه الوفى بُوران (عبد الله بن محمد) بالوساطة للتوفيق بين الفريقين

وفى الحق ان عمه اسحق بن حنبل لم يقم نحو أحمد بالدور الذى كان يليق به أن يؤديه . فقد تظاهر بالمودة الخالصة والرعاية التامة لرغبات ابن أخيه من حيث وجوب الكف عن تناول المال من الخليفة ، بينا كان فى نفس الوقت يأخذه مع الباقين . ولما كشف أحمد عن هذا النفاق والمواربة ، عضب غضبا شديدا . ولم تجْد نفعا محاولة اسحق فى الاعتذار والتنصل بدعوى أنه كان يأخذ هذا المال لكى يتصدق به ، لأنه كان يعلم كما علم أحمد ، أنه لم يتصدق بشىء . ثم كف أحمد عن الصلاة فى المسجد الذى كان

يصلى فيه ولداه وعمه . فكان يؤدى الفرائض فى مسجد آخر يبعد عن الحى الذى كان يعيش فيه

قال أبو نعيم (١) : « فقدم (أحمد) علينا فيما بين الظهر والعصر . فلما انحدر الى بغداد ، ومكث قليلا ، قال لى : يا صالح . قلت : لبيك. قال : أحب أن تدع هذا الرزق ، فلا تأخذه ، ولا توكل فيه أحدا ، فقد علمت أنكم انما تأخذونه بسببى . فسكت . فقال : مالك ؟ فقلت : أكره أن أعطيك شيئا بلسانى ، وأخالف الى غيره ، فأكون قد كذبتك ونافقتك ، وليس فى القوم أكثر عيالا منى ولا أعذر ، وقد كنت أشكو اليك ، فتقول : أمرك منعقد بأمرى ، ولعل الله أن يحل عنى هذه العقدة . ثم قلت له : وقد كنت تدعو لى ، فأرجو أن يكون الله استجاب لك . قال : ولا تفعل . قلت : لا . فقال : قم ، فعل الله بك وفعل . فأمر بسد الباب بينى وبينه ، فتلقانى عبد الله ، فسألنى فأخبرته ، فقال : ما أقول أنا ؟ قلت : ذاك اليك . فقال له مثل ما قال لى . فقال : لا أفعل . فكان منه اليه نحو ما كان منه الى . فلقينا عمه فقال : لو أردتم أن تقولوا له ، وما علمه اذا أخذتم شيئا ؟ فدخل عليه فقال : يا أبا عبد الله لست آخذ شيئا من هذا . فقال : الحمد لله . وهجرنا وسد الأبواب بيننا وبينه وتحامى منزلنا أن يدخل منه الى منزله شىء

« قال أبو الفضل : فلما مضى نحو شهرين ، كتب لنا بشىء ، فجيىء به الينا ، فأول من جاء عمه ، فأخذ ، فأخبر ، فجاء الى الباب الذى كان سده بينى وبينه . وقد فتح الصبيان كوة . فقال : ادعوا لى صالحا ، فجاء الرسول ، وقلت له : قل له لست أجيىء . فوجه الى : لم قلت لا تجيىء ؟ فقلت : قل له : هذا الرزق ترتزقه جماعة كثيرة ، وانما أنا واحد منهم ، وليس فيهم أعذر منى ، واذا كان توبيخ ، خصصت

---

(١) لقد بسط أبو نعيم فى اسهاب ، المنازعات التى وقعت بين احمد وافراد اسرته بشأن الصلات والارزاق التى أجراها الخليفة عليهم . ولكن الباقى من قصتها ليست له أهمية خاصة ولا يختلف اختلافا يسيرا عن هذا الاقتباس الذى أوردناه .

به أنا . فلما نادى عمه بالأذان ، خرج . فلما خرج ، قيل لى : انه قد خرج الى المسجد . فجئت حتى صرت فى موضع أسمع فيه كلامه . فلما فرغ من الصلاة ، التفت الى عمه ، ثم قال له : نافقتنى وكذبتنى ، وكان غيرك أعذر منك ، زعمت أنك لاتأخذ من هذا شيئا ، ثم أخذته ، وأنت تستغل مائتى درهم ، وعمدت الى طريق المسلمين تستغله ، انما أشفق عليك أن تطوق يوم القيامة سبع أرضين ، أخذت هذا الشيء بغير حقه . فقال : قد تصدقت . فقال : تصدقت بنصف درهم ؟ ثم هجره وترك الصلاة فى المسجد ، وخرج الى مسجد خارج يصلى فيه »

وقد أجمع أفراد أسرة أحمد على أن يكفوا عن تناول صلات الخليفة مرة أو مرتين ، وذلك حين أضجرتهم معارضة أحمد وأنهكتهم . غير أنهم بعد أن كفوا مدة من الزمن عن هذه الصلات ، وجدوا أن الحاجات الضرورية لأسرهم قد أرهقتهم وحملتهم على اطراح التجمل وانكار الذات ، فعادوا للمطالبة بأرزاقهم . وأخيرا اضطر أحمد الى أن ينتهى به الأمر الى الكتابة الى يحيى بن خاقان ، ليخبره بأنه اعتزم المطالبة بايقاف تلك الصلات المنتظمة التى توهب لأسرته . غير أن صالحا كان قد سبق أباه ، فأنبأ العامل الذى كان يشرف على هذا القسم من بغداد ، الذى كانت تقطنه أسرة أحمد ، برغبته فى مواصلة اجراء الأرزاق ، فأفلح بذلك فى أن يجعل كتاب أبيه عديم الأثر ، لايحقق الغاية التى كتب من أجلها . ولذا ظلت المساعدة المالية مبذولة . بل لم يقتصر الأمر على هذا ، اذ دفع لأبنائه مبلغ أربعين ألف درهم ، وهو جملة الأرزاق المتأخرة المستحقة لأسرة أحمد لمدة عشرة أشهر ، التى لم تكن الأسرة قد سحبتها . وقد أخبر صالح أباه بأمر هذا المال ، مع أن الخليفة أمر عماله ألا يعلموا أحمد به . بيد أن الشيخ حين سمع بهذه الرسالة ، لاذ بالصمت والتفكير برهة ، ثم صاح قائلا : « ماحيلتى اذا أردت أمرا وأراد الله أمرا ؟ »

جاء فى الحلية [1] : « قال أبو الفضل : ثم كتب أبى رحمه الله الى يحيى

(١) لأبى نعيم ورقة ١٥٣ ب (*) طبعة القاهرة جـ ٩ ص ٢١٥

ابن خاقان ، يسأله ويعزم عليه ألا يعيننا على شيء من أرزاقنا ، ولا يتكلم فيها . فبلغني . فوجهت الى القيّم لنا وهو : أبو غالب بن بنت معاوية ابن عمرو، وقدكنت قلت له : يا أبَتِ انه يكبر عليك ، وقد عزمت اذا حدث أمر ، أخبرتك به . فلما وصل رسوله بالكتاب الى يحيى ، أخذه صاحب الخبر . فأخذ نسخته . ووصلت الى المتوكل . فقال لعبيد الله : كم من شهر لولد أحمد بن حنبل ؟ فقال : عشرة أشهر . قال : يُحمل اليهم الساعة أربعون ألف درهَم من بيت المال ، صِحاح ، ولا يُعلم هو بها . قال : فقال يحيى للقيِّم : أنا أكتب الى صالح وأعلمه . فورد عليَّ كتابه . فوجَّهت الى أبي ، اعلمته . فقال الذى أخبره : انه سكت قليلا وضرب بذقنه ساعة ثم رفع رأسه ، فقال : ما حيلتى اذا .. الخ »

١٩ ــ اتهام احمد مرة أخرى بالدسائس العلوية

بعد عودة أحمد الى بغداد (ولا نعلم متى عاد) رفع أحد الوشاة ، للمتوكل تلك السعاية القديمة وهى أن أحمد كان يأوى أحد العلويين فأنبأ الخليفة أحمد بهذا الخبر ، وأعلمه أنه حبس الساعى به الى أن يكشف أحمد عن حقيقة هذه الدعوى ، ويشير بما يصنعه الخليفة مع الرجل . فأجاب أحمد بأنه يجهل المسألة كلها ، ونصح بوجوب اطلاق سراح الرجل ، وأن قتله قد يجر المصائب على كثيرين ممن لم يشاركوا فى جرمه

« قال أبو الفضل (١) : وجاء رسول المتوكل الى أبى يقول : لو سلِم أحد من الناس ، سلِمت . رفع رجل الى فى وقت كذا ، أن علوياً قدم من خراسان ، وأنك وجّهت اليه من يلقاه . وقد حبَست الرجل ، وأردت ضَربَه ، وكرهت أن تغتم ، فمُر فيه . فقال : هذا باطل ويُخلى سبيله »

وقد روى رجل يُدعى أبو جعفر بن ذريح العُكبرى أنه قصد أحمد

(١) الموضع السابق

فى سنة ٢٣٦ هـ ، ليسأله فى مسألة من مسائل الدين (ويظهر أن هناك خطأ فى تحديد هذه السنة ، لأن الظروف تدل على أن ذلك كان وقت اتهام أحمد للمرة الثانية بأنه استضاف علويا وآواه . وقد حدث هذا الاتهام بعد عودة أحمد من زيارته للعسكر فى سنة ٢٣٧ هـ) ، غير أنه قيل للعكبرى عند دار أحمد انه خرج للصلاة ، بعيدا عن هذا الحى من المدينة . ولذا فان أبا جعفر جلس على باب الدرب انتظارا لعودة أحمد ، وفى هذه اللحظة جاء شيخ طويل أسمر ، خضب شعر رأسه ولحيته ، فصحبه الزائر داخل الدرب . وفى نهاية الدرب ، فتح هذا الشيخ وهو أحمد بن حنبل ، الباب ، ودخل ، ثم أغلقه بعد أن أمر رفيقه بالانصراف . وفى تلك الفترة ، لمح الزائر عند الباب مسجدا ، وكان الناس يصلون فيه ، ويؤمهم شيخ مخضوب الشعر . ولما فرغ هذا الامام من صلاته ، سأل أبو جعفر العكبرى أحد المصلين ، عن أحمد بن حنبل ، وعن سبب امتناعه عن الرد عليه . فأجاب بأن أحمد قد اتهم بأنه استضاف علوياً ، وأن رئيس الشرطة قد عمد بناء على هذا ، على بث رجاله للاحاطة بدار أحمد . ثم مضى بعد ذلك فى تفتيشها فتجافى أحمد لهذا السبب الكلام مع الناس . غير أن الشرطة لم تجد مع ذلك شيئاً يؤيد التهمة التى رُمِى بها أحمد . فسأل أبو جعفر حينئذ عمن كان يؤم المصلين فى المسجد ، فلما أجيب بأنه اسحق بن حنبل عم أحمد ، استفسر عما منع أحمد بن حنبل من الصلاة خلف عمه فى هذا المسجد القريب من داره . فرد ذلك الذى سئل بأن أحمد لايصلى مع عمه ولا يصلى حتى مع ولديه . كما أنه لايكلم أحدا منهم لأنهم قبلوا صلات الخليفة وعطاياه

قال أبو نُعَيْم (1) : « حدثنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن مالك ، حدثنا أبو جعفر بن ذريح العكبرى ، قال : طلبت أحمد بن حنبل فى سنة ست وثلاثين لأسأله عن مسألة . فسألت عنه ، فقالوا : خرج يصلى خارجاً . فجلست له على باب الدرب ، حتى جاء ، فقمْت فسلَّمت عليه . فرد علَىّ

(1) الحلية ورقة ١٤٢ ا (*) طبعة القاهرة جـ ٩ ص ١٧٦

السلام . وكان شيخاً مخضوباً طوالا ، أسمر شديد السُّمْرة . فدخل الزقاق ، وأنا معه أماشيه خطوة بخطوة . فلما بلغنا آخر الدرب ، اذا باب يفرج دفعه ، وصار خلفه ، وقال : اذهب عافاك الله . فثنيت عليه ، فقال : اذهب عافاك الله . قال : فالتَفَتّ ، فاذا مسجد على الباب ، وشيخ مخضوب قائم يصلى بالناس . فجلست حتى سلّم الامام . فخرج رجل ، فسألته عن أحمد بن حنبل ، وعن تخلفه عن كلامى ، فقال : ادعِى عليه عند السلطان أن عنده علويا ، فجاء محمد بن نصر ، فأحاط بالمحلّة ففتّشت ، فلم يوجد فيها شىء مما ذكر . فأعجم عن كلام العامة . فقلت : هذا الشيخ من هو ؟ قال : عمّه اسحق . قلت : فما له لا يصلى خلفه ؟ قال : ليس يكلم ذا ولا بنيه ، لأنهم أخذوا جائزة السلطان»

٢٠ ـ استفسار الخليفة من أحمد عن رأيه فى القرآن

لم يكف المتوكل قط عن اظهار عطفه على أحمد واهتمامه براحته . وكانت هذه العناية مما يكرهه أحمد وينفر منه أشد النفور ، لسبب يتعذر علينا أن تتبينه أو نحدسه . وقد أعلن أنه يؤثر الموت على أن يعيش فى رعاية دائمة لا تنقطع من جانب الخليفة

قال (أبو الفضل) (١) : وكان رسول المتوكل يأتى أبى يبلغه السلام ويسأله عن حاله ، فَنُسَر نحن بذاك ، فتأخذه نَفْضة حتى نُدثّره ، يقول : والله لو أن نفسى فى يدى لأرسلتها ، ويضم أصابعه ثم يفتحها »

ومن شواهد اهتمام الخليفة بأحمد ، الكتاب الذى كتبه عبيد الله بن يحيى على لسان الخليفة ، يطلب فيه من أحمد أن يكتب له برأيه فى القرآن ، لا ليتثبت من مطابقته لرأى السلطان وانما لمجرد اطلاع أمير المؤمنين وتبصرته . وقد أملى أحمد رده على ولده فى كتاب بعث به الى عبيد الله ابن يحيى

---

(١) الحلية لأبى نعيم الموضع السابق

٢١ ـ كتاب احمد فى رده على هذا الاستفسار

« حدثنا (١) سليمان بن أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمه الله ، وحدثنا محمد وعلى والحسين قالوا : حدثنا محمد بن اسماعيل ، حدثنا صالح بن أحمد بن حنبل قال : كتب عبيد الله بن يحيى الى أبى ، رحمه الله ، يخبره أن أمير المؤمنين أمرنى أن أكتب اليك أسألك عن أمر القرآن ، لا مسألة امتحان ، ولـكن مسألة معرفة وبصيرة ، فأملى علىّ أبى رحمه الله ، الى عبيد الله بن يحيى ، وحدى ما معى أحد

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحسن الله عاقبتك أبا الحسن فى الأمور كلها ، ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته . قد كتبت اليك ، رضى الله عنك ، بالذى سأل عنه أمير المؤمنين ، بأمر القرآن بما حضرنى ، وانى أسأل الله تعالى أن يُديم توفيق أمير المؤمنين ، فقد كان النـاس فى خوض من الباطل ، واختلاف شديد ينغمسون فيه ، حتى أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين ، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة ، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضـيق المحابس ، فصرف الله ذلك كله .. وذهب به أمير المؤمنـين ، فوقع ذلك من المسـلمين موقعا عظيمـا ، ودعوا الله لأمير المؤمنين . فأسأل الله أن يستجيب فى أمير المؤمنين صالح الدعاء ، وأن يُتم ذلك لأمير المؤمنين ، وأن يزيد فى نيته ، ويعينه على ما هو عليه

فقد ذكر عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه أنه قال : لا تضربوا كتاب الله ، بعضه ببعض ، فان ذلك يُوقع الشك فى قلوبكم . وذكر عن عبدالله ابن عمر ، رضى الله عنه ، أن نفرا كانوا جلوساً بباب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضُهم : ألم يقل الله كذا ؟ وقال بعضُهم : ألم يقل الله كذا ؟

قال : فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج كأنما فُقِىء فى وجهـه حب الرمان . فقـال : أفبـهذا أمِرتم أن تضربوا كتاب الله

---

(١) حلية الاولياء لابى نعيم ورقة ١٥٣ ب (*) طبعة القاهرة جـ ٩ ص ٢١٦

بعضه ببعض ؟ انما ضلّت الأمم قبلكم فى مثل هذا ، انكم لستم مما هاهنا فى شىء . انظروا الذى أمرتم به فاعملوا به ، وانظروا الذى نُهيتم عنه فانتهوا عنه . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مِراءٌ فى القرآن كفر» . وروى عن أبى جُهَيم ، رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : لا تمَاروا فى القرآن ، فان مراء فيه كفر

***

« وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنه : قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجل . فجعل عمر يسأل عن الناس فقال : يا أمير المؤمنين ، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا . فقال ابن عباس : فقلت : والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا فى القرآن هذه المسارعة . قال : فزبرنى عمر وقال : مَه . فانطلقت الى منزلى مكتئبا حزينا (١) . فبينا أنا كذلك ، اذ أتانى رجل فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت فاذا هو بالباب ينتظرنى . فأخذ بيدى فخلا بى ، وقال : ما الذى كرهت مما قال الرجل آنفاً ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين متى يتسارعوا هذه المسارعة يَحتقوا (*) ، ومتى ما يَحتقوا يختصموا ، ومتى ما يختصموا يختلفوا . ومتى ما يختلفوا يقتتلوا . قال : لله أبوك ، والله ان كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها

« وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يَعرض نفسه على الناس بالموقف ، فيقول : هل من رجل

---

(١) وذلك لان عمر قاوم تحمس ابن عباس للقرآن

(*) فى الاصل المخطوط فى ليدن ، من كتاب الحلية الذى نقل عنه المؤلف : « يختفوا » من الاختفاء أى عدم الظهور . ولكن المؤلف عندما ترجم نص كتاب ابن حنبل الى الانجليزية قال : They read with mumbling voice أى يقرأون القرآن فى همس وتمتمة ، وأقرب هذه المعانى للشكل الاصلى للكلمة فى النص هو « يخفتوا » . وفى الطبعة القاهرية للحلية : يختلفوا . وبما أن كلمة : يختلفوا وردت فى النص فيما بعد فانى أرجح أن الخطوة السابقة على الاختصام هى الاحتقاق يقال حاققت صاحبى فحققته أحقه : خاصمته . واحتقوا فى الدين : اختصموا

يحملنى الى قومه ؟ فان قريشاً قد منعونى أن أبَلِّغ كلام ربى . وروى عن جبير بن نُفَير ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انكم لن ترجعوا الى الله بشىء أفضل مما خرج منه . يعنى القرآن . وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : جَرِّدوا القرآن ، ولا تكتبوا فيه شيئا الا كلام الله . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : هذا القرآن كلام الله ، فضعوه مواضعه

« (و) قال رجل للحسن البَصْرى : يا أبا سعيد ، انى اذا قرأت كتاب الله وتدبرته ، كِدت أن آيس وينقطع رجائى . قال : فقال الحسن : ان القرآن كلام الله ، (و) أعمال بنى آدم الى الضعف والتقصير ، فاعمل وأبشر . وقال فروة بن نوفل الأشجعى : كنت جارا لخبَّاب وهو من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فخرجت معه يوما من المسجد ، وهو آخذ بيدى ، فقال : يا هناه ، تقرب الى الله بما استطعت ، فانك لن تقرب الله بشىء أحب اليه من كلامه . وقال رجل للحَكَم بن عيينة : ما حمل أهل الأهواء (*) على هذا ؟ قال : الخصومات . وقال معاوية

(*) ترجم المؤلف عبارة « أهل الاهواء » بكلمة The Sceptics أى الشكاك . ان هذه الكلمة وهى شكاك لا تمثل معنى العبارة الاصلية وهى : « أهل الاهواء » . وقد كان هؤلاء طائفة من الناس ليسوا على استعداد لاعتناق المذاهب الدينية التى يدين بها غيرهم . الا اذا هداهم استدلالهم وتفكيرهم الى تثبيتهم فى الموقف الذى اتخذوه . ومن ثم فهم فى موقفهم الاول شكاك ، ثم أنهم يعمدون بعد الشك الى انتقاء ما يوافق آراءهم من هذه المذاهب أو العقائد المختلفة أو ما يرغبون فيه منها . ولذا ينطبق عليهم ما سموا به وهو أهل الاهواء أى أهل الرغبات ، انظر الملل والنحل للشهرستانى ترجمة هاربريكر حراص أو هامشها . وكتاب المعتزلة بقلم شتبز ص ٦

ويقول مترجم الكتاب الى العربية أن ترجمة عبارة أهل الاهواء بكلمة Sceptics اى شكاك تبعد بها كثيرا عن معناها العربى ، والاقرب اليها كلمة Prejudice أى الهوى أو الميل . وقد أنكر هذه الترجمة المستشرق جولدسيهر فى نقده لكتاب باتون اذ قال : « وفى ص ١٦١ فسر المؤلف عبارة أهل الاهواء بأنهم الشكاك الذين يأبون التسليم بما يسلم به غيرهم من العقائد الدينية . ولكنها تطلق أيضا على المنتمين الى الاحزاب الدينية والسياسية فيقال مثلا : يهوى هوى ابن الزبير ويدعو اليه ويهوى هوى بنى أمية ، راجع مجلة المستشرقين الالمانية المجلد ٥٢ ص ١٥٩ سنة ١٨٩٨ — »

ابن قـُرة ، وكان أبوه ممن أتى النبى صلى الله عليه وسلم : اياكم وهذه الخصومات فانها تـُحْبـِط الأعمال

وقال أبو قلابة ـ وكان قد أدرك غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : لا تـُجَالسوا أصحاب الأهواء ، أو قال أصحاب الخصومات ، فانى لا آمَن أن يَغـْمِسـُوكم فى ضلالتهم ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون . ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين ، فقالا : يا أبا بكر نحدثك بحديث . فقال : لا . فقالا : فنقرأ عليك آية من كتاب الله . قال : لا ، لتقومان عنى أو لأقومنـَّه . قال : فقام الرجلان ، فخرجا . فقال بعض القوم : يا أبا بكر ، وما عليك أن تـُقرأ عليك آية من كتاب الله ؟ فقال له ابن سيرين : انى خَشـِيت أن يقرآ علىّ آية فيحرفانها ، فيقر ذلك قلبى . وقال محمد : لو أعلم أنى أكون مثلى الساعة لتركتـُهما

« وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختيانى : يا أبا بكر أسألك عن كلمة . فولـّى وهو يقول بيده : ولا نصف كلمة . وقال طاووس بن طاووس لابن له ، وتكلم رجل من أهل البدع : يابنى أدخـِل أصبعيك فى أذنيك ، حتى لا تسمع ما يقول . ثم قال : اشدد اشدد . وقال عمر ابن عبد العزيز : من جعل دينه غرضا للخصومات ، أكثر التنقل

« قال أبو الفضل : وجدت فى كتاب أبى بخطه : حدثنا اسماعيل عن يونس ، قال : نـُبـِّئـْت أن عمر بن عبد العزيز قال : من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل . وقال ابراهيم النخعى : ان القوم لم يـُدخر عنهم شىء خبىء لكم لفضل عندكم . وكان الحسن يقول : شـَر داء خالط قلبا ، يعنى الأهواء (*) . وقال حـُذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله معشر القـُراء ، وخذوا طريق من كان قبلكم ، والله لئن استبقتم لقد سبقتم سبقا

(*) اى شرداء خالط قلبا هو داء أصحاب الاهواء

بعيدا ، ولئن تركتموه يمينا وشمالا، لقد ضللتم ضلالا بعيدا أوقال : مبينا. قال أبى : وانما تركت ذكر الأسانيد لما تقدم من اليمين التى حلفت بها (*) مما قد علمه أمير المؤمنين ، (و) لولا ذاك (ل)ـذكرتها بأسانيدها . وقد قال الله تعالى: « وانْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجره ، حتى يسمع كلام الله (١) » . وقال : « ألا له الخلق والأمر (٢) » . فأخبر بالخلق ثم قال : والأمر . فأخبر أن الأمر غير الخلق . وقال تعالى : « الرحمن ، علّم القرآن ، خلق الانسان ، علّمه البيــان (٣) » . فأخبر تعالى أن القرآن من علمه . وقال : « ولن ترضى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، مالكَ من الله من وليٍّ ولا نصير (٤) »

وقال : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ، ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ،وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، انك اذاً لمنَ الظالمين (٥)». وقال : « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالكَ من الله من وليٍّ ولا واق (٦) » . فالقرآن من علم الله . وفى هذه الآيات دليل على أن الذى جاءه صلى الله عليه وسلم ، هو القرآن ، لقوله : (ولئن اتّبعتَ أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم (٧)). وقد روى

(*) يريد أن أحمد بن حنبل كان قد أقسم الا يحدث حديثا بتمامه

(١) سورة التوبة رقم ٩ آية

(٢) سورة الاعراف رقم ٧ آية ٥٤

(٣) سورة الرحمن رقم ٥٥ آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) سورة البقرة رقم ٢ آية ١٢٠

(٥) سورة البقرة رقم ٢ آية ١٤٥

(٦) سورة الرعد رقم ١٣ آية ٣٧

(٧) أهواء Passions فى هذه الايات ، تمثل نظيرتها فى عبارة « أهل الاهواء » وعلى ذلك فانه يجب أن يفهم معنى أهواء فى هذه الايات على انه انكار لتحكيم العقل فى المسائل الاعتقادية (يقول مترجم الكتاب : عاود المؤلف اصراره على اعتبار أن اهل الاهواء يحكمون العقل فى المسائل الاعتقادية وقد رددت على ذلك فى حاشية سابقة ويؤيد ماذهبت اليه ماجاء فى تأويل هــذه الاية فى تفسير الطبرى حـ ٢ ص ١٥ : « ولئن اتبعت أهواءهم (أى) ولئن التمست يا محمد رضى هؤلاء اليهود والنصارى

عن غير واحد ممن مضى من سَلَفِنا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو الذى أذهب اليه ، لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام فى شىء من هذا الأمر ، الا ما كان فى كتاب الله أو فى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو عن أصحابه أو عن التابعين ، فأما غير ذلك ، فان الكلام فيه غير محمود »

٢٢ ـ زيارة يحيى بن خاقان لاحمد

وقد حدث ذات مرة ، حين نزل المتوكل الشماسية فى طريقه الى المدائن ، أنه كان من المنتظر أن يخف أحمد وأفراد أسرته لاستقباله ، أو يبعثوا بمن يؤدى عنهم واجب الاحترام والولاء للخليفة . ولكن حدث أن أحمد لم يذهب هو بنفسه ولم يأذن لولده صالح بالذهاب ، خوفا من أن يثير انتباه الخليفة اليه . وقد ترتب على ذلك أن يحيى بن خاقان جاء فى اليوم التالى فى موكب عظيم لزيارة أحمد وابلاغه تحيات الخليفة واستفساره الودى عن أحواله ، كما سأله الدعاء لأمير المؤمنين

وقد أكد أحمد ليحيى فيما يتعلق بهذا الأمر الأخير أنه يدعو لمولاه كل يوم . ثم أعطاه يحيى ألف دينار ليوزعها على الفقراء . بيد أن أحمد أبى أخذها ملتمسا اعفاءه كما صنع فى غير ذلك من المناسبات ، بحجة أن الخليفة قد أباح له الاعتذار عن القيام بأى عمل يشعر نحوه بغضاضة فى نفسه ، ويثير فيه نفورا واستثقالا . وأخيرا أعْطِى المال لَوَلَدى أحمد

جاء فى الحلية (١) : قال أبو الفضل : وقدم المتوكل ، فنزل الشماسية يريد المدائن . فقال لى أبى : يا صالح أحب ألا تذهب اليهم ولا تُنَبِّه علىَّ . فلما كان بعد يوم وأنا قاعد خارجا ، وكان يوما مطيرا ، اذا يحيى ابن خاقان قد جاء والمطر عليه فى موكب عظيم ، فقال : سبحان الله لم تصر الينا حتى تُبْلِغ أمير المؤمنين السلام عن شيخك ، حتى وجَّه بى ،

---

(١) ابو نعيم ورقة ١٥٥ ا (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ٢١٩

ثم نزل خارج الزقاق . فجهدت به أن يدخل على الدابة ، فلم يفعل . فجعل يخوض المطر ..

فلما صار الى الباب ، نزع جُرمُوقَه وكان على خفه ، ودخل وأبى فى الزاوية قاعد ، عليه كساء مربع وعمامة ، والستر الذى على الباب خَيْش . فَسلَّم عليه ، وقَبَّل جبهته وسأله عن حاله ، وقال : أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول : كيف أنت فى نفسك ؟ وكيف حالك ؟ وقد أنِسْت بقربك ، ويسألك أن تدعو له . فقال : ما يأتى علَّى يوم الا وأنا أدعو له . ثم قال : قد وجَّه معى ألف دينار لك تفرقها على أهل الحاجة . فقال لى : يا أبا زكريا ، أنا فى البيت منقطع عن الناس ، وقد أعفانى من كل ما أكره ، وهذا مما أكره . فقال : يا أبا عبد الله ، الخلفاء لا يحتملون هذا . فقال : يا أبا زكريا تلطف فى ذلك . فدعا له ، ثم قام . فلما صار الى الدار ، رجع وقال : هكذا لو وجَّه اليك بعض اخوانك ، كنت تفعل ؟ قال : نعم . فلما صرنا الى الدهليز ، قال : قد أمرنى أمير المؤمنين أن أدفعها اليك وتفرقها . فقلت : تكون عندك الى أن تمضى هذه الأيام »

٢٣ ــ دعوة لاحمد من محمد بن عبد الله بن طاهر

وفى مناسبة أخرى ، حدث أن محمد بن عبد الله بن طاهر ، رجا أحمد أن يزوره ، وألح كثيرا فى الرجاء . غير أن أحمد عاود رفضه ، معتذرا باعفاء الخليفة له . وبعد هذه الحوادث ، أخذ نفسه أخذا شديدا بمتابعة الصوم ، امتنع فيه عن تناول أى طعام دسم ، ويبدو أنه كف عن تناول اللحم ، لأن مصدرنا يقرر بأن أحمد كان قد زود قبل هذا التاريخ من اللحم بما يساوى درهما واحدا وأنه ظل يأكل منه شهرا !

« قال أبو نعيم فى الحلية : قال أبو الفضل : وقد كان وجَّه محمد ابن عبد الله بن طاهر الى أبى فى وقت قدومه مع العسكر : أحب أن تصير الىّ ، وتُعلِمَنى اليوم الذى تعزم عليه ، حتى لايكون عندى

أحد . فوجّه اليه : أنا رجل لم أخالط السلطان ، وقد أعفـانى أمير المؤمنين مما أكره ، وهذا مما أكره . فجهد أن يصير اليه ، فأبى . وكان قد أدام الصوم لما قدم ، وجعل لا يأكل الدسم . وكان قبل ذلك يشترَى له لحم بدرهم ، ويأكل منه شـهرا . فترك أكل الشحم ، وأدام الصـوم والعمل ، فتوهمت أنه كان قد جعل على نفسه ان سلِم أن يفعل ذلك . وكان حُمِل الى المتوكل سنة سـبع وثلاثين ومائتين ، ثم مكث الى سنة احدى وأربعين . وقل يوم كان يمضى ، الا ورسول المتوكل يأتيه »

٢٤ ـ مرض أحمد وموته

والآن يبلغ بنا مجرى الحوادث الى سنة ٢٤١ هـ . ففى غرة ربيع الأول من هذه السنة ، أصيب أحمد بالحمى ، وصحبها صعوبة فى التنفس . وقد ضعف حتى صارت رجلاه لا تقويان على حمله . وعاده طبيب ، فأمر ، لكى يبرأ من مرضه ، بأن تشوى له قَرعة ثم يشرب ماءها . فرجا أحمد بصفة خاصة ألا تشوى فى بيوت ولَديه . وسرعان ما تسـامع الناس بخبر مرضه ، حتى أقبلوا عليه يعودونه وكانوا كثيرا حتى اضطروا الى اغلاق باب الدرب . ولما علم حاكم بغداد باحتشاد هذه الجموع ، وضع الحراس على باب الدرب ، بينا وضعت أسرته أيضا حراسا على باب الدار . ولم يؤذن بالدخول عليه الا للأطباء ولمن يرغب أحمد نفسه فى رؤيته . وممن سُمِح له بالدخول عليه ليعوده جار له ، وهو شيخ مخضوب شعر الرأس واللحية. ولمـا وقع نظر أحمـد عليه فرح به وابتهج لمقدمه ، ونبـه اليه أولئك الذين يحيطون به ، لأنه ممن يحيى سنة النبى (عليه السلام)

وكانت أخبار مرضه ترسَل يوميا من بغداد الى الخليفة بالعسكر ، بيد أنها لم تكن أخبارا تقوى الأمل فى برئه ، لأن حالة أحمـد كانت تسوء تدريجا يوما بعد يوم الى أن توفى . وقد احتمل فيما يبدو أوجاع علته فى ثبـات وصبر عظيمين ، أقامه عليهما حديث روى عن طاوس ، أنه كان يكره الأنين فى المرض ، لأنه يعادل الشكوى من قضاء الله وقدره . ولذا

لم يسمع لأحمد أنين قط الا فى اليوم الذى مات فيه . وقبل موته بيومين أو ثلاثة سأل عن كيس دراهمه ، وطلب من ولده صالح أن يخبره بما فيه . ففتحه صالح ولم يجد به الا درهما واحدا ، فأوصاه أبوه بما يصنع بهذا الدرهم ، وبشىء من غلة داره يجمعها من مستأجريها ، وأن يشترى بكل هذا تمرا يتصدق به ، ليكفر عنه كفارة يمين . وقد نفّذ صالح الأمر الذى تلقاه . وأعاد لأبيه ثلث درهم . فلما تسلمه أبوه ، فرح أملا فى أن يستقبل الموت فقيرا كما عاش فقيرا

ولم تطل مدة مرضه . وأعلن الطبيب أن ما عرض له من الهموم والأحزان ، وما اتسمت به حياته من زهد وحرمان ، قد أتلف أعضاء جسمه الداخلية وقوضها وجعل الرجاء فى برئه ضئيلا . ومن الحوادث التى تسترعى النظر، ما وقع له حين أعين على الوضوء لأداء صلاته الأخيرة ، فقد كان لايقوى على الكلام ، بيد أنه ظل شديد الاستمساك بتحرجه وتسننه فى أداء الفرائض وأحكام الدين ، فكان يشير الى ولديه أن يخللا فى الوضوء بين أصابعه وأن يغسلا ظاهرها وباطنها . فلما فرغا من أداء وضوئه ، قيل بأنه ظل هادئا برهة الى أن فاضت روحه

وقد كان يؤدى فرائض الصلاة حتى اللحظة الأخيرة من حياته . وكان ولداه يعينانه على أداء ركعاته . ومن وصاياه الأخيرة ، أن شعرات النبى الثلاث التى كانت فى حوزته ، أوصى عند موته ، بأن توضع فى كل عين من عينيه شعرة واحدة ، وأن توضع الثالثة فى فمه . وقد أنفذ ولداه ما أوصى به (١) . وهكذا قضى أحمد

والتاريخ الذى حدثت فيه الوفاة هو يوم الجمعة الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ٢٤١ هـ . وعمره يوم وفاته يزيد أو ينقص قليلا بأيام ، وربما بساعات عن سبع وسبعين سنة

---

(١) راجع كتاب جولدتسيهر : دراسات اسلامية حـ ٢ ص ٣٥٨

جاء فى المُقَفَّى للمقريزى (١) : « فصل فى ذكر مرضه ووفاته : قال صالح : لما كان فى أول يوم من شهر ربيــع الأول سنة احدى وأربعين ومائتين ، حُم أبى ، فدخلت عليه وهو محموم ، فتنفس نفسا شديدا . فقلت : عَلام أفطرت البــارحة ؟ فقــال : على ماء باقِلاء . ثم أراد القيام . فقال : خذ بيدى . فأخذت بيــده . فلما صار الى الخلاء ، صعفت رجلاه ، حتى توكَّأ علىَّ . وكان يختلف اليه غير متطبب ، كلهم مسلمون . فَوصَف له متطبب قرعة تُشْوى ويُسْقى ماءها . فقال : يا صالح . قلت : لبيــك . قال : لا تُشْوى فى منزلك ولا فى منزل عبد الله أخيك . وأتى الفتح بن سهل ، وعلى بن الجَعْد ، فحجبتُهما . وكَثُر الناس . قال : فأى شىء ترى ؟ قلت : تأذن لهم ، فيدعون لك . فأذنَّا لهم . فجعلــوا يدخلون عليه أفواجا ، حتى تمتــلىء الدار . وكثر الناس ، وامتلأ الشارع ، وأغلقنا باب الزقاق

وجاء رجل منجيراننا ، قد خَضَب. فقال : انى لأرى الرجل يُحيى شيئا من السنة فأفرح به . فجعل الرجل يدعو له ، فيقول أبى : ولجميع المسلمين . ثم قال : اقبض من السكَّان دراهم واشتر تمرا ، وكفِّر عنى كفَّارة يمين . فاشتريت وكفَّرت. وأخبرته . فقال : الحمد لله

قلت (*) : وزاد الدينورى فى كتاب المجالسة : أن الامام أحمد قال : فانى حَنِثْت فى دهرى فى يمين واحدة . ثم قال لى : أحضِر الوصــية واقرأها . وكان كتبها قبل ذلك . فقرأتُها ، فأقرها على ما هى عليه ..

« قال : واشتدت به العــلة يوم الخميس ، فلمــا كان يوم الجمعة ، اجتمع الناس حتى ملأوا السكك والشوارع . قال حنبل : وكان عنده ثلاث شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم . فأوصى عند موته أن يجعل على لسانه شعرة وعلى كل عين شعرة . ففُعِل به ذلك عندموته.

---

(١) ورقة ١٥ ، والمصادر التى استخدمها الآن فيما يلى هى : المقــريزى وابن الســبكى وابو نعيم

(*) القائل هنا هو المقريزى مؤلف كتاب المقفى

قال ولده عبد الله : قال لى أبى فى مرضه الذى توفى فيه : أخرج نى كتاب عبد الله بن ادريس . فأخرجت الكتاب . فقال لى : أخرج أحاديث ليث بن أبى سُلَيْم ، فأخرجتها . فقال لى : اقرأ علىَّ حديث ليث . قلت لطلحة : ان طاووسا كان يكره الأنين فى المرض . فما سُمِع له أنين حتى مات رحمه الله . فقرأت ذلك على أبى ، فما سمعته أن فى مرضه الى أن توفى ..

« وسُئِل عبد الله : هل عقل أبوك عند الموت المعاينة ؟ قال : نعم ، كنا نوضئه ، فجعل يشير بيده ، فقال لى صالح : أى شىء يقول ؟ فقلت : هويقول : خلّلوا أصابعى، فخلّلنا أصابعه ، ثم ترك الاشارة ، فمات من ساعته ، تغمّده الله برحمته ، وذلك لاثنتى عشرة ليلة خَلَت من ربيع الأول ، سنة احدى وأربعين ومائتين ، وهو ابن سبع وسبعين سنة»

وروى ابن السبكى (١) قصة مرضه فيما يلى : قال المروزى رضى الله عنه : مرض أبو عبد الله ليلة الأربعاء لليلتين خَلَتا من ربيع الأول ، ومرض تسعة أيام . وكان ربما أذن للنـــاس ، فيدخلون عليه أفواجا ، يسلّمون عليه ويرد عليهم . وتسامع الناس وكثروا ، وسمع السلطان بكثرة الناس ، فوكل ببابه وبباب الزقاق الرابطة وأصحاب الأخبار ، ثم أغلق باب الزقاق ، فكان الناس فى الشوارع والمساجد ، حتى تعطّل بعض الباعة ، وحيل بينهم وبين البيع والشراء

وكان الرجل اذا أراد أن يدخل اليه ، ربما دخل من بعض الدور وطور الحالة (*) ، ربما تسلق ، وجاء أصحاب الأخبار ، فقعدوا على الأبواب ، وجاء حاجب ابن طاهر ، فقال : ان الأمير يقرئك السلام ، وهو يشتهى أن يراك . فقال : هــذا مما أكره ، وأمير المؤمنين أعفانى مما أكره . وأصحاب الخَبَر يكتبون بخبره الى العسكر ، والبُرد تختلف كل يوم

---

(١) طبقات الشافعية ورقة ١٣٤ وما بعدها (*) طبعة الحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٠٣

(*) هكذا فى النص العربى ولم نهتد لوجه الصواب فيه

« وجاء بنو هاشم ، فدخلوا عليه . وجعلوا يبكون عليه . وجاء قوم من القضاة وغيرهم ، فلم يُؤذن لهم . ودخل عليه شيخ ، فقال : اذكر وقوفك بين يدى الله ، فشهق أبو عبد الله ، وسالت الدموع على خديه . فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين ، قال : ادعوا لى الصبيان ، بلسان ثقيل ، فجعلوا ينضمون اليه ، وجعل يشمهم ويمسح بيده على رءوسهم ، وعينُه تدمع . وأدخلت الطشت تحته ، فرأيت بَوله دماً عبيطاً ليس فيه بول . فقلت للطبيب فقال : هذا رجل قد فتّت الحزن والغم جوفه .. »

***

وجاء فى الحلية (١) : وكنت أنام بالليل الى جنبه . فاذا أراد حاجة ، حركنى ، فأناوله . وجعل يحرك لسانه ، ولم يئن الا فى الليلة التى توفى فيها . ولم يزل يصلى قائما ، أمسِكه فيركع ويسجد ، وأرفعه فى ركوعه . واجتمعت عليه أوجاع الحصر وغير ذلك . ولم يزل عقله ثابتا . فلما كان يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول لساعتين من النهار توفى رحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه »

٢٥ ــ جنازة احمد

لقد خيم على مدينة بغداد عند وفاة أحمد بن حنبل أشد مظاهر الحزن والأسى ، بل عم شعور الأسف لفقده أماكن بعيدة ، عندما بلغ أهلها نبأ وفاته . وكان مشهد جنازته بعد ظهر اليوم الذى مات فيه ، من المشاهد التى قلما تقع العين عليها فى أى مكان آخر . وتضاربت الأقوال فى تقدير عدد مشيعيه . فمن قائل انه شهد الصلاة عليه ستمائة ألف نسمة . وذهب آخرون الى أنهم بلغوا ألفى ألف وخمسمائة ألف . وبين هذين الرقمين قدرت تقديرات أخرى (٢)

(١) لابى نعيم رقة ١٥٥ ا (*) طبعة القاهرة حـ ٩ ص ٢٢٠

(٢) وازن ذلك بما جاء فى ابن خلكان رقم ١٩ (*) جاء فيها فى طبعة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م حـ ١ ص ٤٨ : « وحزر من حضر جنازته من الرجال فكانوا ثمانمائة ألف ومن النساء ستين الفا . وقيل انه أسلم يوم مات عشرون ألفا من النصارى واليهود والمجوس » ــ

وعند موته اعتنق الاسلام فيما قيـــل عشرة آلاف شخص بل يذهب آخرون الى أنه قد اعتنقه عشرون ألفا ممن كانوا يدينون بديانات أخرى . ولكن نظرا لأن أفراد أسرة أحمد وغيرهم ممن يهتمون اهتماما خاصا بأخبار أحمد وأحواله ، لم يعرفوا شيئا عن تقديرات كهذه ، فقد شك الذهبى شيخ تاج الدين بن السبكى فى هذا الخبر ، وعد هذه الأرقام لغوا باطلا . وأيّد حكمهم (*) بما ذهب اليه من أنه لو أسلم عشرة فحسب لكان هذا أقرب الى الصواب

وقد رغب الأمير ابن طاهر فى تجهيز أحمد وتكفينه ، ولكن صالح أبى قبول شىء من هذا ، لأنه علم أن أباه لما كان على قيد الحياة لم يقبـــل آية صلة من الأمير . وان الرعاية البنوية التى أحس بها صالح نحو رغبات أبيه المتوفى ، من حيث رفض الصلات أو صنوف العناية التى يبـــديها رجال السلطان ، قد اتخذت شكلا بلغ درجة كبيرة من العزم والتصميم. فعن طريق القوة وحدها استطاع أصحاب صالح أن يثنوه عما اعتزمه من تنحية ابن طاهر عن امامة الناس فى صلاة الجنازة على أبيه (١) . وفى الحق أن الناس لم يعلموا أن ابن طاهر صلى على أحمد الا فى اليوم التالى لدفنه ..

فلما علموا بذلك تقاطروا جماعات الى قبره فى مقبرة باب حرب (٢) .

(*) هكذا فى الاصل بعد ادراج المؤلف لعبارة سقطت عند الطبع . ولعل الصواب : أن الذهبى أيد رأيه أو حكمه ..

(١) مروج الذهب للمسعودى طبعة باريس حـ ٧ ص ٢٢٩ (*) طبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هـ ٢ ص ٢٩٧ وجاء فيها : « وصلى عليه محمد بن طاهر »

(٢) انظر ابن خلكان فى الترجمة رقم ١٩ (وفيات الاعيان طبع النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٨م حـ ١ ص ٤٨ ، ونص عبارة ابن خلكان : « ودفن بمقبرة باب حرب ، وباب حرب منســوب الى حرب بن عبد الله أحد أصحاب أبى جعفر المنصور ، والى حرب هذا تنسب المحلة المعروفة بالحربية وقبر احمد بن حنبل مشهور بها يزار » وقد استخلص المؤلف من عبارة ابن خلكان الاخيرة أن قبر احمد بن حنبل كان الى عهد ابن خلكان معروفا وأن الناس كانوا يقصــدونه بالزيارة . هذا وقد ولد ابن خلكان فى سنة ٦٠٨ هـ وتوفى فى سنة ٦٨١ هـ . وسيتضح من تحقيقنا فى حاشية تالية أن الناس قبل زمن ابن خلكان وبعده كانوا يخلطون بين قبر احمد وقبر ولده عبد الله

وقد اشتد الزحام فى الطريق اليه ، حتى أن رجلا ممن شيَّعه أعلن أنه ظل أسبوعا قبل أن يتمكن من زيارة قبره . وقد صلَّى أيضا على أحمد أفراد أسرته وبنو هاشم ، فى داخل الأحياء التى كانوا يسكنونها ، وذلك فى مساء اليوم الذى مات فيه (١) . والى زمن ابن خلكان كان قبر أحمد فى مقبرة باب حرب معروفا ذائع الصيت . وكثيرا ما كان يقصده الناس بالزيارة (٢) . وفى وقت متأخر عن هذا ، تهدم ما أقيم على القبر من شواهد وأبنية (*) ، وسُوِّى القبر بسطح الأرض ، لما ظهر من الغلو فى تقديسه والتبرك به

جاء فى كتاب المُقَفَّى للمقريزى : فصل فى غسله وتكفينه والصلاة عليه وعدد من أسلم يوم موته . قال ولده صالح : لما توفى

---

(١) ابن خلكان ترجمة رقم ١٩ (*) لايوجد فى ترجمة أحمد التى أوردها ابن خلكان مايشير اليه المؤلف ولعله سهو منه

(٢) ابن خلكان ترجمة رقم ١٩ وانظر أيضا تهذيب النووى ص ١٤٦ (*) طبعة منير بالقاهرة حـ ١ ص ١١٢ وقد جاء فيها : وقبره مشهور معروف يتبرك به رحمه الله

(*) يقول مترجم الكتاب فى تحقيق موقع قبر الامام أحمد أن أحمد دفن فى مقبرة الشهداء عند باب حرب وهى تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة شمالى مدينة بغداد فى مكان يقع خارج الخندق الطاهرى بعيدا عن باب حرب فى الطريق المؤدى الى الكاظمية . ولم يذكر ياقوت فى معجم البلدان لم سميت هذه المقابر بمقابر الشهداء . وذكر المقدسى الجعرانى قبر أحمد ،وذلك فى كتابه أحسن التقاسيم الذى كتبه حوالى سنة ٣٧٥ هـ ، كما تكلم عنه الخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد فقال فى حـ ١ ص ١٢١ طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م : « ومقبرة باب حرب خارج المدينة (أى بغداد) وراء الخندق مما يلى طريق قطربل (بضم القاف وتسكين الطاء وفتح الراء وتشديد الباء) معروفة بأهل الصلاح والخير وفيها قبر أحمد بن حنبل ، وبشر « الحارث الحافى » . وقد أصبح قبر أحمد مزارا كما عد من الاولياء الذين يحرسون بغداد من الآفات وقال الخطيب فى نفس الموضع من كتابه : ضاق صدر أحد الزهاد مرة مما شهده ببغداد من المفاسد ، فخرج خوف أن يخسف بها . فلقيه رجل يدعى أحمد بن العباس فقال له ارجع ولا تخف فان فيها قبور أربعة من أولياء الله هم حصن الهم من جميع البلايا . قلت : من هم ؟ قال الامام أحمد بن حنبل ومعروف الكرخى وبشر الحافى ومنصور بن عمار . فرجع هذا الزاهد وزار القبور ولم يخرج تلك السنة ... (وقيل) : لما مات أحمد رأى رجل فى منامه كأن على كل قبر قنديلا . فقال : ماهذا ؟ فقيل له .. انه نور لاهل القبور قبورهم بنزول هذا الرجل بين أظهرهم . قد كان فيهم من يعذب فرحم (ص ١٢٢) » . وقد صار قبر أحمد الواسطى يهنىء نظام الملك بقصيدة منها :

زرت المشاهد زورة مشهورة   أرضت مضاجع من بها مدفون

أبى ، كان المتوكل غائبا ، فوجّه الأمير ابن طاهر ، حاجبه ومعه غلامان ، معهما مناديل فيها ثياب وطيب . وقالوا : الأمير يقرئك السلام ويقول لك : قد فعلت ما لو كان أمير المؤمنين حاضرا لفعله . فقلت له : أقرئه منى السلام وقل له : ان أمير المؤمنين قد كان أعفاه فى حياته مما كان يكره ، ولا أحب أن أتبِعَه بعد موته بما كان يكرهه فى حياته ، فعاد وقال : يكون شعاره ولا يكون دثاره . فأعدت عليه مثل ذلك ورددته عليه . وكفّنّاه فى ثلاث لفائف ..

قال المروزى : لما أردت أنأغسله ، جاء بنو هاشم ، واجتمع فى الدار خَلْق كثير . فأدخلته البيت وغطيته بثوب وأرخيت الستر حتى فرغت من أمره . فلما أردت تكفينه غلبنا عليه بنو هاشم ، وأخذوا فى البكاء عليه ، وجعل أولادهم ينكبّون عليه ، ويقبّلونه . قال صالح : وأرسل الىّ ابن طاهر يقول : من يصلّى على أبيك ؟ قلت : أنا . فلما صرنا

فكأنك الغيث استهل بتربها وكأنها بك روضة ومعين

فازت قداحك بالتوات وأنجحت ولك الاله على النجاح ضمين

هذا وقد تخرب قبر أحمد بسبب فيضان نهردجلة الذى وقع فى سنة ٤٦٦ هـ ، ذكر ابن الجوزى فى كتابه المنتظم طبع حيدر اباد سنة ١٣٥٩ هـ حـ ٨ ص ٢٨٦ : وغرقت مقبرة الامام أحمد وغيرها من الاماكن والمقابر وانخسفت القبور وخرج الموتى على رأس الماء » . وقد حدث غرق آخر فى سنة ٦١٤ هـ ، ذكر ابن الاثير فى حوادث هذه السنة (حـ ٩ ص ٢١٩٠ من طبعة التجارية بالقاهرة) : « وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد فى قديم الزمان مثلها واشرفت بغداد على الغرق .. وغرق كثير من الجانب الشرقى وغرق مشهد أبى حنيفة .. وأما الجانب الغربى فتهدم ... ومشهد باب التبن ومقبرة أحمد بن حنبل » وذكر ياقوت فى سنة ٦٢٣ هـ وذكر صاحب مراصد الاطلاع فى سنة ٧٠٠ هـ أن قبر أحمد يقع عند باب حرب كما ذكر ذلك ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ولا ننسى أن المسعودى الذى فرغ من تدوين كتابه مروج الذهب فى سنة ٣٣٦ هـ كما قال فى ص ٤٣٧ حـ ٢ من طبعة بولاق أن احمد دفن بباب حرب فى الجانب الغربى (أى لبغداد) حـ ٢ ص ٢٩٧ . وقد زاد ابن بطوطة الرحالة المغربى بغداد فى سنة ٧٣٧ هـ وقال ان أهل بغداد يقدسون قبر أحمد ويتبركون به وأنه حوول بناء قبة على القبر ولكنها كانت تهدم بقدرة الله تعالى . جاء فىمهذب رحلته التى طبعتها وزارة المعارف بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م حـ ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧ : « وبالقرب من الرصافة قبر أبى عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه ولاقبه عليه . ويذكر أنها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى . وقبره عند اهل بغداد معظم واكثرهم علىمذهبه .

الى الصحراء ، وجدنا ابن طاهر . فخطـا الينا خطوات وعزانا . فلمـا وضـع السرير ، تقدمت للصلاة . فجاءنى ابن طالوت ، ومحمد بن نصر، وقبضا على يدى ، وقالا : الأمير . فمانعتُهم ، فغلبوا علَّى وصلَّى . ولم يعلم أكثر الناس بتقدمه . فلما كان من الغد ، وعلمـوا بذلك ، صاروا يأتون القبر أفواجا ، فيصلُّون عليه . ومكثوا على ذلك أياما

« قال ولده عبد الله : وكنا نحن والهاشميين صلّينا عليه داخل الدار. قال الخلال : سمعت عبد الوهاب الوراق يقول : ما بلغنا أن جمعا كان فى الجاهلية والاسلام مثله ، حتى أن المواضع التى وقف النـاس فيهـا مُسِحت وحُزرت ، فاذا هى نحو ألف ألف ، وحزرنا على السور نحوا

وبالقرب منه قبر أبى بكر الشبلى من أئمة المتصوفة وقبر سرى السقطى وقبر بشر الحاف وقبر داود الطائى وقبر أبى القاسم الجنيد رضى الله عنهم أجمعين . وأهل بغداد لهم يوم ، فى كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه وهكذا الى آخر الاسبوع » . وارى أن ابن بطوطة خلط بين الجانب الشرقى لبغداد والجانب الغربى لان الرصافة تقع على الضـفة الشرقية لدجلة وفيها قبر أبى حنيفة . وقد سبقه فى هذا الخلط الرحالة ابن جبير المتـوفى بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ والذى زار بغداد فى سنة ٥٨٠ هـ فقد قال فى رحلته طبعة القاهرة سنة ١٩٠٨ م ص ٢٠٥ : « وبالرصافة كان باب الطاق المشهور على الشط وفى تلك المحـلة مشهد حفيل البنيان له قبة بيضاء سامية فى الهواء فيه قبر الامام أبى حنيفة رضى الله عنه .. وبالقرب من تلك المحلة قبر الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه » . وقد يرجع هذا الخلط الى خطأ فى مخطوطة رحلة ابن جبير كما ذهب الى ذلك المستشرق جى لوسترانج Guy Le Strange فى كتابه : بغداد فى عهد الخلافة العباسية (بالانجليزية) الطبعة الثانية باكسفورد سنة ١٩٢٤ م ص ١٦٠ ، وربما خلط ابن جبير بين قبر أحمد بن حنبل فى باب حرب ، وقبر ابنه عبدالله الذى كان يقع أيضا على الضفة الغربية قريبا من قطيعة « الزبيدية » بجوار شاطىء دجلة . وذكر حمد الله مستوفى فى كتابه باللغة الفارسية : « كوزيدة » الذى كتبه فى نحو سنة ٧٤٠ هـ ان قبر الامام أحمد يقع الى الشمال من قبر أبى حَنيفة ، مما يدل ايضا على أنه خلط بين قبر احمد وقبر ولده عبد الله . لان قبر عبد الله يقع فى مقابر قريش قرب باب التبن ، ولم يدفن بجوار ابيه لرواية مشهورة أثرت عنه ، جاء فيها : لما مرض عبد الله قيل له : اين تحب أن تدفن ؟ قال : صح عندى أن بالقطيعة نبيا مدفونا ولان أكون فى جوار نبى احب الى من ان اكون فى جوار أبى . فدفن فى مقابر باب التبن سنة ٢٩٠ هـ ، ولايفهم من هذا على أنه عقوق منـه لابيه ، وانما يرجع الى شدة ورعه وتقواه . وقد حدث الخليط بين القبرين لما تهدم حى الحربية وفيه قبر الامام أحمد ، وبقى قبر ولده عبد الله قريبا من باب التبن . وذكر سترانج نقلا عن ميرخوند المؤرخ الفارسى أن تيمور لما احتل بغداد سنة ٦٩٥ هـ اصدر أمرا بترميم قبر الامام احمد بعد ان هدمته فيضانات نهر دجلة المتكررة . غير أن قول ميرخوند بأن القبر يقـع

من ستين ألف امرأة . وقال أبو زرعة : بلغنى أن المتوكل أمر أن يُمسح الموضع الذى وقف الناس فيه للصلاة على أحمد بن حنبل ، فبلغ مقام ألفى ألف وخمسمائة ألف ، وفتح الناس أبواب المنازل فى الشوارع والبيوت والدروب ، وصاروا ينادون : من أراد الوضوء . وقال أحمد ابن الحسن المقانعى : كنت ببغداد وأنا فى بستان لصديق لى ، فاذا بشيخ وشاب وعليهما طمران ، فسلمت عليهما ، وقلت : أراكما من غير هذا البلد ؟ قالا : نعم ، نحن من جبل اللكام ، حضرنا جنازة أحمد بن حنبل ، وما بقى أحد من الأولياء ، الا حضرها

وقال عبد الوهاب الوراق : أظهر الناس فى جنازة أحمد بن حنبل السنة والطعن على أهل البدع (*) . قال جعفر بن محمد النسوى : شهدت الناس فى جنازة أحمد بن حنبل ، يلعنون بشرا المريسى والكرابيسى بأصوات عالية . وأقام الناس أياما يزدحمون على القبر ، حتى قال أبو الحسن التميمى :

قريبا من شاطىء دجلة يدل على أنه يشير الى موقع قبر عبد الله وليس قبر الامام أحمد . ويعلل سترانج هذا الاضطراب بأن عبد الله كان يسمى بابن حنبل كما كان يسمى أبوه باسم جده . راجع كتاب سترانج : بغداد فى عهد الخلافة العباسية ص ١٦٦ . وعنده أنه قر فى الاذهان بتطاول الازمنة ، أن قبر عبد الله هو قبر الامام أحمد . وقد وقع فى هذا الخطأ فى العصور الحديثة الرحالة الدنمركى نيبوهر Niebuhr الذى زار بغداد حوالى سنة ١٧٥٠ م وذكر أن قبر احمد بن حنبل يقع على شاطىء دجلة مقابلا لقبر أبى حنيفة الواقع شرقى بغداد . بيد أن الفيضانات المتعاقبة لدجلة هدمت من معالم قبور الاعلام فى بغداد فلم يبق فى يومنا هذا اى أثر لقبر احمد او لقبر ولده . ولعل الغيرة على دراسة المعالم الاثرية العظيمة

(*) قال المسعودى فى وصف جنازة أحمد : « وحضر جنازته خلق من الناس لم ير مثل ذلك اليوم والاجتماع فى جنازة من سلف قبله . وكان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضد فى الامور ، منها أن رجلا منهم كان ينادى : العنوا الواقف عند الشبهات ، وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام فى ذلك . وكان عظيم من عظمائهم ومقدم فيهم يقف موقفا بعد موقف امام الجنازة وينادى بأعلى صوته :

وأظلمت الدنيا لفقد محمد وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد عليه السلام وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل كظلمتها عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم » . مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ . ويتضح من هذا النص دهشة المسعودى من النداءات المتناقضة التى حدثت فى الجنازة فالوقوف عند الشبهات هو مما أمر به النبى عليه السلام والنداء بلعن الواقفين عندها هو من يحمس انصار أحمد الذى انتقد فى حياته الواقفين فى مسألة خلق القرآن مثل الكرابيسى وهذا يدل على أن الحركة الحنبلية حينما آزرها العامة فى بغداد اصطبغت بصبغة ديماجوجية نفر منها فقهاء الحنابلة انفسهم فيما بعد وقد اقترنت هذه الديماجوجية بالظاهرة النفسية المعروفة بعبادة الابطال

مكثت أياما رجاء أن أصل الى القبر ، فلم أصل اليه الا بعد أسبوع »

وروى ابن السبكى (١) : قال موسى بن هرون الحافظ : يقال ان أحمد لما مات مُسِحت الأرض المبسوطة التى وقف النـاس للصلاة عليها . فحصر مقادير النـاس بالمساحة ستمائة ألف وأكثر ، سـوى ما كان فى الأطراف والأماكن المتفرقة . قلت : وقيل فى عدد المصلين عليه كثير ؟ قيل : كانوا ألف ألف وثلثمائة ألف ، سوى من كان فى السفن فى الماء . كذا رواه خشنار بن سعيد

وقال ابن أبى حاتم : سمعت أبا زرعة يقول : بلغنى أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذى وقف عليه الناس حيث صَلّى على أحمـد ، فبلغ المقام ألفى ألف وخمسمائة (*) . وعن الوركانى(**) وهو رجل كان يسكن الى جوار الامام أحمد، قال : أسلم يوم مات أحمد من اليهود والنصارى والمجوس عشرون ألفا ، وفى لفظ عشرة آلاف . قال شـيخنا الذهبى : وهى حكاية منكرة تفرد بها الوركانى والراوى عنه . قال : والعقـل يحيل أن يقع مثل هذا الحادث فى بغداد ، ولا يرويه جماعة تتوفر دواعيهم على نقل ماهو دونه بكثير(***) ، وكيف يقع مثل هذا الأمر ولا يذكره المروزى ولا صالح بن أحمد ، ولا عبد الله ، ولا حنبل الذين حَكَوا من

---

(١) طبقات الشافعية ورقة ١٣٤ وما بعدها (*) طبعة لحسينية بالقاهرة حـ ١ ص ٢٠٤

(*) المراد « ألفى ألف وخمسمائة ألف »

(**) فند الذهبى رواية الوركانى وعلل تفنيده بقوله : ثم انكشف لى كذب الحكاية بأن أبا زرعة قال : كان الوركانى ، يعنى محمد بن جعفر ، جار أحمد بن حنبل ، وكان يرضاه . وقال ابن سعد وعبد الله بن أحمد ، وموسى بن هرون : مات الوركانى فى رمضان سنة ثمان وعشرين ومائتين . فظهر لك بهذا أنه مات قبل أحمد بدهر . فكيف يحكى يوم جنازة أحمد رحمه الله ؟ انظر ترجمة أحمد التى استخرجها الشيخ أحمد شاكر من تاريخ الاسلام للذهبى وصـدر بها الجزء الاول من طبعته الجديدة للمسند ، القاهرة سنة ١٩٤٦ ص ١٣١

(***) نص عبارة الذهبى « ولا ينقله جماعة تنعقد هممهم ودواعيهم على نقل ماهو دون ذلك بكثير » وان تشكك الذهبى فى هذه الرواية يعد مثالا بارزا يوضح لنا كيف أن فقيها سنيا متشددا لم يعقه ايمانه وورعه عن استخدام عقله فى نقد الروايات المأثورة ورفض ماتعارض فيها مـع نظره وتفكيره . مع انه بسـبب ورعه قد يكون أقرب الى مجاراة العامة فى نزعتها الى تصديق كل ما من شأنه يرفع من أقدار أئمة الدين وهداته

أخبار أبى عبد الله جزئيات كثيرة ؟ قال : قالوا : فوالله لو أسلم يوم موته عشرة أنفس ، لكان عظيما ينبغي أن يرويه نحو من عشرة أنفس »

٢٦ ــ المترجمون لاحمد بن حنبل

ومن أولئك الذين قيــل انهم كتبوا فى مناقب أحمد ، أبو الحسن بن المُنَادى (١) ، والحافظ ابن مَنْده (٢) ، والبيهقى (٣) ، وأبو اسماعيل الأنصارى ، والفقيه أبو على بن البنَّا شارح الخرقى ، والحافظ ابن ناصر،

---

(١) الفهرست لابن النديم حـ ١ ص ٣٨ وما بعدها (*) لم أعثر عليه فى طبعة القــاهرة للفهرست ــ وطبقــات الحــافظ للذهبى طبفة ١١ رقم ٦٥٥ (اذ كان كتــاب تذكرة الحفاظ للذهبى الذى طبع فى حيدر أباد مرتين والثانية سنة ١٣٣٤ هـ هو نفس كتاب طبقات الحفاظ الذى يشير اليه المؤلف ، فالمنادى هو من حفاظ الطبقة ١١ ولكنه رقم ٥٧ ، راجع التذكرة حـ ٣ ص ٦٤ ، وصحة اسمه هو : أبو الحسين أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن المنادى البغدادى ، ولم أجد فى ترجمة الذهبى له مايشير الى أنه ألف كتابا فىمناقب أحمد بن حنبل

(٢) طبقات الذهبى ، الطبقة ١٣ رقم ٢٩ (*) فى تذكرة الحفاظ طبقة ١٣ رقم ٢٩ كما ذكر المؤلف ، ومنده كما ضبطها ابن خلكان بفتح الميم والدال المهملة بينهما نون ساكنة وفى الآخر هاء ساكنة أيضا . وقد انجبت أسرة ابن مندة اعلاما كثــيرين ترجم ابن خلكان لاثنين منهــم الاول : محمد بن يحيى بن منده صاحب تاريخ أصبهان المتوفى سنة ٣٠١ هـ ، (وفيات الاعيان طبعة النهضة ترجمة رقم ٥٩٢ حـ ٣ ص ٤١٦) وحفيده يحيى بن عبد الوهاب بن منده المحدث المتوفى بأصبهان سنة ٥١٢ هـ . (ترجمة رقم ٧٦٦ حـ ٥ ص ٢١٧) . أما ابن منده الذىيشير اليه المؤلف فهو علم آخر من أعلام هذه الاسرة واسمه : محمد بن اسحق بن محمد بن أبى زكريا يحيى بن منده ، أطرى الذهبى حفظه وضبطه للرواية فى عبارات قوية بل انتقد تحامل أبى نعيم على ابن منده اذ كانا متعاصرين واشتدت العداوة بينهما وتقاذفا الاتهامات . وقد جرح أبو نعيم صاحب الحلية ، ابن منده فى الكتاب الذى كتبه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان الذى طبع فى ليدن سنة ١٩٣١ م فى مجلدين . وقد أفرد الذهبى كتابا فى تراجم آل منده لم أقف عليه . غير ان الذهبى فى ترجمته لابن منده هذا فى تذكرة الحفاظ لم يشر الى أن ابن منده ألف كتــابا فى منــاقب أحمد كما قال المؤلف ــ

(٣) ابن خلكان ترجمة رقم ٢٧ (*) طبعة النهضة حـ ١ ص ٥٧ ، ٥٨ واسمه أحمد بن الحسين البيهقى من كبار الحفاظ صاحب السنن توفى سنة ٤٥٨ هـ ألف كتابا فى مناقب الشافعىوآخر فى مناقب احمــد بن حنبــل) وطبقات الحفاظ للذهبى طبقة ١٤ رقم ١٣ (تذكرةالحفاظ طبعة حيدر اباد حـ ٣ ص ٣١٠)

والحافظ أبو الفرج بن الجوزى (١) ، وعبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى ، والحسن بن محمد الخلال (٢) . قال المقريزى فى كتابه المقفى : وقد أفرد جماعة من الأئمة مناقبه بالتصنيف كالامام أبى حسن بن المنَادى .. وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين انتهى »

---

(١) فى كتابه «الجرح والتعديل» فى الفصل الخامس بمناقب احمد بن حنبل وانظر أيضا معجم تراجم النووى ص ٤٢/ (*) المعروف بتهذيب الاسماء واللغات طبعة منير بالقاهرة حـ١ ص ١١٢) وراجع فيما يختص بابن الجوزى كتاب دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر حـ ٢ ص ١٨٦ وهامش رقم ٢ (*) نسى المؤلف كتابا كبيرا ألفه ابن الجوزى فى مناقب الامام أحمد ، ظل مخطوطا الى أن نشره الخانجى بالقاهرة لاول مرة سنة ١٣٤٩ هـ ويقع فى ٥٤٤ صحيفة من القطع الكبير، ولو كان قد اطلع عليه باتون لزوده بتفصيلات أوفى عند اعداد بحثه . وقد اختصره زكى الدين عبد الله بن محمد الخزرجى الحنبلى ، وسمى مختصره : مجمل الرغائب فيما للامام احمد بن حنبل من المناقب ، توجد منه نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٥١٧٤ تاريخ ـ

(٢) طبقات الذهبى طبقة ١٣ رقم ٦٨ (*) تذكرة الحفاظ حـ ٣ ص ٢٨٩ وما بعدها ، أما الاسماء الاخرى فلم أستطع تتبعها فيما تيسر لدى من المصادر وقد حاولنا ذلك فى التذييلات التى الحقناها بالكتاب وفى جريدة المصادر الاضافية التى فات المؤلف أن يطلع عليها

الفصل الرابع

صفة أحمد بن حنبل

صفة أحمد بن حنبل (*)

١ ـ أسرته ٢ ـ الشواهد الدالة على مكانته
٣ ـ أحمد كفقيه ٤ ـ عاداته فى معيشته ٥ ـ صفاته
وما تميز به ٦ ـ طابعه الدينى ٧ ـ مظهره الشخصى

١ ـ أسرته

لم تكن ذرية أحمد التى أعقبته مباشرة ، نابهة الشأن فى زمنها ، وذلك فيما عدا ولديه : صالح ، وعبد الله ، اللذين كان كل منهما من فضلاء عصرهما البارزين . وابنه الأكبر صالح الذى يُكْنَى بأبى الفضل ، ولد فى سنة ٢٠٣ هـ ، وقد روى الحديث عن أبيه ، وعن أبى الوليد الطيالسى (١) ، وعلى بن المدينى . وكان من تلامذته ، ولده زهير بن صالح الذى توفى فى سنة ٣٠٣ هـ ، والبغوى ، ومحمد بن مخلد . وقد تقلّد صالح قضاء أصبهان ، وأمه العبّاسة بنت الفضل . وقد توفى صالح فى سنة ٢٦٥ (٢) هـ . وأما ولد أحمد الثانى ، عبد الله ، ويُكْنَى بأبى عبد الرحمن (٣) ، فقد درس مادة وفيرة من الحديث على أبيه ، كما أخذ

(*) لا يوجد هذا العنوان فى الاصل
وقد جمعنا هنا العناوين الجانبية التى وضعها المؤلف بجانب فقرات كتابه ، بعد أن رقمناها تيسيرا للمراجعة

(١) هو هشام بين عبد الملك البصرىابو الوليد الطيالسى من اعلام المحدثين حدث عن عكرمة وشعبة ، وحدث عنه البخارى وابو دواد ، توفى سنة ٢٢٧ هو عن اربع وتسعين سنة . راجع الطبقة السابعة رقم ٦٦ من تذكرة الحفاظ للذهبى حـ١ص ٣٤٦ طبعة حيدر اباد سنة ١٣٣٣هـ. وهو غير حافظ آخر من حفاظ الحديث اسمه أبو داود الطيالسى سليمان بن داود ، توفى سنة ٢٠٤ هـ وله مسند فى الحديث طبع فى حيدر اباد ، راجع تذكرة الذهبى حـ١ص ٣٢٠ ومابعدها، وترجم له صاحب شذرات الذهب حـ٢ص ١٢ كما ترجم لابى الوليد الطيالسى فى ص ٦٢ من نفس الجزء

(٢) يقول ابن خلكان فى الترجمة رقم ١٩ انه توفى فى رمضان سنة ٢٦٦ هـ

(٣) النجوم الزاهرة حـ٢ص١٣٦ (حـ٢ص٣٠٦ من طبعة القاهرة) ، وازن ذلك بعلاقته بمسند أبيه ص ٢٤

عن عبد الأعلى بن حمّاد ويحيى بن معين ، وأبى بكر بن أبى شيبة ، وكثيرين غيرهم

وكان راسخ العلم بالحديث وعلله (*) . بيد أنه انفرد بميزة خاصة اشتهر بها ، وهى أنه كان أوسع الناس خبرة بالأحاديث التى أخرجها أبوه . وقد روى عنه أنه حين كان فى مرض الموت ، طلب أن يُدفَن فى القطيعة التى كانت تسمى عادة بقطيعة الحربية ، فسأله أولئك الذين شهدوه عما اذا كان من الأفضل أن يدفن مع أبيه فى مقبرة باب حرب . ولكنه قال بأنه يُؤثر أن يُدفَن فى جوار نبى . وقد مات فى السابعة والسبعين من العمر

وكانت وفاته فى سنة ٢٩٠ هـ (١) . وللامام أحمد ولد ثالث اسمه سعيد ، من سُرِّيَّة يقال لها حِسْن ، وقد كبر هذا الولد الى أن ولى قضاء الكوفة . وكان له من هذه أيضا ، ولدان هما : محمد والحَسَن ، وبنت هى زينب ، كما ولدت له توأمين : الحَسَن والحُسَين ، وقد ماتا بعد ولادتهما ، ثم ولدت له بنتا أخرى اسمها فاطمة (٢) . وهذا هو كل ما نعرفه عن أسرة أحمد بن حنبل

(*) ترجم المؤلف كلمة علل بأنها حجج Arguments وهى ترجمة غير صحيحة اذ المقصود من علل الاحاديث ضعفها . وفى الرسالة للشافعى المقصود بعلله الحديث ليس فيما يتعلق بتصحيح اسناده انما هو فى قيام شرعية العمل بالحديث اى فيما اذا كان الحديث ناسخا ام منسوخا ، راجع الرسالة طبعة القاهرة سنة ١٣١٢ هـ ومقالة جولدتسهر فى نقد كتاب باتون فى مجلة المستشرقين الالمانية مجلد ٥٢ سنة ١٨٩٨ م ص ١٥٩

وقد وضع المؤلف بين قوسين بعد كلمة القطيعة جملة ترجمنها : « حى المدينة أو قطعة الارض التى يوجد فيها منزله » ووضع فى آخرها علامة استفهام تدل على انه غير متأكد من هذا الشرح ، ولا ادرى كيف فهم المؤلف ان قطيعة الحربية كان يوجد فيها منزل عبد الله بن احمد بن حنبل . وقد آثرنا اغفال هذا الشرح . والمعروف فى تاريخ العرب فى تمصير الامصار ، وانشاء المدن أن القطيعة قسم من أقسام البلد ومنها قطائع ابن طولون فى مصر

(١) يقول ابن خلكان فى الترجمة رقم ١٩ أنه توفى لثمان بقين من جمادى الاولى ويقول آخرون من جمادى الثانية

(٢) وازن ذلك بما جاء فى أبى نعيم ورقة ١٥٣ ب (*)حـ٩ص ٢١٤ من طبعة القاهرة : قال ابو الفضل صالح : تم كتب لنا بشىء الى بادوريا ، فبلغه ، فجاء الى الكوة التى فى الباب فقال : ياصالح انظر ماكان للحسن وأم على فاذهب به الخ . وام علىالتى أشير اليها هنافقد تكون زينب او فاطمة المذكورتين آنفا .

قال المقريزى فى كتابه المتَقَفّى (١) : وأما أولاده فأكبرهم صـالح وكُنيته أبو الفضل ، ولد سنة ثلاث ومائتين . وروى عن أبيه وأبى الوليد الطّيالسى ، وعلى بن المدينى . وروى عنه ابنه زهير ، والبغوى ، ومحمد ابن مخلد ، وولى قضاء أصبهان . وهو من زوجته عبّاسة بنت الفضل ، توفى سنة خمس وستين ومائتين . وعبد الله وكنيته أبو عبد الرحمن سمع من أبيه وأكثر عنه ، ومن عبد الأعلى بن حمّاد ، ويحيى بن معين ، ومن أبى بكر بن أبى شيبة ، وخَلق كثير

قال الذهبى : كان اماماً خبيراً بالحديث وعلله متقدما فيه . ولمـا مرض قال : ادفنونى بالقطيعة . فقيل له : ألا تدفَن عند أبيك ؟ يعنى بمقبرة باب حرب . فقال : صح عندى أن بالقطيعة نبيا مدفونا ، ولأن أكون فى جوار نبى ، أحَب الىّ من أن أكون فى جوار أبى . وكانت وفاته فى سنة تسعين ومائتين وسِنّه سبع وسبعون سنة كأبيه . وللامام أحمد ولد اسمه سعيد من سُرية يقال لها حِسْن ، ولى قضاء الكوفة ، وله منها ولد اسمه محمد وآخر اسمه الحسن ، وله منها بنت اسمها زينب ، وله منها ولدان توأمان أحدهما الحسن والآخر الحسين وماتا بالقرب من ولادتهما وله بنت اسمها فاطمة والله أعلم »

٢ ـ الشواهد الدالة على مكانته

ان قليلا من الشواهد الدالة على مكانة أحمد التى نظر اليه بها ، تعيننا على أن نضعه فى المنزلة التى كان يشغلها حقا فى تقدير معاصريه وتقدير الأجيال التالية . فقد قال تلميذه أبو زرعة بأنه لم ير قط رجلا اجتمع له من العلم والزهد والفقه والمعرفة ما اجتمع لشيخه

قال أبو نعيم (٢) : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الكريم قال : سمعت أبا زرعة يقول : ما رأت

(١) ورقة ٣

(٢) الحلية ورقة ١٣٩ (*) طبعة القاهرة حـ٩ص ١٦٤

عينى مثل أحمد بن حنبل . فقلت له : فى العلم ؟ فقال : فى العلم والزهد والفقه والمعرفة وكل خير ، ما رأت عينى مثله »

وهذا رأى فى أحمد من آراء أخرى كثيرة مماثلة ، كلها تنطق فى لهجة قوية بمناقب أحمد ، بيد أنها لا تزال تزودنا بأدلة راسخة توضح المنزلة الرفيعة التى بلغها أحمد فى نظر القوم الذين عاش بين ظهرانيهم ..

فهناك من الروايات المأثورة الكثيرة ما يجعله فى صف واحد مع أعاظم فقهاء الاسلام الذين ظهروا فى الأزمنــة التى سبقت عصره ، كسـفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن عباس . كما يتجلى لنا منزلة أحمد فى طريقة المؤلفين المسلمين عندما يستشهدون برأيه فى فقهاء عصره . كما صنع النووى مثلا فيما أورد من التراجم لعلى بن المدينى ، ويزيد بن هرون ، ويحيى بن سعيد القطان ، ويحيى بن معين . وكما صنع ابن خلكان فى ترجمته لكل من أبى ثور ، واسحق بن راهويه . وقد أكثر الذهبى أيضا فى كتابه الطبقات من ترديد آراء أحمــد فى رجالات عصره ، وشفعها بما يدل على توثيقه اياها وشدة احترامه لها . وقد كان من المسلم به لو أن أحمد جرح شخصا ، فان هذا الجرح لايعدم أن يغض من شأنه وأن يزرى به فى نظر الناس عامة

جاء فى الحليــة (١) : قال عمر بن الحسن القاضى : سمعت أبا يحيى الناقد يقول : كنا عند ابراهيم بن عرعرة فذكروا على بن عاصم ، فقال رجل : أحمد بن حنبل يُضَعِّفه . فقال رجل : وما يضره من ذاك اذا كان ثقة ؟ فقال ابراهيم بن عرعرة : والله لو تكلم أحمــد بن حنبل ، فى علقمة ، والأسود لضرهما (*) »

---

(١) ورقة ١٤٠ (*) طبعة القاهرة حـ٩ص ١٦٨

(*) هذه العبارة واضحة فىدلالتها وقوتها ، انظر فى ترجمة علقمة بن قيس طبقات الذهبى ، الطبقة ٢ ــ التذكرة حـ ١ ص ٤٥ ، فقيه العراق توفى سنة ٦٢ هـ . وترجمة الاســـود النخعى فى طبقات الذهبى ، نفس الطبقة رقم ٦ (التذكرة حـ١ص ٤٨ ، فقيه الكوفة وهو ابن أخى علقمة توفى سنة ٧٥ هـ .) وانظر النجوم الزاهرة حـ١ص ٢٨٠ (*) حـ ١ ص ١٥٧ من طبعة القاهرة

ومما هو جدير بالذكر تزكية لأحمد ، رويت عن الحسين بن على بن يزيد الكرابيسى ، وهو فقيه لم يرض أحمد كثيرا عن آرائه الـكلامية ، ومع ذلك فقد قال فيه : « مَثَل الذين يذكرون أحمد بن حنبل (بسوء) مثل قوم يجيئون الى (جبل) أبى قُبَيْس يريدون أن يهدموه بنعالهم (١) »

٣ ـ أحمد كفقيه

كانت لأحمد شهرة واسعة فى الفقه بين أصحابه وغيرهم من رجال عصره والعصور التالية . وكان ذكره نابها فى بغداد فى زمن أبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، يدلنـا على ذلك غضب أهل بغداد على الطبرى لأنه أغفل ذكر أحمد بن حنبل فى كتابه : « اختلاف الفقهاء (*) » . وقد علل الطبرى (**) ذلك بأن أحمد لم يكن فقيها وانما

---

(١) الجلية لابى نعيم ورقة ١٤١ (*) حـ ٩ ص ١٧٢ من طبعة القاهرة

(*) نشر قطعة القاهرة من هذا المخطوط المستشرق الالمانى فريدريك كيرن Kern القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ ـ ١٩٠٢ م ووجدت قطعة اخرى منه فى استنبول نشرها المستشرق الالمانى يوسف شاخت Schacht فى ليدن سنة ١٩٣٣ م ، انظر كتاب : نشأة الفقه الاسـلامى (بالانجليزية) بقلم يوسف شاخت ، لندن سنة ١٩٥٠ م ص ٣٣٨ ، ورجع جولدتسيهر لقطعة القاهرة فى كتابه : مذاهب النفسير الاسلامى (بالالمانية) ، ليدن سنة ١٩٢٠ م وترجمه الى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ، القاهرة سنة ١٩٥٥ م ونقع الاشارة الى كتاب اختلاف الفقهاء للطبرى بتحقيق كيرن فى ص ١٢٣ ، ١٢٤ من الترجمة العربية

(**) ذكر ابن الاثير فى كتابه الكامل فى التاريخ (حـ٦ ص١٧٠ وما بعدها طبعة منير بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ) فى حوادث سنة ٣١٠ هـ ماحدث من عامة بغداد عند وفاة الطبرى ومنعت من دفنه نهارا ونقل المؤلف عن ابن مسكويه أن سبب عداوة العامة للطبرى أنهم ادعوا عليـه الرفض والالحاد ولكنه استدرك على ذلك قائلا : « واما ماذكره (اى ابن مسكويه) من تعصب العامة فليس الامر كذلك . وانما بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم ولذلك سبب وهو ان الطبرى جمع كتابا ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، لم يصنف مثله . ولم يذكر فيه احمد بن حنبل ، فقيل له فى ذلك . فقال : لم يكن فقيها وانما كان محدثا . فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة شغبوا عليه وقالوا ما أرادوه . » وقال ابن الاثير فى موضـع آخر بأن الحنابلة كانت تمنع طلاب العلم من الاخذ عن الطبرى والاستماع اليه . وتوجد تفصيلات أوفى فى الترجمة المستفيضة التى أوردها ياقوت عن الطبرى فى كتابه معجم الادباء (حـ١٨ طبع رفاعى بالقاهرة سنة ١٩٣٧ م) وقد اعتمد فيها على كتاب مفقود ألفه ابن الطبرى فى سيرة أبيه . وقد جاء فى ترجمة ياقوت للطبرى حـ ١٨ص ٥٧،٥٨ بان الحنابلة قصدوا الطبرى فى الجامع يوم الجمعة وسألوه عن احمد ابن حنبل وحديث الجلوس على العرش فقال ابو جعفر : اما احمـد ابن حنبل فلا يعد خلافه (أى ان رأيه ليس بحجة) فقالوا له لقد ذكره العلماء فى الاختلاف فقال : مارأيته روى عنه ولا رأيت له أصحابا يعول عليهم . واما حديث الجلوس على العـرش فمحال . فلما سمع الحنابلة ذلك منه ، وثبوا ورموه بمحابرهم وقيل كانت ألوفا . فقام ابو جعفر فدخل داره فرموها بالحجارة حتى صارت على بابه كالتل العظيم . وركب « نازوك » صاحب الشرطة فى عشرات الالوف من الجند يمنع عنه العامة ووقف على بابه يوما الى الليل وامر برفع الحجارة عنه . وهذه القصة تدل على أن الحنابلة فى بغداد كانوا منذ السنوات الاخرة فى حياة احمد الى سنة ٣١٠ ومابعدها حكومة فى داخل حكومة انتحلوا فيها لانفسهم من السلطة مايفرضون بها آراءهم على الناس

كان محدثا (١). وقد قيل عن أحمد فى زمنه انه أفقه من على بن المدينى (٢) ، وتكلم أحد المحدثين عن مكانة أحمد فى الحديث ، فذهب الى أن أحمد اذا وافقه فى حديث ما ، فهو لا يبالى عن يخالفه فيه (٣) . وقد عرف الناس له مقدرته الفائقة على التمييز بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث الموضوعة . والأثر العام الذى قد يحدث فى نفوسنا بعد الالمام بتفصيلات سيرته التى ألفنا فيما بينها فى كتابنا هذا ، والوقوف على الملاحظات الأدنى أهمية ، وهى ملاحظات لم نر من المناسب ادراجها فى قصتنا ، ذلك أن آراء أحمد فى مسائل الفقه ، تتسم بطابع الجد والوقار وكثيرا ما تدل على الحذق والبراعة ولكن يغلب عليها دائما التقيد وضيق الأفق

(ولايمكن أن يعد اعتماده بصفة عامة على الكتاب والسنة فى استنباط الأحكام) مما يعيب طريقته من وجهة النظر الاسلامية . فمنهجه من وجهة النظر هذه ، يعد أكثر سلامة وأمنا من أى منهج آخر ، يطرح جانبا هذين المصدرين ، مؤثرا عليهما الرأى الشخصى (٤) . غير أن مبدأه فى التقيد الحرفى بالنصوص والتزامه التزاما تاما بما لا يخرج عنها ، وطريقته التحكمية المعتسفة التى تستعصى على الاصلاح فى تأويل أدلته وتخريجها ، كان مما يبطل دعواه فى ارشاد الناس الى أن يتخذوا لأنفسهم موقفا سليما ثابتا فى المسائل الاعتقادية . فقد كان من المتعذر عليهم اتخاذ هذا الموقف لو أنهم اتبعوا منهجه . اذ أن الاعتقاد المبنى على حرفية الألفاظ

---

(١) راجع كتاب الظاهرية بقلم جولدتسيهر ص ٤ وتاريخ أبى الفداء حـ ٢ ص ٣٤٤

(٢) تهذيب النووى ص ١٤٤ ( ) طبعة بالقاهرة حـ١ص ١١١ وجاء فيها : وسئل أبو حاتم عن احمد بن حنبل ، وعلى بن المدينى فقال : كانا فى الحفظ متقاربين وكان احمد افقه ، ولا تفيد هذه العبارة ان احمد كان عالما بالفقه وانما تفيد ان احمد كان اكثر فهما للاحاديث التى يحفظها

(٣) المصدر السابق (*) وجاء فيه : قال عمر بن احمد الناقد : اذا وافقنى أحمد على حديث لا أبالى من خالفنى

(٤) راجع كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٩٥

فى تعاليم دين ما ، اعتقاد ضيق متشدد ، ينزع الى التحكم والجدل .. والجدل ..

والحياة التى يتقيد فيها الناس بالنصوص الحرفية فى مسلكهم ونهجهم ليست الا حياة عسيرة شاذة فى طابعها ، اذا وصفت بالقسط والعدالة فانه ينقصها الأنس والبهجة . وان تنزهت عن شوائب اللوم والمؤاخذة فهى حياة منفرة غير جذابة . والرأى فيها أنها جادة مخلصة ، وقضاياها سليمة صحيحة ، ولكنها مع ذلك بنيت على أسس خاطئة وما شيد عليها من بناء يبدو فاقدا لكل رونق وبهاء

٤ ـ عاداته فى معيشته

ولنلحق بهذا قدرا يسيرا من الملاحظات المتعلقة بأخلاق أحمد بن حنبل وعاداته المعيشية ، مع اضافة اشارة عابرة الى مظهره الشخصى . فقد كان متقشفا زاهدا الى الدرجة القصوى ، حتى ان حياته فى الواقع لتوصف بأنها كانت صياما متواصلا . وقد قيل عنه انه لم يشتر قط فى حياته رمانا ولا سفرجلا (١) ، ولا أى نوع آخر من أنواع الفاكهة ، ما لم يكن ذلك بطيخا أو عنبا كان يتناوله بالخبز . وكثيرا ما كان يستغنى عن الخل عندما يأكل خبزا

وكثيرا ما كان أبناؤه يشترون أشياء يرون أنها مباحة بل هى ضرورية ولكنها معدودة فى نظره من مظاهر الترف والتنعم فى العيش ، فكانوا يخفون عنه هذه الأشياء اخفاء تاما حتى يتجنبوا تشدده . وقد قيل : انه لما أشخص الى اسحق بن ابراهيم فى سنة ٢١٩ هـ ، بعد أن سُجِن فترة طويلة ، نظر اسحق فى السلة الصغيرة التى كانت مع أحمد ، فوجد أن مئونة طعامه لا تتعدى رغيفين ، وقدرا من القثاء والملح

---

(١) تهذيب النووى ص ١٤٥ (*) حـ ١ ص ١١٢ من طبعة منير بالقاهرة وجاء فيها : «قال (أى صالح بن احمد) : وما رأيت أبى قط اشترى رمانا ولا سفرجلا ولا شيئا من الفاكهة الا أن يشترى بطيخة فيأكلها بخبز او عنب او تمر . قال : وكثيرا ما كان يأتدم بالخل »

جاء فى المقريزى (١) : « فبعث اسحق بن ابراهيم ، فأخذ الزنبيل الذى فيه افطار أبى عبد الله ، فنظر اليه ، فاذا فيه رغيفان ، وشىء من قثاء وملح . فعجب اسحق من ذلك »

وكان أحمد يكره كراهة شديدة أن يتناول من أحد صلة مالية . وكان يبذل أدنى قدر من الجهد ليؤثر نفسه بشىء من المال . وكانت أسعد أوقات حياته ، هى تلك التى يخلو منها كيسه من أية قطعة مسكوكة من قطع العملة (٢) . وكانت حاجاته قليلة ، ونفقاته تكاد تكون معدومة (٣). ولقد مر بنا فى تضاعيف قصتنا الأمثلة الوافرة الدالة على زهده وايثاره للفقر ، وفى مقدورنا أن نورد ما يزيد عليها من الوقائع المماثلة ، بدرجة أوفى وأكثر ، لو رأينا ذلك مما يستساغ سوقه ويستصوب ايراده

٥ ـ صفاته وما تميز به

وكان مسلكه مسلك الرجل المنصرف عن شواغل الحياة العادية . ولو أنه كان فى مسائل العلم ، يبدى نحوها دائما أقصى درجات الاهتمام

جاء فى الحلية لأبى نعيم (٤) : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد ابن محمد القاضى ، قال : سمعت أبا داود السجستانى يقول : لقيت مائتين من مشايخ العلم ، فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، لم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فاذا ذكر العلم تكلم »

وكان رجلا رقيق الشعور لين الجانب . ولكنه قابل للاثارة حتى تغلب عليه الحدة والعنف ، وذلك اذا ما شهد ظلما يلحق بالناس أو أذى أوقع بهم ، أو ضلالة فى حق الدين جهر بها مبتدع

---

(١) المقفى ورقة ٥

(٢) النووى ص١٤٥ (*) فى نسخة تهذيب التى طبعها منير بالقاهرة فى ترجمة أحمد حـ١ص ١٠ لايوجد بها مايشير اليه المؤلف ولعله استقى هذا البيان من مصدر آخر ،

(٣) النووى ص ١٤٤ (ليس فى طبعة القاهرة من تهذيب النووى مايدل على هذا أيضا)

(٤) ورقة ١٣٨ ب (*) حـ ٩ ص ١٦٤ من طبعة القاهرة

وكان أحمد معروفا بعدالته وتحرزه فى أحكامه ، حتى بين غير المسلمين، والأمثلة على ذلك كثيرة . حسبنا منها ما قد روى من أن امرأتين مجوسيتين اختصمتا على ميراث لهما أمام قاض من قضاة المسلمين ، ولما صدر الحكم ، قالت المرأة التى كان الحكم فى غير مصلحتها : « ان كنت قضيت علىّ بقضاء أحمد بن حنبل رضيت ، والا فانى لا أرضى » . ورأى صاحب القصة أنها مثل على نزاهة أحمد وسمو مناقبه ، بلغ من الوضوح والقوة ما حمله على أن يحدث بهذه القصة القريب والبعيد ممن كان يلقاهم من الناس (١)

وعُرف عن أحمد كراهته للخفة والمزاح ، وخاصة اذا صدر هذا عن الفقهاء ورجال العلم . وقد حدث فى مناسبة معينة أن استرسل يزيد بن هرون فى ممازحة مستملية ، فتنحنح أحد الحضور فى المجلس . ولما استفسر يزيد عمن يكون ذلك الذى أبدى تلك العلامة الظاهرة من علامات الاستهجان ، قيل له بأنه أحمد بن حنبل ، فما لبث يزيد أن ضرب بيده على جبينه ، والتفت الى أدنى الناس اليه ، سائلا اياهم فى لهجة من اللوم والتأنيب ، لِم لَم يخبروه بوجود أحمد فى المجلس ، حتى يتخذ السمت والوقار أمامه

روى أبو نعيم (٢) هذه القصة فقال : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا

---

(١) أبو نعيم ورقة ١٤١ (*) حـ٩ص١٧٣ من طبعة القاهرة حدثنا أبى حدثنا أبو الحسن حدثنا عبد الله بن احمد بن حنبل ، حدثنى نوح بن حبيب القومسى ، قال : كان عندنا يعنى بلدهم امرأتان مجوسيتان فاختصمتا فى مواريث لهن الى رجل من المسلمين ، فقضى لواحدة منهن على الاخرى . فقالت : ان كنت ... الخ ، قال نوح : فحدثت به أهل طرسوس والشامات»

(*) يقول مترجم الكتاب أن هذه القصة التى أوردها أبو نعيم فى الجلبة من الراجح أن تكون قصة موضوعة قصد بها المتزيدون أن يؤكدوا تحرز احمد فى احكامه وهى من قصص الكرامات المعروفة فى اللغات الاجنبية باسم Hagiography واحمد بن حنبل ليس فى حاجة الى هذا فوقائع سيرته تغنى عنه ولو انه استشير فيما وضع من القصص لتمجيده واضفاء صفات البطولة عليه لرفضها رفضا باتا . ومن هذه المبالغات ما حاوله بعض كتاب سيرته من ايجاد تماثل بين حركة الردة فى عهد ابى بكر ، والمحنة فى عهد المأمون والمعتصم والواثق ، وأن الاولى قام فيها ابو بكر والثانية قام فيها احمد بن حنبل ، والفرق شاسع بين الحركتين من وجوه كثيرة .)

(٢) الحلية ورقة ١٤٠ أ (*) حـ٩ ص ١٦٩ من طبعة القاهرة

الحسن بن على المعمرى قال : سمعت خلف بن سالم يقول : قال : كنا فى مجلس يزيد بن هرون، فمزح يزيد مع مستمليه ، فتنحنح أحمد بن حنبل، وكان فى المجلس ، فقال يزيد : من المتنحنح ؟ فقيل له : أحمد بن حنبل . فضرب يزيد بيده على جبينه وقال : ألا أعلمتمونى أن أحمد هاهنا ، حتى لا أمزح »

وكان من عادة الناس أن يقولوا بأن أحمد بن حنبل نفسه يعد اختبارا يختبر به المرء ، ومحنة يمتحن بها . وروى عن ابن أعين أحد ناظمى الشعر عدة أبيات فى هذا الصدد

قال أبو جعفر محمد بن دينار الموصلى (١) : أنشدنى بن أعين فى الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة وبحب أحمد يعرف المتنسك
واذا رأيت لأحمد متنقصا فاعلم بأن ستوره ستهتك

٦ ـ طابعه الدينى

لدينا دلالة توضح لنا خلق أحمد وشخصيته من وجهة النظر الدينية ، نلمسها فى الأبيات التالية التى قيل انها من نظمه ، والتى تزودنا بما يمكن أن نهتدى اليه من أثر وحيد يدل على موهبته الشعرية

روى أبو نعيم (٢) : حدثنا أبو على عيسى بن محمد الخريجى ، حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب النحوى ، قال : كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل، فدخلت عليه فقال : فيم تنظر ؟ فقلت له فى النحو والعربية والشعر ، فأنشدنى أحمد بن حنبل :

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ، ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبنّ الله يغفل ما مضى وان الذى تخفى عليه يغيب

(١) طبقات الشافعية لابن السبكى ص ١٣٤ (*) طبعة القاهرة حـ١ص ٢٠٣
(٢) الحلية ورقة ١٥٥ أ (*) حـ٩ص ٢٢٠ من طبعة القاهرة

لهونا عن الأيام حتى تتـابعت ذنوب" على آثـارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ويأذن لى فى توبة فأتوب (*)

وقد قيل بأنه اعتاد أن يصلى كل يوم ثلثمائة ركعة . وأنه حتى بعد أن ضُرب وبرح به الضعف ، بلغ عدد الركعات التى كان يصليها كل يوم مائة وخمسين ركعة . وكان يختم تلاوة القرآن مرة كل سبعة أيام . وكان من عادته فى الليل ، أنه بعد صلاة العشاء ، ينام لفترة قصيرة ، ثم ينهض ليصلى فرضا أو نفلا حتى الصباح

جاء فى الحلية (١) : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل قال : كان أبى يصلى فى كل يوم وليلة ثلثمائة ركعة ، فلمـا مرض من تلك الأسواط أضعفته

وكان يصلى فى كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة . وقد كان قرب من الثمانين . حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : كان أبى يقرأ فى كل يوم سُبْعاً ، يختم فى كل سبعة أيام . وكانت له خَتْمة فى كل سبع ليال سوى صلاة النهار . وكان ساعة يصلى عشـاء الآخرة ، ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم الى الصباح يصلى ويدعو »

ولما كان مقيما ببغداد ، قيل بأنه ثابر على ملازمة داره ، لايبرحها ، حتى ان أحدا لم يكن ليراه ، ما لم يخرج لأداء صلاة الجماعة ، أولتشييع جنازة أو لعيادة مريض . وكان حريصا على العمل بما جاء فى الأحاديث النبوية وملاحظة دقائق العبادات والتزام أدائها . وقد سبق لنا أن ذكرنا معاونة أبنائه اياه على الوضوء ، وذلك قبيل موته . فكان على الرغم من

(*) هذه الابيات القوية فى معناها أوردها الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين منسوبة الى صالح بن عبد القدوس وهو شاعر من شعراء الدولة العباسية اتهمه المهدى بالزندقة وقتله فى سنة ١٦٧ هـ ، راجع اعمال مؤتمر المستشرقين المنعقد فى لندن سنة ١٨٩٣ م جـ٢ص ١١٨ نقلا عن جولد تسيهر فى مقاله المذكور آنفا ، بمجلة المستشرقين الالمانية مجلد ٥٢ سنة ١٨٩٨م ص ١٦٠؛

(١) ورقة ١٤٣ آ (*) جـ٩ص ١٨١ من طبعة القاهرة

عجزه عن الكلام ، يشير اليهم أن يخللوا الماء بين أصابعه ، وأن يغسلوا باطنها وظاهرها

قال أبو نعيم (١) : قال عبد الله : وكان أبى أصبر الناس على الوحدة ، لم يره أحد الا فى مسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض ، وكان يكره المشى فى الأسواق .. حدثنا أبى ، حدثنا أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، قال : خرج أبى الى طرسوس ماشيا ، وخرج الى اليمن ماشيا ، وحج خمس حجج ، ثلاثا منهن ماشيا (*). ولايمكن لأحد أن يقول انه رأى أبى فى هذه النواحى يوما ، الا خرج الى الجمعة ، وكان أصبر الناس على الوحدة . وبِشر (**) رحمه الله ، فيما كان فيه ، لم يكن يصبر على الوحدة . فكان يخرج الى ذا ساعة والى ذا ساعة »

٧ ــ مظهره الشخصى

كان أحمد فى مظهره الشخصى حسن الخلقة ربعة (***) وكان يخضب رأسه ولحيته بالحِنّاء والكَتَم خضابا ليس بالقانى ، لأنه كانت ترى فى لحيته شعيرات سود. وقد بدأ خضاب رأسه ولحيته حين بلغ الثالثة والستين من عمره . ثم واصل ذلك اقتداء بسنة النبى (٢) (عليه السلام)

---

(١) الحلية ورقة ١٤٣ ب (* حـ٩ ص١٨٣ من طبعة القاهرة)

(*) فى تهذيب النووى طبعة منير بالقاهرة حـ١ ص ١١١ ، ١١٢ : « قال صالح بن حنبل : قال أبى : حججت خمس حجج ثلاثا منهن راجلا ، انفقت فى احداهن ثلاثين درهما

(**) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن ، المعروف بالحافى من كبار الصالحين فى بغداد ، وكان معاصرا لاحمد بن حنبل وتوفى سنة ٢٢٦هـ او ٢٢٧هـ ، ترجم له ابن خلكان رقم ١١١، جـ ١ ص ٢٤٨ وما بعدها (النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م) ، وله ترجمات مطولة فى كتب طبقات الصوفية مثل حلية الاولياء لابى نعيم ، واقواله فى الورع والزهد منثورة فى كتب الادب والتاريخ أورد القشيرى جانبا منها فى رسالته فى التصوف . وترجم له صاحب شذرات الذهب حـ ٢ ص٦٠ : ٦٢ . ويحاول المترجمون لاعلام الصوفية فى القرن الثالث الهجرى ان يخففوا من حدة المنازعات التى بدأت تحتدم بين رجال الحديث والفقه من جانب والصوفية من جانب آخر والتى بلغت ذروتها فى العصور التالية . وقد عرفنا فى سيرة أحمد بن حنبل ماوقع بينه وبين الحارث بن أسد المحاسبى من خلاف . فقد نصح أحمد أتباعه ألا يحضروا مجلس المحاسبى وألا يقرأوا كتابه : الرعاية لحقوق الله

(***) فى الاصل ما معناه « متوسط الطـــول » والربعة بفتـــح الراء وسكون الباء هو الوسيط القامة الذى ليس بالطويل ولا القصير . وقد ورد فى مصدر آخر ان أحمد كان طويلا ففى ترجمة الذهبى لاحمد فى كتابه تاريخ الاسلام أن ابا جعفر بن ذريح العكبرى قال : كان (أحمد) شيخا مخضوبا طوالا أسمر شديد السمرة . (ص ٦٠ من مقدمة المسند لاحمد شاكر)

(٢) ابن خلـــكان ترجمة رقم ١٩ ، والحلية لابى نعيم ورقة ١٣٨ ب (حـ ٩ ص ١٦٢ من طبعة القاهرة) وقد جاء فيها : قال عبد الله : وخضب ابى رأسه ولحيته بالحناء والكتم وهو ابن ثلاث وستين سنة

الفصل الخامس

آراء أحمد بن حنبل

آراء أحمد بن حنبل (١)

١ ـ آراؤه ٢ ـ المصادر ٣ ـ القرآن ٤ ـ وحدانية الله ٥ ـ صفات التجسيم والتشبيه ٦ ـ تأويل القران ٧ ـ المصادر الشرعية الزائدة على القرآن ٨ ـ تأويل الحديث ٩ ـ سبب انتهاج هذه الطريقة واتباعه لهذا الاسلوب فى حياته ١٠ ـ تقديس المخلفات ١١ ـ سبق القضاء بالحوادث ١٢ ـ مذهب أحمد فى الايمان ١٣ ـ موقف أحمد من رعاية السلطان . ١٤ ـ كراهية أحمد للعقائد الكلامية المنسقة ونتائجها

١ ـ آراؤه

كان أحمد بن حنبل رجلا هيَّأه مزاجه الطبيعى الخاص ، ليس فحسب لهذا الطراز من الحياة التى عاشها ، وقد كانت حياة عنيفة فى تدقيقها وتحرزها ، صادقة فى زهدها وتقلّلها ، ضارية فى استنكارها لكل تحرر (عن أصول الدين الثابتة) (٢) ، ولكنها نزعت به أيضا الى تلك الآراء والمعتقدات التى كانت ، الى حد ما ، مبعث القوة والحركة لحياة كهذه (٣)

ولم تكن عقائده خالية تماما من أية محاولة من جانبه للتوفيق والملاءمة بينها وبين ظروف العصر الذى عاش فيه . ولكن مدى هذه الملاءمة كان أدنى قدر مستطاع ، أمكن لأحمد أن يقوم به . وفى الحق ، اذا وجّهنا نظرنا أينما شئنا فى سيرته ، فلن نجد البتة من عناصر التقريب والتوفيق ما صدر فيه أحمد عن رغبته واختياره . وان وجِد شىء منها فدرجتها تعد أقل درجة ممكنة

---

(١) هذا العنوان كالعناوين السابقة ليس موجودا فى الاصل

(٢) زيادة عن الاصل لتوضيح مراد المؤلف

(٣) روى أبو نعيم فى الحلية ورقة ١٥٣ ب (جـ ٩ ص ٢١٥ من طبعة القاهرة) : « فدخلت اليه ، فاكببت عليه وقلت له : يا أبة ، تدخل على نفسك الغم ؟ فقال : يابنى يأتينى مالا أملكه »

٢ ـ المصادر

وانا لنرمى الى القاء نظرة عامة نستند فيها على البحث الذى قمنا به ، وعلى ما تيسّر لنا من المصادر القليلة الأخرى ، وذلك لكى نصل ـ اذا كان هذا فى مقدونا ـ الى تكوين فكرة صحيحة صادقة عن الآراء أو المبادىء الاعتقادية الرئيسية التى استعان بها أحمد بن حنبل ليجعل منها نهجا يوجه حياته على مقتضاه . وان وصيّته التى أوردناها فى الصفحات السابقة (١) ، لهى وثيقة عديمة اللون والطابع . اذ لا تزودنا بأية فكرة عن معتقداته الخاصة التى تنم عن شخصيته

ويتألف الاعتراف الذى تشتمل عليه من عبارات متداولة شائعة ، يمكن أن تصــدر عن أى مسلم آخر ، مهما كان الضرب الذى ينتمى اليه أو الشخصية التى ينفرد بها . أما كتاب أحمد بن حنبل الى عبيد الله بن يحيى الذى رد فيه على استفسار الخليفة عن موضوع القرآن ، فانه يحوى من السّمات المميِّزة الكثيرة ما يحملنا على اعتباره صورة مُجْمَلة تمثل عقيدة أحمد (٢) أصدق تمثيل ، وتعبِّر عنها أدق تعبير . كما أن المحادثة التى دارت بين أحمد واسحق بن ابراهيم عن القرآن ، تتفق اتفاقا تاما مع الروح الغالبة على مبادىء أحمد ونَمَط حياته ، وتزودنا بعَرض شيِّق لمذهب أحمد فى القرآن (٣) . فضلا عن أن المحاكمات التى جرت لأحمد أمام اسحق بن ابراهيم والمعتصم ، وما صاحبها من محادثات ومناقشات ، تهيِّىء لنا مادة تلقى كثيرا من الضياء على آراء أحمد ، وتكشف لنا عما تحتويه من عناصر شخصية ، وسمات فردية (٤)

---

(١) ص ١٤٧ بالاصل

(٢) ص ١٥٥ بالاصل

(٣) ص ١٣٩ بالاصل

(٤) ٩٣ وما بعدها بالاصل

٣ — القرآن

ولنبدأ بمذهب أحمد فى القرآن (١) . فقد أقر فيه بأنه كلام الله ، وقصد بذلك أنه التعبير عن علم الله ، وأنه باعتباره تعبيرا يجب أن تتصور أنه قائم بصفة أزلية فى الذات الالهية . أو اذا كان علينا أن نعيد صوغ هذه الفكرة فلنا أن نقول انه ما دام هناك من أمر موضوعى بالنسبة لذاته تعالى ، قام كلامه تعالى مُعَبِّرا عن علمه . وقبل أن يظهر الموضوعى فى عالم الوجود ، فكلام الله تعالى قائم فى ذاته وليس كلاما واقعا (٢)

وهذا يؤدى بنا الى اثبات أزلية كلام الله . ومن ثم اذا تعذر علينا أن تتصور العلم الالهى قائما على صورة مجردة من التعبير الرمزى الذى يلازمه ملازمة أزلية ، واذا نظرنا الى كلام كهذا ، على اعتبار أنه ملكة تعبر عن نفسها كطاقة وليست خَلْقاً ، فانه يترتب على ذلك أن كلام الله تعالى ليس أزلياً فحسب ، ولكنه أيضا غير مخلوق . وقد يُعترض على ذلك بأن النقطة المتنازع عليها ، لا تنحصر فى كلمة الله ، ولكن فى القرآن على اعتبار أنه كلام الله (٣) المعروف للناس . ومع ذلك فان علينا أن نلاحظ الفرق الواضح بين القرآن المكتوب أو المتلو ، وكلام الله الضرورى

---

(١) ص ١٠١ وما بعدها ، ووازن ذلك بما جاء فى كتاب الظاهرية بقلم جولدتسيهر ص ١٣٨ وما بعدها . وقد ذهب بعض فقهاء أهل السنة الى أن كلام الله صفة من صفاته ، انظر كتاب المنازعات الكلامية بقلم هوتسما ص ١٠٣ وما بعدها . ووازن ذلك بما جاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، ومع ذلك فان كافة الشواهد والادلة الموجودة لدينا تدل على ان عقيدة الامام احمد بن حنبل هى كما بسطناها

(٢) هذه العبارة فى الاصل هى :

As long as there has been present to God that which is objective to Himself, so long has there been a Word of God as the expression of this knowledge, before the objectives came to existence the Word of God was potential in him and not actual

ولعل فى ايراد نص عبارة المؤلف ما يعين على توضيح مراده

(٣) فى الاصل استعمل المؤلف اداة التنكير مع عبارة : كلمة الله A Word of God واكد الاداة بحرف طباعة خاصة . اما عبارته الاخرى « كلام الله » فهى فى الاصل : الكلمة الالهية : A Word of God مع توكيد اداة التعريف بحرف طباعة خاصة للمقابلة بينها وبين كلمة الله .

السماوى (١)

ولم يتوضّح هذا أيضا بين المتجادلين (فى موضوع خلق القرآن) (*) لمحض الرغبة فى الجدل وسعيا وراء الظفر فى المناظرة وقطع الخصوم . مع أن هذه التفرقة تمثل فى نظرنا اعتقادا فى مدى الشقة القائمة بين كلام الله الظاهر وكلامه الخفى . فان كافة الكلمات التى كلّم الله بها موسى هى

---

(١) راجع كتاب : تاريخ الآراء السائدة فى الاسـلام (بالمـانية) بقلم فون كريمـر ص ٢٢٧ ، وكتاب : المعتزلة بقلم شتينر ص ٣٨ وما بعدها . وما جاء فى هذين الكتابين عن نظرية اهل السنة فى القرآن يختلف عما استخلصت من رأى احمد بن حنبل فى هذا الموضوع . ولم ينفرد احمد ، فيما يبدو بهذا الرأى فى القرآن ، بل شايعته جمهرة كبيرة من الناس سواء منهم المتعلمون والعوام ممن كانوا يميلون الى افكاره ومذهبه . وان غالبية أولئك الذين بسطوا نظرية اهل السنة واشاعوها يدركون الفرق بين القرآن الظاهر والقرآن الخفى . بيد انهم لايذهبون الى ابعد من هذا . وعلى ذلك فهم يجعلون الكتاب بالصورة التى يعرفه الناس بها مماثلا لنظيره المحفوظ فى السموات . والتفرقة الكبيرة التى ننبه اليها انما تقع بين القرآن الظاهر وبين الكلام الخفى لله تعالى . والاخير ليس معادلا للقرآن ولكنه غير متناه فى سعته ورحابته . وان الصلة القائمة بين هذه الفكرة وبين مذهب الكلمة (اللوغوص) Logos الذى يقول به مسيحيو الشام (هوتسما ص ١٠١ هامش رقم ١) لتؤيد عرضنا للمذهب القرآنى كما أوردناه فى متن كتابنا . فان تجلى الكلمة (اللوغوص) فى عيسى المسيح يجب أن يقابل بالكلمة السماوية غير المخلوقة القائمة فى ذات الاب

(يقول مترجم الكتاب ان المؤلف يعقد هنا موازنة بين عقيدة المسيحيين القائلة بأن كلمة الله غير مخلوقة ، ومذهب أهل السنة الاسلامية القائل بأن القرآن غير مخلوق . وان اثبات عقيدة المسيحيين فى أن كلمة الله غير مخلوقة لمن الامور الميسورة فى اللاهوت المسيحى لان المسيحيين يقولون بألوهية عيسى ، وقد نبه الى هذه الخليفة المأمون فى كتابه الاول الخاص بالمحنة . ولم تتعرض عقيدة المسيحيين فى الكلمة لاى شك من جانب الفرق الدينية التى ظهرت فى تاريخ المسيحية ، وذلك فيما عدا فرقة آريوس Arius . اما « اللوح المحفوظ » الذى ورد ذكره فى القرآن فى سورة البروج ٨٥ آية ٢٢ (وازن ذلك بما جاء فى كتاب المعتزلة بقلم شتينر ص ٣٩ وهامش رقم ٥ وبما ورد من بيان سابق فى هذه الصفحات ص ٦٧) فهو فى الحق الاصل الاول للقرآن الظاهر المعروف لنا . وهو اصل محفوظ فى السموات . ومع ذلك فان هذا الاصل السماوى ذاته ليس مساويا فى سعته وامتداده لكلام الله الازلى غير المخلوق الذى يعد اللوح المحفوظ احدى مظاهره التى توضحه وتكشف عنه . ومن ثم فانا نعتقد ان أهل السنة فى عصر احمد بن حنبل ذهبوا فى عقيدتهم فى القرآن الى مذهب يتألف من ثلاثة عناصر هى : ١ ــ القرآن الظاهر (المنزل) ، ٢ ــ القران السماوى . ٣ ــ كلام الله الازلى

(*) زيادة عن الاصل لتوضيح مراد المؤلف

كلام الله (١) . وهى حقا لا تتعلق بالقرآن المعروف لنا ، ولكنها تتعلق بكلام الله الأزلى . وكلمات الله جميعا لمحمد (عليه السلام) ولسائر الأنبياء هى كلام الله ، كما أن كافة تلك الكلمات التى كلم الله تعالى بها عيسى ابن مريم هى أيضا كلام الله

وقد استعان المتناظرون (المسلمون) فى جدلهم بالكلمات التى خوطب بها هؤلاء الرسل المختلفون ، لكى يبرهنوا على أن القرآن المعروف لنا أزلى غير مخلوق ، ولو أن هذه الكلمات لا تؤلف جزءا من القرآن . ذلك لأنها مضافا اليها مادة القرآن ، هى مما أنزل من كلام الله الأزلى وأوحى به . ولكن هذا التنزيل ليس مستغرقا لكلام الله الأزلى وانما هو جزء منه . وهذا يؤدى بنا الى المذهب القائل بأن كلام الله تعالى وحدة ، كما أنه أزلى غير مخلوق (٢)

ولا يمكن أن يعد هذا الكلام وحدة ، اذا اقتصرنا فى الاستدلال على كلمات الله الظاهرة . ولكن اذا اعتبرنا هذه الكلمات ونظرنا اليها كملكة للتعبير ، كامنة أو فاعلة ، متعلقة بالذات الالهية ، فانا قد نرى كيف عند كلام الله وحدة متصلة مستمرة ، أو نراه على أنه وحدة فى حاضر أزلىّ ، اذا تهيّأ لنا أن نحسن التعبير عن حقيقة تتعلق بالذات الالهية المنزهة عن الحوادث وعن أى تعاقب زمنى . وكلام الله هذا ، سواء اذا نظرنا اليه على اعتبار أنه أفكار وعبارات ، هو بالضرورة صادق معصوم مبرأ عن أية شائبة (٣) . ومن ثم فكلام الله تعالى أزلى غير مخلوق ، وهو وحدة متصلة ، منزهة معصومة . وهذا هو ما نعتقد أنه كان مذهب أحمد بن حنبل فى القرآن ، ومذهب من كان على غراره من الفقهاء والمحدثين. وقد استعنا بالطرائق العصرية فى التعبير لتوضيح آرائه . ومع ذلك فهذه الآراء

---

(١) ص ٣٨

(٢) وازن ذلك بما جاء فى كتاب الظاهرية بقلم جولد تسيهر ص ١٣٨ وما بعدها ، وكتاب المنازعات الكلامية بقلم هرتسما ص ١٢٩

(٣) راجع كتاب المنازعات الكلامية بقلم هوتسما ص ١٠١

ليست مما ننتحله لأنفسنا وانما هى آراء أحمد بن حنبل

والقرآن من حيث علاقة البشر به فى الحياة الدنيا (١) ، يجب أن ينظر اليه كبيان عن كلام الله الواحد (٢) الذى يتألف منه وحى الديانة الكاملة ، كما أنه الوسيلة المثلى للخلاص (من عذاب الآخرة) (*) والهداية الصادقة للناس (فى حياتهم الدنيوية) (٣) . وهو فى كافة أشكاله القائمة بين الناس ، سواء أكان مكتوبا أو متلوا أو محفوظا فى الذاكرة ، كذا مادته وألفاظه غير المنطوق بها ، مما يتضمن قول الله تعالى وفكره ، هو قرآن أزلى غير مخلوق (٤) . وهو الحق المعصوم المنزه عن الخطأ . وأفعال البشر من حيث علاقتها بمادة القرآن وألفاظه ، كما نرى تلك المادة والألفاظ متصلتين بالأفعال البشرية (من حيث تلاوة القرآن وكتابته وحفظه الى غير ذلك) (٥) انما هى أفعال محدثة مخلوقة غير معصومة ، هذا هو مذهب القائلين « بلفظ القرآن »

٤ ـ وحدانية الله

لعلنا قد تأهبنا الآن لبحث مبدأ الوحدانية . ولقد كان أحمد بن حنبل راسخ الاعتقاد فى وحدانية الله . واذا وضعنا نصب أعيننا ذلك الرأى فى القرآن الذى نعتقد أنه ذهب اليه ، فمن السهل أن ندرك كيف ناضل فى عنف وشدة ، محاولة خصومه فى أن يلصقوا به تهمة الشرك . ويمكن

---

(١) كتاب الظاهرية بقلم جولدتسيهر كما فى هامش رقم ٢ ص ١٨٥ وعلى الاخص ١٤١ ، راجع أيضا كتابنا هذا ص ٣٢ وما بعدها

(٢) الواحد هنا صفة للكلام كما فى الاصل :
As a manifestation of the One Word of God

(*) الخلاص هنا ترجمة لكلمة Saviour وهى كلمة لها دلالة خاصة فى المسيحية لاتصالها بعقيدة المخلص Salvation وقد قيدنا هذه الدلالة باضافة عبارة : « من عذاب الآخرة » التى ليست موجودة فى الاصل

(٣) زيادة عن الاصل لتوضيح مراد المؤلف

(٤) راجع كتاب المنازعات الكلامية بقلم هوتسما ص ١١٧ وما بعدها

(٥) هذه الجملة فى الاصل هى :
and proceeding to manifestation at the coming into being of objective Existence

أن نشير بهذه المناسبة الى اعتقاده فى أزلية صفات الله . وقد أوردت المصادر التى أمكننى الرجوع اليها ، مجمل رأيه فى صفات الله ، ولكنها لم تفصله وتبسط القول فيه . وذلك فيما عدا رأيه فى قدرة الله وعلمه ، وهما الصفتان اللتان أفاضت فيهما مصادرنا لتعلقهما بموضوع أصل القرآن (*) . فلدينا عنهما من البيانات ما يكفى لتكوين فكرة عن آرائه فى الصفات

وقد بيَّن أحمد فى تثبت ويقين أننا لايمكن أن نتصور وجود الله دون وجود علمه . وعلى الرغم من أن خصومه أعلنوا أن اعتبار أى شىء أزلى غير مخلوق ، مفترقا ومباينا فى التصور عن فكرة الألوهية المجردة ، هو بمثابة اشراك آلهة أخرى مع الله ، عددها بقدر عدد هذه الأشياء [١] ، فان أحمد لم يستطع ، وهو ينحو نحو تصور حسِّى ، صادر عن عقل غير فلسفى ، أن يتخيل الذات المطلقة الا عما تقتضيه الذات المتناهية من كافة صفات الكمال أو عما يكملها . ولم يَقْوَ على تصور الذات المتناهية الا اذا كان لها صفات . فالمطلق عنده هو غير المتناهى ، المقابل والمماثل للكامل المتناهى (*)

٥ ــ صفات التجسيم والتشبيه

ومن الواضح أن هذا الاعتقاد نفسه ،كان أصلا من أصول القاعدة التى

(*) لم يطلع المؤلف على كتاب صغير للامام احمد بن حنبل اسمه : الرد على الجهمية والزنادقة، نشره الحلبى بالقاهرة وليس عليه تاريخ الطبع ، وقد أوضح فيه الامام احمد آراءه فى المسائل الاعتقادية ، كما ان هذه الآراء منشورة فى كتب اخرى مثل كتاب مسائل الامام احمد للسجستانى ، نشر رشيد رضا فى القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ وكتاب السنة لولد الامام احمد وهو عبد الله بن احمد بن حنبل الذى نشر فى مكة سنة ١٣٤٩ هـ

(١) فيما يتعلق برأى المعتزلة فى صفات الله ، انظر كتاب المعتزلة بقلم شتينر ص ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، وكتاب المنازعات الكلامية بقلم هوتسما ص ١٠٣ ، ١٢٤ ، وكتاب الملل والنحل للشهرستانى فى ترجمة هاربريكر جـ ١ ص ٧١

(*) يحاول المؤلف هنا ان يصوغ آراء الامام احمد الاعتقادية فى قالب فلسفى ، ويظن انها لو عرضت عليه بهذه الصياغة لما قبلها !

انبنى عليها ايمان أحمد بن حنبل بصفات التشبيه (فيما يبدو للمؤلف) وهى الصفات التى وصفت بها الذات الالهية فى القرآن (١) . ولما حيرته احتجاجات خصومه الفلسفية ، أقر بعجز عقله غير المدرب عن الرد على هذه الاعتراضات الفلسفية ، وذلك على الرغم من أنه استند على قياس الكمال الالهى بالكمال البشرى . وقد استمسك بهذا القياس استمساكا شديدا ، على اعتبار أنه دعامة واضحة لايتطرق اليها الشك والغموض ، تشرح ما جاء فى القرآن من آيات التشبيه والتجسيم

وقد أفصح لخصومه عن عجزه عن الرد على حججهم الفلسفية بقوله : « لا أدرى ، هو كما وصف نفسه ، لا أزيد على ذلك شيئا (٢) »

وقد كان المبدأ (٣) الذى بنى عليه أحمد فكرته فى الذات الالهية مبدأ سليما فى جوهره ، وهو أن : « المطلق هو الكمال غير المتناهى للكمال

---

(١) وازن ذلك بما جاء فى كتاب دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر حـ ٢ ص ١٨٦ ، وكتاب تاريخ الاراء السائدة فى الاسلام بقلم فون كريمر ص ٤١ وما بعدها (وهو يتضمن وجهة نظر أكثر وضعية)

(٢) راجع كتاب تاريخ الديانة الاسلامية (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٣٦ (وتوجد ترجمة فرنسية لهذا الكتاب) . وقد أورد الشهرستانى شيئا مما احتج به الصفاتية ، انظر الملل والنحل ترجمة هاربريكر (الى الالمانية) جـ ١ ص ٩٥

(٣) راجع كتاب الظاهرية بقلم جولدتسيهر ص ١٣٣ . ومن العسير ان ندرى ما يسمى بالموقف السلبى لكل من مالك بن أنس وابن حنبل فى هذا الصدد (أنظر الملل والنحل للشهرستانى ترجمة هاربريكر جـ ١ ص ٩٧ ، و ص ١١٤ وما بعدها) . فان رفض قبول التأويل المجازى لآيات التشبيه والاصرار مع ذلك على التمسك بالمعنى الحقيقى لهذه الآيات ذاتها ، كما صنع أحمد دون ريب ، لما يحملنا على هذا التساؤل وهو : كيف نستطيع أن نتصور وجود السلبية فى عقول كهذه) ان الاصرار على المعانى الوضعية مع عدم تبيين المدلولات النوعية لالفاظ الايات ، ثم انكار صرف المعنى الى تأويلات مجازية ، لايعد الا اغفالا لمسألة التشبيه وتركا لها على حالها .

(*) المؤلف غير موفق فى هذا التعبير لان دعوة محمد للاسلام لم تكن مصوغة طبقا لمصطلحات المتكلمين فى العصر العباسى : والايات التى يقال بأن فيها تشبيها هى اقرب الى افهام الناس وقلوبهم من دقائق الحجج الكلامية وصيغها الجامدة ، ويؤيد هذه الدعوى فرع من فروع الدراسات النفسية الحديثة يسمى بعلم النفس الدينى والمراجع الاجنبية التى الفت منه فى الخمسين سنة الاخيرة هى مما يخطئه الحصر ، وقد عالجه قديما بصورة أولية الامام الغزالى فى القسم الخاص بعجائب القلب من كتابه القيم : احياء علوم الدين

المتناهى ». ولكن خصومه اعترضوا بحق على نسبة الحوادث ، وعوارض الطبيعة البشرية ، التى قد توجد أو قد تنعدم ، اذا تغيرت ظروف الكائن البشرى وأحواله ، الى الذات الالهية ، التى عند الحديث بشأنها ، حديثا متصلا بالعوارض والحوادث ، وهما وتناقضا

وحقيقة المسألة من حيث علاقتها بصفات التشبيه هذه ، هى أن أحمد ابن حنبل قد نصب نفسه محاميا ومدافعا ، لا عن نفسه فحسب ، وانما عن القرآن وسنة النبى أيضا ، وقد أدرك أنه يقوم بهذا الدفاع ــ هكذا فيما يبدو لنا على الأقل ــ ولو أن أحمد كان يعتقد شيئا مخالفا للقرآن ومباينا لسنة محمد (عليه السلام) الذى أنزل عليه الكتاب (*) ، لصارت القضية بالنسبة اليه شاقة عسيرة الاحتمال . غير أن التشبيه كان شائعا فى بيئات الطبقات العالية

وكان على أحمد أن يناضل عن كلام الله وعن نزعته الاعتقادية الخاصة ، فنهض بأحسن دفاع ، أمكن القيام به فى هذه الظروف . فقد بيَّن أن الله تعالى وصف نفسه ، فمن يعلم عنه تعالى أكثر أو أفضل مما وصف به نفسه ؟ ليس هناك من رد مباشر على حجة كهذه

٦ ــ تأويل القرآن

واذا ما انتقلنا بعد ذلك الى البحث فى مذهب أحمد فى تأويل القرآن ، فانا لا نبتعد كثيرا ولا نكون قد خطونا خطوة كبيرة (١) . فقد اعتقد

(*) فى الاصل بدلا من العبارة التى أثبتها وهى: الذى أنزل عليه الكتاب ، عبارة أخرى تفيد بأن النبى مؤلف القرآن ، ارجو ان يعذرنى القارىء فى اسقاطها . وليس غريبا ان تجرى امثال هذه التعبيرات على أقلام المستشرقين على اعتبار انهم غير مسلمين ، مع ان منهج البحث العلمى فى دراسة علم الاديان المقارن يقتضى التقيد بمتون هذه الديانات (واثبات وجهة نظر معتنقيها دون ابداء الرأى فى مبلغ ما عليه هذه العقائد من صحة أو بطلان .

(١) راجع مواضع استشهاد أحمد بالآيات القرآنية واستعانته بها فى ص ٧٢ وص ٩٠ وما بعدها وص ١٠١ وما بعدها وص ١٠٦ وص ١٣٩ وص ١٦٢ وما بعدها وفيما يتعلق بالمنهج الاعتزالى الاوسع من هذا حربة ، انظر كتاب المعتزلة بقلم شتيبز ص ٧٩

أحمد أن من الواجب أن نفسر القرآن تفسيرا حرفيا (أى بما يقتضيه المعنى الظاهر للألفاظ) (*) ، اللهم الا فى الحالات التى أشار فيها الكتاب ذاته ، الى ضرورة تضييق نطاق هذه الطريقة أو تعديلها ، فضلا عن الحالات الأخرى التى تجعل هذا الضرب من التفسير الظاهرى مستحيلا استحالة عملية ، ونقول استحالة عملية لأن أحمد كان ينفر من اقرار أية ضرورة نظرية مجردة ، على اعتبار أنها مبدأ من المبادىء الضابطة للتفسير . وتوجد أمثلة قليلة عمد فيها أحمد الى التأويل المجازى ، بيد أنها من الندرة بحيث يمكن القول بأن منحاه العام فى التفسير قد قيّده فى معالجة الآيات ، التى قد يبدو للبعض أن معانيها مصروفة الى الاستعارة والمجاز . ومما حدد لأحمد تطبيق منهجه الظاهرى الحرفى ، أو اتباع منهج آخر فى تفسير مثل هذه الآيات ، ما اشتمل عليه القرآن ذاته من الاشارات ، فضلا عما اقتضته الضرورة العملية (من الالتجاء الى التأويل المجازى) (*) ، بيد أنه فى كافة الحالات التى اضطّر فيها الى اطّراح المنهج الظاهرى الحرفى ، ارتضى أحمد التأويلات المتواترة التى تناقلها رواة الحديث النبوى

٧ ــ المصادر الدينية الزائدة على القرآن

ومما يتصل اتصالا وثيقا بتأويل القرآن ، مسألة المصدر القطعى الذى تستمد منه أحكام الدين فى العبادات والمعاملات ، وذلك فى الحالات التى لم يرد فيها فى القرآن ، نصوص مفصّلة وتوجيهات واضحة وضوحا كافيا . وينحصر هذا المصدر عند أحمد بن حنبل فى الحديث النبوى الذى اورد لنا ما قاله النبى أو فعله ، أو ما رواه الصحابة عن النبى ، أو ما تناقله الجيل الأول أو الثانى من التابعين ، كما بيّن ما انعقد عليه اجماع الأمة الاسلامية فى القول والعمل

وعلى العموم فقد كانت الاستعانة بالقياس أو الرأى (فى استنباط أحكام الدين) موضع المعارضة . ولكن كان يؤخذ بهما اذا لم يوجد

(*) زيادة عن الاصل لتوضيح مراد المؤلف

عون آخر يَفْضُلُهما (١) . وقد كان هدف أحمد ، الذى أفصح عنه والذى كان يرمى اليه من وضع مؤلفه الكبير المسمَّى بالمسند ، المشتمل على مجموعة ضخمة من الأحاديث ، هو أن يهيىء لكافة الحالات التى يمكن تصورها ، حججا صحيحة من الحديث ، ترشد أولئك الذين قد يرجعون الى مسنده . فتخريج هذه الأحاديث ، وما علّقه عليها من أهمية ، يبين لنا أن تلك المادة الحديثية ، كانت عنده بعد كتاب الله ، الصخرة الكبرى الثابتة ، التى كان يركن اليها ويتشبث بها . ولدينا شواهد كثيرة تدل على

---

(١) دراسات اسلامية بقلم جولد تسيهر حـ ٢ص ٢١٧ هامش رقم ٤ ، وكتاب : فى التاريخ القديم للشريعة الاسلامية بقلم سخاو Sachau (بالالمانية) ص ١٧ ، والمنازعات الكلامية بقلم هوتسما ص ٩١ وما بعدها . وراجع ايضا كتاب الظاهرية بقلم جولد تسيهر ص ٢٠ هامس رقم ١ ، ويبدو ان عبارات هوتسما فى ص ٩٢ من كتابه تؤيد كثيرا آراء المعتزلة . ونلاحظ ان تأويل المعتزلة للقرآن ، وذلك فيما يتعلق بصفات الله وآيات التشبيه والتجسيم والقضاءوالقدر، هو فى عمومه تأويل مجازى . وانا نعلم الحيز الكبير الذى شغلته هذه الموضوعات فى الحرب الجدلية التي اثارها المعتزلة . وان تسميتهم بالعقليين او المفكرين الاحرار لهى تسمية تصدق عليهم ، فهى تفيد أن القرآن عندهم مصدر قطعى ، لا على اطلاق قطعيته أو طبقا للقدر الذى تبيحه الحاجات العملية . ولكنه قطعى فحسب الى الحد الذى تقتضيه المطالب العقلية للحياة البشرية ورفاهيتها وما تسمح به المقتضيات الظاهرة الجلية للفكر الانسانى

(*) يقول مترجم الكتاب ان نزعة القرن التاسع عشر فى أوربا نحو النظم الحرة حملت المستشرقين على الاعجاب بالمعتزلة فوصفوهم بالعقليين والمفكرين الاحرار وكتاب شتينر عنهم الذى نشره بالالمانية فى ليبزج سنة ١٨٦٥ م يحمل هذا العنوان . واخيرا كتاب جالان المنشور فى باريس سنة ١٩٠٦ م بنفس العنوان أيضا . ولكن أخذ المستشرقون فى القرن العشرين ينكرون عليهم هذه الصفة ومنهم جولد تسيهر فى كتابه العقيدة والشريعة فى الاسلام الذى نشر بالالمانية فى هيدلبرج سنة ١٩١٠ م (راجع الترجمة العربية بالقاهرة سنة ١٩٤٦ ص ١٠٣) ولا ننس Lammens فى كتابه الاسلام (الطبعة الثانية بالفرنسية ، بيروت سنة ١٩٤١ ص ٣٠٢ » الذى قال بان تسميتهم بالعقليين انما هى تسمية اسوء اختيارها . وكذلك نيبرج Nyberg المستشرق السويدى فى مادة معتزلة بدائرة المعارف الاسلامية وفى نقده سنة ١٩٢٩ م لكتاب جويدى Guidi فى مجلة الادب الشرقى الالمانية .O.L.Z مجلد ٣٢ ص ٤٢٧ وآخرهم و . مونتجومرى وات Watt فى كتابه : حرية الارادة والجبر فى الاسلام القديم (بالانجليزية) لندن سنة ١٩٤٨ م ص ٦٤ ، ٦٩ وتتلخص اعتراضاتهم على تسميتهم بالعقليين والمفكرين الاحرار فيما يلى :

(أ) اضطهادهم لمخالفيهم ابان المحنة ووصمهم بضيق الفكر وهذا رأى جولدتسيهر =

أنه كان أشد استمساكا بالحديث من أى فقيه آخر من فقهاء عصره (١) . اذ نجد أنه حين صفح عن مضطهديه ، انما استند فى هذا الصفح على حديث يفسر آية من آى القرآن

جاء فى الحلية (٢) : قال أبو الفضل : دخلت على أبى يوما ، فقلت له : بلغنى أن رجلا جاء الى فضـل الأنماطى ، فقال له : اجعلنى فى حِل ، اذ لم أقم بنصرتك . فقـال فضـل : لاجعلت أحدا فى حِل . فتبسَّم أبى وسَكَت . فلما كان بعـد أيام ، قال لى : مررت بهذه الآية : «فَمَن عَفا وأصلح فأجرُه عَلى الله(٣)». فنظرت فى تفسيرها ، فاذا هو ماحدثنى به هاشم بن القاسم : حدثنا ابن المبارك ، حدثنى من سمع الحسن يقول : اذا جَثَت الأمم بين يَدى رب العالمين يوم القيامة ، نودوا : ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم الا من عفا فى الدنيا . قال أبى : فجعلت الميت فى حل من ضربه اياى . ثم جعل يقول : وما على رجل ألا يُعَذب اللهُ بسببه أحدا »

وحين يروى مؤلف الحلية أن أحمد غضب من أولئك الذين ضعفوا فى المحنة أيام المأمون ، يشفع الحادث برواية عن بعض أصحاب النبى ، أثِر عنهم فيها ، أنهم كانوا يغضبون غضبا شديدا ، اذا طُلِب منهم أن يَتَخلّوا عن أمر من أمور دينهم . روى أبو نُعَيم (٤) : « حدثنـا محمد بن فُضَيل بن غزوان ، عن الوليد بن عبد الله بن جُمَيع ، عن أبى سَلَمة

(ب) ان تشددهم فى آرائهم الكلامية وتفانيهم فى الدعاية للاسلام جعل منهم دعاة ولا هويتين متعصبين وهذا رأى نيبرج

(حـ) ان من الصعب ان نعرف مدى ايمانهم بالعقل لانهم قلما يذكرونه.وفى مذهبهم ما يناقضه

(١) مقدمة ابن خلدون (*) الترجمة الفرنسيةبقلم ده سـلان حـ ٣ ص ٦ ، وكتاب الظاهرية بقلم جولدتسيهر ص ٢٢ ، وكتاب : فى التاريخ القديم للشريعة الاسلامية بقلم سخاو Sachau ص ١٥ ،

(٢) ورقة ١٥٠ (*) حـ ٩ ص ٢٠٣ من طبعة القاهرة

(٣) سورة الشورى رقم ٤٢ آية ٤٠

(٤) الحلية ورقة ١٤٧ أ (*) حـ ٩ ص١٩٤من طبعة القاهرة

ابن عبد الرحمن بن عوف ، قال : كان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، مَن اذا أريد على شىء من أمر دينه ، رأيت حماليق عينيه فى رأسه تدور كأنه مجنون » . وقد قصد مؤلف الحلية من ايراده لهذه الرواية الحديثية فى موضعها هذا ، أن يشير الى وجه الشبه بين موقف أحمد ، وموقف الصحابة الذين استشهد بهم ، وأن يبرر مسلك أحمد قياسا على ما صنعه أصحاب النبى (عليه السلام) . وقد يكون مراد أبى نعيم أيضا أن يلمّح الى أن أحمد بن حنبل صنع ما صنع ، وهو يعلم بهذه السابقة التى حفزته الى أن يحس بما أحس به

٨ ـ تاويل الاحاديث

وان تأويل أحمد بن حنبل للأحاديث ، قد نزع به أيضا الى أشد وجهات النظر تصلبا واستمساكا ، وغالبا ما كان يحتم التماس مخرج من المخارج فى الحالات الشاذة ، حتى فى المواضع التى يأبى فيها من تخصهم هذه الحالات أن ينتفعوا بهذا التخريج ، أو اذا لم تتفق تلك الحالات فى تفصيلها مع المقصود به أصلا فى متن الحديث . ومن ثم فان ما قُصِد به أن يكون تيسيرا وتخفيفا ، قد أصبح بدلا من ذلك عبئا (١) (ثقيلا وقيدا مرهقا) (*)

---

(١) توجد أمثلة توضح تشدد أحمد فى تأويل الاحاديث فى كتاب الظاهرية بقلم جولدتسيهر فى ص ٨٧ ، ٨٨ ومابعدها وكذلك ص ١٠٣ ، وازن ذلك بما جاء فى ص ١٤١ ، وانظر أيضا كتابا آخر لجولد تسيهر وهو دراسات اسلامية حـ ٢ ص ٢٥٠

(*) زيادة من الاصل لتوضيح مراد المؤلف

٩ ـ سبب انتهاج هذه الطريقة واتباع هذا الاسلوب فى الحياة

ان ما ذهب اليه أحمد من اعتقاد فى قيمة الأعمال (١) ، بلغ من الرسوخ والقوة ، حداً حمله على التشدد فى تفسير القرآن والحديث ، مما يعد أمراً طبيعيا يتَوقّع صدوره من أحمد . وهذا الاعتقاد ذاته ، يفسر لنا أخذه لنفسه بأقصى ضروب الزهد والحرمان ، وقضائه حياته فى صَوم متواصل (٢) . كما أن تعشقه لحياة الزهد ، يلقى بدوره ضوءا على الجانب الغامض من ورعه وتقواه فضلا عن ايمانه بالأحلام

جاء فى المُقفّى (٣) : ونقِل عن كثير من السّلف أنهم رأوا الله تعالى فى المنام كالامام أبى حنيفة ، والامام أحمد بن حنبل رضى اللهعنهما» ، فالعزلة والجوع وانعدام وسائل الراحة والرفاهية فى معيشة أحمد ، هذه كلها جعلت الحياة الذاتية تبدو له أنها أكثر واقعية من الحياة الموضوعية ، مما حدا بأحمد أن يُحس بالبغض والكراهية لذلك النمط من الحياة التى يعيشها غيره من الناس ، لأن حياة كهذه مما يحياها هؤلاء ، تتبدد فيها حقيقة العالم الباطنى ، تلك التىأخذ أحمد بها نفسه ، كما يفارقها ذلك

---

(١) يقول هوتسما فى ص ٨٥ من كتابه : المنازعات الكلامية : أن تقيد أهل السنة بظاهر معانى القرآن ، واستمساكهم الوثيق بهذا الظاهر ، احيا نهجا متشددا فى الحياة كذلك الذى نجده على الاخص بين الحنابلة ، ولكنا نلفت النظر الى تلك الحقيقة وهى أنه كان فى هذا العصر تيار قوى للعاطفة الشعبية ، يحبذ حياة دينية أكثر تشددا وتدقيقا

وهذه النزعة القوية فى حياة الافراد والمجتمع عموما ، أفصحت عن نفسها وتجلت معالمها فى تعظيم القرآن والتشدد فى تأويل تعاليمه واحكامه . وهذه النظرة الى القرآن الاكثر تشددا وتدقيقا ، ترتب عليها رجع فى الحياة الاجتماعية ، اذ هيأ للامة الاسلامية وافرادالمجتمع الاسلامى ، نهجا محدودا ونزعة معينة للحياة ، فهذا التصور للحياة ونهجها هو الذى اثر فى فهم القرآن والنظر اليه ، وهو الكتاب الذى اتخذه المسلمون دستورا للعمل بأحكامه فىحياتهم، وليس فهم القرآن هو الذى اثر فى نهج الحياة وتصورها . هذه هى طريقتى فى قراءة حوادث هذا العصر وادراك حقيقتها . غير ان ما ادلى به هوتسما من تعليل وتفسير ، سيجد ايضا انصارا كثيرين يتابعونه عليه ويقتنعون به

(٢) راجع ابن تغرى بردى فى كتابه : النجوم الزاهرة حـ ١ ص ٣٦٤ (*) حـ ٢ ص ٣٠٥ من طبعة القاهرة) عند ذكره لوفاة يزيد بن أبى يزيد الازدى وهى تشير الى أنه كان زاهدا فى حياته مقتديا بأحمد بن حنبل

(٣) للمقريزى ورقة ١٨

التصوف (*) ، مع ما يصحبه من الرؤى والتصورات الدينية السارة

جاء فى الحلية (١) : « قال بوران أبو محمد لأبى : عندى خُـف ، أبعث به اليك ، فسكت . فلما عاد اليه أبو محمد ، قال : يا أبا محمد ، لا تبعث بالخُـف ، فقد شغل قلبى علىّ »

١٠ ــ تقديس المخلفات

وهذا المظهر الزاهد المتصوف فى خُـلُـق أحمد ، يشـــتمل على تقديس المخلفات . وقد عرفنا منه مثالا أو مثالين فى خلال ما مضى من ترجمته .

روى أبو نعيم (٢) : ... ورأيت أبى يأخــذ شَعَرة من شَعَر النبى صلى الله عليه وسلم ، فيضعها على فيه ، يُقبّلها ، وأحسب أنى رأيته يضعها على عينيه ، ويغمسها فى الماء ، ثم يشربه ، يستشفى بها ، ورأيته قد أخذ قصعة النبَى صلى الله عليه وسلم ، فغسلها فى حُب الماء ، ثم شرب فيها . ورأيته غير مرة ، يشرب ماء زمزم ، يستشفى به ، ويمسح به يديه ووجهه »

(*) فى الاصل : Mysticism ومعناها : تصوف ، بيد أن أحمد لم يكن متصوفا ، وانما كان زاهدا . وشتان بين الزهد والتصوف فالزهد كف اختيارى عن متع الحياة التى يألفها الناس عادة ، والتصوف قد ينطوى على زهد ولكنه مصحوب دائما بحياة وجدانية خاصة وتأملات فكرية أوضحها الصوفيون فى مصطلحاتهم . وفى تاريخ التصوف الاسلامى نرى مرحلتين متميزتين : أولاهما اتجاهات الزهد القديمة عند بعض الصحابة والتابعين ، وقــد استغرقت القرنين الاول والثانى بعد الهجرة والثانية ماحدث من تطور لاتجاهات الزهد فى أواسط القرن الثالث الهجرى ، بتفصيل الحالات النفسية ومراتبهــا وبيان المواجد والمقــامات والاحــوال والاستغراق فى التأملات والمراقبة والرياضة الروحية . وقد عاصر أحمد جانبا من هذه التطورات وألم بها . ولكنه أعتبرها من البدع الدخيلة على الاسلام ، فنهى الناس عنها وحذر أتباعه منها . ويتجلى لنا ذلك فى موقفه من الصوفى الكبير الحارث بن أسد المحاسبى ، « الذى هجره أحمد لاجل الكلام ، فاختفى لتعصب العامة لاحمد ، فلم يصل على الحارث عند وفاته سنة ٢٤٣ هـ الا أربعة نفر » ــ الكامل لابن الاثير حـ ٧ ص ٥٥ وانظر أيضا طبقات الشافعية لابن السبكى حـ ٢ ص ٣٩ ، والمنقذ من الضلال للغزالى ص ٤٥ ، ٤٦)

(١) أبو نعيم ورقة ١٤٢ أ (*) حـ ٩ ص ١٧٨ من طبعة القاهرة

(٢) الحلية ورقة ١٤٤ أ (*) حـ ٩ ص ١٨٢ من طبعة القاهرة

١١ ــ سبق القضاء بالحوادث

ان الاعتقاد بنظام للحياة ، سبق تقديره والقضاء به ، وذلك عند رجل يقول بالآراء التى بسطناها ، لهو التفسير الوحيد لأفعال البشر، وللأحداث التى تلم بهم . ويظهر أن أحمد كان يرى أنه لاتوجد طوارىء أو عوارض تعرض للنــاس ، سواء لمــا يصدر عنهم من أفعال أو لما يُلِم بهم من أحداث (١)

١٢ ــ مذهب احمد فى الايمان

لقد أوضح محمد بن أسلم ، صديق أحمد بن حنبل ، مذهبه فى الايمان . ويبدو أن هذا مما كان يقول به أحمد بن حنبل أيضا . وهو أن الايمان فى القلب ، يشهد به اللسان ، وتعمل به الجوارح . ويؤيد رأيه هذا ، قوله ان البلاء والمحنة يزيدان فى الايمان . فقد روى عنه أنه قال (٢) : « وكنت فى السجن آكل ، وذلك عندى زيادة فى ايمانى »

١٣ ــ موقف احمد من رعاية السلطان (*)

كان موقف أحمــد من رعاية السلطان وأعوانه ، وما يُغدقونه على المقربين اليهم من مِنَح وصِلات ، وما يؤثرونهم به من حَظْوة وجاه ، هو موقف المتطرف فى التحذير من غوائلهم ، غير أنه لاريب فى أن نظريته الرفيعة فى شرف مهمته كمحدث ، يعمل على بث تعاليم السنة الصحيحة ،

---

(١) هامش رقم ٢ من ص ١٠٩ وكذلك ص ١٥١ بالاصل

(٢) المقفى للمقريزى ورقة ١٢ ، هذا وان ايمان احمد الذى زاد ابان محنته ، يبدو أنه كان رياضة نفسية باطنية

(*) يقصد بالسلطان مايسمى فى اللغة الحديثة بالحكومة . وقد وردت فى الكتب العربية القديمة الخاصة بنظم الحكم مثل الاحكام السلطانية للماوردى ومثله لابى يعلى الفراء وسراج الملوك للطرطوشى على اعتبار أنها اسم معنى وليست اسم ذات . ثم أطلقت من باب التسمية بالمصدر على حكام الدول المتتابعة التركية وصارت لقبا لهم

هى التى أبعدته عن كل محاولة للتقريب والتوفيق (١) (بينه وبين رجال السلطان) . وقد قال : بأن مدينــة « سر من رأى (*) » ، ســوف تغدو سجنا له ، لو أنه حـُمـل على الاقامة بها للتحديث فيها ، بينا هو فى نفس الوقت يتناول مرتبا معلوما من الخليفة . وقد أعلن أنه لو رأى اسحق بن راهويه (**) لأنحى عليه باللائمة لانضوائه تحت لواء الأمير عبد الله بن طاهر

---

(١) راجع موقف مالك بن أنس من هــرون الرشـــيد فى كتـاب : تاريخ الادب العــربى بقلم فون هامـــر (برجشتول ، وهو بالالمانية) حـ ٣ ص ١٠١ ، ١٠٢ (*) يقـول مترجم الكتاب : كان برجشتول المستشرق النمسوى من رواد الدراسات الاسلامية فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وكان متحمسا لها أكثرمماكان باحثامدققاولكنه وضعتقاليدالمدرسةالنمسوية فى الاستشراق التى أنجبت العلامة الكبير فون كريمر فيما بعد . وموقف الامام مالك من الرشيد يتضح من رســالته الوعظية له التى طبعت فى بولاق ســـنة ١٣١١ هـ وقـــد عانى مالك من من العباسيين فى عهد المنصور لانه أفتى ببطلان الايمان التى أقسم بها المسلمون على البيعـة تحت الضغط والاكراه ، راجع ذلك فى ترجمته فى ابن خلكان وبها فقرات منقولة بتمامها من الفهرست لابن النديم) . وفيات الاعيان ترجمة رقم ٥٢٢ حـ ٣ ص ٢٨٤ من طبعة النهضــــة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م والفهرست لابن النديم طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ من ٢٨٠ ، ٢٨١)

(*) مدينة أنشأها المعتصم شمالى بغداد لتكون مقرا له ولعساكره التركية بعد أن أسقط العرب من ديوان الجند وكان بناؤها سنة ٢٢٠ هـ ، ٢٢١ هـ ـ راجع تاريخ الطبرى حـ ٧ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ من طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م والبلدان لليعقوبى ومعجم البلدان لياقوت .

(**) هو اسحق بن ابراهيم التميمىالحنظلىالمروزى ، المعروف بابن راهويه ، من كبـــــار حفاظ الحديث . وقد روى ابن السبكى فى كتابه طبقات الشافعية قصة نقد أحمد بن حنبل له لاتصاله بالامير عبد الله بن طاهر ، ولكن لم يأت بها الذهبى فى ترجمته لابن راهويه ، راجع تذكرة الحفاظ ، الطبقة الثامنة رقم ٢٢ حـ ٢ ص ١٩ وما بعدها . ولكنه أورد قصة أخـرى وقعت فى مجلس الامير تدل على أن ابن راهويه كان من المشبهة . وروى الذهبى مايدل على تقدير أحمد له اذ روى عن احمد أنه قال : لا أعلم لاسحق بالعراق نظيرا . وذكر أبن النديم أنه كان من جلة أصحاب أحمد بن حنبل وان له مؤلفات فى الفقه والتفسير ، راجع كتاب الفهرست طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ ص ٣٢١ . وقد ذكره ابن الاثير فى وفيات سنة ٢٣٨ هـ وقال فيه : كان اماما عالما ، وجرى له مع الشافعى مناظرة فى بيوت مكة ـ الكامل حـ ٥ ص ٢٩٣ من طبعة منير بالقاهرة . كما ذكره ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب ، فى وفيات سنة ٢٣٨ هـ . وبعد أن أشاد بعلمه وفضله ، أورد رواية ابن الاهدل التى تدل على أنه كان شافعيا أو من أصحاب الشافعى وليس من أصحاب أحمد اذ قال : وناظر الشافعى فى بيع دور مكة . فلما عرف فضله صحبه وُصار من أصحاب الشافعى رضى الله عنه . » شذرات الذهب طبــع القدسى بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ جـ ٢ ص ٨٩ . وهذا يدل على أنه فى أوائل قيام المـذاهب الاربعة كان الفقهاء يصحبون أكثر من امام من أئمتها

ولا ريب أن صلابة أحمد ، وشدة مِراسه كان مما قوّى من معارضته فى أن يشغل مركزا فى حاشية الخليفة . فقد كان رئيس حلقته فى التحديث بمدينة بغداد ، يلقى الحديث فى مجلسه على طريقته الخاصة التى كان يميل اليها . غير أنه كان من المتعذر عليه أن يحتفظ بهذه الصــدارة فى بلاط الخليفة . ثم صادفته عقبة رئيسية صرفته عن البقاء فى الحاشية ، وكانت على رأس هذه الصعاب كلها ، ألا وهى كراهيته الحقيقية ومقته الشديد للحياة الليّنة المُترفَة ، ولمجالس المُنادمة ، بحجة مخالفتها لأحكام الدين ومناقضتها لآدابه (١)

١٤ ـ كراهية احمد للعقائد الكلامية ونتائجها

ان شخصية أحمد كمُحدث ، وكراهيته للتعميم والقياس ، عاقاه عن أن يخلّف مذهبا فكريا متَسقا. وقد نقوم عنه فى أيامنا هذه ، فنصوغ له آراءه وأفكاره ، وأن ننهض بتشكيلها . ولكنه لم يكن ميــالا الى القيام بهذا الترتيب والتنظيم . ومن ثم أوهن احجامه وتقاعده من تأثير المدرسة الحنبلية (*) . اذ أن تعاليم امام الحنابلة لم تكن منسقة مبوبة ،

---

(١) راجع هذا الموضوع بحذافيره فى كتاب دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر حـ ٢ ص ٣٩

(*) هذه الفقرة القصيرة التى ختم بها المؤلف كتابه والتى أشــار فيهــا الى تأثير المدرسة الحنبلية كان ينبغى أن يفرد لها فصلا خاصا فى دراسته ، ان لم نقل انها تستحق كتابا آخــر قائما بذاته . ويمكن تقسيم تأثير هذه المدرسة الفكرية الى ثلاث نواح : الاولى تأثيرها الاجتماعى وخاصة فى عامة أهل بغداد الذين أصبحوا منذ أواسط القرن الثالث الهجرى قوة ديماجوجية عبارة عن حكومة فى داخل حكومة وارتكبوا أعمالا يبرأ منها الامام أحمد الذى ينتسبون اليه وقد عنى بتسجيل الفتن التى أثاروها مؤرخو الحوليات مثل أبى الاثير فى كتابه الكامل ، ومؤلفــو كتب الطبقات وعلى الاخص طبقات الحنابلة كأبى يعلى الفراء وابن رجب الحنبلى ، وابن مفلح والعليمى ، وعنى بهذه الناحية المستشرق المجرى جولدتسيهر فى بحث موجز له فى ٢٨ صحيفة باللغة الالمانية نشر سنة ١٩٠٨ م فى مجلة المستشرقين الالمانية . ولكن المادة الخاصة بهـــذا الموضوع فى المصـادر التى ذكرتها تشتمل على تفصيلات أوفى بكثير مما ذكره جولدتسيهر فى بحثه. وقد أخرت هذه الفتن من انتصار مذهب الاشاعرة . والناحية الثانية هى أثر المذهب الحنبلى فى الحركة العامة لدراسة الفقه الاسلامى وتحديد مايتميز به بالنسبة للمذاهب الاخرى وقــد حاول ذلك الاستاذ محمد أبو زهرة فى كتابه : ابن حنبل : حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه ،القاهرة سنة ١٩٤٧ م . والناحية الثالثة هى أثر المدرسة الحنبلية فى حركات الاصلاح الاسلامى ،وقد مرت فى مرحلتين الاولى ظهور الفقيه الحرانى الكبير تقى الدين أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ وتلميذه ابن القيم الجوزية وجهادهما فى محاربة البدع الدخيلة على الاسلام وما كتبــاه من المؤلفات والرسـائل الكثيرة . والثانية ماقدر لآراء ابن تيمية وابن القيم من بعث جديد منذ القرن الثانى عشر الهجرى والثامن عشر الميلادى على يد محمد بن عبد الوهاب وآل سعود بقيام الدولة الوهابية الاولى والثانية . وقد عنى بهذا الموضوع المستشرق الفرنسى الكبير هنرى لاوست Laust فى مؤلفه الضخم النفيس : بحث فى الآراء الاجتماعية والسياسية لتقى الدين أحمد بن تيمية (بالفرنسية) فى ٧٥٥ من القطع الكبير ، القاهرة سنة ١٩٣٩ م نشر المعهــد الفرنسى للآثار الشرقية .

ففقد الحنابلة فراغاكبيرا ، قبلأن يتمكنوا من أن يكشفوا للعالمعنمكنون روحها وخصائص مبادئها ، وذلك على صورة تحقق لها رجحانا ظاهرا وتأثيرا قويا ..

بيد أن شخصية أحمد كانت فى حياته وبعد موته ، قوة زاخرة كبرى فى العالم الاسلامى . ويبدو أنه لايزال لها من القوة ونفاذ التأثير ما يعادل قوة آراء أحمد وأفكاره ، التى أفصح عنها ودعا اليها ، وذلك علىالرغم من أن أتباعه ومقلدى مذهبه ، لم يكونوا قط جمهرة غفيرة ، اذا ما قورنوا بعدد التابعين لأئمة المذاهب الثلاثة الأخرى عند أهل السنة

تذييل

بقلم المترجم

لم يختم المؤلف كتابه بثبت للكتب التى رجع اليها فى اعداد بحثه ، مكتفيا بما ذكر فى مقدمته من المخطوطات التى اعتمد عليها ، وبما أشار اليه من الكتب فى هوامش كتابه . ورأيت لفائدة القارىء العربى ، أن أورد فيما يلى ثبتا بمراجع المؤلف ، رتبتها طبقا لما عقد لها من القيمة والأهمية فى نظره ، على أن أذيل هذا الثبت بثبت آخر يشمل المؤلفات التى فاته الرجوع اليها أو التى ظهرت بعد اعداد بحثه

ويمكن تقسيم مراجع پاتون الى قسمين : مراجع عربية ، ودراسات افرنجية محدثة . ومراجعه العربية نوردها فيما يلى :

١ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، مخطوطة ليدن ، وتشتمل على ترجمة مطولة للامام أحمد بن حنبل . وقد طبعت الحلية فى القاهرة فى عشرة أجزاء من سنة ١٩٣٢ م الى سنة ١٩٣٨ م . وتقع ترجمة أحمد فيها فى الجزء التاسع من ص ١٦١ الى ص ٢٣٣ ، وصحة رقم الترجمة هو ٤١٦ وليس ٤٤٥ . وقد وازنت بين النصوص العربية التى أوردها پاتون نقلا عن مخطوطة الحلية وبين نظائرها فى طبعة القاهرة ، فوجدت بالأخيرة عددا غير قليل من الأخطاء . منها على سبيل المثال ما جاء فى ص ٢١٠ : « ثم أخبرناه أن الدار التى هو فيها كانت لأيتام » . وصحتها : كانت لايتاخ (القائد التركى)

٢ ـ طبقات الشافعية لابن السبكى ، مخطوطة ليدن ، وقد طبعت بالقاهرة بعد ظهور كتاب پاتون ، وذلك فى سنة ١٣٢٤ هـ ، وقد ظهرت فى ستة أجزاء بعنوان طبقات الشافعية الكبرى ، تمييزا لها عن نسخ أخرى للمؤلف نفسه تتفاوت فى درجة اختصارها بالنسبة لكتابه المطول ، منها

الطبقات الوسطى والطبقـات الصغرى ، والمؤلف أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب ، المتوفى سنة ٧٧١ هـ ، يعد هو وأبوه تقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ من أعلام فقهاء مصر، ترجم لهما ولمن أنجبته أسرتهما ، محمد الصادق حسين فى كتابه : البيت السبكى (القاهرة سنة ١٩٤٨ م) . ويشيد المستشرق جولدتسيهر بكتاب طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين ابن السبكى ، اذ وصفه بأنه : « ذخر ثمين ، أربى فى نفاسته على الغاية ، لاشتماله على تاريخ الحركات الفقهية والكلامية فى الاسلام » . (مجلة المستشرقين الألمانية مجلد ٥٢ ص ١٥٧)

وتقع ترجمة أحمـد وأخبـار المحنة فى الجزء الأول من ص ١٩٩ الى ص ٢٢٢ . ولم ألحظ خلافا يذكر بين هذا الفصل فى طبعة القاهرة ، وبين ما نقله پاتون عن مخطوطة الطبقات بليدن

٣ ـ ترجمة الامام أحمـد بن حنبل فى كتاب المقفى للمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، وهو مخطوط بليدن . ولم أجد هذه الترجمة فى المخطوطة المصورة بدار الكتب بالقاهرة ، لأنها صورت عن قطعة أخرى من المقفى ، محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس . وحبذا لو عنى صـديقنا الدكتور جمال الدين الشيال ، المعروف باهتمامه بنشر مؤلفات المقريزى ، باخراج طبعة علمية محققة لكتاب المقفى

٤ ـ ترجمة أحمد فى كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وهو مخطوط بليدن . وقد طبع طبعا كاملا بالقاهرة فى سنة ١٩٣١ م فى ١٤ مجلد ، وتقع ترجمة الامام أحمد فى ج ٤ من ص ٤١٢ الى ص ٤٢٣ ، وهى رقم ٢٣١٧

٥ ـ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ . وقد رجع پاتون الى الجزئين الأول والثانى اللذين نشرهما المستشرق الهولندى يوينبول فى ليدن (١٨٥١ م : ١٨٦١ م) . وتقع أخبار المحنة فى طبعة القاهرة من كتاب النجوم الزاهرة فى ج ٢ (سنة ١٩٣٠ م) ص ٢١٨ وما بعدها

٦ ــ تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ طبعة ليدن . وقد رجعت الى طبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ . وتقع أخبار المحنة ابتداء من حوادث سنة ٢١٨ هـ فى ج ١٠ ص٢٨٤ ومابعدها ، ثم فى ج ١١ ، وتيسر لى تحقيق كتب المأمون بموازنة نصوصها فى هـــذه الطبعة بما أورده پاتون نقلا عن طبعة ليدن

٧ ــ مروج الذهب للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، وقد رجع پاتون الى طبعة باريس التى أخرجها المستشرقان باڤيه دى كورتى ، وباربيه دى مينار فى سنة ١٨٧٢ م فى ٩ مجلدات مع ترجمة الى الفرنسية . ويخيل الى أن پاتون لم يلق بالا الى ما أورده المسعودى عما حدث فى جنـــازة الامام أحمـــد حيث قال : « وكان للعامة فيه كلام كثير ، جرى بينهم بالعكس والضد فى الأمور ، منها أن رجلا منهم كان ينـــادى : العنوا الواقف عند الشبهات . وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام فى ذلك . وكان عظيم من عظمائهم ومقدم فيهم ، يقف موقفا بعد موقف أمام الجنازة ، وينادى بأعلى صوته :

وأظلمت الدنيـــا لفقد محمـــد   وأظلمت الدنيا لفقد ابن‌حنبل »

ويشرح المسعودى ذلك قائلا : « يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عنـــد وفاة محمد عليه السلام ، وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل ، كظلمتها عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم » . (مروج الذهب طبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هـ ، ج ١ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨) . وهذا الخبر على ايجازه يدل على تضارب مشاعر الغوغاء فى بغداد عند وفاة الامام أحمد

٨ ــ تاريخ اليعقوبى ، المتوفى سنة ٢٧٨ هـ ، طبعة هوتسما فى ليدن سنة ١٨٨٣ م فى مجلدين . وقد رجعت الى طبعة النجف فى ثلاثة أجزاء ســـنة ١٣٥٨ هـ . ولم يحقق پاتون ما زعمه اليعقوبى من اجابة الامام أحمد فى المحنة . وتقع أخبار المحنة فى طبعة النجف فى ج ٣ من ص ١٩٤ الى ص ٢٠٧

٩ ــ ترجمة أحمــد فى تهذيب الأسماء واللغات للنووى المتوفى ســنة ٦٧٦ هـ ، طبعة فستنفلد ، وقد رجعت الى طبعة منير بالقاهرة (مجهولة التاريخ) ، وتقع ترجمــة أحمد فى هــذه الطبعة فى ج ١ ص ١١٠ الى ص ١١٢

١٠ ــ طبقات الحفاظ للذهبى المتوفى ســنة ٧٤٨ هـ ، اقتطفه مؤلفه من تاريخه الكبير ، ثم اختصره السيوطى ، ونشر المستشرق فستنفلد هذا المختصر فى جوتنجن سنة ١٨٣٣ م فى ثلاثة أجزاء . ويبدو أن پاتون فى اشارته الى طبقات الحفاظ للذهبى ، يقصد هــذا المختصر الذى لم يَتَسن لى الرجوع اليه . ولكنى رجعت الى كتاب آخر للذهبى هو تذكرة الحفاظ الذى طبع فى حيدر أباد فى أربعة مجلدات سنة ١٣٣٣ هـ وتقع ترجمة أحمد فى ج ٢ ص ١٧ الى ص ١٩ رقم ٢٠ وقد أدرجه الذهبى فى أعلام الطبقة الثامنة . وفى تراجم الحفاظ فى كتاب الذهبى أخبــار كثيرة عن المحنة ، تتعلق بمعاصرى أحمــد ، لو أن پاتون كان قد اطلع عليها ، لافادته كثيرا فى بحثه . فقد أجاب عدد من المحدثين فى المحنة ، ولا ندرى مدى تأثير هذه الاجابة فى سمعتهم كرواة للحديث ، نذكر منهم على بن المدينى المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ، الذى قال فيه الذهبى : « ان مناقب هذا الامام جمة لولا ما كدرها بتعلقه بشىء من مسألة القرآن ، وتردده الى أحمد بن أبى دواد ، الا أنه تنصل وندم ، وكفر من يقول بخلق القرآن ، فالله يرحمه ويغفر له » . (تذكرة ج ٢ ص ١٥) . ونذكر أيضا أبا معمر الهذلى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ ، الذى بلغ من شدة ادلاله بالسنة أنه كان يقول : « لو تكلمت بغلتى لقالت انها سنية » ، ومع ذلك فانه لما أخذ فى المحنة أجاب ، ولمــا خرج منها اعتــذر قائلا : كفرنا وخرجنا . (تذكرة ج ٢ ص ٥٢) . وفى تراجم هذه الطبقة ما يدل على قيام المناظرات بين المعتزلة ورجال الحديث . فقد اجتمع اسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ مع ابن أبى صالح المعتزلى فى مجلس الأمير عبد الله ابن طاهر ، فسأل الأمير ، اسحق بن راهويه عن أخبار النزول ، فسردها ،

فقال له ابن أبى صالح : « كفرت برب ينزل من سماء الى سماء ، فقال اسحق : آمنت برب يفعل ما يشاء » . (تذكرة ج ٢ ص ٢١) . بل كانت روح المعارضة لفكرة خلق القرآن قوية ، قبـل اصطناع المأمون لسياسة المحنة بعشرات السنين . ففى ترجمة عبد الرحمن بن مهدى المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، وكان من شيوخ أحمد ، أنه قال : « لو كان لى سلطان لألقيت من يقول ان القرآن مخلوق فى دجلة بعـد أن أضرب عنقه » . (تذكرة ج ١ ص ٣٠٢) . وهكذا نرى أنه لا حد للبيانات الكثيرة الخاصة بالمحنة فى كتاب تذكرة الحفاظ للذهبى

١١ ـ وفيات الأعيـان لابن خلكان المتوفى سـنة ٦٨١ هـ ، طبعة ده سلان ، ورجعنا لطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣١٠ هـ . وقد رجع پاتون لترجمة ابن خلكان ، للامام أحمد ، ولأحمد بن أبى دواد . وقد أساء پاتون فهم نص فى ترجمة الأخير ، صححناه ونبهنا عليه فى موضعه

١٢ ـ الملل والنحل للشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ، وقد رجع فيه پاتون الى الترجمة الألمانية التى قام بها هاربريكر ونشرها فى هالة سنة ١٨٥٠ م . وكان أولى به أن يرجع الى النص العربى الذى نشره كيورتن بلندن سنة ١٨٤٥ م . وقد أتيح لنا نص محقق تحقيقا علميا لهذا الكتاب ، قام به الشيخ محمد فتح الله بدران ، ونشرته مطبعة الأزهر بالقاهرة فى مجلدين سنة ١٩٤٧ م . ويبـدو أن پاتون لم يستفد كثيرا من كتاب الشهرستانى ، لأنه لم يتوغل كثيرا فى المباحث الكلامية المتعلقة بموضوع المحنة . وبالتالى لم يتطلع الى كتب أخرى مماثلة فى تاريخ الفرق وعلم الـكلام ، كمؤلفات ابن قتيبـة والأشـعرى والباقلانى والبغـدادى والاسفراينى والجوينى الخ

١٣ ـ المختصر فى أخبـار البشر لأبى الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ؛ وقد رجع فيه پاتون الى النسخة التى نشرها ريسكى فى هافنيا فى خمسة مجلدات مع الترجمة اللاتينية (من سنة ١٧٨٩ م الى سنة ١٧٩٤ م) . وقد

رجعنا الى طبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ فى أربعة أجزاء . وليس فيما اشتملت عليه من أخبار المحنة أى جديد

١٤ ـ الفهرست لابن النديم المتوفى نحو سنة ٣٨٥ هـ ، رجع فيه پاتون الى طبعة فلوجل بليدن سنة ١٨٧١ م . ولكن لم يطلع پاتون على قطعة سقطت من هذا الكتاب ، عثر عليها ونشرت فى مجلة ألمـانية خاصة بالمشرقيات سنة ١٨٨٩ م ، وتشتمل على تراجم طائفة من علماء الكلام ، منهم بعض معاصرى الامام أحمدكالجاحظ وابن أبى دواد والعلاف والنظام وثمامة . وقد نشر الفهرست مع هذه القطعة فى طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ التى رجعنا اليها

١٥ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وقد رجعنا الى طبعة منير بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ

١٦ ـ كشف الظنون لحاجى خليفة المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ ، فى طبعة فلوجل بليبزج وليدن فى سبعة مجلدات مع ترجمة لاتينية (من سنة ١٨٣٥م الى سنة ١٨٥٨ م)

١٧ ـ معجم البلدان لياقوت المتوفى سـنة ٦٢٦ هـ ، طبعة ليبزج فى أربعة مجلدات (من سنة ١٨٦٦ م الى سنة ١٨٧٠ م) . وقد اعتمـد عليه پاتون فى تحقيق بعض المواضع الجغرافية . وقد رجعنـا الى طبعة القاهرة لمعجم البلدان التى ظهرت فى سنة ١٩٠٦ م فى ٨ مجلدات

***

أما الدراسات الحديثة للمستشرقين التى رجع اليها پاتون فى اعداد بحثه ، فانا نوردها فيما يلى طبقا لأهميتها فى نظره ، وذلك تبعا لاشاراته اليها فى حواشى كتابه :

(١) دراسات اسـلامية بقلم اجناتس جولدتسيهر ، نشر فى هالة فى مجلدين سنة ١٨٨٩ م ، ١٨٩٠ م . (بالألمانية)

(٢) « مواد جديدة فى مؤلفات الحديث عند المسلمين » ، مقال بالألمانية

بقلم جولدتسيهر، نشر سنة ١٨٩٦ م بالمجلد الخمسين من مجلة المستشرقين الألمانية من ص ٤٦٥ الى ص ٥٠٦ ، يتناول مسند الامام أحمد بمناسبة نشر الطبعة الأولى للمسند التى ظهرت فى سنة ١٣١٣ هـ — ١٨٩٦ م بالقاهرة فى ستة مجلدات كبيرة

(٣) المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما (باللغة الهولندية) ، ليدن سنة ١٨٧٥ م

(٤) الظاهرية فقهها وتاريخها (بالألمانية) بقلم جولدتسيهر، ليبزج سنة ١٨٨٤ م

(٥) المعتزلة : المفكرون الأحرار فى الاسلام (بالألمانية) بقلم هينريش شتينر ، نشر بليبزج سنة ١٨٦٥ م .

(٦) تاريخ الآراء السائدة فى الاسلام (بالألمانية) بقلم ألفريد فون كريمر ، نشر بليبزج سنة ١٨٦٨ م . وقد ترجم المرحوم صلاح الدين خودا بخش الأستاذ السابق للتاريخ الاسلامى بجامعة كلكتا ، جانبا منه الى الانجليزية بعنوان : « السياسة فى الاسلام » ، ونشر فى كلكتا ، ولا أذكر تاريخ الطبع . ولفون كريمر كتاب آخر بالألمانية عنوانه : « الغزوات الثقافية على البلاد الاسلامية » ليبزج سنة ١٨٧٣ م . ترجمة بخش الى الانجليزية ، ونشره مع مقالات أخرى مؤلفة ومترجمة ، فى كتاب بالانجليزية عنوانه : « اضافات لتاريخ الحضارة الاسلامية » فى مجلدين نشرا بكلكتا سنة ١٩٠٥ م ، وظهرت لهما طبعة ثانية فى سنة ١٩٢٩ م ، ١٩٣٠ م . وعن هذه الترجمة الانجليزية ، ترجم الدكتور مصطفى طه بدر الفصول الخاصة بكتاب الغزوات الثقافية لكريمر الى العربية ، ونشرت فى كتيب بالقاهرة سنة ١٩٤٧ م بعنوان : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية

(٧) محمد عليه السلام (بالألمانية) بقلم المستشرق الألمانى جوستاف ڤيل المتوفى سنة ١٨٨٩ م

(٨) تاريخ الخلفاء (بالألمانية) بقلم جوستاف ڤيل فى ثلاثة مجلدات

(٩) بحث فى تاريخ الديانة الاسلامية (بالهولندية) بقلم رينهارت دوزى ، وترجمه الى الفرنسية ڤيكتور شوڤان ، ليدن سنة ١٨٧٩ م

(١٠) مقال للمستشرق الهولندى دى خوى فى مجلة المستشرقين الألمانية ، المجلد ٤٧ ، ولم يذكر پاتون عنوانه

(١١) شروح وتعليقات على المكتبة الجغرافية العربية التى نشرها دى خوى بليدن فى ٨ مجلدات من سنة ١٨٨٨ م الى سنة ١٨٩٣ م وتشمل مؤلفات عدد من الجغرافيين العرب وهم ابن خرداذبة ، وقدامة ، وابن الفقيه ، وابن رستة ، واليعقوبى ، والاصطخرى ، وابن حوقل ، والمقدسى ، والمسعودى . وكتاب المسعودى الذى أدرج فى هذه المجموعة اسمه : التنبيه والاشراف ، واتضح لى أن پاتون لم يرجع اليه ، لأنه يشتمل على بيانات كثيرة عن فداء الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين ، ومنها توقف الخلفاء العباسيين الذين ساروا على سياسة المحنة ، عن فكاك الأسرى المسلمين ما لم يقروا بأن القرآن مخلوق ، وهى بيانات لم يستفد منها پاتون فى بحثه

(١٢) المختارات العربية التاريخية ، جمع دى خوى

(١٣) تاريخ الأدب العربى (بالألمانية) بقلم المستشرق النمسوى هامر پرجشتول المتوفى سنة ١٨٥٦ م ، ونشر فى ڤينا فى سبعة مجلدات من سنة ١٨٥٤ م الى سنة ١٨٥٦ م

***

هذه هى المؤلفات العربية والدراسات الأفرنجية المحدثة التى رجع اليها پاتون . ومن الواضح أن مصادره العربية لا تفى مطلقا بالاحاطة بموضوع بحثه ، كما أن دراسات المستشرقين التى اعتمد عليها ، فقد بعضها قيمته العلمية ولا سيما مؤلفات ڤيل ودوزى وهامرپرجشتول . وقد استند على هذه الدراسات فى بحث الجانب الكلامى لموضوع المحنة ،

دون الرجوع الى المصادر العربية الخاصة بالفرق الاسلامية والمسائل الكلامية التى رجع اليها هؤلاء فى دراساتهم . وقد كان هذا الجانب الكلامى وحده يكفى لأن يقصر عليه موضوع رسالته . وأن يجعل من المحنة الذروة التى وصلت اليها حركة المعتزلة ، من الناحية السياسية على الأقل ، أى أن يتخذ المحنة ذريعة لكى يؤرخ عن طريقها لحركة الاعتزال . كما صنع المستشرق الفرنسى ماسينيون عندما اتخذ من دراسته للحلاج وقتله فى سنة ٣٠٩ هـ ، وسيلة لدراسة حركة التصوف الاسلامى حتى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وذلك فى مؤلفه الضخم القيم : « استشهاد الحلاج » (باريس سنة ١٩٢٢ م فى مجلدين)

بيد أن پاتون لم يفرد فى بحثه بابا لتاريخ العقائد الاعتزالية التى انتهت الى سياسة المحنة ، كما لم يوضح مدى الصلة التى كانت قائمة بين المعتزلة وأوائل خلفاء بنى العباس . ويتصل بموضوع المحنة آراء الامام أحمد نفسه التى دونها فى رسائله القصيرة المنسوبة اليه ، وفيما نقله عنه أبناؤه وتلاميذه وأتباعه . كما لم يستقص پاتون فى بحثه منهج أحمد كمحدث ومنهجه كفقيه ، ولم يعقد فصلا خاصا بشخصيته وأثره فى المدرسة الحنبلية المنتسبة اليه ، وتحقيق مدى أثره فى حوادث الشغب التى قام بها أتباعه فى بغداد طيلة قرنين من الزمان ، مما أدى الى تأخر انتشار مذهب الأشاعرة ، حتى قيام الدولة السلجوقية فى القرن الخامس الهجرى . وأخيرا لم يحقق موقع قبر الامام أحمد ، وأثر فيضانات نهر دجلة فى ازالة معالمه . ولم يضع خريطة جغرافية عليها المواقع التاريخية ، التى تتصل بموضوع دراسته

وعلى ضوء هذه الملاحظات سأشير فيما يلى الى ما فات پاتون أن يرجع اليه من المصادر العربية ، ثم أورد بعد ذلك ثبتا بدراسات المستشرقين التى نشرت بعد صدور كتابه فى سنة ١٨٩٧ م

١ ــ ان آراء الامام أحمد ، نلتمسها فى رسائله القصيرة ، وعناوينها لا تتفق فى جميع الحالات مع ماذكره منها ابن النديم فى كتابه الفهرست .

ومنها : التفسير ، والتاريخ ، والناسخ والمنسوخ ، والمقدم والمؤخر فى كتاب الله ، وجوابات القرآن ، وفضائل الصحابة ، والمناسك ، والزهد ، ولعل الأخير هو كتاب الورع الذى نشر بالقاهرة سنة ١٣٤٠ هـ فى ١٢٦ صحيفة

٢ ــ ولعل أهمها رسالة قصيرة عنوانها : الرد على الجهمية والزنادقة تقع فى ٣٢ صحيفة يليها ملخص لكتاب السنة للامام أحمد أيضا ويقع فى ٨ صفحات ، وقد نشرهما عيسى الحلبى بالقاهرة وليس عليهما تاريخ الطبع . وتوجد نسخة مخطوطة من كتاب أحمد : الرد على الجهمية والزنادقة ، بمكتبة الأزهر تحت رقم ١٤٠٤

٣ ــ وقد أوضح آراء أحمد ، أبو داود السجستانى صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٥ ، فى كتاب عنوانه : مسائل الامام أحمد ، نشره رشيد رضا فى القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ ويقع فى ٣٢٨ صحيفة

٤ ــ مسائل عبد الله بن الامام أحمد بن حنبل لوالده الامام أحمد رضى الله عنهما ، مخطوطة مصورة من المجمع العلمى العربى بدمشق ؛ وتقع فى ثلاثة أقسام ، جملة لوحات الصفحات فيها تبلغ ٤٠٥ صحيفة ، وتوجد بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٠٧٥٤ ب

٥ ــ كتاب المسائل عن امامى أهل الحديث وفقيهى أهل السنة ، أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى ، وأبى يعقوب اسحق بن ابراهيم ابن راهويه الحنبلى رضى الله عنهما ، ألفه ورواه عنهما اسحق بن منصور المروزى الحافظ . فى قسمين مصورين يشتملان على ١١٣ لوحة أى ٢٢٦ صحيفة ، بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم : ٢٠٧٥٥ ب

٦ ــ مسائل صالح بن الامام أحمد فى مائة لوحة مصورة عن نسخة مخطوطة صفحاتها ١٩٧ صحيفة . بدارالكتب بالقاهرة تحت رقم ٢١٦٨١ب

وقد أثر عن الامام أحمد انه كان لايجيز لعن يزيد بن معاوية ، ولكن ذكر ابن الجوزى فى كتابه دفع شبهة التشبيه أن الحنابلة يجيزون لعن

يزيد ، وردد هذه الدعوى الحصنى فى كتابه دفع شبه من شبه وتمرد ، وفى كتاب الأب لامنس عن خلافة يزيد فصـــل عن ذكرى يزيد ختم به كتابه ، وتعرض لهذا الموضوع ، وقال بأنه عثر على رســالة مخطوطة لابن الجوزى فى مكتبة ليدن ، عنوانها : رسالة فى جواز اللعن على يزيد. ولكنه أورد رأى جولدتسيهر فى الحنابلة الذى ذهب فيه الى أن المذهب الحنبلى على وجه العموم لايعادى ذكرى الأمويين على اعتبار أنهم يمثلون مواصلة العمل بالسنة الاسلامية ، ولذا فان الحنابلة يمتنعون عن الاســاءة ليزيد بن معاوية

وقد أشار لامنس (فى ص ٤٨٨ من كتابه خلافة يزيد ، ببيروت سنة ١٩٢١ م) الى أن الامام أحمد يبغضه الشيعة ، اذ أخرج فى مسنده أحاديث مروية عن السيدة فاطمة استغرقت صحيفتين فقط ، بينا أورد فى المسند ما يزيد على ٢٣٠ صحيفة من مرويات السيدة عائشة . وذكر ما أورده ابن الجوزى فى المنتظم من أن شيعيا سمع حديثا روى عن الامام أحمـــد فى تزكية على بن أبى طالب ، فصاح قائلا : « قد أخرجت نصف ما كان فى قلبى على أحمد بن حنبل من البغض » . وانا لا نرى بطبيعة الحـــال أى وجه لبقاء هذه العداوة بين الحنابلة والشيعة فى الوقت الحاضر ، فان أحمد كان يجل على بن أبى طالب ، ويضعه فى التقدمة والتفضيل من حيث ترتيبه فى الخلافة ، بل ألف كتابا فى مناقبه كما جاء فى ص ٤ ج ١ من كتاب الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى (طبعة مصر سنة ١٣٢٧ هـ)

٧ ــ كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٩٠ هـ ، طبع مكة سنة ١٣٤٩ هـ فى جزئين جملة صفحاتهما ٢٥٦ صحيفة

وقد ذهب ابن تيمية فى كتابه الايمان (ص ١٢٨) الى أن أوفى كتاب فى شرح آراء الامام أحمد بن حنبل فى المسائل الاعتقادية ، ويسميها : الأصول الدينية ، هو كتاب السنة الذى نشر مختصر له مع كتاب الرد على

الجهمية وكلاهما للامام أحمد ، غير أنى أعتقد أن رأى ابن تيمية هـذا ينطبق أيضا على كتاب ولده عبد الله بن أحمد الذى ذكرناه آنفا ، والذى يتضمن آراء أبيه . وعند ابن تيمية أيضا أن كتاب العلم للامام أحمد يشرح آراءه فى الأصول الفقهية

٨ ـ بيد أن آراء الامام أحمد فى المسائل الاعتقادية قد لخصها الصوفى عبد القادر الجيلى المتوفى فى سنة ٥٦١ هـ فى كتابه الغنية لطالبى طريق الحق ، طبعة القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ ج ١ من ص ٥٦ الى ص٩٠ ، وعلى الأخص الفصل الخاص بالقرآن فى ص ٦٥

٩ ـ وذكر ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ جانبا من هذه الآراء فى كتابه : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، طبعة الآداب بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ من ص ١٥٥ الى ص ٢٩٣

ومن المراجع الخاصة بالمسند :

١٠ ـ خصائص المسند لأبى موسى المدينى المتوفى سنة ٥٨١ هـ ويقع فى تسع صفحات ، نشره أحمد محمد شاكر فى مقدمة طبعته الجديدة للمسند (ج ١ من ص ١٩ الى ص ٢٧ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ م) . ونشر جولدتسيهر مقتطفات منه فى مقاله عن المسند فى مجلة المستشرقين الألمانية

١١ ـ المصعد الأحمد فى ختم مسند الامام أحمد ، لابن الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ ، نشره أحمد محمد شاكر فى مقدمة طبعته الجديدة للمسند (ج ١ من ص ٢٨ الى ص ٥٦)

١٢ ـ وتوجد اشارات عن المسند فى كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٢ م ٤ أجزاء فى مواضع مختلفة ، أهمها ماجاء فى ج ٢ ص ٦٤ موضحا لطريقة الامام أحمد فى تخريج مسنده ، اذ قال المكى : وفى المسند أحاديث كثيرة يعلم الثقات أنها ضعيفة ، والامام أحمد أعلم بضعفها منهم ، ولكنه أدخلها فى مسنده ، « لأنه أراد تخريج المسند ولم يقصد تصحيح السند ، فاستجاز رواياتها كما سمعها »

١٣ ـ وجاء فى صيد الخاطر لأبى الفرج بن الجوزى طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م أن أحمد روى فى مسنده ما اشتهر ولم يقصد الصحيح ولا السقيم . (ص ٢٤٥ ، ٢٤٦)

١٤ ـ القول المسدد فى الذب عن المسند للامام أحمد ، لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ طبع حيدر أباد سنة ١٣١٩ هـ فى ١٠٤ صحيفة

١٥ ـ اختصار علوم الحديث المسمى بالباعث الحثيث فى معرفة علوم الحديث لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ويتضمن اشارات كثيرة عن مسند الامام أحمد

ومن المصادر التاريخية :

١٦ ـ اشارة معاصرة للمحنة فى كتاب المُحبَّر لمحمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هـ طبع حيدر أباد سنة ١٣٦١ هـ

١٧ ـ رسالة الجاحظ فى خلق القرآن من جملة رسائل الجاحظ المنشورة على هامش الكامل للمبرد ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ . وقد أوردنا جانبا منها فى المقدمة

١٨ ـ ذكر محنة أحمد بقلم حنبل بن اسحق بن حنبل المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وهى مخطوطة من مخطوطات المكتبة التيمورية تحت رقم ٢٠٠٠ تاريخ ، فى أربعين صحيفة

١٩ ـ كتاب بغداد وهو الجزء السادس ، لأحمد بن طاهر بن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، نشره المستشرق كيلر فى ليبزج سنة ١٩٠٨ م ، ثم نشره زاهد الكوثرى بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م . ويتضمن بيانات كثيرة عن المأمون وأوائل حركة المحنة ، مما لا نجد نظيرا له فى تاريخ الطبرى . فضلا عن أنه متقدم عن الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ

وتوجد أصداء عن المحنة فى كتب الأدب والشعر نذكر منها :

٢٠ ـ أخبار أبى تمام للصولى المتوفى سنة ٣٣٥ ، طبع لجنة التأليف بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م

٢١ ـ الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء للمرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، طبع السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ

٢٢ ـ ديوان البحترى ، طبع البرقوقى بالقاهرة سنة ١٩١١ م ، والأبيات الخاصة بالمحنة نشرت محرفة

ومن الكتب الخاصة بالفرق وعلم الكلام :

٢٣ ـ الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ

٢٤ ـ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، مطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ

٢٥ ـ كتاب المعارف لابن قتيبة ، تحقيق محمد اسماعيل الصاوى ، القاهرة سنة ١٩٣٤ هـ . وفى ص ١٧٢ اشارة الى قتل الواثق لأحمد ابن نصر الخزاعى فى محنة خلق القرآن ، حيث قال ابن قتيبة : « وقتل (أى الواثق) أحمد بن نصر بالمحنة » ، ولكن كلمة المحنة صحفها محقق الكتاب فظنها المجنة بالجيم وكتب فى هامش الصحيفة ما يشرح كلمة المجنة اذ قال بأنها بلد على أميال من مكة وسوق من أسواق العرب فى الجاهلية . مع أن عبارة ابن قتيبة تفيد بأن أحمد بن نصر قتل بالمحنة أى بمحنة خلق القرآن

٢٦ ـ رد الامام الدارمى عثمان بن سعيد على بشر المريسى العنيد ، بتحقيق محمد حامد الفقى ، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ . والدارمى هذا توفى سنة ٢٨٠ هـ أو ٢٨٢ هـ ، وبشر المريسى توفى سنة ٢١٨ هـ . ويزودنا هذا الكتاب ببيان عن المجادلات الكلامية فى القرن الثالث الهجرى

٢٧ ـ الانتصار للخياط المعتزلى ، نشره المستشرق نيبرج بالقاهرة سنة ١٩٢٥ م

٢٨ ـ الابانة عن أصول الديانة للأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ طبع حيدر أباد سنة ١٣٢١ هـ

٢٩ ــ مقالات الاسلاميين للأشعرى طبع استنبول فى مجلدين سنة ١٩٢٩ هـ

٣٠ ــ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، للملطى المتوفى سنة ٣٧٧ ، نشره المستشرق ديدرنج بليبزج سنة ١٩٣٦ م ونشر بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م

٣١ ــ التمهيد للباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ نشر الخضيرى وأبى ريدة ، القاهرة سنة ١٩٤٧ م

٣٢ ــ الفرق بين الفرق للبغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، نشر الكوثرى بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م

٣٣ ــ أصول الدين للبغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، استنبول سنة ١٩٢٨ م

٣٤ ــ التبصير فى الدين لأبى المظفر الاسفراينى المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، نشر الكوثرى بالقاهرة سنة ١٩٤٠ م

٣٥ ــ كتاب الارشاد الى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد لامام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، بتحقيق الدكتور محمد يوسف موسى وعلى عبد المنعم ، القاهرة سنة ١٩٥٠ م

٣٦ ــ صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ . ويليه مختصر كتاب ابن تيمية : نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان ، القاهرة سنة ١٩٤٧ م

٣٧ ــ تبيين كذب المفترى فيما نسب للامام أبى الحسن الأشعرى طبع دمشق سنة ١٣٤٧ هـ

ومن المؤلفات التاريخية :

٣٨ ــ تاريخ دمشق لابن عساكر ، اختصار عبد القادر بدران وتقع ترجمة أحمد فى ج ٢ ص ٢٨ : ٤٨

٣٩ ــ مناقب أحمد لأبى الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ طبع القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ

٤٠ ــ المنتظم لابن الجوزى ، طبع حيدر أباد من ج ٥ الى ج ١٠

٤١ ــ تاريخ المحنة لعبد الغنى الجماعيلى مخطوط فى ٣ أجزاء بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٣٤٥ تاريخ

٤٢ ــ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، مخطوط مصور بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٥٥١ تاريخ

٤٣ ــ الكامل فى التاريخ لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ج ٧ ص٢٨

٤٤ ــ تاريخ مختصر الدول لابن العبرى المتوفىسنة ٦٨٥ هـ ، يوضح وجهة النظر المسيحية العربيـــة فى المحنة فى ص ٢٤١ من طبعة صالحانى ببيروت سنة ١٨٩٠ م

٤٥ ــ مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

٤٦ ــ مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية

٤٧ ــ ترجمة أحمد بن حنبل ، استخرجها الشيخ أحمد محمد شاكر من تاريخ الاســـلام للذهبى المتوفى ســـنة ٧٤٨ ونشرت فى الجزء الأول من المسند ، القاهرة سنة ١٩٤٦ م

٤٨ ــ الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلى المتوفى سنة ٧٦٢ هـ طبعة المنار فى القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ فى ثلاثة مجلدات

٤٩ ــ البداية والنهاية لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ طبعة القاهرة فى ج ١٠ ص ٣٢٥ : ٣٤٣

٥٠ ــ مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ

٥١ ــ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى المتوفى ســـنة ٨٥٢ هـ فى ج ١ ص ٧٢ : ٧٦

٥٢ ــ المنهج الأحمـــد فى تراجم أصحاب الامام أحمـــد ، لمجير الدين

العليمى المتوفى سنة ٩٢٧ هـ . مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٨١١ تاريخ فى أربعة مجلدات

٥٣ ــ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ ، حققه هنرى لاوست ، وسامى الدهان ، دمشق سنة ١٩٥١م

٥٤ ــ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ، فى ج ٢ ص ٩٦ : ٩٨

٥٥ ــ معالم أصول الدين للفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ على هامش كتابه محصل أفكار المتقدمين ، طبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ وذلك فى هوامش الصفحات من ٥٣ الى ٥٨

ومن المراجع العربية الحديثة :

٥٦ ــ الطبعة الأولى من رسالة التوحيد للشيخ محمدعبده ، وتشتمل على بيان عن فكرة خلق القرآن . حذفه رشيد رضا فى الطبعات التالية من هذه الرسالة

٥٧ ــ كتاب قول الحق لنبذ من قال القرآن من الخلق لعلى بن أحمد المؤيد ، القاهرة سنة ١٨٩٩ م

٥٨ ــ ضحى الاسلام لأحمد أمين ج ٣ الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٩٣٦ هـ

٥٩ ــ المعتزلة بقلم زهدى حسن جار الله ، القاهرة سنة ١٩٤٧ م

٦٠ ــ المدخل لمذهب الامام أحمد ، لابن بدران الدمشقى ، القاهرة سنة ١٣٤٥ هـ

ومن المراجع الأجنبية :

٦١ ــ نمو علم الكلام الاسلامى الخ بقلم دنكان مكدونالد (بالانجليزية) لندن سنة ١٩٠٣ م

٦٢ ــ تاريخ العرب الأدبى بقلم نيكلسون ، الطبعة الثانية ، كمبردج سنة ١٩٣٠ م (بالانجليزية)

٦٣ ــ الاســلام عقائده ونظمه للأب هنرى لامنس ، بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٤١ (بالفرنسية)

٦٤ ــ مقالة عن المجادلات الاعتقادية بقلم كارل هينريش بيكر ، فى مجلة الأشوريات(بالألمانية) مجلد ٢٦ سنة ١٩١٢ م ، وتتضمن بيانا عن فكرة خلق القرآن

٦٥ ــ مواد جـديدة فى مصنفـات الحـديث عند المسـلمين بقلم جولدتسيهر ، فى مجلة المستشرقين الألمانية ، مجلد ٥٠ من ص ٤٦٥ الى ص ٥٠٦ (بالألمانية)

٦٦ ــ نقد كتاب پاتون بقلم جولدتسيهر ، مجلة المستشرقين الألمانية مجلد ٥٢ ص ١٥٥ الى ص ١٦٠ (بالألمانية)

٦٧ ــ فى تاريخ الحركة الحنبلية بقلم جولدتسيهر ، مجلة المستشرقين الألمانية ، مجلد ٦٢ من ص ١ الى ص ٢٨ (بالألمانية)

٦٨ ــ مادة أحمـد بن حنبل بقلم جولدتسيهر ، فى دائرة المعـارف الاسلامية

٦٩ ــ مادة أحمد بن حنبل بقلم دنكان مكدونالد فى دائرة المعـارف البريطانية ، الطبعة ١١ سنة ١٩١٠ م

٧٠ ــ مواد أحمد بن حنبل والحنابلة والمعتزلة والمأمون ، وكلها بقلم كارلو ألفونسو نالينو فى دائرة المعارف الايطالية

٧١ ــ مادة أحمـد بن حنبـل بقلم يوينبول فى دائرة معارف الدين والأخلاق (بالانجليزية) ص ٦٩ ، ٧٠ مجلد ٧ ، ادنبره سنة ١٩١٤ م

٧٢ ــ بغداد فى عهد العباسيين بقلم جى لوسترانج ، أوكسفورد سنة ١٩٢٤ م

٧٣ ــ العقيدة الاسلامية بقلم فنسنك ، لندن سنة ١٩٣٢ م

٧٤ ــ مادة معتزلة بقلم نيبرج فى دائرة المعارف الاسلامية ، وقد أتى

فيها بنظرية جديدة تؤكد صلة المعتزلة بالدعوة العباسية وأن الأصل فى نشأة الاعتزال كان سياسيا ولم يكن دينيا

٧٥ ـ مادة محنة بقلم فنسنك فى دائرة المعارف الاسلامية

٧٦ ـ تاريخ الأدب العربى بقلم بروكلمان ج ١ سنة ١٨٩٨ م ، والمجلد الأول من الذيل ص ٣٠٩ ، ٣١٠ سنة ١٩٣٧ م

٧٧ ـ مذاهب التفسير الاسلامى بقلم جولدتسيهر (بالألمانية) لبدن سنة ١٩٢٠ م وترجمه الى العربية وعلق عليه الدكتور عبد الحليم النجار ، القاهرة سنة ١٩٥٥ م

٧٨ ـ أبحاث فى تاريخ الحركة الكلامية فى الاسلام بقلم مارتن شرينر ، فى مجلة المستشرقين الألمانية مجلد ٥٢ ، ٥٣ ، ونشرت على حدة فى ليبزج سنة ١٨٩٩ (بالألمانية)

٧٩ ـ فى « تاريخ الأشعرية » بقلم مارتن شرينر فى أعمال المؤتمر الدولى الثامن للمستشرقين سنة ١٨٨٩ م ، ج ٢ ق ١ من ص ٧٧ الى ص ١١٧ ، ليدن سنة ١٨٩٣ م . (بالألمانية)

٨٠ ـ فى تاريخ أبى الحسن الأشعرى (بالألمانية) بقلم ڤيلهلم شپيتا ، ليبزج سنة ١٨٧٦ م

٨١ ـ حرية الاختيار والجبر فى الاسلام القديم (بالانجليزية) بقلم و . منتوجمرى وات ، لندن سنة ١٩٤٨ م

ومن المراجع العربية أيضا :

٨٢ ـ ترجمة الامام أحمد فى كتاب الأنساب للسمعانى ، صورة زنكوغرافية للمخطوط نشرها مرجوليوث فى سنة ١٩١٢ م فى مجموعة جبب التذكارية ، ورقة ١٧٨ ب ، ١٧٩ ا

٨٣ ـ دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة ممن ينتحل مذهب الامام أحمد ، بقلم أبى الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، طبع القدسى بدمشق سنة ١٣٤٥ هـ

٨٤ ــ دفع شبه من شبّه وتمرد ، ونسب ذلك الى السيد الجليل الامام أحمد بقلم تقى الدين أبى بكر الحصنى المتوفى سنة ٨٢٩ هـ ، طبع عيسى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ

٨٥ ــ مختصر الشطى لطبقات الحنابلة لأبى يعلى الفراء ، ترجمة أحمد فى ص ٣ الى ص ١١

٨٦ ــ كتاب الصلاة وما يلزم فيها للامام أحمد ، طبعة صبيح دون تاريخ للطبع

٨٧ ــ مرآة الجنان لليافعى ، طبعة حيدر أباد ، ترجمة أحمد فى ج ٢ ص ١٣٢ الى ص ١٣٤

٨٨ ــ الولاة والقضاة للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ طبع روڤون جست ، بيروت سنة ١٩٠٨ م . وتقع أخبار المحنة فى مصر فى ص ٤٤٥ الى ص ٤٦٢

٨٩ ــ مجمل الرغائب فيما للامام أحمد من المناقب ، بقلم زكى الدين عبد الله بن محمد الخزرجى ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٥٨٧ تاريخ ، وهو مختصر من كتاب مناقب أحمد لأبى الفرج بن الجوزى

٩٠ ــ ترجمة أحمد فى ص ١٠ من كتاب خلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال كتبه صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى فى سنة ٩٢٣ هـ

٩١ ــ مهذب رحلة ابن بطوطة ، القاهرة طبعة وزارة التربية ج ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، تحت عنوان ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين . وقد أخطأ ابن بطوطة فى ذكر موقع قبر الامام أحمد، لأن أهل بغداد خلطوا بينه وبين قبر ولده عبد الله

٩٢ ــ والسبب فى هذا الخلط وقوع فيضانات لنهر دجلة غيرت من معالم بغداد ، وذلك فى السنوات ٤٦٦ هـ ، ٥٥٤ هـ ، وتواريخ هذه السنوات وأحداثها موضحة فى كتاب المنتظم لأبى الفرج ابن الجوزى ، طبعة حيدر أباد من ج ٨ الى ج ١٠

٩٣ ــ ومن الروايات المسيحية العربية عن المحنة ، اشارة عنها فى كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق بقلم ابن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ طبعة شيخو ببيروت سنة ١٩٠٥ م ج ١ ص ٦١

٩٤ ــ ومن المصادر الفارسية فى تاريخ المحنة ، كتاب تاريخ كزيدة تأليف حمدان بن أبى بكر القزوينى ، فى مجلدين طبع لندن ، مع ترجمة مختصرة الى اللغة الانجليزية ، دار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٨٤ تاريخ فارسى

٩٥ ــ مادة أحمد بن حنبل فى قاموس الاسلام (بالانجليزية) بقلم هيوز ، الطبعة الثانية لندن سنة ١٩٣٥ م ص ١٨٨ وما بعدها

٩٦ ــ ترجمة أحمد لولده صالح بن أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٦٥ هـ ، مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١١١١٨ ح

٩٧ ــ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ ، طبع القدسى بدمشق سنة ١٣٤٩ هـ ، ويتضمن اشارات مختلفة للامام أحمد ، وقد عد السخاوى كتاب المسند للامام أحمد من كتب التاريخ (ص ٨٧) ، ويؤيد ذلك ما ذكره جولدتسيهر فى مقاله : مواد جديدة فى مصنفات الحديث عند المسلمين ، من أن « عز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ عندما صنف كتابه أسد الغابة ، استقى مادته من أمهات كتب الحديث وأخبار الصحابة ومنها كتب المسانيد مثل مسند الامام أحمد ومسند أبى داود الطيالسى ومثله لأبى يَعْلَى الموصلى ، ومعافى ابن عمران »

كما ورد فى كتاب الاعلان للسخاوى عناية الامام أحمد بالتواريخ الزمنية ، فقد أورد عنه فى ص ٤٧ أن الامام أحمد لشدة اعتنائه بهذه التواريخ أنه لما ودع أبا الحسن بن الربيع ، قعد معه ، وأخرج ألواحه ، وسأله أن يملى عليه وفاة ابن المبارك ، ففعل ، وأنها فى سنة احدى وثمانين (ومائة) ، ولما سئل الامام أحمد عن مقصده قال : أريد أتعرف به

الكذابين ، أى من رواة الحديث

وحدث ابان حركة جمع الحديث الاسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، أن ظن بعض الناس أن جرح الرواة نوع من الغيبة . وقد جاء فى كتاب الإعلان للسخاوى ص ٥٢ أن أبا تراب النخشبى عذل الامام أحمد عن الجرح بقوله : لا تَغْتَبْ الناس ، فقال الامام أحمد : ويحك ، هذه نصيحة وليست غيبة ، بل انها أفضل من الصوم والصلاة

وعندما تكلم السخاوى عن منهج الذهبى فى تأليف كتابه الضخم : تاريخ الاسلام قال : « وقد تتبعت تفصيل كثير مما أجمله ، وبينت التصانيف التى فيه على وجه الحصر ، لعدم التمكن من ذلك . على أن الكثير لا وجود لتاريخ فيه ، ولكن يمكن أخذه من التصانيف فى ذلك العلم أو الوصف أو نحو ذلك ، وفاته أخبار الممتحنين » . والعبارة الأخيرة للسخاوى ، تشير الى أن الذهبى نسى أن يدرج فى تاريخه أخبار العلماء والفقهاء الذين امتحنوا . ولكن هذه العبارة غمضت على المستشرق الهولندى فرانز روزنتال ، عندما ترجم كتاب الاعلان بالتوبيخ الى اللغة الانجليزية وذيل بهذه الترجمة بحثه فى تطورالدراسات التاريخية عند المسلمين ، فترجمها بما معناه : « على الرغم من أن هذا لم يجد من الباحثين عناية خاصة » ووضع علامة استفهام للتدليل على أنه لم يتثبت من مراد المؤلف . (راجع ترجمة روزنتال لكتاب الاعلان بالتوبيخ للسخاوى ، فى كتابه : تاريخ التأريخ الاسلامى ص ٣٢١ ، ليدن سنة ١٩٥٢ م)

٩٨ ــ كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، طبعة القاهرة سنة ١٣١٧ هـ

٩٩ ــ بيان عن الامام أحمد فى مختصر خليل ص ١٦

١٠٠ ــ صلة الامام أحمد بالشافعى فى ج ٤ ص ١٥٢ من كتاب منهاج السنة النبوية لابن تيمية

١٠١ ــ « بحث فى الآراء الاجتماعية والسياسيــة للفقيه الحنبــلى ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ » ، دراسة مستفيضة باللغة الفرنسية تقع فى ٧٥٥ صحيفة ، بقلم المستشرق الفرنسى هنرى لاوست ، طبع المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م . وقد تناول لاوست فيه أثر الامام أحمد فى ابن تيمية ص ٧٤ وما بعدها

ملاحظات ختامية

١ ــ ضــبط اسم القاضى أحمد بن أبى دواد فى تاج العروس ج ٢ ص ٣٥٠ وقد جاء فيه : والدواد كغراب لعله تشبيها بصغار الدود ، وهو اسم القاضى الايادى الجهمى

٢ ــ شرح مادة « محنة » فى جمهرة اللغة لابن دريد المتوفى ســنة ٣٢١ هـ ، طبعة حيــدر أباد ج ٢ ص ١٩٥ ، وفى أســاس البــلاغة للزمخشرى ج ٢ ص ٣٧٠ ، وفى النهــاية فى غريب الحــديث والأثر لمجد الدين بن الأثير ج ٤ ص ٨٢

٣ ــ مادة عـُقاب على وزن غـُراب لم يرد معناها فى القاموس المحيط للفيروزابادى ، ولكن ذكرها الزبيــدى فى شرحه للقاموس ، فقــال : العقابان اللذان ضرب عليهما أحمد ، خشبتان يوضع الرجل بينهما ليجلد، وقد نقله الزبيدى عن لسان العرب ، راجع تاج العروس ج ١ ص ١١٢

٤ ــ جاء فى كتاب الأب لامنس : الاسلام : عقائده ونظمه ، الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٤١م ص١٠٣ أن اجماع المسلمين على كتب الحديث الستة : البخارى ومسلم والترمذى وأبى داود وابن ماجة والنسائى ، لم ينعقد قبل القرن السابع الهجرى . وأنه على الرغم من تقدير المسلمين لمسند الامام أحمد ، فانه لم يدرج مع الكتب الستة ، بسبب ما يشتمل عليه من أحاديث التشــبيه ، ولكن جولدتسيهر ذهب فى مقــاله : مواد جديدة فى مصنفات الحديث عند المسلمين الى أن السبب فى عدم رواج الاشتغال بالمسند بين المسلمين يرجع الى ضخامته . ويرى كاتب هــذه

السطور أن من هذه العوائق ترتيب المسند على نظام المسانيد وليس على نظام المصنفات ، ويلاحظ أن الكتب الستة كلها مرتبة على نظام المصنفات

٥ — فى احصاء أحاديث المسند ، نرى أن جولدتسيهر قدرها فى مقاله السابق الذكر بنحو ثلاثين ألفا من الأحاديث . ولكنه عاد فأنقص هذا التقدير فى مادة أحمد التى كتبها فى دائرة المعارف الاسلامية سنة ١٩١٣م اذ جعله يتراوح بين ثمانية وعشرين ألفا وتسعة وعشرين ألفا . وتابعه فى ذلك المستشرق الايطالى كارلو ألفونسو نالينو ، فى مادة أحمد فى دائرة المعارف الايطالية ج ٢ ص ٢٩ . ومن تقديرات القدامى : ابن النديم الذى ذهب الى أن المسند يشتمل على نيف وأربعين ألفا (الفهرست طبعة التجارية ص ٣٢٠) وابن خلدون فى مقدمته قدر أحاديث المسند بخمسين ألفا (المقدمة طبعة المهدى سنة ١٩٣٠ م ص ٣٧٢) . وهذه كلها تقديرات تقريبية . ولكن الأستاذ أحمد محمد شاكر يقوم بترقيم أحاديث المسند واحصائها فى الطبعة الحديثة التى يخرجها للمسند

٦ — جاء فى كتاب الأب لامنس : الاسلام عقائده ونظمه ص ١١٣ أنه لم يعترف بالحنابلة كمدرسة فقهية الا ابتداء من القرن السادس الهجرى ، وأنه قبل هذا التاريخ كان الحنابلة يعدون محدّثين ، وعنده أن مؤسس المذهب الحنبلى لم يكن يرغب فى غير الحديث والآثار ، وذكر أن المدرسة الفقهية الحنبلية ضيقة المنحى ، وأنها تتجه اتجاها قويا نحو النضال والكفاح . وقال فى ص ١١٤ انها تمثل الناحية اليمينية المتطرفة للسنة ، اذ تتقيد الحنبلية بلفظ الكتاب والسنة على طريقة الظاهرية ، ولكنها تعد أقل تطرفا من الظاهرية ، وأنه ليس بين المذاهب السنية ما هو أشد من الحنبلية عداء للصوفية ، وعنده أن الحنبلية تضيق من نطاق الاجماع والقياس ، وتعارض المذهب الاعتقادى المتوسط بين المعتزلة وأهل السنة ، وهو مذهب الأشعرى . وأشار الى أن الحنبلية تنكر استخدام الرأى الذى لايستند الى أحاديث النبى عليه السلام ، أو

مرويات الصحابة. وذكر أنه كان للحنبلية أتباع عديدون فى الشام والعراق، ولكن قيام الدولة السلجوقية قلل من عددهم ، اذ عملت هذه الدولة على نشر الفقه الحنفى . هذا وقد تجدد نشاط الحنبلية فى القرن الثامن الهجرى على يد ابن تيمية وتلاميذه نذكر منهم ابن قيم الجوزية. وذهب لامنس الى أن قيام الدولة العثمانية واستيلاءها على الشام والعراق فى القرن العاشر الهجرى ، أضعف الحنبلية اذ أتم العثمانيون ما بدأ به السلاجقة من نشر فقه الأحناف . ولكنه أشار الى أن الحنبلية عادت اليها قوتها فى القرن الثانى عشر الهجرى بقيام الحركة الوهابية فى قلب الجزيرة العربية ، وأوضح أنها القوة التى تعارض كل بدعة مستحدثة فى الاسلام

هذا وقد شرح لاوست فى كتابه عن ابن تيمية هذه الموضوعات تفصيلا

٧ ــ وجاء فى كتاب تاريخ العرب الأدبى بقلم نيكلسون ، الطبعة الثانية ، كمبردج سنة ١٩٣٠ م ص٣٦٩ أن شتينر يرى أن بدعة الاعتزال نشأت فى صميم الفكر الاسلامى دون أن تتأثر بأى مؤثر من الفكر الأجنبى ، ولكن كيفما كان الأمر ، فان تطورها فى المراحل التالية تأثر الى حد كبير بالفلسفة اليونانية . وقال نيكلسون بأنه لاحاجة به لأن يتابع أبحاث المعتزلة المستغلقة مثل تلك التى قام بها ابو الهذيل العلاف ، والنظّام ، وبشر بن المعتمر ، ومدرستا البصرة وبغداد الفلسفيتين اللتين اندثرت فيهما الحركة الاعتزالية . وذهب الى أن المعتزلة حاولوا عبثا أن يُغَلّبوا فكرة العدل الاغريقية على النظرية الاسلامية فى المشيئة الالهية . ولكن لم تسفر محاولاتهم فى تأويل الآيات التى قد يفهم منها التشبيه عن أثر فى المؤمنين الذين كانوا يتوقون الى رؤية البارى فى الآخرة . وكانت الثمرة التى انتهى اليها المعتزلة ضئيلة يسيرة . فان ما استخدموه من أسلحة المنطق والجدل، قد حاربهم بها خصومهم ، وتغلبوا بها عليهم ، وبذا أنشئت على أطلال الحركة العقلية ، العقائد الكلامية . وعنده أن مبادىء المعتزلة قد هيأت مع ذلك الفكر الاسلامى ، بطريقة غير مباشرة ، الى حركات أخرى من الفكر الحر ، مثل حركة اخوان

الصفا التى حاولت أن توفق بين النقل والعقل ، وأن تنشىء مذهبا عاما لفلسفة دينية

٨ ـ وجاء أيضا فى كتاب نيكلسون الآنف الذكر ص ٣٧٩ أن المستشرق شپيتا يرى فى انتصار الأشعرى ثورة الروح القومى العربى فى وجه الأفكار الأجنبية الدخيلة التى كانت تهدد بالتغلب على الاسلام ، ويرى نيكلسون أن هذه النظرية لا تتلاءم مع تلك الحقيقة ، وهى أن أغلب أعلام الأشعرية كانوا من الفرس ، وعنده أن ڤون كريمر كان أقرب الى الصواب حين قال : ان انتصار الأشعرى لا يعدو أن يكون فوزا دينيا فحسب ، ولكنه كان أيضا كما قال المستشرق شرينر انتصارا للفكر والنظر على الايمان المبنى على التسليم والتقليد . وعند نيكلسون أن هذا النصر لم يتحقق فى سرعة أو سهولة . فان كثيرا من أهل السنة كانوا يبغضون العقائد الكلامية الجديدة بغضا لا يقل عن بغضهم للمنهج العقلى السابق الذى سار عليه المعتزلة . ولذا فانا لاندهش حين نقرأ فى تاريخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٥٦ هـ أن عميد الملك الكندرى وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى أضاف الأشاعرة للروافض عندما أجاز له مولاه سب الروافض على منابر خراسان ، مما حمل فقهاء الأشاعرة من أمثال أبى القاسم القشيرى وأبى المعالى الجوينى على مغادرة هذه البلاد ، وعنده أنه لم يكتب للأشعرية الظفر الا على يد الوزير نظام الملك عندما أنشأ مدارسه النظامية فى مختلف البلاد الاسلامية ومنها بغداد

٩ ـ وذكر جولدتسيهر فى مقاله : مواد جديدة فى مصنفات الحديث عند المسلمين أن الامام أحمد أخرج فى مسنده أحاديث يلاحظ أن فى اسنادها أسماء مبهمة ، وخاصة فى الشق الأوسط منها ، وأنه يجرى كثير منها هكذا : عن فلان (ج ٤ من المسند ص ١٦٨) وعن رجل (ج ٣ ص ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٤ ، ٤٤١) ، وعن رجل من أصحاب بدر (ج ٣ ص ٤٧٤) ، وعن رجل من جهينة (ج ٣ ص ٤٧١) ، وعن

رجل من قومه (ج ٤ ص ٦٣) ، وعن رجل لم يُسَمّ (ج ٤ ص٦٥، ج ٥ ص ٩٥،) ، وعن بعض أصحاب النبى (ج ٤ ص ٣٦) ، وعن مولى لرسول الله (ج ٤ ص ٢٣٧) ، وعن ثلاثين من أصحاب النبى (ج ٤ ص ٣٧) وعن خادم النبى (ج ٣ ص ٥٠٠) وعن عريف من عرفاء قريش (ج ٣ ص ٤١٦) . ويرى جولدتسيهر أن الابهام قد شمل النساء ، ففى بعض الأسانيد عن عجوز من الأنصار (ج٤ص٥٥) ، وعن عجوز من بنى فهير (ج ٥ ص ٢٧٠) ، وعن امرأة (ج٤ ص٦٨، ص ٧٠) ، وأنه فى المجلد الخامس من ص ٤٠٩ الى ص ٤١٢ مجموعة كاملة من هذه المبهمات . ولقد ينصب الابهام أحيانا على التالى فى سلسلة السند ، كأن يقال : حدثنا رجل عن رجل ، أو رجل عن عمه (ج ٤ ص ٦١ ، ٦٢) . ولم تَخْلُ الأسماء المبهمة من الترضية أو من التقدير على صورة ما ، فكثيرا ما نجد ذكر « صحابة » قد شرفهم الرسول باخبارهم ، أو عن رجل رضى الله عنه

١٠ ــ ويمكن أن أضيف الى الأمثلة التى ساقها جولدتسيهر ما يلى : عن رجل من أهل المدينة (ج ٣ ص ٤٢٤) ، وعن رجل من بكر بن وائل (ج ٣ ص ٤٧٤) ، وعن رجل رمق النبى (ج ٤ ص ٦٢) ، وعن رجل يتَمَجَّع لبنا بتمر (ج ٣ ص ٤٧٤) ، وعن رجل من بنى يربوع رضى الله عنه (ج ٤ ص ٦٤) ، وحديث رجال يتحدثون رضى الله تعالى عنهم (الموضع السابق) ، وحديث رجل مُقْعَد رضى الله عنه (ج ٤ ص ٦٤) ، وألاحظ أن المجاهيل فى هذه الأسانيد لايتعدون عصر الصحابة

١١ ــ مما يؤيد النص الذى ذكرته فى المقدمة نقلا عن محاضرات الراغب الأصبهانى ما ذكره امام الحرمين الجوينى فى كتابه الارشاد الى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد فى ص١٠٠ من أن « المعتزلة والخوارج والامامية ومنعداهم من أهلالأهواء ذهبوا الى أنكلام البارى ، تعالىالله عن قول الزائغين ، حادث مفتتح الوجود . وصار صائرون من هؤلاء

الى الامتناع عن تسميته مخلوقا مع القطع بحدثه ، لما فى لفظ المخلوق من ايهام الخلق ، اذ الكلام المخلوق هو الذى يبديه المتكلم تخرصا من غير أصل »

١٢ ـ جاء فى سيرة مغلطاى المتوفى سنة ٧٦٢ هـ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ ص ١٠٥ ما يؤيد سعة علم المأمون حيث قال : « كان المأمون اماما محدثا نحويا لغويا فلسفيا » . وقد نقل هذا الديار بكرى المتوفى بعيد سنة ٩٨٣ هـ فى كتابه الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٣٤ طبعة القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ . وجاء أيضا فى سيرة مغلطاى ما يؤكد احاطة المأمون بأسرار رعيته ودقائق أخبارهم ومكنون خواطرهم ، اذ قال : « وجعل برسم جَلْب أخبار بغداد اليه ألف عجوز وسبعمائة عجوز ، فما كان يَخْفى عليه شيء من أمر الناس ظاهرا وباطنا ، وكان لاينام حتى يقف على جميعها ، وكان أمره نافذا فى افريقية الى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند »

وخير ما أختم به هذه الملاحظات ما ذكره فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى كتابه : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م ص ٦٦ من تنزيه الامام أحمد وأصحابه عن التشبيه ، اذ قال : « اعلم أن جماعة المعتزلة ينسبون التشبيه الى الامام أحمد بن حنبل ، واسحق بن راهويه ، ويحيى بن معين . وهذا خطأ . فانهم منزهون فى اعتقادهم عن التشبيه والتعطيل ، لكنهم كانوا لايتكلمون فى المتشابهات ، بل كانوا يقولون : آمنا وصدقنا ، مع أنهم كانوا يجزمون بأن الله تعالى ، لا شبيه له ، وليس كمثله شيء . ومعلوم أن هذا الاعتقاد بعيد جدا عن التشبيه »

***

وبعد ، فهذا ما جرى به القلم ، وسنح به الخاطر ، وجاد به الزمن . وهو جهد يسير ، لست أزعم أنى أشرفت به على الغاية ، أو بلغت به درجة تمامه واكتماله

انما هى ساعات ، صحبت فيها الامام أحمد ، عكفت فيها على سيرته ، رغبة فى البحث ، وقصدا الى العلم ، ورجاء لفائدة القارىء

والله أسأل أن ينفع به ، كما نفع بهذا الامام من قبل . انه أكرم مسئول ، وخير مجيب

عبد العزيز عبد الحق

فهرس

صفحة

الفصل الاول
نشاة احمد بن حنبل وطلبه للعلم

الفصل الثاني
تاريخ المحنة

صفحة

الفصل الثالث
احمد بن حنبل والمتوكل

صفحة

الفصل الرابع
صفة احمد بن حنبل

الفصل الخامس
آراء احمد بن حنبل


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET